

أثورة الساعات

البحث عن الذات قصة حياتي



أثورة الساعات

البحث عن الذات

قصة حياتي

أنا أثورة الساعات فلاح نشأ وترى على ضفاف النيل حيث شهد
الإيمان مولد الإيمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان .
إياها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ . هكذا شاء القدر

فقد واكت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . ولذلك فانا أروي القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية
مصر العربية . بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
منذ بدايتها إلى الآن .

وحياتي مثل قصة حياة أي منا . ليست في الواقع إلا رحلة
نحت عن الذات .

فكل خطوة حطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسى منذ الطفولة . . . والآن وأنا أنظر
إلى ثأوريما حياتي وحياة مصر غند أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . . . هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسى وقد التقت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن في قريتي ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت حياً في العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه بنفسه .

أثورة الساعات

الطبعة الأولى إبريل ١٩٧٨

الطبعة الثانية أكتوبر ١٩٧٨

الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٩

هذا الكتاب نشر باللغات التالية :

الإنجليزية - الألمانية - الفرنسية - البرتغالية - السويدية - الهولندية - الإيطالية -
الروسية - العبرية - الفنلندية - الدانماركية - الألمانية - اليابانية .
كما نشرت أجزاء وفصول من الكتاب في الصحف والمجلات التالية :

الأهرام

مجلة التايم الأمريكية

باري ماتش الفرنسية

بانوراما الإيطالية

لاريوبليكا الإيطالية

الإير دهر البريطانية

نادي الكتاب (كتاب الشهر) بأمريكا

بوكت ديجست بأمريكا

مجلة دير شبيجل الألمانية

Time Magazine

Paris Match

Panorama

La Republica

The Observer

Book Club

Book Digest

Der Spiegel

أنوار السادات

البحث عن الذات قصة حياتي

المكتبة المصرية الحديثة

الناشر : المكتبة المصرية الحديثة
٢ شارع شريف - حي الخيام بالقاهرة - تليفون ٢٥٨١٢٧
الشارع : شوبان رابعا - مكتبة شريفية - تليفون ٢٢٩٠٠٢

طبعة خاصة

مناسبة العيد التاسع لثورة ١٥ مايو وقد ساهم السيد الرئيس بحاجب من
التكلفة الفعلية بالإضافة إلى تنازله عن حقوق التأليف لهذه الطبعة ،،

من أجل السلام

جميع حقوق التأليف المادية المترتبة على نشر هذا الكتاب أو استعمال أجزاء منه
محسنة لتسوية وتطوير قرية ميت أبو الكوم .

الناشر : أحمد يحيى

٢ ش شريف - محارة القواء - القاهرة

الهاتف ٧٤٤١٢٧ - ٨٠١٠٨٠

البحث عن الذات قصة حياتي

أنا أنور السادات فلاح نشأ وترى على ضفاف النيل حيث شهد
الإنسان مولد الزمان - أهدى هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان -
إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ
١٩١٨ - هكذا شاء القدر .

فقد واكبت أحداث حياتي الأحداث التي عاشتها مصر في تلك
الفترة من تاريخها . ولذلك فأنا أروي القصة كاملة لا أكريس للجمهورية
مصر العربية . بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً
منذ بدايتي إلى الآن .
وحياتي . . . مثل قصة حياة أي منا . ليست في الواقع إلا رحلة
بحث عن الذات .

فكل خطوة خطوتها عبر السنين إنما كانت وما زالت من أجل مصر
والحق والحرية والسلام .

هذه هي الصورة التي رسمتها لنفسى منذ الطفولة . . . والآن وأنا أنظر
إلى بانوراما حياتي وحياة مصر تمتد أمام عيني بكل ما شهدته وما صاحبها
من أحاسيس . هل أستطيع أن أرى صورتي لنفسى وقد التفت بصورة
مصر كما كنت أحلم بها من فوق سطح القرن في قرينى ميت أبو الكوم
وأنا ما زلت صبياً في العاشرة من عمره ؟

وهل يمكن أن أقول إن هذه الصورة قد تحققت أو على الأقل أصبح
في الإمكان التعرف عليها ؟

هذا ما أتركه للقارئ ليراه .

السادات

من ميت أبو الكوم إلى سجن الأجانب

العمل وصل . . يعلن المنادى في أزقة وساحات القرية . . ومهرج جدتي وأنا
أمسك بيدها وأسير إلى جوارها نحو التربة حيث رست مركب العمل القادمة إلى
(كفر زرقان) المجاورة لنا . .

ليس الطريق ضيقاً . . ولكن كل خطوة نخطوها تملأ قلبي فرحاً وفخاراً . .
فالرجال على طول الطريق تنفث تحية بلحدي - هذه المرأة التي لا تعرف
القراءة والكتابة ومع ذلك كنت أرى الجميع يلجأون إليها لتحل مشاكلهم
ولتشفيهم مما قد يصيبهم من أمراض بصرية وأغشاب الطب العربي القديم التي
لم يكن في قريتنا أو في القرى المجاورة من يتقنها مثلها . .

ونشترى زلعة العسل الأسود ونعود إلى دارنا . . أسير خلف جدتي صبيها
أسمر ضئيل الجسم حافي القدمين يرتدى جلباباً تحته قميص أبيض من البتة . .
لا تفارق عينيه زلعة العسل . . ذلك الكنز الذي استطعنا الحصول عليه أخيراً . .
كم كان شياً عندما نخلطه باللبن الرايب (الزبادي) . .

وكم كان يسعدني كما لا يسعدني أي شيء آخر . .

كل شيء في القرية كان في الحقيقة مصدر سعادة لي لا تماثلها سعادة
أخرى . .

عندما تخرج لشترى الجزر لا من بائع الجزر . . بل من الأرض نفسها . .
عندما أضع بصلة في محمي القرن وهم يخبزون العيش ثم أعود آخر النهار فأخرج
البصلة وأكلها . .

وحينما كنت ألعب مع أقراني في القرية في ليالي القمر أو نسهر على المصطبة
نحن والطبيعة من حولنا والسماء فوقنا لا فاصل بيننا . .

وشروق الشمس .. عندما كنت أسير مع عشرات الصبية والفنية والرجال أصعب
الندوب والبهائم في موكب خروج الفلاحين للعمل وسط خضرة لا يحدها البصر
وبسطة الأرض التي تبدو كأن لا أرض بعدها .

كل شيء كان يعدنى في ميث أبو الكوم قريبي الوديعة القابعة في أحضان
دلتا النيل .. حتى برودة الماء في الشتاء عندما كنت أخرج في الفجر لأن التربة
قد امتلأت بالمياه ولكن لفترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً هي (التوبة) أو نصيب
قريتنا من الري .. ولذلك كان الإسراع بالعمل والمشاركة فيه أمراً ضرورياً
فنحن كل يوم في أرض واحد منا نرويها بطنبوره أو بطنبور غيره لا يهم ..
المهم أنه بانتهاء التوبة تكون أرض القرية كلها قد ارتوت ..

هذا العمل الجماعي مع الغير ومن أجل الغير دون أن أنتظر منه ربحاً أو
فائدة لي جعلني أشعر أنني لا أنتمي إلى أسرتي الصغيرة في دارنا أو أسرتي الكبيرة
في قريتنا .. بل إلى شيء أكبر وأهم هو الأرض ..

ولذلك ففي رحلة العودة مع الغروب والدخان ينبعث من البيوت مؤذناً
بعشاء شهي ينتهي بعنده اليوم في القرية .. والهدوء يخيم على الجميع والسلام
يعمر قلوبنا .. كنت أتأمل الشجر والزرع وأحس برباط خفي من الحب
والصداقة يربطني بكل ما حولي ..

فهذه الشجرة الوارقة من صنع الله .. أراد لها أن تكون فكانت .. وهذا الزرع
اليناع الخضرة قد زرعنا بجاته بأيدينا ولكن لولا إرادة الله ما كان .. وهذه
الأرض التي أمشي فوقها .. ومياه التربة تنساب بين ضفتيها .. كل شيء حولي
من صنع إله كبير يرعاه ويتولاه .. وكذلك أنا ..

الشجرة والحبة والثمرة كلهن إذن زميلاتي في الكون .. ألسنا جميعاً من
نبت الأرض وبدونها لا نكون ؟

والأرض قوية صلبة .. وكل من ينتهي إليها لا بد أن يكون مثلها .. وإذا
كانت هذه الخواطر تمر برأسي الصغير كنت أستعيد قول جدتي :
« لا شيء يساوي أنك ابن الأرض .. فالأرض هي الخلود لأن الله أودعها
كل مره .. »

كم كنت أحب هذه السيدة .. كانت شخصية في غاية القوة بالإضافة إلى
الحكمة .. حكمة الفطرة .. والتجربة .. والحياة .. وطوال فترة نشأتي
في القرية كانت هي رأس العائلة ، فقد كان والدي يعمل مع الجيش في
السودان .. وكانت هي ترعانا وتخرج وراء الأنفار كأي رجل تتمهد الفدانين
والنصف التي اقتناها والدي ..

أم الأفندي .. هكذا كانوا يطلقون عليها في القرية .. ولهذا قصة ..

كان منتهي أمل القروى عندما أن يدخل الأزهر .. ولكن جدي الذي كان
يعرف الكتابة والقراءة وهو أمر نادر في وقته .. أراد أن يشق لأبي طريقاً آخر ..
فأدخله التعليم العام حيث حصل على الشهادة الابتدائية .. وكانت في ذلك الوقت
تعتبر مؤهلاً هاماً .. فالاحتلال البريطاني كان في أول مراحله .. وجميع المواد
كانت تدرس باللغة الإنجليزية ..

كان والدي أول من حصل على الشهادة الابتدائية في قريتنا .. ولذلك رغم
أن بقريتنا الآن مهندسين وأطباء وأساتذة جامعات إلا أنه عندما يأتي ذكر الأفندي
وأولاد الأفندي يعرف كل إنسان أنه والدي وأبنائه ..

ويبدو أن جدتي أرادت لي أن أسير في نفس الطريق الذي سار فيه والدي فأدخلني
كتاب القرية حيث تعلمت الكتابة والقراءة وحفظت القرآن ثم نقلتني
إلى مدرسة الأقباط بطوخ حيث يوجد دير قديم مشهور مطرانه هو نفس
مطران دير وادي النطرون ..

لم تكن المدرسة تبعد عن قريتنا بأكثر من كيلو واحد ورغم أنني لم أستم
بها طويلاً إلا أنني ما زلت أذكر بوضوح مسيو (مينسا) المدرس الذي كان
يعلمنا كل شيء والذي كنا نخشاه ونحبه في نفس الوقت .. وما زالت ترن في
أذني دقات الجرس الكبير تعلن بدء اليوم الدراسي فيدق معها قلبي رهبة
واحتراماً للعلم ..

أما كتاب القرية فما زلت أراه بعين الخيال وكأني فارقه بالأمس ..
العريف الطيب الشيخ عبد الحميد رحمه الله الذي شيعت جنازته منذ فترة

غير بعيدة . . . وكنت أدين له بالكثير فهو أول من فتح لي أبواب المعرفة والإيمان . . .

وأقرا في الكتاب وأنا أجلس بينهم على الأرض أحمل اللوح (الصفحة) والقلم البسط . . . كل عدتي في تلقى العلم . . . وجيب جلابيتي الفضفاض الذي كنت أحشوه في الصباح بالبحن الناشف المخلوط بكسر الخبز التمه حفة بعد حفة أثناء الدروس وما بينها . . .

كان إقبالي على العلم يتزايد يوماً بعد يوم ولكنه لم يشغلني يوماً عن القرية . . . كانت حياتي بها بهجة تتلوها بهجة . . . فكل يوم يأتي بشيء جديد . . . موسم الزرع . . . موسم الري . . . موسم حصاد القمح . . . الاحتفال بموسم الحصاد . . . وأفراح القرية وصوائف الكنافة التي كنا نلتهمها في نهم . . . وموسم حصاد القطن الذي كان يأتي دائماً مع البلح . . . وكيف كنت أعترف القطن وأضعه في عبي ثم أهرع إلى بائعة البلح وأعطيها ما فتعطيني ما يقابله من البلح .

وعندما كنت آخذ البهايم إلى التربة لشرب . . . أو أجلس على النورج لدرس القمح . . . أو أشارك مع غيري من الصبية في جمع القطن . . . كنت أحس في كل مرة أنني أفعل هذا لأول مرة . . . فقد كانت حياتي بالقرية اكتشافات تعقبها اكتشافات . . . وكأنها ساقية تدور على بحر كل ما به دائماً جديد .

هذا الإحساس بأن كل شيء أفعله أو أراه جديد لم يفارقني أبداً طوال فترة نشأتي بالقرية . . . وكان مصدراً لا ينضب من مصادر سعادتي .

حتى القصص التي كانت تحكيها لي أي أحياناً وجدني أحياناً أخرى كل ليلة . . . كنت في كل مرة أستمع بها وكأنها جديدة وكأنني لم أسمعها من قبل مع أنها هي نفس القصص لم تتغير .

ولم تكن هذه القصص حكايات الشاطر أو بطولات أبو زيد الهلالي . . . بل كانت أقرب إلينا والصدق بحياتنا من تلك الأساطير البعيدة .

كانت إحدى هذه القصص تروي كيف دس الإنجليز السم لمصطفى كامل حتى لا يكمل كفاحه ضدهم . . . لم أكن أعرف في ذلك الوقت من هو مصطفى كامل

وأنه مات فعلاً في ريعان شبابه ولكنني عرفت لأول مرة أن هناك قوماً اسمهم الإنجليز . . . وأنهم ليسوا منا . . . وأنهم أشرار لأنهم يضعون السم للناس .

وكانت جدتي تحكي لنا أيضاً مواك أدهم الشرفاوي وبطلانته وكفاحه ودهائه في محاربة الإنجليز والسلطة .

ولكن لعل مما ترك في نفسي أثراً عميقاً مواك زهران بطل دنشواي . . . وأنا أستمع إليه من أي وقد اعتليت سطح القرن المأهول وإن جاني الأرناب وإخوتي الصغار وقد استغرقوا جميعاً في أنوهم أما أنا فكنت بين اليقظة والنائم .

كان هذا الموال يستهويني كل مرة أستمع إليه . . . فدنشواي قرية لا تبعد عن قريتنا بأكثر من خمسة كيلو مترات . . . والموال يحكي كيف أن عساكر الإنجليز عندما شاهدوا أبراج الحمام في دنشواي أطلقوا عليها الرصاص .

وطاشت طلقة أحرقت جرحاً من أجوان القمح . . . وتجمع الفلاحون فأطلق عليهم الرصاص أحد عساكر الإنجليز وجري . . . جرى الفلاحون وراءه وأمسكوا به وحصلت معركة مات فيها العسكري الإنجليزى . . . وفي الحال قبضوا على الأهالي . . . وشكلت محكمة عسكرية في القرية . . . وعلقت المشاقق قبل صدور الأحكام التي قضت بجلد عدد من الفلاحين وشنق عدد آخر .

وكان زهران بطل المعركة التي قامت مع الإنجليز وكان أول من حكموا بشنقه . . . ويحكي الموال عن شجاعة زهران وصموده في المعركة وكيف أنه تقدم من المشقة مرفوع الرأس فخوراً مزهواً بنفسه لأنه استطاع أن يتصدى للمعتدين وأن يقتل أحدهم .

كنت أستمع إلى الموال ليلة بعد ليلة وأنا بين النوم واليقظة - كما قلت - ولعل هذا ما جعل عقلي الباطن يتخزن القصة . . . وأطلق العنان لخيالي فكم رأيت زهران وعشت بطولته في الصحو وفي المنام . . . وكم تخيلت لو كنت زهران .

وهكذا أدركت من فوق سطح القرن في دارنا بالقرية أن هناك خطأ ما في حياتنا . . . وقبل أن أرى الإنجليز . . . وأنا مازلت داخل قريتي . . . تعلمت أن أكره المعتدين الذين قتلوا وجلدوا أهلنا .

صدورنا من إحساس بالخوف والرهبة . . فجرد الإقتراب من أى شيء يخص الملك كان معناه الهلاك لى ولعائلى ولأى إنسان .

لم أكن أعرف فى ذلك الوقت الحق أننى سأشارك وزملاء لى فى تغيير وجه التاريخ . . وأنى سوف أجتاز يوماً ما هذا السور الرهيب . . وأجلس فى نفس المقعد الذى كان يجلس عليه الملك فؤاد ومن بعده فاروق . .

قضيت بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية فترة التحضيرى وسنة أولى وثانية ابتدائى . . وأذكر أنى فى تلك المرحلة كنت متفوقاً فى التعليم فكنت أتناوب الأولوية على الفصل مع الدكتور حسن الشريف وزير التأمينات الأسبق رحمه الله . .

بعد السنة الثانية انتقلت إلى مدرسة السلطان حسين فى أول مصر الجديدة حيث أخذت الشهادة الابتدائية . . وبعدها التحقت أنا وأخى الأكبر طلعت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية . .

كان ذلك فى سنة ١٩٣٠ . . وكان القانون يقضى بأن يدخل أحدنا مجاناً والآخر بمصاريف ولكن رفض طلبنا . . فاضطر والدى إلى دفع المصاريف لى ولأخى . . كان القسط الأول ستة عشر جنيهاً . . هى كل مرتب والدى . . أعطاه لى فدفعته للمدرسة . . ولما حل ميعاد القسط الثانى أخذه أخى طلعت من والدى ولكن بدلاً من أن يدفعه للمدرسة هرب به إلى حيث لا نعرف واتفقه إلى آخره ثم عاد ليعلن أنه لا يرغب الاستمرار فى التعليم . .

ربما كانت هذه مشيئة القدر . . فبدون إحجام أخى عن التعليم كيف كان سيتسنى لوالدى بدخله المحدود الإنفاق على تعليمنا نحن الإثنين . . أغلب الظن أنه كان سيضطر إلى إيقاف تعليمى . . وخاصة أن طلعت هو أخى الأكبر . .

فى المدرسة الثانوية تفتحت عينائى لأول مرة على أهل المدينة وعرفت معنى الطبقة والفوارق . . فى المدرسة كان معى ابن وزير الحرية وابن وكيل وزارة المعارف . . وكان كل منهما ينتقل إلى المدرسة ويعود منها إلى البيت فى سيارة فاخرة (كونييل) كما كنا نسميها فى القرية . . منظر مثير

ولكن لم يكن هذا كل ما تعلمته فى ميت أبو الكوم فقد تعلمت ما بقى بعد ذلك معى طول العمر وهو أننى أينما ذهبت وفى أى مكان كنت سوف أعرف دائماً أين أنا . . لن أضل الطريق أبداً . . لأنى أعرف أن جذورى هناك حبة متأصلة فى أرض قريبتى التى انتهت كما تثبت الزرع والشجر .

هكذا قضيت السنوات الأولى من حياتى فى قريبتى الوادعة إلى أن كان يوم وجدت نفسى فيه أنقل فجأة مع أسرتى إلى القاهرة لأن والدى - كما قالوا لى - قد عاد من السودان .

كم كان عمرى حينذاك ؟ لم أكن أعرف . . عرفت فقط بعد ذلك أن أحداث حياتى كانت تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ .

هكذا - كما يبدو . . . شاء القدر .

٢

جئت إلى القاهرة فى سنة ١٩٢٥ فى أعقاب مقتل السردار الإنجليزي سيرلى سناك قائد الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤ . . فقد كان من أهم العقوبات التى وقعها إنجلترا على مصر أن يعود الجيش المصرى من السودان . . فعاد وعاد معه والدى . . .

كنا نسكن فى بيت صغير بكويرى القبة وكان على أن أكمل تعليمى العام الذى بدأته بمدرسة طوخ فاختر لى والدى مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية لأنها كانت مدرسة أهلية ومصاريفها تناسب دخله . . .

وبالفعل أخذت أوراقى وذهبت إلى المدرسة للالتحق بها . . عندئذ فقط ومن واقع الأوراق التى تقدمت بها عرفت أنى ولدت فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ .

كانت المدرسة فى الزيتون وكنت أذهب إليها وأعود كل يوم سيراً على الأقدام . وفى الطريق كنت أمر بسرارى القبة . . أحد قصور الملك فؤاد فى ذلك الوقت .

ومازلت أذكر كيف كنت وبعض أقرانى فى المدرسة نلتكاً حول سور حديقة السراى فى الربيع لتتنطف بعض ثمار الشمس . . رغم ما كان يتلجج فى

للغاية ولكنه لم يترك في نفسي أى أثر للغيرة أو الحقد .. وطبعاً زملائى في الفصل كانت ملاسهم أفضل من ملاسبى بكثير ولكن هذا لم يصيبى بأى عقدة .. كان لى أصدقاء كثيرون من أولاد الدوات وكانوا يعيشون في بيوت فخمة لم أرها من قبل ولكنى لا أذكر أنى تطلعت يوماً إلى ما هم فيه .. إطلاقاً .. فى البلد عندنا دارنا وبها نحن والجميع يعرفون أننى ابن الأفندى - وقبل كل شئ - عندنا الأرض التى انتهى إليها .. صلبة .. دائمة .. لا تزول .. تماماً مثل قبة القرية التى لا يعرفها أهل المدينة ..

في الحارة التى كنا نساكن فيها بالقاهرة نزلت مرة لأشترى علبه كبريت من البقال .. قلت « أنا عاوز علبه كسفرى » .. اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لى وفجأة انفجر الزبائن بالضحك .. اندهشت فيما يضحكون ؟ قالوا لى « ضرورى تقول كبريت .. صمت على « كسفرى » .. واستمرت سخرتهم منى .. وفى مواجهة هذه السخرية جافى شعور باننى أقوى منهم .. فمن هم لكى يسخروا منى ؟

إن أفضلهم فى نظرهم أغناهم مالا وأكثرهم حباً ونسباً .. أما نحن فى القرية فلا نغير مثل هذه الأشياء أى اهتمام .. الرجل الذى على خلق عندنا قيمة علياً في ذاته رغم ما قد يكون عليه من قصر مدقع .. وفى القرية عندنا شئ اسمه العيب .. ونحن ينتهى بعضنا إلى البعض بالتأخى والتعاون والحب .. أما هم فى المدينة فيتمسكون إلى ما هم وسلطانهم وبيوتهم الكبيرة الفاخرة وكلها عرض زائل فاقصد القيمة ..

وهكذا كانت مجموعة القيم التى نشأت عليها فى القرية ولم أجد مثلاً فى المدينة سداً لى فى تلك المرحلة المبكرة من حياتى فقد عمقت إحساسى بالتفوق الداخلى الذى لم يبارقنى لحظة منذ أن نشأت والذى هو فى الحقيقة - كما أدركت بمرور الأيام - قوة داخلية لا تستند إلى أى مصدر مادى .. بل بالعكس .. فربما كان هذا الشعور بالتفوق الداخلى أقوى ما يكون عندما تنعدم أو تكاد المصادر المادية الخارجية ..

في مرحلة التعليم الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر فقد كان والدى يدخله

المحدود يعول أسرة مكونة من ثلاثة عشر ولداً وبناتاً .. ولذلك فرغم أننا كنا نعيش فى القاهرة كان يمتز لنا فرق كبير فيه العيش .. إذ أن شراء الخبز من السوق كما يفعل أهل المدينة .. كان أمراً لا طاقة لنا به ..

وكان مصروف بندى ملبين فى اليوم وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشتري كوباً من الشاي بالبن وشرابه وأنا أحس أنى أسعد إنسان فى العالم .. فى حين كنت أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنواع الشكولاته والحلوى من (كاتنين) المدرسة .. وكان لدى الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروى له فهو دائماً أتق متجدد .. أما أنا فكانت عندى حلة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكنى لا أملك تغييرها أو حتى تحديدها ..

وحين أتذكر هذه الأشياء الآن لا أذكر أنها يوماً جعلتني أحس أنى أقل من زملائى فى شئ بل وفى تلك السن المبكرة لم تكن على الإطلاق مدعاة إلى أن أقارن بينى وبينهم ..

أذكر فقط أنى عندما تقدمت للحصول على شهادة إتمام الدراسة الثانوية كان علينا أن نرفق بالاستمارة صورة شخصية .. وكان لهذه الصورة أهمية خاصة فى نظر أى طالب .. فشهادة التوجيهية هى بطبيعة الحال نقطة تحول فى حياته .. ولذلك ذهبت إلى والدى وطلبت منه حلة جديدة أتصور بها هذه الصورة التاريخية .. وأدرك والدى أهمية مطلبى ولكنه قال .. « أمهلنى يوماً أو اثنين لأدبر المبلغ » .. وفى اليوم الثالث جاء إلى وهو باسم الوجه وقال « وجدت الحل .. اذهب إلى وكالة البيع .. هناك الدكاكين كلها متشابهة ولكن هذا هو اسم صاحب الدكان الذى أريدك أن تذهب إليه .. » وأعطانى مائة وخمسين قرشاً ..

لم يكن حجم الدكان يزيد على متر ونصف فى مترين .. وفى واجهة الدكان طاولة بطوله تقريباً يقف وراءها صاحب المحل وخلفه أبواب القماش وقد رصت على عدة رفوف .. وفى الزاوية ماكينه خياطة .. انتحيت القماش وتناولته منى الرجل وأعمل فيه المقص ثم جلس إلى ماكينته .. وبعد ساعة ونصف ناولتني حلتى الجديدة ..

لم تكن بالطبع لتقارن بما أعده زملائي في المدرسة لهذه المناسبة ولكنني كنت سعيداً بها كل السعادة . . . فهي تنى بالغرض ولا يهمهم على الإطلاق إذا كانت خشة الملمس أو رخيصة المظهر . . . ثم بها أو بدونها أنا هو أنا . . . ذلك القسوى الصغير الذي يرى في فلاحه الأرض ما يميزه ويميز من يمارسها على أهل المدينة الذين يعيشون على التجارة . . .

هكذا كانت حياتي طوال مدة تعليلي بالقاهرة سلسلة من المقارنات أو المقارقات المستمرة بين المدينة والقرية . . . ولكنها لم تكن في أي وقت في صف المدينة بأي حال من الأحوال . . . على العكس أشياء كثيرة أزعجتني في القاهرة . مثلاً منظر (الكونستابل) الإنجليزي على الموتوسيكل يجوب الشوارع ليل نهار وبدون انقطاع كالحجئون . . . بوجهه الذي في لون الطماطم فقط . . . بليد . . . وعينيه الجاحظتين وفمه المفتوح دائماً كضم الأبله . . . ورأسه المتنفخة يغطيها طربوش طويل قرمزي يصل إلى أذنيه . . .

كان الجميع يخشونه . . . أما أنا فكنت أكره النظر إليه . . . وأتساءل في نفسي . . . ما الذي أتى بهذا الغريب القبيح المنظر إلى المدينة ؟

لو أتى إلى قريتنا لما استطاع أن يسير خطوة واحدة . . . ولكنه لم ولن يأتي . . . لأنه لا يجرؤ . . .

وواو الزلط الذي في كل مرة أصادفه كنت أراه يسير ورائي . . . أسرع الخطى فيسرع خطاه . . . أجرى فيجرى خلقي . . . ما قصده بالضبط ؟ واضح أنه يسعى ليدوسني تحت عجلاته الحديدية الضخمة . . . ولكن لم ؟ وأنا لا أعرفه وهو لا يعرفني . . . ؟ ولم تنفعني هذه الأمثلة في شيء . . . فكلما نظرت خلقي رأيته يلاحقني فيزداد دُعري . . . ولم يكن ليبتعدني منه كل مرة إلا إذا انعطفت في حارة ضيقة لا تسمح بمروره أو أطلقت ساقى للريح بحيث لا أراه ولا يراي . . . فقد كان واضحاً أنه رغم جبروته ورغم ضآلتي إلا أنني كنت أسرع منه بكثير .

وأول مرة دخلت فيها السينما في حياتي . . . كان ذلك يوماً عصيباً . . . فقد شاهدت قطار سكة حديد قادماً من أقصى الشاشة ومندهماً بسرعة مذهلة نحوى . . . ماذا أفعل ؟ أغضت عيني ورجعت يمسدي إلى الورا . . . ولكن صوت القطار ما زال

يدوى في أذني . . . فقيم الانتظار ؟ قمت لتوى من مقعدي وبسرعة رحمت اخترق الصفوف مهرولاً في طلب النجاة . . . ولفت نظري أن الناس كلها قابضة في مقاعدها وكأن شيئاً لم يحدث . . . هذا شأنهم قلت في نفسي . . . ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف - وعيناي قد تسمرت على الشاشة - لم أجد القطار . . . وجدت بدلاً منه رجلاً وامرأة يتناولان الطعام في مقهى صغير فاخترقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعدي . . . أرقب أحداث الفيلم في هدوء كما يفعل الآخرون . . .

كم انبهرت ذلك اليوم بما رأيته . . . وكان من نتيجة انبهاري أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . . . وتسمرت في مقعدي لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى .

كنت في ذلك الوقت قد انتقلت من السنة الثانية الثانوية إلى السنة الثالثة . . . ولكن بمجموع صغير فطلبوا مني أن أعيد السنة الثانية حفاظاً على النتيجة العامة للمدرسة في شهادة الكفاءة وهي شهادة عامة كنا نتقدم لها بعد السنة الثالثة . . . رفضت . . . وصحبت أوراقى من المدرسة (مدرسة فؤاد الأول) وقدمتها إلى مدرسة أهلية هي مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الثالثة . . . وحصلت على شهادة الكفاءة في نفس السنة .

وبإرادة التحدي - التي لم أكن بعد قد اكتشفتها في نفسي في ذلك الوقت المبكر - أخذت أوراقى مرة أخرى إلى مدرسة فؤاد الأول حيث التحقت بالسنة الرابعة ولكن في الإمتحان في السنة الرابعة إلى الخامسة وهي نهاية مرحلة التعليم الثانوي تكرر ما حدث لي عندما انتقلت من السنة الثانية إلى الثالثة فسحبت أوراقى من فؤاد الأول وذهبت بها ثانية إلى مدرسة الأهرام حيث قبلوني بالسنة الخامسة . . . وتقدمت في نهاية العام للحصول على شهادة التوجيهية . . . ونجحت في جميع المواد ولكنني رسبت في المجموع .

كانت هذه نقطة تحول . . . فقد أدركت أن رسوبي إنما كان دليلاً على عدم رضا الله عني وعقاباً لي منه عز وجل . . . لاستهتاري ربما . . . وربما للثقة الزائدة عن الحد في نفسي . . . لم يكن أمانى من ملجأ سوى قيم القرية تحفظ على نفسي كما

فعلت دائماً . . . وهذا الإحساس الغامض بالذنب والتوبة معاً نقلت أوراقى إلى مدرسة رقى المعارف بشبرا وحصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية .

٣

قد يوحى ما حكيت عن إحسامى بالتوبة أنى أثناء تعليمى تخلبت عن القرية ولو لبعض الوقت ولكن هذا لم يحدث على الإطلاق . . . فبمجرد أن تنتهى الدراسة كنت أهرع إلى قريتى وأرغمى بين أحضانها . . . مجتمعى المثلث الذى كنت أجد فيه نفسى . . . بل وأجد فيه الوطن بأجمعه ولفترة طويلة كانت مصر عندى هى بيت أبو الكوم أما المفهوم الشمولى للوطن فلم أدركه ولم أشعر به إلا بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوى .

ولم يكن هذا بالأمر المستغرب فقد بدأ إحسامى بشيء أفتقده . . . وبأن هناك وضعاً خاطئاً يجب إصلاحه وأنا أستمع إلى موال زهران ليلة بعد ليلة على سطح القنن فى دارنا بميت أبو الكوم .

كان زهران مرتبطاً فى وجدانى بمصطفى كامل وبأدهم الشرقاوى فكلهم رجل واحد . . . أو هكذا بدوا لى فى تخديهم للإنجليز البرابرة المعتدين الذين شفقوا وجلدوا أهلنا فى قرية دنشواى المتاخمة لقريتنا ولكن عندما جئت إلى القاهرة رأيت فى بيتنا صورة كمال أتاتورك وسألت عنه أبى فقال إنه رجل عظيم . . . وكان أتاتورك فى ذلك الوقت مثلاً أعلى فى العالم الإسلامى يتردد لاسمه على كل لسان فقد قام ليحرر بلاده . . . ويعيد بناءها . . . وكان والدى شديد الإعجاب به كما كان معجباً بنابليون الذى حدثنى عنه طويلاً وذكر لى فيها ذكر أنه عندما نفاه الإنجليز فى سانت هيلانة تعمد الحاكم الإنجليزى للجزيرة أن يجعل بوابة بيت نابليون قصيرة بحيث يضطر القائد الفرنسى الأسير إلى أن يخفى قامته فى كل مرة يدخل بيته أو يخرج منه . . . ولكن نابليون لم يتمكن من غرضه فكان يجلس على الأرض ويدخل أو يخرج زاحفاً ولكنه رافع الرأس .

طبعاً هذه لم تكن إلا خرافة . . . ولكنها تمكس صورة البطل فى وجدان الشعب المصرى وخاصة إذا كان هذا البطل خصماً قوياً من خصوم الإنجليز الذين كنا

نعانى من احتلالهم لبلادنا ونرفض وجودهم بيننا بكل الوسائل التى كانت فى أيدينا فى ذلك الوقت .

من هنا كان إعجابى بسعد زغلول بدليل أنى كنت أخرج إلى شارع الخليفة المأمون كل مساء لانتظار خليفته النحاس باشا عندما ينتقل من بيته فى قصر الجديده إلى بيت الأمة وعندما يعود . . . فقد كنت أرى فى النحاس وفى الوفد فى ذلك الوقت رمزاً لكفاح المصريين جميعاً ضد الإنجليز .

لا أستطيع أن أقول إن كان وعبى السامى قد نضج أو حتى تشكل فى هذه الفترة المبكرة من حياتى . . . كنت أشارك طبعاً فى الأحاسيس الوطنية التى كانت تعتلج فى صدر كل مصرى فأخرج فى المظاهرات . . . وأساهم فى تكمير النضج وحرق الترموايات وفى الهتاف بسقوط صدق باشا وإعادة دستور سنة ١٩٢٣ . . . دون أن أدرك ماذا كان ذلك الدستور .

ولكنى أستطيع أن أقول إنه إلى أن تركت المدرسة الثانوية كان قد تأصل فى نفسى شعور دفين بالكره للمعتدين وبالخيب والإعجاب لكل من يحاول تحرير بلده . أذكر أنه فى سنة ١٩٣٢ مر غاندى بمصر فى طريقه إلى إنجلترا . . . وامتدحت الصحف والمجلات المصرية بأخباره وتاريخه وكفاحه فأخذت به واستولت صورته على وجدانى فما كان منى إلا أن قلده . . . خلعت ملابسى وغطيت نصفى الرأس بإزار وصنعت مغزلاً واعتكفت فوق سطح بيتنا بالقاهرة عدة أيام إلى أن تمكن والدى من إقناعى بالعدول عما أنا فيه . . . فلن يفيدنى ما أفعله أو يفيد مصر . بل على العكس كان من المؤكد أن يصيبنى بمرض صدرى وكان الوقت قارس البرودة .

وعندما زحف هتلر من ميونخ على برلين ليخلص النازيين من يدهم فى الحرب العالمية الأولى ويعيد بناءها كنت فى ذلك الوقت أقضى الصيف فى القاهرة فجمعت أقرانى وقلت لهم إننا يجب أن نفعل كما فعل هتلر وإلا لن نكون كالهتلريين فى القاهرة من ميت أبو الكوم . . . كان عمرى فى ذلك الوقت ١٢ سنة . وانصرفوا عني .

كانت هذه فى أغلبها إلهامات تلقائية بخط كفى .

أخيراً اهتدى والدى ببساطته المعهودة إلى أنه أيام خدمته في السودان كان يعرف أحد الصيولات .

وتصادف أن كان هذا الصول في خدمة إبراهيم باشا فرتب لي ولوالدى - لا أعرف كيف - فرصة للقاء إبراهيم باشا . . وذات صباح توجهت مع والدى إلى قصر الباشا في حدائق القبة أحد أحياء القاهرة الأرستقراطية في ذلك الوقت . دخلنا الفيلا الأنيقة ووقفنا في الأنتريه . . هكذا كان الترتيب بحيث لا بد أن يمر بنا الباشا في طريقه إلى الخروج فنستلفت نظره ويسألنا عما نريد . . وفعلنا نزل الباشا بعد قليل .

واقترب منه الصول وهمس في أذنه ببعض الكلمات . . التفت بعدها إبراهيم باشا إلى والدى وقال له بكل عتجبية :

« آه . . آه . . أنت باشكاتب القسم العلي . . ودا الولد ابنك اللى . . طيب . . طيب . . » ومضى مسرعاً نحو الباب . . وأبى يسير خلفه وهو يتمتم بكلمات لم أدركها ولا أحسب أنه هو نفسه كان يدرك ما يقول .

تجربة لم تهرح وجداني أبداً ولا أظن أنى سأنساها مدى الحياة فقد كانت هذه أول مرة أدخل فيها بيت باشا أو الذى بأحد أفراد هذه الطبقة . . وتشاء الصدف أن التقي بإبراهيم باشا نفسه بعد ذلك بسنوات وكان ذلك عندما استقبلته في مكنتي وأنا رئيس مجلس الأمة . . كانت عنده مشاكل خاصة بأبنائه وفرض الحراسة وما شابه ذلك . . فساعدته في حل جميع مشاكله وبعدها ذكرته بلقائنا الأول في منزله ولكنى قلت له :

« إياك أن تتصور أن هذا اللقاء ترك في نفسي أى أثر بالنسبة لك . . أرجو أن تعتبر أنى في أى وقت مستعد لتلبية جميع طلباتك . . فأنا أدين لك بالخير لا بالنسبة للقائنا في قصرك بحدائق القبة . . بل لأنك كنت رئيس لجنة القبول . . الثورة . . فلولاك ما قامت الثورة . . »

متناقضات ومفارقات لا نهاية لها ولكن لعل أبرزها أن المسير ليس كالمسير

من بين هذه الإرهاصات التى كانت في الحقيقة مجموعة انفعالات وتفاعلات مع الأحداث - بقى لي شيء واحد هو حبى لكamal أنا تورك . . فن أنا تورك استهزئى البذلة العسكرية وهو لم يستطع أن يفعل شيئاً ويحقق ثورته إلا بالقوات المسلحة .

كانت أحداث حياتى تسير جنباً إلى جنب مع أحداث التاريخ كما سبق أن قلت . . فقد انتهت من إتمام دراستى الثانوية سنة ١٩٣٦ وفى نفس السنة كان الخامس باشا قد أبرم مع بريطانيا (معاهدة ١٩٣٦) . . وبمقتضى هذه المعاهدة سمح للجيش المصرى بأن يتسع . . وهكذا أصبح في الإمكان أن التحق بالكلية الحربية . . قبل ذلك التاريخ كان الجيش المصرى ضيق الرقعة ضليل الفاعلية وكان دخول الكلية الحربية قاصراً على أبناء الطبقة العليا .

ولكن رغم هذه التسهيلات الجديدة التى واكبت رغبتى في دخول الكلية الحربية لم يكن التحاق بهذه الكلية - وهو منتهى أمل جيتذاك - بالأمر السهل . أصبح أنهم سمحوا لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة بدخول الكلية ولكن كان باستمارة الدخول شرطان . . دخل الأب واثرونه ثم الواسطة . . وفى كشف الهيئة كان بنادى رسمياً علينا . . فلان ابن فلان . . وواسطته فلان .

بالنسبة للشرط الأول كان والدى موظفاً بالحكومة فهو على الأكل عنده دخل ثابت أما الواسطة فنأين لي بها والذى كما سبق أن ذكرت - مجرد باشكاتب بالقسم العلي - لا يعرف أحداً من الباهوات أو الباشوات ؟

قالوا له إن رئيس اللجنة التى تقبل الطلبات هو اللواء إبراهيم باشا خيرى ولا بد من الوصول إليه ولكن كيف ؟

كان إبراهيم باشا يمثل قبة الأرستقراطية في ذلك الوقت . . فهو الذى عهد إليه الملك فؤاد بتعليم فاروق في صغر شبابه القروسية . . هو إذن معلم الملك وإلى جانب هذا هو وكيل وزارة الحربية . . ثم إنه متزوج سيدة من العائلة المالكة . . باختصار كان إبراهيم باشا نجماً من نجوم المجتمع . . فكيف الوصول إليه ونحن لا نملك الوصول حتى إلى سكرتير وزير ؟

هدف من دخول الكلية احرية خلاص البلاد منهم هم الذين ساعدوني على الالتحاق بالكلية .

بعد أن تم انساؤها مع إبراهيم باشا خيري في قصره كان لابد أن أجد
الواسطة كما تنص استارة القبول كما اسلفت . . لم يجد والدي أحداً يلجأ إليه إلا
حكيم باشا الجيش المصري الذي كان والدي يعمل معه وهو انجليزي اسمه الدكتور
فيتس باتريك . . واستجاب الرجل للطلب وكتب الترخية كما أوصى بي كبير
المعلمين بالكلية وهو عضو لجنة القبول وانجليزي مثله .

وهكذا قبلت بالكلية الحربية وكان ترقبى آخر المتبولين وعددهم إثنان وخمسون وذلك لأن واسطى كانت أقل الوساطات شأنا . . . ففي ذلك الوقت كانت الوساطات تتدرج من الأمير محمد على ولى العهد إلى الباشوات والباكوات من ذوى النفوذ .

ولكن بعد أن قبلت وذهبت لأدفع المصاريف حدث مفاجأة لم تكن في الحسبان . . . فقد كان حمدى باشا سفير النصر وزير الحربية مع النحاس باشا في مونترية لعقد معاهدة إلغاء الإمتيازات الأجنبية التى كانت تعق الأجنب من الخصوع لمقاوم المصري (وكان أمراً شاذاً ومقززاً أن يرتكب الأجنبى الجناية فى مصر فلا تستطيع الحكومة المصرية أن تحاسبه أو تلقى عليه القبض وإنما تملك ذلك سفارته فقط ويحاكم أو يعفى من العقوبة بتمتضى تلك الإمتيازات) أعود إلى النقطة فأقول إن وزير الحربية وهو فى مونترية لما أرسلوا له طلب التصديق على قبولها بالكنية الحربية كما يقضى القانون أرسل برقية يطلب حجر ستة أماكن لبعض أقربائه . . . فاضطرت إدارة الكلية إلى حذف أسماء الست الأواخر وكنت أنا طبعاً أول المستبعدين .

عناء بعد ذلك كثير . . . فقد التحفت بكلية الآداب ثم كلية الحقوق فكلية
التجارة . . . ثم عاد حمدى سيف القصر وألقى أقاربه بالكلية . . . وبعدها تدخل
حكيمبانشى الجيش وكبير المعلمين الإنجليز . . . وأخيراً وبعد أن فقدت الأمل
تماماً . . . فوجئت ذات صباح بوالدنى يطلب منى أن أتوجه فوراً إلى أبى فى مقر

عنه لأخذه معه مصاريف النكبة الأخيرة فقد قبلت بها . . . وكان قد مضى على دخول أقراني في الدفعة سنة وعشرون يوماً كاملة .

في نكبة الحربية كان أنتويرك ما يزال مثل الأعلى . . فبدأت أقرأ عن الثورة التركية . . ورجعت أيضا إلى تاريخ مصر لكن ليس إلى أبعد من حملة نابليون . . فقد كنت أركز على الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ والحداثة التي دخل بها الإنجليز مصر وما تروث عيها من المأساة التي كنا نعيشها .

منطقي كمال كنت مازلت أحبه ولكني أخذت عليه أنه لم يلجأ إلى القوة . .
وكان إيماني أن الإنجليز لن يخرجوا إلا بالقوة .

ولكن هل كان الإنجليز هم المدانون وحدهم؟

ماذا عن العائلة المالكة وهي أجنبية ؟ وماذا عن الحديوي تويق واستعره
تليش الإنجليزي في ميدان عابدين وكأنه بذلك يقر شرعية الاحتلال الإنجليزي
في مصر بعد هزيمة الجيش المصري بالخدعة عام ١٨٨٢ ؟

إن نظام الحكم كان المشور الأول عما حدث ويحدث لنا . . . في حادث دشراى
مثلا كان القاضي والمحاوى والنيابة كلهم من المصريين .

ومع هذه الملاحظات تنفتح على صاحبها من الإحسان والرحمة والشفقة واللين واللين
تنفتح على الأوضاع شيئاً فشيئاً وبت أنتظر يوم تخرجني من الكلية بسلامة
الصبر حتى أستطيع أن أفعل شيئاً . . فقد كنت أؤخر بالعديد من الأعمال
لأمر ولكنها كانت كلها مازالت حبيسة في صدري لم تترجم بعد إلى العمل

3

ألم بلغت من الظلم والظلمة في حزيران سنة ١٩٦٧ ما أصبح علمي هذا الجدار
بدأت الطاقة المخزنة في عقلي الباطن منذ سنين في الانفجار

والمعنى أني - يا حكيم - كنت أستمع إلى موال زهران حتى كنت أظن
أنا . . . وكنت أرى زهران وهو يصعد إلى القطار على أكتاف - أسمع الرنين لا
يغشى الإنجليز الذين حكموا زهران ولا يسمع الحوت الذي يلامع به البحر

فرغم قوة العدو وجبروته إلا أن زهران كان أقوى منه بكثير لأنه يملك أقوى الأسلحة ومضاها وهو سلاح الرفض لكل ما يسعى إلى قهره وفهر أهله .
لم يفارقني طيف زهران بعد ذلك . . التفتت به كثيراً في الصحو وفي المنام . .
وفي كل مرة كنت أتمنى أن أكون زهران وأن تحكي الناس قصتي كما جعلوا من قصته ميلاً تنفخ به الأجيال .

ومرت الأيام وبدأ الوعي يندو . . فعرفت مصطفى كامل ومن قبله عرابي ثم أناتوريك . . وكانوا جميعاً موضع إعجابي ولكن زهران ظل أقربهم إلى قلبي أرى نفسي فيه وأتمنى أن أفعل ما فعل ولكن بدلاً من أن يحكم على الإنجليز بالإعدام أقود أنا ثورة تؤدي إلى هلاكهم وخلاص البلاد من حكمهم .
إن سلاح الرفض كان وسيظل دائماً أقوى أسلحة أهل الأرض الطيبة التي أحبا أكثر من أي شيء في الوجود . . وهل يملك الإنسان إلا أن يكون ابن أرضه وورث أسلافه ؟

كان إحساسي بالقوة الداخلية مازال يلازمي بطبيعة الحال ولكن كان بصاحبه الآن إحساس بقوة خارجية فقد أصبحت ضابطاً بالقوات المسلحة وكنت أومن بأنه لن يخلص مصر من الإنجليز وفساد الحكم إلا القوة .

فيم الانتظار إذن؟ لابد من عمل تنظيم يهدف إلى ثورة تقوم بها القوات المسلحة . . هذا هو طريق الخلاص . . ولا طريق غيره . . ولكن هل يمكن أن تقوم الثورة من فراغ ؟ لابد من تهبة النفوس وهذا لا يتأتى إلا بخلق وعي كامل على قدر المستطاع بالأوضاع التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت .

قلت أبداً بوضعنا نحن كضباط في الجيش المصري فأقرب الطرق إلى قلب الإنسان ما يمه هو شخصياً ولذلك ركزت في أحاديثي مع زملائي الضباط على وضعين لم يكن أحد يختلف على أنهما يسيئان إلى الجيش وإلى حياتنا في القوات المسلحة وهما البعثة العسكرية البريطانية ومالها من سلطات مطلقة ثم جيل كبار الضباط المصريين وانبياهم الأعمى إلى ما يأمر به الإنجليز . .

كنا في ذلك الوقت في متعباد وكانت الاجتماعات تتم في حجرتي بميس الضباط فقد كانت بالصدفة حجرة ضابط عظيم . . شقة صغيرة تقريباً . .

إذ عند نقلي إلى متعباد كانت حجرات صغار الضباط أمثالها كلها مشغولة فأعطوني هذه الحجرة . . :

كنا نجتمع فيها كل ليلة نشرب الشاي ونسامر ، وفي أثناء السمر كنت أعمل - دون تعمد واضح - على تفتيح أعين زملائي على أوضاع البلد عامة ووضع الإنجليز بصفة خاصة . .

كانت جلسائنا تستغرق وقتاً طويلاً . . وكانت تدور بيننا مناقشات لا حصر لها ولكنها كانت ليلة بعد ليلة تضيف إلى إدراك زملائي الضباط لأوضاع البلد وتعمق إحساسهم بخطأ . . أغلبهم كانت تنقصه الثقافة السياسية . . وكنت أنا أبدأ إلى التاريخ أنتق من الصور المناسبة ثم أعقد المقارنات بين هذه الصور وبين الحاضر الذي نعيشه بمشاكله ومآسيه . . ولكني كنت . . عن عمد . . أتمحاشي لإقترح الحلول . . وكان لهذا الأسلوب في الإثارة والإقناع أثره الفعال فقد كنت أرى الزملاء ينصتون إلي في صمت ثم يستفسرون ويسألون ويستوعبون .
وإذ كانت مداركهم تفتتح شيئاً فشيئاً كنت أرى بعضهم يثير قضايا جديدة ويقلبون الأمور على وجهه بعد وجهه والحماس يملأ صدورهم والألم أحياناً يعتصر قلوبهم . . وكانت كل القضايا تدور دائماً حول مصر وخلص مصر مما تعانيه حتى أنهم أطلقوا على حجرتي الكبيرة بميس الضباط (بيت الأمة) . .

طبعاً كان يتخلل حديثنا بعض المزاح والنكات والسمر . . وكنت أشاركهم في المزاح كما أشاركهم في الجدل . . فقد كنا جميعاً شباباً لا يتجاوز أكبرنا سن العشرين من عمره . . هذا إلى جانب أن هذه كانت الطريقة المثل . . فلم يكن من المصلحة في شيء أن أنزل عن إخواني أو أن أشعرهم أنني أختلف عنهم . .

المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بأني أختلف عن زملائي كانت عندما زارنا عزيز باشا المصري بصفته المفتش العام للجيش المصري وأخذنا معه لزيارة الدير المحرق الذي لم يكن يبعد عن المعسكر كثيراً في الوجه القبلي . .

كان قصده من هذه الزيارة تثقيفنا فقد كان دائم الدعوة إلى الثقافة . . المهم أما عندما دخلنا الدير المحرق . . ولم يكن أحد منا قد رأى من قبل . . وجئنا

القسيس أو الكاهن الصغير يعيش في صومعة .. وهي قاعة ليست لما شبائك فيما عدا فتحة صغيرة في الحائط لا يزيد قطرها على البوصتين .. وينام على مصطبة من الطين .. ودهش الجميع من هذا الأسلوب في الحياة وأشفقوا على القسيس من كل هذا التقشف أما أنا فلم أدهش ولم أجسد في هذه الحياة أى تقشف .. فقد ولدت في صومعة مشابهة وإن كنا في القرية نسميها القاعة .. أما المصطبة فهي نفس المصطبة التي قضيت فوقها أيام وليالي حياتي في ميت أبو الكوم .

تركزت زيارة عزيز المصرى أثراً عميقاً في نفسى فقد شاهدت بعيني هذه الشخصية الأسطورية التي شاركت في الثورة التركية مع أتاتورك كما كان أحد مؤسسى جمعية الاتحاد والترقى وجمعية تحرير الأمة العربية .. هذا إلى جانب تاريخه الطويل الملىء بالكفاح .. وولعه بالثقافة والدعوة إليها ..

والثقافة كانت دائماً تسهرينى وبوجه خاص في تلك المرحلة المبكرة في حياتي فجنباً إلى جنب مع الخط السياسى الذى بدأته مباشرة بعد تخرجى من الكلية الحربية التزمت بخط ثقافى لم يكن في نظرى يقل أهمية عن الخط السياسى لأنه في الواقع يدعمه ويقويه .. ولذلك حاولت الالتحاق بالمعهد البريطانى بالقاهرة للحصول على البكالوريوس في الآداب من جامعة لندن .. وكنت مولعاً بالقراءة وأنصت الكتب من على سور الأزيكية كلما ذهبت إلى القاهرة أما وأنا في الأقاليم فكنت أكتب إلى الناشرين والمكتبات في طلب قوائم الكتب أنتق منها ما يروقنى فيرسلونها إلى الملازم ثان محمد أنور السادات .. أينما كنت .. في هذا بالذات كنت أختلف عن بقية زملائي .. أذكر ونحن في متقباد كان يحلنا عصر كل خميس أتوبيس عسكري خاص إلى أسبوط لقضاء ساعات المساء بها .. وكان زملائي يذهبون إلى السينما أو أماكن اللهو الأخرى .. أما أنا فكنت أجلس في مقهى وسط ميدان قارب من محطة السكة الحديد أذخن الشيعة وأقرأ الكتب التي تسوقها من القاهرة وأنا في غاية السعادة إلى أن يعود إخواني من لاهم ويعود بنا الأتوبيس جميعاً إلى المعسكر ..

كانت جلساتنا في حجرى باليس تسع يوماً بعد يوم وكان عدد الضباط الذين يشاركون فيها يزداد وأذكر أنى رأيت جمال عبد الناصر لأول مرة

في هذه الجلسات فقد لحق بنا هو الآخر مع كتيبتة في متقباد .. وكان الضامى عنه أنه شاب جاد لا يميل إلى المزاح مثل غيره من زملائه ولا يقبل أن يضاخكه أى أحد لأنه كان يرى في هذا مسألاً بكرامته مما جعل أغلب زملائه يتبعون عنه بل ويتحاشون الكلام معه حتى لا يسبى فهميه .. كان ينصت إلى مناقشتنا باهتمام ولكنه لا يتكلم إلا في القليل نادر وقد توسست فيه بالحيلة لأحد وحلة وكنت نواقاً إلى المزيد من التعرف عليه .. وأكل كل من ارتفع إلى يقيم بينه وبين غيره من الناس حاجزاً من الصعب اجتيازه .. فقد كان متقباد على نفسه بشكل ينبت النظر ولذلك فكل ما قام بيننا - في تلك الرحلة - لم يخرج عن نطاق الاحترام المتبادل ولكن عن بعد ..

استمرت الجلسات ولم ينقطع الكلام أو الحوار عن أوضاع مصر ومشاكلها ولكن كل هذا كان يدور في نطاق محدود .. وكنت أريد مجازاً توسع لتنفيذ الخطة التي وضعها للعمل السياسى عند تخرجى وكان هذا الخيال لدى أتضيه هو القاهرة بطبيعة الحال .. ولكنى كنت بعيداً عنها وأسأل كذلك ما دمت في سلاح المشاة ..

من هنا بدأت أضيّق بالخدمة في هذه السلاح إلى جانب ترمى بالبعثة انبريطانية ويقائد محطتنا في متقباد الذى كنا نسميه السلطان عبد الحميد لقسوته وبطشه الذى كان يحاول عن طريقه إخفاء جهله من جهة وإرضاء رؤسائه الإنجليز من جهة أخرى .. ولكن أين المفر ؟

وأخيراً حانت الفرصة فقد كنت واحداً من الضباط الذين اختارته القيادة للحصول على فرقة إشارة بمدرسة الإشارة بالمعادي قرب القاهرة .. كان ذلك في أوائل سنة ١٩٣٩ وكان معى في نفس الفرقة عبد الناصر الذى وصل متقباد بعد وصولنا بستة أشهر ولكن كان الحاجز مازال قائماً بيننا ..

انتهى التدريب بعد شهرين ونصف وهى المدة المحددة للفرقة وعقد الامتحان ثم أقاموا لنا حفل تكريم قبل أن نعود إلى وحداتنا .. لم يكن عندي أى أمل في أن ألتحق بسلاح الإشارة الذى نشأته حديثاً في الجيش .. فقد كان في ذلك الوقت أهم الأسلحة جميعاً ولا بد لدخوله من واسطة كبيرة مثل كل شيء آخر .. وعهد إلىى بالقائه كلمة في حفل الوداع نيابة عن زملائي ..

وقد وجدت في إعدادها متعة لم أعرفها من قبل وهنا اكتشفت لأول مرة

أن لدى قدرة على الكتابة وسياق مفاهيم ومعاني جديدة مترابطة . .

كانت كلمتي هادفة ولها معنى متكامل ولم أقرأها من نورك بل أقيمتها من
ألفاظي الخاصة . . . الإشارة الأميرالاي إسكندر فهي أبو العبد
وكان أديباً فما أن عدت إلى كويتي فتنقباد حتى نقت للعمل بسلاح الإشارة
بالمعادي وكان ذلك من أسعد أيام حياتي فأجيراً فبحث في الفرصة التي

تظهر . . .

بدأت الاتصالات فوراً وعلى نطاق واسع شمل أغلب أسلحة الجيش في
القاهرة التجمع الأكبر من الضباط . . وبدلاً من حجرني تنقباد بدأت
تلقى في شقتي بكويري القبة . . في نادي الضباط . . وفي انقاضي ويبوت
بعضنا . .

كان الاتصال أول الأمر قاصراً على زملاء السلاح والسن في دفعتي . . ولكن
انتصارات هتلر المتلاحقة في سنة ٣٩ - ٤٠ - ٤١ . . وهزائم الإنجليز شجعتني
على أن أوسع الدائرة شيئاً فشيئاً حتى شملت الكثيرين ممن انحقوا بالجيش
بعدنا ونقرأ غير قليل ممن كانوا أسبق في الخدمة منا .

كان الجميع يستجيبون للدعوة بسرعة وحماس . . وكانت الدعوة
أنا يجب أن ننهز الفرصة ونقوم بثورة مسلحة ضد الإنجليز في مصر . .

هكذا قام أول تنظيم سرى من الضباط وكان ذلك في سنة ١٩٣٩ . . كان

ضمن أعضائه عبد المنعم عبد الرؤوف وكان يعتبر الرجل الثاني بعدى . .

وعبد اللطيف بغدادى وحن إبراهيم وخالد محي الدين وأحمد سعودى

حين الله يرحمه . . وحن عزت والمشير أحمد إسماعيل . . الذى كان

يحضر اجتماعاتنا دون مشاركة سياسية فقد كان يرحمه الله رجل عسكرية

كرس حياته لعمله وتخصصه . .

لم ألبأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها

كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ وتسلمه

التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقاله في صيف ١٩٤٢ في تلك السنة كان خط

هتلر قد بدأ في الإنكسار وبالتالي استعاد الإنجليز قوتهم في مصر فكان على
عبد الناصر أن يخطط للمستقبل . .

أما أنا فلماذا أخطط لثورة على مدى زمني بعيد؟ كانت الأحداث وما أعقبها

من ردود أفعال - أى انتصارات هتلر المتلاحقة وهزائم الإنجليز كتيبة حتمية

لهذه الانتصارات قد جعلت الباب أمامى مفتوحاً للعمل المباشر . . فقيم الإعداد

للمستقبل والفرص المتاحة أمامنا وواجبنا أن ننهزها قبل أن نفوت .

في هذا الاتجاه سرت وأسرت الخطى . . قالى جانب اتصالاتي الواسعة

بالضباط وتشكيل الهيكل التنظيمي للثورة بدأت أتصل بالجنود في وحدتي

بالمعادي وألقى عليهم محاضرات عن المعركة والموقف العسكري في العالم وموقفنا

من الإنجليز والأوضاع في مصر . . كيف كانت وكيف أصبحت . . وإلى جانب

هذا كنت أحدثهم عن الوطن والوطنية كما كنت أصلى بهم . .

وتصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودى فتوجت يوم مولد

النبي سنة ١٩٤٠ بأحدهم يهمس في أذني بأن بالباب رجل ممتاز في الدين يريد

أن يقول كلمتين للجنود بمناسبة المولد وكنت ضابط النوبة في تلك الليلة . .

سألت من يكون . . ولما عرفت أنه الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان

المسلمين رحبت به وجعلته يلقي المحاضرة على الجنود بدلاً مني . .

كان ممتازاً في اختياره للموضوعات وفهمه للدين وشرحه وإلقائه . . من كل

النواحي فعلاً كان الرجل مؤهلاً للزعامة الدينية . . هذا إلى جانب أنه كان

مصرياً صميمياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من دماء خلق وسماحة وبساطة في

معاملة الناس . .

كنت قد سمعت الكثير عن الإخوان المسلمين وكنت أتصور أنها جماعة دينية

هادئة الوحيد الإصلاح الخلق وإحياء قيم الإسلام . . ولكن بعد أن سمعت من

الشيخ البنا بدأ مفهومي يتغير بعض الشيء فقد كان الرجل يذكركم عن الدين

والدنيا معاً . . وبأسلوب جديد لم تألفه من رجال الدين .

أعجبت به كل الإعجاب فبعد أن انتهى من المحاضرة هنأته من كل قلب . .

وجلسنا نتبادل الحديث لبعض الوقت . . وقبل أن يخرج دعاني لمصروف دراسي

الثلاثاء الذي كان يليه كل أسبوع بعد صلاة المغرب في مقر المركز بالحلمية الجديدة .

وذهبت إليه وحضرت بعض الدروس وفي كل مرة كان يصطحبني إلى مكتبه الخاص لتجاذب أطراف الحديث .. ولفت نظري ما كان عليه الإخوان من تنظيم وما كانوا يحفظون به المرشد العام من احترام وتبجيل يكاد يصل إلى درجة تعبد حتى أنهم في معيهم لي كادوا يقبلون الأرض بين يديّ لجرد أنه كان يذهبني للجلوس معه في مكتبه ..

كان الإخوان حول ذلك قوة لا يستهان بها ويكفي للتدليل على هذه القوة أنه كانت أمامهم بالخدمة فيلا واحدة أراد الشيخ البنا أن يجعلها مقراً جديداً للجمعية فطرحها للاكتتاب وفي أقل من يوم غطى الاكتتاب واشتراها ..

بعد سماعي لعدد من دروس الثلاثاء وقبل ذلك المحاضرة التي ألقاها على جنودى يوم مولده حتى سورت لظن بأن الشيخ البنا إنما كان يعمل على مستوى سياسي وبطريقة ذكية للغاية فهو في أحاديثه لا يتعرض للسلطة على الإطلاق .. وإنما يتكلم عن الإسلام فحسب ديناً ودنيا .. وكيف أنه صالح للروح كما أن لا صلاح للحكم بدونها ..

وأكد هذه الفئوس ما سبق أن دار بيني وبين الضابط العظيم لفرقتي من حديث حول الشيخ البنا .. فبعد محاضراته في الجنود يوم مولد النبي .. زارني الضابط العظيم في حجيرتي في ساعة متأخرة من الليل .. قلت : خيراً ..

قال إنه إنما جاء ليقول لي كل سنة وأنت طيب بمناسبة المولد .. ثم دخل في الموضوع مباشرة فأخبرني أن المخبرات قد علمت بزيارة الشيخ البنا .. فحركاته مرصودة من الدولة لأن تنظيمه في الواقع تنظيم سياسي ولذلك فهو يحاول أن يجند أفراد القوات المسلحة لبلوغ أهدافه ..

وعرفت بعد ذلك ما لم يقله لي الضابط العظيم أن عند الشيخ البنا وتنظيم الإخوان ضابطاً متقاعداً اسمه محمود لبيب هو رئيس الفرع العسكري بالإخوان قد استطاع بالفعل تجنيد بعض الجنود والضباط ..

كان هذا أول نفيه لي .. ومع ذلك دأبت على حضور دروس الثلاثاء .. ولكن لم يكن يعجبني منظر الإخوان وهم يقبلون يد المرشد العام .. فأنا لا أميل بقلبي إلى هذا النوع من العلاقة بين الناس فكلنا بشر وكلنا سواء (ولو أنني كنت أقبل يد أبي إلى أن مات وبعد ولايتي كرئيس للجمهورية) ولذلك تعمدت بعد ذلك أن أذهب لثقاته قبل انتهاء الدرس فيصطحبني كعادته إلى مكتبه الخاص ويبدأ الحديث معي ..

كان دائماً في منتهى البساطة والحرص فهو يتلمس طريقته إلى قلبي في كل حوار يدور بيننا أما الأسئلة التي يوجهها إلى فقد كان هدفه منها استكشاف نواياي ومقاصدي .. وكنت أنا على وعي تام بما يحاول صنعه في إحدى اجتماعاتنا قلت له ..

- اسمع يا شيخ حسن .. واضح أنك حريص أكثر من اللازم في الحديث معي وأنا لا أرى داعياً لهذا .. بصراحة أنا أسعى إلى عمل تنظيم عسكري هدفه قلب الأوضاع في البلد ..

باغتت الرجل هذه المفاجأة .. فنظر إلى في دهشة ولم يعرف ماذا يقول .. ربما كنت أحد رجال المخبرات .. وربما كنت مدسوساً عليه من جهة أو أخرى .. وقطعت عليه صمته بقولي :

- نعم أنا أسعى إلى ثورة مسلحة .. ومعى عدد كبير من الضباط من كل أسلحة جيش .. وحركتنا سرية .. بدأ بسألني أسئلة عديدة .. أتى أسئلة بجيش معكم ؟ وما مدى قوتكم ؟ وكم عدد الضباط الذين يمكن أن تعتمد عليهم للقيام بهذه الثورة ؟

وأجبت .. وفجأة طلب مني أن ننق العمل معاً .. قلت له :

- لقد صارحتك بكل شيء .. وأحب أن أقول لك بنفس الصراحة .. نحن تنظيم لا ينخضع ولا يعمل لحساب أى حزب أو هيئة وإنما لمصلحة مصر ككل .. وأرجو أن يكون ذلك واضحاً منذ البداية ..

وأمن الرجل على كلامي وقال :- يكني فقط أن نتعاون ..

ولم يفت بعد ذلك وقت ضوئى حتى كان قد جسد لحساب الإخوان عبد المنعم
عبد الرؤوف نرجس الثانى يمدى فى تنظيم الضباط الأحرار .

٥

كنت مقتوناً بشخصية عزيز المصرى منذ لقائنا فى متعباد وكان معروفاً عنه
أنه يكره الإنجليز حتى أن سير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى ذلك الوقت
طلب من على ماهر إقالته من منصبه بإخيش ولكن على ماهر اكتفى باعطائه إجازة
منه .

كنا بحاجة إلى الإفادة من خبرات هذا الخارب العظيم وإرشاداته .

هكذا أحت . فطلبت من الشيخ حسن البنا أن يعمى به وكان ذلك فى
سنة ١٩٤٠ وهى نفس السنة التى التفت فيها بالشيخ البنا .

واستجاب الرجل على الفور . . فطلب منى أن أتوجه إلى عيادة الدكتور
إبراهيم حسن بالسيدة زينب . . وكان فى ذلك الوقت وكيل الإخوان . . وأحجز
تذكرة كأتى مريض عادى ثم أدخل للكشف وبعد ذلك يقوم الدكتور
حسن بالمطلوب . . وفعلاً بمجرد أن دخلت على الدكتور حسن وقدمت
التذكرة . . فتح باب حجرة مكتبه وهناك وجدت عزيز باشا فى انتظارى . .
حيثه وذكرته بلقائنا فى متعباد ثم بدأت أتكلم فى شئون البلد وأحوال
الإنجليز وأحوالنا . . فن أنسى أبدأ هذا اللقاء الأول مع عزيز المصرى . . كان
متردداً فى التحدث معى . . وصارحتى بأنه متشكك فى أمرى . . وأنى ربما
كنت أحد رجال المخابرات أو أى شىء من هذا القبيل . . قلت له . . لو كان
الأمر كذلك لالتفت بك مباشرة ولكنى كما ترى أتيت إليك عن طريق الشيخ
حسن البنا وأنتك تثق به . .

فلما اطمأن سألنى : ما سبب مجيئك وماذا تريد منى ؟

قلت : نحن ضباط فى مرحلة تنظيم يهدف إلى طرد الإنجليز من مصر وتغيير
الأوضاع فى مصر . . وباعتبارك شخصية عسكرية كبيرة ننتظم إليها جميعاً . . نرجو
أن تسمح لنا بأن نرجع إليك من آن لآخر لكي ترشدنا ونفيدنا بخبرتك وتجاربك . .

قال : أول درس أقوله لكم . . اعتمدوا على أنفسكم . . ولا تنتظروا أى
رائد . . المبادرة يجب أن تأتى منكم أنتم . . نابليون وصل لرتبة جنرال وكان
زعيماً وعمره سبعاً وعشرون سنة . . كم سنك أنت ؟

قلت : ٢٢ سنة .

قال : عال . . تعاونوا مع بعضكم البعض . . وهذا يكفى . .

ثم أخذ يشكو لى من البلد وأنه قد احتك بأناس كثيرين للقيام بأعمال
من هذا القبيل ولكن كانوا كلهم نصايين وانتهى الأمر كل مرة إلى لا شىء . .
قلت له إننا جادون وإنه سبرى ذلك بنفسه عندما يسمح لنا بمداومة الاتصال به
للمشورة وتبادل الرأى . .

قال : عظيم . . أول شىء كما قلت . . لا بد أن تعتمدوا على أنفسكم . .
ثانى شىء الثقافة . . لا بد أن تثقوا أنفسكم . . والثقافة ليست بالشهادات . .
الثقافة بالقراءة . . اقرأوا فى كل الاتجاهات وفى كل المجالات . . الشىء الثالث الذى
أوصيكم به هو أن تعملوا تنظيمكم عمكاً بحيث لا يتسرب إليه أى غريب
أو تنال منه أية دميصة . . لقد عانيت الكثير فى حياتى من الخيانات والغدر . .
ثم التفت لى وسألنى فجأة . .

ماهى علاقتكم بالإخوان المسلمين ؟

قلت : لقد صارحت الشيخ البنا منذ البداية أننا نعمل من أجل مصر لا من
أجل أى حزب أو كتلة .

قال : رائع ! . . هذه هى نقطة البدء . . سليم .

فى نهاية اللقاء اتفقنا كيف نتقابل وأين . . كان بيته فى عين شمس ولكنه
كان مراقباً من المخابرات المصرية والبريطانية . . قلت إنه يمكننا التغلب على هذا . .
فمعنا فى التنظيم بعض ضباط الشرطة وفعلاً كنت أذهب لزيارته فى بيته وأحياناً
كنا نلتقى فى جروبى . . وفى مرحلة من المراحل كان يسكن فى بنسيون وسط
البلد اسمه الفيواز . . وكنت ألتقى به هناك أيضاً . .

وهكذا استمرت اتصالاتى بعزيز باشا المصرى . . كما لم تنقطع منى

بالشيخ حسن البنا . . وفي هذه الأثناء كنت أوسع دائرة الضباط الأحرار يوماً بعد يوم . .

تلاحقت الأحداث فتصوات هتلر تحتاج أوروبا بسرعة غير متوقعة ومركز الإنجليز يزداد ضعفاً كل يوم وفي كل مكان . . بحيث جعل الفرصة تبدو أمامنا قريبة جداً لكي نصرب ضربتنا ونخلص من المستعمر والأحزاب . . في هذه الأثناء صدرت الأوامر بنقلى إلى مرمى مطروح في أقصى الشمال كضابط إشارة لآلاى المدفعية . . وهناك تابعت نشاطى بشكل مكثف بين الضباط . .

كان الجيش المصرى إلى ذلك الوقت يشترك مع القوات البريطانية في الدفاع عن الصحراء الغربية ضد قوات المحور مما جعل مصر طرفاً في النزاع العالمى رغم أن المحور لم يعلن الحرب علينا . . وأصبحت الصورة بهذا أننا نحارب لحساب انجلترا مما ينتقص بطبيعة الحال من سيادة مصر التى نصت عليها معاهدة سنة ١٩٣٦ . . هذا إلى جانب الشعور العام بأن عدونا الأصيل إن لم يكن الوحيد هو انجلترا وليست أية قوة خارجية أخرى . .

لم يكن الرأى العام في مصر راضياً بأى حال من الأحوال عن هذا الوضع بل كان في الواقع ساخطاً عليه كل السخط . . ففي حديث دينى لشيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى . . وكان شخصية مرموقة . . قال عبارة أصبحت تتردد على كل لسان . . وهى أنه لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب . . ثم جاء على مامر رئيس الوزراء في ذلك الوقت وأعلن في البرلمان سياسة تجنب مصر وبلات الحرب . . وهى السياسة التى أقرها البرلمان على الفور وبالإجماع وبناء عليه صدرت إلينا الأوامر بالزول من مرمى مطروح وكان هذا معناه أن يتولى الإنجليز وحدهم الدفاع عن القطاعات الثلاثة الموجودة في المنطقة - وكنا قبل ذلك نتولى نحن الدفاع عن قطاعين منها . .

أغضب الإنجليز هذا الإجراء فطلبوا منا تسليم أسلحتنا قبل انسحابنا من مواقعنا . . وهنا ثارت نائرتى ولكنى سمعت لأن هذا الطلب كفيل بتعبئة الشعور العام للضباط ضد الإنجليز وضد قيادة الجيش المصرى التى وافقت على

الطلب فهذه إهانة عسكرية لنا ثم إننا بحاجة إلى السلاح . . اتصت بجميع الضباط وكانت النتيجة الإجماع على عده التخلي عن السلاح . . وإذا صمم الإنجليز على تجريدنا منه فليس أمامهم وأماننا إلا القتال . . ولما علمت إدارة الجيش بقرارنا سلموا بمطالبنا فصدرت الأوامر بالانسحاب مع الاحتفاظ بالسلاح . .

كان هذا في صيف ١٩٤١ وهنا دبرت أول خطة لأول ثورة . . فاتفقت مع جميع الوحدات المنسحبة من مرمى مطروح على أن نتقى في وقت محدد عند فندق مينا هاوس في نهاية طريق الإسكندرية القاهرة الصحراوي وهناك بدأ التجمع وتدخل القاهرة فنصرب الإنجليز . . ونستولى على السلطة . .

إلى هذا الحد كان الإنجليز في ذلك الوقت على قدر من الضعف جعلنى وزملائى تقدم على هذه المغامرة دون أن نحسب حساب نتائجها . . نعم . . كانت هناك خطة مرسومة وكانت تفاصيلها كلها معى ولم يكن للإخوان المنمنمين أو لأى تنظيم مدنى آخر أى دور فيها . . ولكن هل كان هذا يكفي ؟ المهم أنى أخذت وحدتى من مرمى مطروح وفي قفزة واحدة وصلنا إلى المعجمى عند مدخل الإسكندرية . . حيث قضينا ليلتنا وأنا في غاية المعادة فى القيد سوف ألقى بالوحدات الأخرى عند مدخل مينا هاوس وسوف ندرس الخطة معاً ونوزع الواجبات ونختار الوقت المناسب ثم ندخل القاهرة ونحقق ثورتنا . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . فعند مينا هاوس لم تكن هناك أية تجمعات فغسلنا العربات . . وجلست أنا وجنودى في انتظار الوحدات . . ولكن عبثاً . . لا بد أنهم سبقونا إلى القاهرة . . قلت في نفسى . . وبعد طول الانتظار . . أمرت وحدتى بالسير إلى معسكرنا في المعادى . .

وهكذا لم تتحقق لنا أول ثورة دبرتها . . ولكن ربما كان هذا من فضل الله . . فلو أن هذه الثورة قامت ثم فشلت لتنبه المسئولون ولشددوا الرقابة على الجيش ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو . .

أخذت المسألة بروح رياضية ولذلك بدلا من أن يعرف البأس طر يقه إلى قلبى رحت أكثف اتصالاتى بجميع أسلحة الجيش . .

وانسعت الدائرة كما لم تتسع من قبل ففي كل يوم كان ينضم أعضاء جدد إلى تنظيم الضباط الأحرار . . كان عبد المنعم عبد الرؤوف ثاني . . وكنا نعقد الاجتماعات في بيته بالسيدة زينب أو عندى في كوبرى القبة أو في فيلا حسن عزت وسعودى بكوبرى القبة أيضاً . . وفي هذه المرحلة بدأنا في عمل اللجان فكانت هناك لجنة للاتصالات باحثات البنية ولجنة للاتصال بالضباط المتمين للتنظيم في الأسلحة المختلفة . . ولجنة ثالثة لا أذكر الآن ماذا كانت مهمتها بالضبط . . وفي نفس الوقت داومت على اتصالى بالإخوان المسلمين وعزيز المصرى .

٦

في أواخر عام ١٩٤١ التفت بعزيز المصرى في جروف بناء على طلبه . . كان بحاجة إلى مساعدة تنظيم الضباط الأحرار لتمكينه من السفر إلى العراق . . فقد وصلته رسالة من الألمان يطلبون فيها سفره لمعاونة رشيد على الكيلاني في ثورته التي قام بها في العراق ضد الإنجليز . . في هذه الأثناء كان الإنجليز قد أفلحوا في استصدار أمر من الحكومة المصرية بإحالة عزيز باشا إلى المعاش . . وكانت المخابرات على علم باتصالانى به فأنذرونى بالابتعاد عنه ولكنى لم أعبأ بإنذارهم فقد كان من واجبي مساعدته . . إلا أننا - كما قلت له - لا نملك من الوسائل سوى ما قد يمكنه من بلوغ بيروت وهناك يستطيع أن يتصرف . .

بعد ذلك بقليل أبلغنى عزيز باشا أنه تسلم رسالة ثانية من الألمان يقولون فيها إن طائرة ألمانية ستكون في انتظاره عند جبل رزة في مدخل طريق الفيوم في يوم معين ساعة الغروب . .

هنا أدركت سر مجموعات الرحالة الألمان الذين كانوا يفقدون إلى الصحراء الغربية ويفضلون طريقهم فيها - كما كنا نقرأ في الجرائد قبل الحرب . . كانت هذه الرحلات في الحقيقة بعثات استكشاف فقد أصبح من الواضح أن الألمان قد درسوا توپوجرافيا الصحراء دراسة كاملة وإلا فكيف توصلوا إلى معرفة جبل الرزة وهو نقطة صغيرة على الخريطة لا تكاد العين تمييزها ؟

اشترينا عربة من نوع (البيك آب) الصالح للسير في الصحراء ولكن صاحب الغل أبلغ عن بيع السيارة طبقاً للأوامر حينذاك . . عرفت المخابرات أنى اشتريتها . . شكوا في الأمر فصدرت الأوامر بإبعادى إلى مكان اسمه الجراولة لا يبعد كثيراً عن مرسى مطروح . . تمارضت ودخلت المستشفى العسكري حيث أعطونى إجازة لمدة أسبوع لم تكن كافية لتنفيذ خطة هروب عزيز باشا فوضعت الخطة بين يدى عبد المنعم عبد الرؤوف وذهبت إلى الجراولة حيث التقيت لأول مرة بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك فاروق بعد ذلك . . والذي لعب دوراً مرموقاً دون أن يدري في مسيرة ثورتنا نتيجة للصداقة التي نشأت بيننا . .

لا أعلم ما الذى حدث للعربة الـ (بيك آب) . . أغلب الظن أن الإنجليز استولوا عليها . . وإلا لما بلغا عبد المنعم عبد الرؤوف بالاشتراك مع حسين ذو الفقار صبرى وكلاهما طيار ماهر إلى الاستيلاء على طائرة حربية وضعا فيها عزيز المصرى وحقائبه للسفر إلى بيروت (التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لحكومة فيشى التي سلمت للألمان) . ولكن بعد أن أقلعت الطائرة بدقائق معدودة اكتشف حسين ذو الفقار صبرى أن الزيت قد نفذ فيبدو أنه بدلاً من أن يفتح طلبية الزيت أغلقها فاضطر إلى الميوط فوق شجرة في أحد الحقول بينوار بينها . . ومن هناك استطاع ثلاثهم بمساعدة مأمور قليبوب الوصول إلى القاهرة حيث اختبأوا . .

في هذه الأثناء اكتشفت حادثة الطائرة واكتشفت أيضاً حقيقة في مكان الحادث وعليها الحرفان A.M. أى . . عزيز المصرى . . فأتجهت الشكوك إليه وخاصة بعد أن وجدوا أن الطائرة كانت موجهة إلى بيروت . . ولعلمهم بميوله المعادية للإنجليز أدركوا أنه كان في طريقه للاتصال بالألمان في العراق .

ولما كانوا على معرفة باتصالانى به قبضوا على فوراً في الجراولة ونزلوا في إلى القاهرة وأنا تحت الحراسة . .

وصلت القاهرة في الصباح المبكر فتوجهوا بي إلى وزارة الحربية حيث جلست في مكتب سكرتير الوزير أقرأ في كتاب أرمسترونج « الذئب الأغبر »

وهو كتابه المعروف عن أتاتورك . . كنت مستغرقاً في القراءة فلم أشعر إلا بعد فترة أن هناك من يقف أمامي ينظر إلى ويتفحصني . . كان إبراهيم باشا عطا الله رئيس الأركان ومن حوله طاقمه . . وقتت على الفور وأديت له التحية العسكرية . . نظر إلى من حوله وقال :

— هذا هو البوزباشي محمد أنور السادات ؟
أخبروه أنني قد وصلت في الصباح من الصحراء الغربية فنظر إلى في ازدراء ومضى . .
قلت في نفسي إنه لو كلف خاطره ونظر إلى الكتاب لأدرك الكثير . . وبما . .
وبما لم يكن ليذكر شيئاً على الإطلاق . .

استدعوني في المساء للقاء وكيل النيابة وانتظرت دوري . . كان الرجل مشغولاً في أخذ أقوال شهود حادث الطائرة وشهود سلاح الطيران وكان عددهم كبيراً فانتظرت طويلاً وفي هذه الأثناء كنت قد أعددت نفسي للقاء إعداداً كاملاً . . فقد قرأت الجرائد وعرفت منها كل ما حدث . . أخيراً وفي منتصف الليل استدعيت وسألني وكيل النيابة . .

— هل لك صلة بعزيز المصري ؟ وهل كنت تزوره ؟
وأجبت : نعم لي صلة به وقد طلبت مني المخابرات قطع هذه الصلة ولكنني لم أستمع إليهم فليس في هذه الصلة في نظري أي جرم أو مخالفة . .
وعاد يسألني :

— هل تعرف عبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى ؟
— طبعاً ونحن دفعة واحدة وأصدقائه

— ألم يتصل بك عزيز المصري بشأن سفره خارج القطر ؟

وأجبت : أنا اتصالي بعزيز باشا تقصوم كلها على الحب والوفاء . . فمنذ أن زارنا في متعباد وأنا معجب به .

واستمريت في وصف تلك الزيارة وكيف أخذنا إلى الدبر المحرق وماذا رأينا هناك إلى أن اختتمت حديثي الطويل بقول :

— بعد أن أحبل عزيز باشا إلى المعاش وجدت أنه من باب الوفاء أن أزوره
بين الحين والحين . . هذا كل ما في الأمر .

— هل عندك أية معلومات عن محاولة السفر أو أية اتصالات تمت بينه وبين السادات ؟

قلت : ومن أين لي مثل هذه المعلومات وأنا على بعد ٥٥٠ كيلو من القاهرة وقد سافرت إلى الجراولة قبل الحادث بخمسة أيام ؟
لم يتعد وكيل النيابة أي دليل على إدائتي فأمر بالإفراج عني وعودتي إلى عسك بالجراولة . .

هذه ميزة سيادة القانون . قلت في نفسي وأنا في طريق العودة إلى الصحراء . . ولم يكن هذا كل ما قلته . . كان الحوار بيني وبين نفسي طويلاً . . ما الذي حدث لعبد المنعم عبد الرؤوف وحسين ذو الفقار صبرى ؟ ما الذي عرف . . وعزيز المصري . . ماذا كان مصيره ؟ ونساءلت عن سبب قلقي لنفس حبيب صديقه إلى العراق . . وجاءني الجواب . .

مما لا شك فيه أنه كان سيساعد في نجاح ثورة رشيد عالي الكيلاني . .
الإنجليز في العراق . . وكل ما من شأنه إضعاف مركز الإنجليز في الشرق الأوسط كان يهني في المقام الأول .

أليس في إضعاف العدو — أينما كان — مزيداً من عرضي لنصرنا
ضربتنا . . ؟

٧

في أواخر عام ١٩٤١ صدرت إلبا الأوامر بالسفر من مرسى مطروح والذكر أن كتيبة عبد الناصر كانت على مشربة ما في جهة جهة الحمام . . وأنه ما يكن فيها . . كان في السودان ولم يعد منها إلا في ديسمبر سنة ١٩٤٢ . . في الصحراء أخذت فرقة لافري وفي أثناء حمل بالفرقة دومت مشاطي السيلاني في ساء تطير الصباط الأحمر .

في ذلك اليوم كانت طائرة حسن إبراهيم هي التي تحت الإنذار فأعطاهما لسهودي
الذي طلع بها كأنه في دورية عادية ثم اتجه إلى العلمين .

كانت طائرة من طراز بريطاني طبعاً يسمى جلادياتور ولذلك فرغم إشارة
الصدقة أطلق الألمان نيرانهم عليها فوق العلمين فانفجرت بسودي وما فيها .
وعندما اكتشف فقدان الطائرة قدم حسن إبراهيم للمحاكمة وتأخرت أقدميته
ولكنهم لم يتمكنوا من الكشف عما وراء الحادث من تنظيم .

في ذلك الوقت كنت أعمل بسلاح الإشارة في الجبل الأصفر بالقرب من
القاهرة . . وكنت أنتظر إشارة من سودي أو من الألمان ولكن طال الإنتظار
فبدأت أفلق . . في هذه الأثناء حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها فقد أتى إلى زميلي
حسن عزت ليقول إن ضابطين من الجيش الألماني يريدان الاتصال بي للتعاون
فقرحت وقلت هذه نجدة من السماء .

كان أحدهما واسمه (أبلر) من أم ألمانية متزوجة من مستشار مصري أنجبت
منه ولدا اسمه حسن جعفر . . كان حسن الخلق . . أما (أبلر) واسمه العربي حسين
جعفر فقد طرده زوج أمه المستشار لسوء سلوكه بعد أن عاش فترة غير قصيرة
من عمره في مصر ولذلك عندما التقيت به وجدته يتكلم العربية كأحد أبناءها . .
أما الضابط الآخر زميله - وكان ضابط إشارة فلم يكن يعرف العربية إطلاقاً . .
سألتهما كيف دخلا مصر فعرفت أنهما تنكرا في ملابس ضباط الجيش الثامن
البريطاني ثم عن طريق طرق القوافل التي لا يعرفها إلا بدو الصحراء دخلا إلى
الواحه الخارجة ومنها إلى أسبوط بالقاهرة .

في القاهرة توجه أبلر ومعه زميله ساندی إلى ملهى (الكيت كات) بسهران
ويعربدان ليلة بعد أخرى دون حساب فقد كانت معهما كميات كبيرة من
الجنينيات الاسترلينية المطبوعة في اليونان . . ولفت البذخ الذي يعيشان فيه أنظار
الجميع فأبلغت عنهما إحدى راقصات (الكيت كات) . . ومنذ ذلك اللحظة
وضعت تحت رقابة المخابرات البريطانية . . كل هذا عرفته بعد ذلك . . أما عندما
التفتنا فلم أكن أعرف سوى أنهما يعيشان في دهبية على النيل قرب (الكيت كات)
استأجرتها لمسا حكت فهى إحدى فئات ملهى بدعية مصابى . . وأن معهما

جهاز لاسلكى

ذهبت معهما إلى الدهبية لأرى الجهاز فوجدت جهازين أحدهما ألماني وهو
المعطى وآخر أمريكي جديد تماماً Hallicrafter Sky Challenger وهو
جهاز قوى تماماً وممتاز ولكن أبلر أخبرنى أنه بعد عطل الجهاز الألماني
انصل سراً بسفارة سويسرا التي كانت ترعى شؤون ألمانيا في مصر . . وأن القائم
على هذه الرعاية وهو ألماني قد أمدهما بجهاز لاسلكى أمريكى وجدت أنه
أفضل بكثير من الجهاز الألماني المعطل ولكن ليست عند الجاسوسين مرسية
فأقرحت أن أشغله بمفاتيح مصرية . .

ووافقا وبالفعل أخذت الجهاز معى وتاديت (تاكسى) وضعته فيه ونوجهت
إلى بيتى في كوبرى القبة . .

في البيت جربت الجهاز فوجدته في متنى القسوة والخودة . . وكنت سعيداً
بذلك كل السعادة فأخيراً استمكن من الاتصال بروميل وتعرض عليه شروطنا
التي سبق أن ضمنها مشروع المعاهدة معه وتتي بت اعتقد أنها لم تصله . .
ولأقيم هذا الصمت وإلى متى نترك الأمور كما هي والوقت يعزى بسرعة
وروميل قد يدخل القاهرة في أية لحظة وإذا حدث هذا دون اتفاق سنكون
علم بوجود حركة مقاومة مصرية ضد الإنجليز ومدى ما يمكن أن يفعله خصم
له من مساعدات مقابل استقلال مصر فسوف يكون مصير البلاد مستعسراً واحتلال
البريطاني باحتلال آخر ألماني أو إيطالي . . ونحن لا نريد هذا بأي حال من
الأحوال . .

لم يكن أمامى أى مخرج من هذا المأزق سوى الاتصال بروميل . . وهذا
أخيراً قد حصلت على وسيلة الاتصال بعد أن فشلت الوسيلة الأولى كما أصبح
واضحاً . .

لم يبق أمامى إلا أن آخذ الجهاز إلى الورشة عندى في الجبل الأصفر وأجرب
تجربة نهائية ثم نبدأ الاتصال . .

لم تكن عندى أية فكرة أن أبلر وزميله ساندی قد دخلا
في الصباح عندما وصلتنى أنا وحسن عزت رسالة من ملهى دهبية . . وهو
الأسير في حضانة مصر جبراً . . بدأ أسير ومعه قد فطر جيباً خفية المخابرات
البريطانية

كان لابد من إخفاء الجهاز فأخذه وذهبت مع حسن عزت إلى صديق له يسكن في شبرا ولكن لسوء الحظ وجدنا بيته مغلقاً وقالوا لنا إنه سافر إلى قريته فعدت بالجهاز إلى بيتي في كوبري القبة وأخفيت في حجرة من الحجرتين اللتين كنت أشغلها . . وفي نفس الليلة وصل زوار الفجر . . قرعوا الباب مرة . . مرتين . . عدة مرات حتى استيقظ أهل البيت . .

— اليوزباشي أنور السادات ساكن هنا ؟

— نعم . .

دخلوا مباشرة . . فرقة ضباط كاملة من المصريين والإنجليز . . وحوالي ٢٠ أو ٣٠ غيراً ملأوا الحديقة والبيت كله حتى أصبح من الصعب معرفة عددهم وكان عندنا في الحديقة كلب بلدى عادى فما أن شاهد هذا الجيش من الغزاة الغرباء حتى اتخذ لنفسه موقفاً إلى جانب القرن وأخذ ينبح بشدة ولا يكف عن النباح محتجاً ربما . . ولكن في أغلب الظن مدافعاً عن القرن مصدر لقمة العيش لأهل هذا البيت المادئ المظلم الذى يأوى إليه والذى هو في الواقع أحد أفراد . .

— أين حجرتك . . ؟

سألوني فأشرت إلى إحدى حجرتين كنت أشغلها في بيت أبي وكانت حجرة نومى . . فتشوها وفي أثناء التفتيش لاحظ سيف اليزل ضابط المخابرات المصرى وجود مدس آخر إلى جانب مدسى العكرى فما كان منه إلا أن تناوله ووضعه في جيبه ببساطة . . لم أكن أعرفه معرفة خاصة أو يعرفني ولكن كانت تربطنا صلة أقوى من أية صلة . . وهى الوطنية المتأججة في صدر كل مصرى . . أيا كانت وظيفته .

بعد الانتهاء من تفتيش حجرة نومى طلبوا تفتيش الحجرة المجاورة وكانت حجرة مكتبى . . قلت لهم إن حريم الأسرة بهذه الحجرة وإن تقاليدنا تقتضى إخلاءها قبل دخولهم . . فمحموا لي بذلك . .

ودخلت الحجرة . . كان بها جهاز اللاسلكى ومفيحة بارود كنا نستخدمه في القرية من خشب شجر الصفصاف والسماد . . طلبت من أخى الأكبر

طلعت أن يأخذ الصفيحة والجهاز ويخفيهما في أى مكان . . وفعلنا أخذهما طلعت وخرج من الباب الخلقى للبيت حيث دفن الجهاز في وقود الفرن وتركه والصفيحة في حراسة الكلب الطيب الذى غطى نباحه المستمر جميع تحركات طلعت . .

في حجرة المكتب لم يجدوا غير بعض الكتب فأخذوها . . وطلبوا منى أن أذهب معهم . . وأخذوني إلى سجن الأجانب . . رفضت دخوله فالتقانون يقضى بأن حبس أى ضابط في الجيش المصرى لا يكون إلا في ميس الضباط حيث يقسم على حراسته ضابط مثله . . هكذا قلت لهم . . وخضعوا لسيادة القانون . . واقترحوا أن أقضى بنية ليلتي ضيفاً على البوليس في مكاتب الفرقة (ب) بمحاردين سيقى إلى أن ترسل قيادة الجيش في طلبى في الصباح . .

قبلت . . وفي اليوم التالى كنت في ميس الفرسان . . وكان هناك أيضاً زميلى حسن عزت . . ولكن أنا في طرف وهو في الطرف الآخر . . لا تيمعنا إلا وجبة الإفطار حيث يجلسنا المرحوم أحمد رياض قائد الفرسان جنباً إلى جنب ويهمس إلينا بأن تنهى حديثنا بسرعة إذ لابد بعد الإفطار أن يتوجه كل منا إلى مكانه . . تماماً كما حدث عندما وضع سيف اليزل مدسى في جيبه لانتقضى . . مصريون كلنا ومتعاونون . . ضد العدو والسلطة . . ورغم وظائفنا المتباينة . . ورغم واجباتنا الرسمية . . ودائماً . . ورغم كل شيء . . لأن واجب الوطن كان فوق كل شيء . .

ثلاثة أيام بلياليها لم أذق طعم الأكل . . كنت فقط أشرب الماء ولا أرتوى وكأن شيئاً يحترق بداخلي . . فقد كان عقلى يعمل ليل نهار بحثاً عن مخرج مما أنا فيه . .

لم يكن هناك سبيل إلى الإنكار . . كنت أعلم ذلك جيداً فقد قابلت أبلر مرات ومرات . . الطريق الوحيد إلى الخلاص هو التبرير . . والتبرير المنسج المنكامل . . لكل ما حدث . . — ولكن كيف . . ؟

بعد جهد وعناء مستمر وفي نهاية الأيام الثلاثة كنت قد ألفت في رأسى قصة كاملة تتصل بكل ما حدث وتمر من وسائل الحكم بجميع الصنف . .

أطلعت زميلي حسن عزت على تفاصيل القصة كلها حتى لا تتناقض أقوالنا في التحقيق . . وبعد ذلك استرحت وعدت إلى حياتي الطبيعية آكل وأشرب . . .

أخذونا بعد ذلك إلى رئاسة الجيش حيث وقفنا في طابور . . ليتعرف علينا الجاسوسان مرة بعد مرة كالصاروخ . . كان إبلر يتوجه إلى مباشرة ودون أي تردد . . أما ساندی فكان أقل جرأة من زميله فهير يسير أمام الطابور إلى أن يصل إلى مكاني ثم يشير إلى . .

قدمونا للمحاكمة أمام مجلس التحقيق تمهيداً للمجلس العسكري العالي . . وكان مجلس التحقيق يتكون من اثنين من الضباط الإنجليز وضابطين من الجيش المصري وضابط بوليس هو كمال رياض من الفرقة (ب) شرطة . . تشكيل خاطيء دون شك .

وبدأت المحاكمة :

— تعرف إبلر ؟

— لا .

— تعرف حسين جعفر ؟

— لا .

— تعرف هذا الذي تعرف عليك ؟ (وأشاروا إلى إبلر) .

قلت : طبعاً أعرفه . . إنه ماجور إبراهيم من الجيش الانجليزى .

ارتبك المجلس لحظات . . ثم استمرت المحاكمة .

— ألم تأخذ منه جهاز لاسلكى ؟

— جهاز لاسلكى ؟ . طبعاً لا . . هذا الرجل قدم لى نفسه وزميله على أنهما من ضباط سلاح الإشارة الإنجليزى . . وأنا بطبيعة عملى أتعاون مع هذا السلاح ولذلك التقينا أكثر من مرة .

ولما كانت أحسن وسيلة للدفاع هى المعجوم . . التفت إلى إبلر وسأله فجأة :

— أذكر لقاءنا فى محل الجمال يا ماجور إبراهيم ؟

— نعم أذكره . . ولكنى لم أقال لك أن إسمى إبراهيم بل قلت لك لانى أمانى واسمى . .

— لو قلت لى هذا كنت أبليت عنك .

قال : وماذا عن الذهبية ؟ .

أنكرت ضبعاً مكان الذهبية . . قال يذكرنى :

— هل نسيت عندما نبح الكلب وأنت خارج من الذهبية ومعك الجهاز ؟

من غيظى ضغطت على قدمه بكل قوة .

وقف على الثور من الألم وقال :

— لماذا تدوس على قدمى الآن ؟ .

قلت متدهشاً : — أنا دست على قدمك ؟ لماذا تدعى على بما لم يحدث ؟

الذهبية . . والجهاز . . ونباح الكلب . . والآن قدمك ؟ ما قصدك من كل هذا ؟

قال : لا فائدة . . لقد اعترفت بالكامل . . وينب أن نعرف مثلنا .

قلت بمتى المدوء : أعترف بماذا ؟ . . أنا أعرفك فعلاً . . ولكن كضابط إنجليزى .

قال : وماذا عن مصر الجديدة ؟

كنت قد قبلت بعزيمتى المصرى فى مصر الجديدة ولكنى قلت : .

— نعم حدث . . لقد التقينا فى مصر الجديدة .

وعاد إلى السؤال : وفى مصر الجديدة من كان معنا ؟

اخترعت قصة كاملة مؤداها أنه أتى إلى فى محل (صولت) بمصر الجديدة ويومها أخبرنى أن زميله ساندی مريض .

أتوا بحسن عزت وكانت أقواله مطابقة تماماً لأقوالى .

بعد ذلك أتوا بساندی ففعلنا به ما فعلناه بإبلر .

انهارت أركان القضية . . فأعادونى وحسن عزت إلى مجلس الضباط معتمدين .

فى هذه الأثناء . . وفى شهر يوليو عام ١٩٤٢ على وجه التحديد . . جاء نشر مثل

إلى مصر في زيارة سرية وغير الشيادة وعين موننجومرى وذهب إلى العلمين ليرفع الروح المعنوية بين القوات البريطانية .

وكما علمت بعد ذلك . . اننى بالجاسوسين أبلى وزميله ووعدهما بحياتهما إذا اعترفا وكان هذا سر اعتراف أبلى الكامل .

بقيت معتقلاً في ميس القباط إلى أن أتى رمضان وفي يوم قبل المغرب بساعة تقريباً دخل على أنى صاحب الوجه يبدو عليه الإعياء والإنهايار . . كان يقوم على حراستى ضابط مدفعية . . فقام لتوجه وتركتنا وحدنا حتى نتكلم بحرية . . سألت أنى عن سر الزيارة فأجاب وهو يتجمع أنفاسه :

— انيؤه أنى إلى اللواء على باشا موافى رئيس إدارة الجيش . . وقال لى إن موقفك هنا في القضية ميثوس منه والأفضل له أن يعترف . . فى هذه الحالة سيصدر عليه حكم مخفف أما إذا لم يعترف فسوف يقتلونه ربما بالرصاص في السجن .

أدركت ساعتها أن جميع جهودهم لإقامة قضية قد فشلت تماماً . . ولذلك فهم يلجأون إلى هذه الحيلة الرخيصة كمحاولة أخيرة .

قلت لأنى : لكى يضربونى بالرصاص لابد من مجلس عسكري عال وتهمة تثبت على . . هذا هو النظام في الجيش . . ولو كانت هذه التهمة فى أبلديهم فعلا لما لجأوا إليك لتطلب منى الاعتراف .

اقتنع الرجل . . وكان رحمه الله يأخذ كلامى أمراً مسلماً به . . فاسترد أنفاسه وزال اضطرابه . . وخرج بعد أن تناول الإفطار معى وهو مطمئن كل الإطمئنان أن لا خطر على حياة ابنه على الإطلاق .

فى اليوم التالى . . كما عرفت بعد ذلك . . زاره فى مكتبه موافى باشا ليعرف نتيجة اللقاء وكان رد أبى عليه .

— اسمع يا باشا . . إذا كان ابنى غلطاً فاضربه بالرصاص . . وإذا كان بريئاً فواجبكم أن تعيدوه إلى عمله .

وحذره موافى باشا من نتيجة إصرارى على عدم الاعتراف . . وكان تعليق أبى الوحيد أن افعلوا ما شئتم . . ولكن ليس لدى أكثر مما قلته .

فى هذه الأثناء كان موننجومرى قد حشد حشوداً هائلة حتى يضمن المعركة مائة فى المائة وقطع على روميل خطوط إمداداته فى البحر الأبيض . . وبذلك بدأت أعصاب الإنجليز تهتدأ تغيرت نظرتهم إلى قضيتنا . . وكانت النتيجة أنه فى يوم ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ قبل المغرب بساعة طلبنى رئيس أركان حرب قسم القاهرة وأبلغنى أنه قد صدر النطق الملكى السامى بالإستفتاء عن خدماتى .

خامت الرتب . . وتقدم منى محمد إبراهيم رئيس القسم السياسى بالبوليس وقال : — تعال معنا إلى المحافظة لعمل بعض الإجراءات .

فهتأ أنهم بصدد اعتقالى فسألته :

— إلى أين نحن ذاهبون بالضبط حتى يعرف المراسلة أين أنا فيحضر لى طعام الإفطار ؟ — فأجاب باختصار . . « سجن الأجانب » .

وفى رمضان ١٩٤٢ عندما ألقوا القبض على مقابيل جهودى للتخلص من الإستعمار الإنجليزى سرت إلى سجن الأجانب .

وطوال الطريق . . كان يرتفع أمام عيني طيف زهران وهو يسير رافع الرأس سعيداً بما فعل لا يخشى الموت الذى سيلقاه بعد قليل .

لقد فعلت أخيراً ما فعله زهران . . وإذا غامر فى هذا الشعور أدركت — كما لم أدرك من قبل — أن زهران لم ينهزم قط . . ورغم أنهم حكموا عليه بالإعدام . . أن إرادته لم تمت .

ألم أكن أنا امتداداً لهذه الإرادة التى سرت فى كيانى منذ طفولتى ؟ إرادة النصر والتحدى ؟ .

بلغنا السجن وإذا كنت أسمع فى سجنى من سجنى بضميرى صرخ غريب بما فى داخلى من قوة لا يدرك مداها سوى .

لقد انتصرت كما انتصر زهران من قبل .

رغم موته . . ورغم تجريدى من رتبى واعتقالى . . رغم كل شئ . .

الفصل الثاني

نحو تحرير الأرض

كانت هذه أول مرة أدخل فيها سجن الأجانب . . وكان ذلك في ٢٦ رمضان سنة ١٩٤٢ ميلادية وهي (ليلة القدر) . . موسم من المواسم الدينية التي تحتفل بها في مصر عامة وفي الريف على وجه الخصوص . . فتذبح بطة أو أوزة أو دجاجتين . . كل حسب مقدرته المالية .

كان سجن الأجانب مخصصاً للعمليات المتعلقة بمعركة الإنجليز ولذلك كان مأموره متر هيكمان الملطي الأصل البريطاني الجنسية .

دخلت الزنزانة الخاصة بي وكانت في الدور الأول وبعد قليل جاء المغرب وأحضرت المراسلة الطعام فصليت وتناولت طعام الإفطار .

إلى هنا كانت حالتي عادية . . لم أكن بعد قد أحسست بالصدمة . . ولكن بعد أن أكلت ودخنت سيجارة (وقد كان التدخين مسموحاً به في سجن الأجانب دون بقية السجون) بدأت حيرتي ورحت أنساءل . . ما هو الحل ؟ سوف أقضي مدة السجن ولكن ماذا سأفعل بنفسى بعد ذلك ؟ وقد جردت من رتبتي ولم يعد لي عمل ؟

واستمرت التساؤلات واستمرت الحيرة ساعة . . ساعتين . . ثلاث ساعات لا أدرى . . وأنا أسير في الحجيرة من ركن إلى ركن ومن حائط إلى حائط ولكن لا إجابة واحدة عن تساؤلاتي . . وأخيراً جلست على الأرض وأسندت ظهري إلى السرير كما نفعل في القرية . . وبما لأنى عندما أجلس على الأرض أحس أني قريب من الطبيعة والنظرة وربما لأنى تعودت الجلوس على الأرض في القرية - لا أعرف . . ولكن فجأة خطرت فريقي على بالي . .

كان مجرد خاطر ولكنه وضع كلام من الصخر والصلب بداخلي . . ففكرت هناك قابضة في خضن الدلتا . . وسوف أعود إليها فقيم التلق وفيه البحث عن مصير ؟

إن القرية هي الاستقرار . . أقل إنسان في القرية وأضعف وأفقر إنسان دائماً مطمئن . . لماذا ؟ لأن عنده داره . . ومهما كانت صغيرة حتى ولو كانت عبارة عن قاعة واحدة ودورة مياه ومسطبة . . فإنه عندما يغلق بابه عليه يصبح أكثر الناس اطمئناناً واستقراراً . .

هذه هي روح الفلاح في كل مكان . . الأمن والاستقرار . . لأنه مرتبط بالأرض يعطيها فتعطيه . . يكفيها فتكفيه دون الحاجة إلى أي إنسان . .

لم أكن قد عرفت نفسي بعد . . ولكن في تلك اللحظة الحاسمة من حياتي وأنا أواجه نفسي في السجن غدت جانباً من جوانب شخصيتي . . فقد أدركت أنه يكفي أن أكون فلاحاً بسيطاً لكي أكون سعيداً . .

هذا الإحساس بالتقانة بالأرض - حتى ولو لم تتعدى رقعتها القندانين وهي كل ما أملك - أصبح وأنا في سجن الأجانب مصدر قوتي . . وما زال . . ففي أي وقت وتحت أية ظروف أحس أني غني بكوني فلاحاً عن كل شيء . . فالأرض هناك وفي أي وقت يمكن أن أعود إليها أزرعها وأفلحها بيدي . . وفي هذا الكفاية بل أكثر من الكفاية . . فأمرى دائماً بيدي . . وإرادتي هي إرادتي وحدي . . وأنا سيد نفسي . .

وخطر لي خاطر مر برأسي كسحابة سوداء تحجب الشمس للحظة . . إن الغالبية العظمى من الناس تطلب ما لا تملك . . ومن له مطالب . . من يطالب في شيء ، يقل حول حياته عبداً لهذا الشيء . . رسم له يسير حراً يسير الحركة لا يعيش وراء القضبان . . كما أنا في سجن الأجانب .

٢

كان سجن الأجانب يختلف عن بقية السجون . . ففي كل زنزانة سرير وبند . . وكرسی وطاولة صغيرة . . حتى التدخين - كما سبق أن قلت - كان مسموحاً . .

به ولكن بشرط أن يشعل السجناء السجارة ويقدمها لك . . . فليس من حق
السجين أن يحمل معه كبريتاً أو ولاعة .

ولما وجدت الأمور بهذا الشكل تشجعت وضربت اخراشك فحضرها
لى ومعها بعض الكتب (تفرقة حتى فى السجن فعندما دخلت سجن مصر
بعد ذلك بفترة مكثت به سنة كاملة معزولاً عن العالم الخارجى . . فلا جرائد
ولا كتب ولا فراش ولا مقاعد ولا شيء على الإطلاق) . .

فكرت فى أن أقوى نفسى فى اللغة الإنجليزية فضنبت بعض الكتب بهذه اللغة
وأرسل إلى هيكلان مأمور السجن مجموعات من القصص القصيرة وغيرها . . .
الكتب التى ما زلت أذكرها كتاب عن جمعية فى الريف الإنجليزى يجتمع أعضاؤها
كل أسبوع ويتناول كل واحد منهم موضوعاً يتكلم فيه - نظرتهم للحياة - ما يحدث
فى قريتهم أو القرى المجاورة أو أحوال الخصاص والعطش . . . الخ . . .
ويسجلون ما يدور فى الاجتماع ثم فى نهاية كل ثلاث شهور يجتمعون
أحاديثهم فى كتاب .

رافقتي الفكرة كثيراً فعزمت على أنه بمجرد خروجي من السجن وعودتي
إلى قريتي أفعل بالمثل فأجتمع مع الأهل والأصحاب ونعقد ندوات ودية . .
ألا ما أجمعت انطلاقاً الريف والراحة التى أحس بها فى منسدة دارنا . .
وأحلى من هذا كله كلام أهل الريف الطلق البسيط الصادق والذى فى الوقت
نفسه يحمل الكثير من المعاني العميقة المعبرة التى تمتد جذورها إلى حضارة
آلاف السنين

قضيت بسجن الأجانب وقتاً لا بأس به . . أقرأ وأخرج إلى فناء السجن
مرتين فى اليوم كل ربيع ساعة أمارس فيها رياضتى الغبية وهى المشى . .
أضلاع السجن الأربعة .

أشياء كثيرة حدثت فى السجن ولكنى لا أذكرها كلها . . أذكر مثلاً أنى
صحت من النوم على صوت امرأة تغنى « لا والنبي يا عبده » وكانت هذه من
الأغنيات الشائعة فى ذلك الوقت وفجأة سمعت نفس الصوت يولول ويصرخ .
تماماً كما يحدث فى أفلام السينما المبالورة .

سألت قالوا إنها حكمت فهمى الرافضة وإنما فى الزنزانة المجاورة لى . . وإنما
هى الأخرى متهمه فى نفس قضيتنا . . فهمت . . فهى التى أوجرت الشهية
للجواسيس الألمان . .

كل من كان فى سجن الأجانب فى ذلك الوقت كان مقبوضاً عليهم فى قضايا
خاصة بالسلطات البريطانية لاستكمال التحقيق معهم تمهيداً لرحيلهم إلى
المتنقلات . .

هكذا علمت . . ولذلك لم أدهش عندما أخرجونى من الزنزانة يوماً
وساروا بى إلى مأمور السجن حيث كان هناك أيضاً بإخاسوس الألمانى
(أبلر) . . أعادوا التحقيق ولم أغير كلامى طبعاً . . انصوبوا تليفوناً
بهيكلان مأمور السجن . . يسألونه عن النتيجة .

فسمعتهم يقول : لا أمل لأنه ينكر على ضوء الخط (ولم يكن يعرف أنى أعرف
الإنجليزية) .

كان معنا فى السجن طبعاً زميل حسن عزت ولم تكن تتقابل ولكن لما عرف
الحراس أننا من الضباط بدأوا يتقلسون الكلام بيننا . . وبدأوا أيضاً يعاملوننى
معاملة بها الكثير من التعاطف والود والاحترام . . فمن خلافة تعرفت على أكثر
المساجين . . مثلاً كان هناك رجل ألماني اسمه (ماكس) قالوا لى إن له فى
السجن سنة ونصف . . وآخر إيطالي معتقل له ٨ شهور . . وهكذا وهكذا . .
أقل فترة لأى سجين كانت لا تقل عن ٦ شهور .

قلت فى نفسى هذا يعنى أنى سأقضى هنا ٦ شهور على الأقل . . وكان الشئ
قد دخل وغيرنا ملابسنا ولكن الملابس الشتوية لم تكن كافية وخاصة أن الواحد
منا كان يقضى معظم الوقت فى زنزانته دون حركة أو عمل . .

وذات صباح فوجئت بالسجان يفتح الباب يحمل إلى بعض الطعم . .
البيت عندنا معه روب شتوى ممتاز . . فردت الروب أمامى من سرير
ووقفت أنظر إليه وأتحسه . . كان شيئاً جميلاً للغاية كالأشياء التى نرى فى
السينما . . لم أصدق عيني فنادت السجان وسألته إذا كان هذا الروب حقيقياً
لى . . قال أنه مرسل للزنزانة رقم ٧ . . وهكذا . .

منهى السعادة . . مثل هذا الروب لم يكن في استطاعتي شراؤه وأنا يوزباشى
في الجيش فكيف حصل عليه أهلى ؟ لا بد أنهم صرفوا المكافأة المستحقة لى وهى
ثمانون جنيها واشتروا بجزء منها هذا الروب الجميل . . كان بالنسبة لى متعة
لا تساويها متعة أخرى . . فتمت وتوضأت وصليت حمداً لله . . لم أكن
فقط فرحاً بالروب نفسه . . بل أيضاً بالفتة التى يحملها . . (إذن هناك من
لا يزال يذكرنى وما زالت لى قيمة في نظر الناس . . أو بعضهم على الأقل) .

٣

كنت قد بدأت أنأظلم على حياة السجن . . وخاصة بعد أن سمحوا لى ولزيملى
حسن عزت باللقاء . . وكان هذا معناه أن التحقيقات قد انتهت . . وفي لقاءنا
كان حسن عزت يعكس لى عن مشروعاته بعد خروجه من السجن . . ومشروعات
صيد سمك من وراء خزان أسوان . . ومشروعات زراعة . . إلخ . . أما
أنا فكان مشروعى الوحيد أن أعود إلى الأرض ومن هناك أبدأ من جديد . .
لم أستطع أن أشرح لى مشروعى . . لأننى لم أكن أعرف من يهتم به . .
يوم من الأيام جاء إلى السجن وطلب منى أن أحزم أمتعتى .

قلت : خيراً . .

قال : سننقل من هنا . .

— إلى أين ؟ سألت ولكن ما من جواب .

جهزت ملايى وتوجهت إلى حجرة المأمور حيث سلمونى رباط حذائى
ورباط عنتى وماكينة الخلاقة وثلاثة جنيهاً كان أهلى قد أودعوها السجن
أمانة .

— عهدتك تمام ؟

— نعم تمام .

— اتفضل وقع . .

وقعت على أتى تسلمت حاجياتى ثم أمرونى بالسير إلى باب السجن وعسكرى

إلى يمينى وأخسر إلى يسارى . . نظرت فرأيت عربة (بيك آب) تقف
ملتصقة بالباب . . أما السلم المؤدى إلى الباب فقد غطوه من الجانبين بالبطاطين . .
بعد أن رأيت أن لى لم يأتى . . وأبى أن يترك لى وحيداً . .
في العربة وجدت زميلى حسن عزت ويبدو أننى كنت آخر القادمين فبمجرد
دخولى غطوا العربة (بيك آب) ببطاطية ثم ساروا بنا . . وما هى إلا دقائق
معدودة حتى وجدنا أنفسنا على رصيف الصعيد في محطة مصر . . كانوا
قد أحضروا الرصيف من المسار من أمامنا . . لكن لى لم يأتى . . ففكرت بصورة
توحى بأننا قوة خطيرة لا بد من حصارها وإلا أصبح أمن الدولة في خطر . .

كان في انتظارنا قطار ديزل صغير أدخلونا فيه فاكشفنا أننا لم نكن وحدنا
إذ رأينا بالقطار معتقلين آخرين . . منهم على ما أذكر اثنان من كبار ضباط
الجيش من ضحايا الأحزاب . . وإلى جانب كل منا . . هم ونحن نجلس ضابط
لحراسنا . . وتحرك القطار بنا في طريقه إلى معتقل جديد . . كما كان
يسمى . . لكنه كان في هذه المرة في الصعيد . . على بعد ٢٠ كيلو
من المنيا (وهى تبعد عن القاهرة بـ ١٦٠ ميلاً) .

لم يكن المعتقل الحديد الذى نقلونا إليه بنفس الطريقة (أى أن البطاطين كانت
تغطى العربة بحيث لا نرى شيئاً إلى أن وصلنا) معتقلاً بمعنى الكلمة . . بل قصراً
شامخاً يقف منعزلاً على ضفاف ترعة الإبراهيمية يحيط به التراب وخلفه قرية
صغيرة لا تختلف كثيراً عن ميت أبو الكوم . . ما الذى أتى بهذا القصر إلى
هذا القفر ؟

عرفنا بعد ذلك أنه كان ملكاً لأحد أعيان حزب الوفد . . ومن حاليته
المالية فأجره للحكومة التى أحالته إلى معتقل . . أو بدأت تفعل ذلك
فعندما وصلنا وجدنا المهندسين العسكريين يعملون في بناء أسوار من الأسلاك
الشائكة تحيط بالقصر كله . . ولاحظت أنها كانت عالية جداً بحيث لا يستطيع
أحد تسلقها . .

أقيمت في معتقل (ماقوسة) هذا من ديسمبر ٤٢ إلى سبتمبر ٤٣ . . من بعد ذلك
وحتى قبلها بقليل في نوفمبر ٤٢ على وجه التحديد . .

قد قام بهجومه على القوات الإيطالية والألمانية في معركة العلمين المشهورة بعد حصار بنسرى منع الإمدادات عن قوات روميل . . ومع ذلك استطاع روميل أن ينسحب بقواته سليمة كاملة ورغم التفوق المائل لقوات مونتجومرى وما زال انسحاب روميل على الصورة التي تمت يعتبر في التاريخ العسكري موازياً لنصر الذي أحرزه مونتجومرى ولعل انتصار الحلفاء في تلك المرحلة هو الذي جعل أعصاب الإنجليز تهبط قليلاً . . فاكشفوا بفصلنا من الجيش واعتقالنا .

كانت إقامتي بمعقل ماقوسة صعبة في الأيام الأولى رغم أنه كان قصراً منعياً به مرابا فرنسية وأنشأ فاخترة وشبابيك من الزجاج الملون وحمامات رائعة . . أشياء لم أر مثلها من قبل في حياتي بهرتني في أول الأمر وكانت مصدر دهشة لي . . ولكن مع الوقت تعودت عليها وأصبح السجن سجنًا كبتية السجون . . وخاصة عندما بدأوا يفتلون الشبابيك بقضبان من الحديد . .

ما معنى هذا والمبنى تحيط به الأسلاك الشائكة من كل جانب ؟ كان لابد من التمرد . . وفعلنا كانوا كلما ركبوا القضبان الحديدية أزلناها . . وهكذا يوماً بعد يوم إلى أن اضطروا إلى الاكتفاء بالأسلاك الشائكة . .

في معتقل ماقوسة كان معنا حسن جعفر الأخ الغير شقيق لحسين جعفر أو (آبلر) الخامس الألماني . . ولم يكن لحسن أى دور فيما حدث ولكن رغم ذلك اعتقله الإنجليز من باب الإحتياط . .

وجدت في حسن شاباً دمث الخلق لطيفاً للغاية وكان يعرف الألمانية والإنجليزية فطرات لي فكرة طرحها عليه للفرار وهي أن يعلمنى اللغة الألمانية وكنت قد قرأت أن الشيخ محمد عبده (وهو أحد أقطاب نهضة مصر الحديثة) لما بدأ تعلم الفرنسية وجد أن أحسن طريقة أن يقرأ رواية بالفرنسية على أن يعاونه في قراءتها شخص يعرف الفرنسية والعربية معاً . . فالرواية هي شريعة من الحياة بكل ما فيها من أوصاف وحوار ونقاش . . إلخ . .

وكان مع حسن جعفر رواية لإدجار والاس مترجمة إلى الألمانية فاتفقنا على قراءتها معاً . . وفعلنا كنا نجلس كل يوم على سلم القصر الداخلى نقرأ

الرواية . . في أول الأمر كنت أقرأ في اليوم ٤ سطور ثم وصلنا إلى نصف صفحة . . فنصفحة وبالتدريج بعد سبعة شهور استطعت أن أقرأ فصلاً كاملاً إلى أن جاء الشهر التاسع فانهيت من الرواية كلها وأصبحت أقرأ الألمانية كما يقرأها حسن . . ثم بعد ذلك حتى أتى عندما زرت النمسا في الفترة الأخيرة وألقيت خطاباً بالألمانية سمعت أن كيسنجر قال لبورد إننى أنطق الألمانية أحسن منه لأن كيسنجر من جنس مثلي فصلاً واحداً فقط . . فالتفت إلى حسن . .

وفي نفس الزيارة كان منشار النمسا حريضاً على أن أتعرف على كاردينال النمسا وهو من الشخصيات الهامة في الفاتيكان . . وفعلنا تم التعارف ووجدته يتقن عدة لغات منها الإنجليزية والفرنسية والعربية . . وفي أثناء حديثي معه سألتني أين تعلمت الألمانية بهذا الإلتقان . . ودهش طبعاً عندما عرف . . وما زلت إلى اليوم أتذكر معالم الدهشة التي بدت على وجهه . .

كان أهلى يأتون لزيارتي بالمعتقل كل شهر . . فأجيرة السفر غالية وأهلى فقراء . . وحدث مراراً أنى وزملائي تمارضنا فكانوا يرسلونا إلى المستشفى في النمسا . . وفي إحدى هذه المرات ذهبت إلى المكتبة وهناك التقيت بوجيه خليل أحد زملائي في الكفاح الذي رتب اللقاء عندما عرف بوجودى ليخبرني أن إخوانه الضباط قد قرروا دفع عشر جنديات شهرياً لأسرى بالقاهرة . .

لا يمكن أن تتصور مدى تأثير لمسة الوفاء هذه على وأنا في المعتقل بعيداً عن إخواني الضباط بل ولم أعد حتى واحداً منهم . .

في معتقل (ماقوسة) حضرت رمضان مرة أخرى كما حدث في سجن الأجانب من قبل . . وكعادتي قرأت القرآن ثلاث مرات مرة كل عشرة أيام . . كان ذلك خلال عام ١٩٤٣ . . وقد بدأت هزائم المحرر وبدأت الحرب يتغير لصالح الحلفاء . . وخاصة بعد أن حارب بروس معركة رائعة في ستالنجراد . . وساعدهم في حربيهم الجنرال دوترو (أنى الله الفارس) الذي سبق أن هزم نابليون كما كان السبب الرئيسى في هزيمة الألمان . . وقبل أن تنتهى سنة ١٩٤٣ صدرت إلينا الأوامر بالاعتقال في معتقل آخر - قرب القاهرة - هو معتقل الزينون .

عن طهيها وحفظ (الحلة) أو الوعاء الذي كان يملؤه كل صباح بها ويحفظه بين المرتبتين على سريره حتى تظل محتفظة بحرارتها كما كان يفعل كل مرة تأخر فيها بعض الوقت عن ميعاد الأكل .

ومن الشخصيات التي أذكرها في معتقل الزيتون وكيل وزارة الداخلية في ذلك الوقت . . غضب عليه النحاس باشا فاعتقله رغم أنه كان محايداً لا ينتمي إلى أي حزب . . كان اسمه أبو شادي وقد رأيت مرة أخرى بعد الثورة - عندما فرضت عليه الحراسة لا أعرف تحت أية ظروف ولا لأية أسباب . . كان هذا في سنة ١٩٦١ أي بعد حركة الانفصال عن سوريا . . وكانت كل الحراسات التي فرضت أساسها حزبي فقد نشأ عند عبد الناصر خوف من الانفصال أعقبه شعور مضاد عند الشعب المصري نحو الحكومة فزين له بعض أعوانه أن هذا الشعور إنما هو ثورة مضادة . . وبناءً عليه لجأوا إلى فرض الحراسات على جميع الحزبيين وجاء ضمنهم أبو شادي مع أنه كما قلت لم يكن ينتمي إلى أي حزب . . بل كان مثلاً أعلى للموظف المسئول في اتخاذ الإجراءات العادلة السليمة .

ولكن كان من الطبيعي بعد فشل الوحدة مع سوريا أن يتكلم الناس وأن يتناول بعضهم نظام الحكم بالنقد وهذا ما ذهب ضحيته أبو شادي . . تماماً كما حدث بعد سنة ١٩٦٥ بالنسبة للإخوان المسلمين الذين هيئ للسلطة الحاكمة في ذلك الوقت بأنهم يتآمرون ليقوموا بالثورة المضادة وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون بالألوف . . وصدورت ضد الكثيرين منهم أحكام وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفت أنا العملية كلها فأغلقت المعتقلات كلها مباشرة بعد أن صفت مراكز القوى في سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو في أية قضية سياسية أخرى فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣.



أعود إلى حديثي عن معتقل الزيتون .

في الحقيقة كانت له عدة مزايا عن معتقل ماقوسه . . فنحن هنا في القاهرة وأهلنا يترددون علينا لزيارتنا دون تكاليف السفر إلى المنيا . . ثم إن معتقل الزيتون

في معتقل الزيتون كان هناك أيضاً نوعان من المعتقلين - النوع الأول مثل من المصريين المكافحين ضد الإنجليز أو من أهل سوريا ولبنان المتمصرين ممن كانت تستخدمهم حكومة فيشي أو الألمان بنعكم الاستعمار والوجود الفرنسي التقليدي في الشام الذي كان يشبه الوجود الإنجليزي عندنا . أما النوع الثاني فكان من أعضاء أحزاب مناهضة لحزب الوفد الحاكم مثل حزب مصر الفتاة وحزب الكتلة الذي كونه مكرم عبيد عندما انشق على النحاس باشا زعيم الوفد وأصدر (الكتاب الأسود) وهو كتاب صغير الحجم ولكنه يكشف عن أسرار تسيء إلى حكم الوفد . . ورغم أن النحاس كان رئيس الحكومة إلا أن الكتاب صدر ووزع وتداوله الناس .

في معتقل الزيتون تعرفت على (كونت) من بلاد البلطيق معتقل مثلاً . . كان رجلاً لطيفاً للغاية ولكن - رغم أنه كان يعيش في غرفة صغيرة في البدروم مغلوباً على أمره كأى معتقل إلا أنه لم ينس لحظة أنه كونت أوروبي . . فكان يأمر وينهى كأنه في قصره ويمشي ويتكلم بأرستقراطية لم يستطع أبداً أن يتنازل عنها مما جعله طول الوقت موضع ضحكنا بل وتسليتنا الوحيدة .

كانت الحياة مملة في معتقل الزيتون فالوقت يمضي في بقاء شديد ولا شيء نفعله . . ففكرنا في تربية الأرناب - اشترينا زوجين أو ثلاثة في بادئ الأمر - وبعد ثلاثة شهور فقط تكاثرت أرابنا حتى امتلأت بها القاعة الوحيدة النسيحة في المعتقل مما جعلنا ندور حولها لكي نذهب إلى حجرتنا فقد أصبح من المستحيل أن نخطو فيها خطوة واحدة . . ماذا نفعل بكل هذا الجيش من الأرناب ؟ وهنا اكتشفنا موهبة فذة في صديقنا الكونت الأرستقراطي . . وهي أنه يعيد الطهي وخاصة طهي الأرناب بالذات . . وهكذا عشنا فترة على تربية الأرناب وأكلها إلى أن جاء وقت أصاب أحدها المرض وانتشرت العدوى بينها فإلى أيام قلائل حتى أخذ عددها يتناقص بنفس السرعة التي تكاثرت بها . . وخلت القاعة منها وعادت إلينا فيسحة خاوية كما كانت في البداية .

وهكذا توقفنا عن تربية الأرناب وعن أكلها طبعاً وتوقف صاحبنا الكونت

كان قبلاً بها حديقة كبيرة تتبع لنا فرصة الحركة أكثر من حديقة معتقل ناقوسه الصغيرة الضيقة . . ولكي نقطع الوقت فكرت وزميلي حسن عزت في زراعة الحديقة بالبرسيم ليكون غذاء للآرانب التي ربيتها . . ثم بعد قضاء لأرب جثا إلى زراعة البطاطا وكانت هذه أول مرة أمارس فيها هذه الزراعة .

وهكذا عشنا في هدوء لا يعكره سوى مضجعي من سبيل الخبز كان كما أفرجت عنه السلطات بطبع منشوراً ضد الحكم فيعود إليها في اليوم التالي . . فهو بفضل عيشة المعتقل على عيشة الحرية . . ونسبته لغيره . . وثبت شجرة قدرها ستة حببات ونصف لكل منا . . تقنياً الجميع ما عداي وحسن عزت الذي أقنعته بعدم قبول محبة من سلطات الاعتقال لأن هذه مسألة مهينة للكرامة . . وكان من الطبيعي ضمن من يظنون هذا الرأي . . وكانت الإقامة بالمعتقل بما فيها الأكل والمبيت بائساً وضيقاً ولذلك كان حريصاً على أن يبقى بالمعتقل أطول مدة ممكنة على أمل أن يخرج منه في النهاية برأس مالح محترق . . في نظره على الأقل .

في يوم من الأيام عكر صفونا تعيين قومندان جديد للمعتقل - كان عنيف السلوك ولذلك فصل أكثر من مرة من منصبه وعاد إليه أيضاً أكثر من مرة إذ كان عمه عضو مجلس شيوخ وفدى عن مديرية البحيرة . . وكانت لهم عصبية كبيرة تمتد إلى ليبيا موطنهم الأصلي .

المهم أنه حدثت بيني وبين القومندان الجديد مشادة لا أذكر سببها الآن ولكني أذكر نتائجها جيداً . . فقد جمعت المعتقلين جميعاً وأقمنا متاريس من فرائش وأمتعة حجراننا ووضعناها كلها على السلم بحيث تمتع أي إنسان من الوصول إلينا في الدور الثاني . . بعد ذلك بفترة قصيرة جاء القومندان إلى حجرتي وأخذ يهددني وهو يحمل طبنجة في يده .

قلت له : أنت جبان . . وإلا فكيف تهددني بالسلاح وأنا أعزل ؟

خرج غاضباً وتوجه إلى حجرته وأحاطها بالعساكر وظن أنه في أمان . . قلت في نفسي لا بد أن أؤذي هذا الإنسان الشاذ . . فقتلت من حجرة إلى حجرة إلى أن دخلت حجرته من الشباك . . نظرت فرأيت أمامه . . اندعر . . قلت : أنت مغلق

الحجرة على نفسك والحراس يحرسون الباب . . وهكذا تعتقد أنك في أمان . . ولكن في مقدوري الآن أن أخنتك . . أو أن أفعل بك أي شيء . . هل تذكر هذا ؟ . . ودار بيتنا حواراً ساخناً تركته على أثره وتوجهت إلى حجرتي . . وأغلقتنا السلام بالمطاريس إغلاقاً تاماً .

كان الموقف السياسي في العالم قد انكشف تماماً في عام ٤٣ . ٤٤ أصبح من الواضح أن ألمانيا في طريقها إلى الهزيمة وكانت هذه فرصة مواتية لاستعجال الإفراج عنا . . فاستقر رأي وزميلي حسن عزت على إثارة الترقى تجاه المعتقلين . عملنا حركة عسبان وأشركتنا معنا جميع المعتقلين . . ضربوا فينا بالبرصاص من حديقة المعتقل . . وكان هذا التصعيد للموقف من جانب الحكومة ما توقعده . . بل وأكاد أقول ما طلبناه فقررنا أن نعطيهم درساً لا ينسونه مدى الحياة . ولكن كيف ؟

٦

قررنا أن يهرب ستة منا . . وانفطنا على خطة ونفذناها بكل دقة . . كانت الحرس وقت للهروب هو وقت تغيير الحراس في أول المساء . . نية إلى ما يسود سكر من هرج ومرج . . أما طريقة الهروب فكانت أن نفتح فتحة في سقف حجرة الآرانب ولم يكن هذا بالأمر الصعب فالسقف من الخشب البغدادي . . ونجوه الذي حددناه نصب السلم وتسلقته وحفرنا فجوة في السقف خرجت من بين أصابع واستلقيت على وجهي حتى لا يراني أحد . . ومددت يدي أثناء ليلة الحفر بين يدي حسن عزت الذي كان يقف على أرض الحجرة . . ثم انزلنا إلى الشارع وكان الظلام حالكاً . . ولكن كانت هناك عربة (أولد زموب) في انتظارنا . . فركبنا نحن الستة ومضينا .

كان حسن عزت قد فرّج لنا طريقاً للخروج . . وكانوا في انتظارنا في مكان ما . . وهو أمر كان نادراً في تلك الوقت . . حلال الحراس فلا يمكن شراء كوتوش حديد إلا بعد من السلطات

البريطانية . . بعد كيلو أو اثنين ضرب الكاوتش فاقترح حسن أن نذهب إلى أية ورشة لإصلاحه - ولكنني رفضت وقلت : اعملوا أنتم ما يترأى لكم فأنتم الذين ستظلون هارين كما قررنا أما أنا وعحسن فلنا خطة أخرى .

كان محسن فاضل شاباً دمث الخلق قضى شطراً كبيراً من حياته في فرنسا . . أين نخفي إلى أن يطلع الصباح وننفذ خطتنا ؟ اقترح محسن أن نذهب إلى شقة سيدة فرنسية عاشت في مصر بعض الوقت مع صديق مصري لما ثم هجرها وبقيت هي بشقتها الصغيرة في ميدان الإسماعيلية - في وسط البلد - تنتظر انتهاء الحرب حتى تعود إلى وطنها . . ضربنا الجرس ففتحت الباب ورحبت بمحسن وبني أحسن ترحيب . حكى لما محسن القصة بالتفصيل فتعاطفت معنا بكل كيانها .

كانت سيدة عظيمة في الواقع - تمثل روح الشعب الفرنسي أحسن تمثيل - ذلك الشعب الأصيل العاشق للحرية تماماً كشعب مصر . . استكرت عودتنا إلى المعتقل كما كانت تقضى به خطتنا في الصباح . . ومازالت كلماتها ترن في أذني : - كيف تعودان إلى السجن بعد الحرية . . وبمحض إرادتكما ؟ لقد اقتصدت ٢٠٠٠ جنيهها هي كل ما أملك . . خذوا المبلغ بأكله واهربا إلى أي بلد . . هيا اذهبا . .

رفضنا شاكرين . . فعادت تقترح أن نخفي عندها وهي تتكفل بمصاريفنا مهما طال الوقت . .

كم كانت رائحة هذه السيدة الفرنسية في إلحاحها على أن نعطينا كل ما تملك وتبدأ هي حياتها من جديد رغم تقدم السن بها . . وكل هذا من أجل الحرية !

في الصباح وجدنا مائدة الإفطار في انتظارنا وفوقها الجرائد العربية وكل شيء معد على أحسن صورة . . تناولنا الإفطار ثم شكرناها ونزلنا إلى الشارع . . أخذنا ناكسي وتوجهنا إلى قصر عابدين . .

دخلنا القصر فوجدنا أحد الأمناء في حجرة الاستقبال ودفتر الشريكات مفسوح - إلى هنا كل شيء عادي فالدفر مفتوح لأي مواطن يريد أن يشكر أو يستأذن في الشر أو أي شيء من هذا القبيل . .

توجهنا مباشرة إلى الدفر وقيد كل منا اسمه وقلنا إننا معتقلون في الزيتون وقد حضرنا خصيصاً لكي نقول للملك إن الحكومة يجب ألا تخضع للسلطة البريطانية كما لا يجوز إطلاقاً أن تعاملنا هذه المعاملة البالغة السوء . . وإننا على القصور سنعود إلى المعتقل بمحض إرادتنا . . وقد هربنا لكي نبلغ هذه الرسالة للملك ولكي نقول له إن أربعة من زملائنا قد هربوا معنا ولكنهم لن يعودوا مثلنا إلى المعتقل . . بل سيظلون أحراراً يفعلون ما يريدون . . رهائن خارج السجن مقابل حريتنا جميعاً ونخدياً للسلطة . .

عندما قرأ الشريفاتي المسئول عن الدفر هذا الكلام فرغ وهرع إلى الأمين الأول يبلغه بما حدث . جاء الأمين الأول وكان اسمه بدر وكان يعرفني من معتقل ماقوسة عندما كان في ذلك الوقت مدير المنيا . . قال لي إن هذا عمل جنوني وإنه سوف يثير أزمات وأزمات . . قلت له إننا سنعود فوراً إلى المعتقل وله أن يفعل ما يشاء . . وعلى مشهد منه ومن جميع مروضيه الذين تجمعوا حولنا خرجت ومعى محسن وأخذنا ناكسي وتوجهنا إلى المعتقل . . فتحوا الباب . دخلنا بالناكسي ثم نزلنا وسلمنا أنفسنا . .

لم يكونوا قد اكتشفوا هربنا إلا صباح اليوم التالي حيث جاء وكيل النيابة ليحفظ معنا - قلنا إننا فعلنا ما فعلناه لكي يحسنوا معاملتهم لنا . . وإن المقصود بالعملية إعطاء درس لوزارة الداخلية ولإدارة المعتقل وكان وكيل النيابة الذي أجرى التحقيق هو الأستاذ أنور أحمد الذي أصبح وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية بعد ذلك . .

طبعاً نقلوا قومندان المعتقل وتحسنت معاملتهم لنا بشكل ملموس ثم جاء أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

في ذلك الوقت كان النحاس مازال في الحكم منذ أن فرضه الإنجليز على الملك في فبراير سنة ١٩٤٢ . . ومنذ ذلك الوقت والملك يتحين الفرص لنخلص من النحاس . . وأخيراً جاء الوقت المناسب في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وضح انتصار الحلفاء وبدأت أعصاب الإنجليز تهبطاً وخافوهم تزول فأقال الملك النحاس وعين بدلاً منه أحمد ماهر . . وكان من أقطاب الوفد المنشقين على النحاس وزعيماً لحزب جديد شكله هو الحزب السعدي . .

بمجرد قوى أحمد ماهر الحكم أفرج عن زملائنا في المعتقل الذين ينتمون إلى حزب نكتة فقد كان هناك شبه ائتلاف بين الكتلة والسعديين والأحرار الدستوريين أما نوفد فقد كان وحده . . أفرجوا أيضاً عن أعضاء حزب مصر المتحدة من كانوا معنا بالمعتقل وكل الحزبيين المعتقلين . . الكل أفرج عنهم إلا نحن المعتقلين بناء على أوامر السلطات البريطانية . .

إلى متى سيقال في المعتقل ونحن في نهاية سنة ٤٤ والحرب قد انضحت نتائجها ؟ لابد من عمل شيء . . حرقت زملائي فأضربنا عن الطعام . . ولكن بعد فترة لم يتحمسوا بالجوع فعادوا إلى تناول الطعام أما أنا فلم أتنازل مطلقاً فاضطروا حب ثنائون إلى نقل إلى مستشفى القصر العيني الجديد لكي أكون تحت رعاية طبية حسبما تقتضي القوانين .

هناك أوقفت إضرابي عن الطعام . . وبعد فترة قصيرة زارني في المستشفى زميلي حسن عزت الذي كان قد هرب من معتقل المنيا وقال : ماذا تفعل هنا ؟ .. لابد من تدبير خطة خروجك . . وفعلاً دبرنا الخطة . .

في ساعة الظهيرة عندما يزدحم المستشفى بالداخلين والخارجين من آلاف الناس جاء حسن عزت بعربة (أوستن) صغيرة ووضعها تحت مظلة الأطباء . . ولم يوقف الموتور . . خرجت أنا إلى فناء المستشفى وخلقى حارسى . . وفي زحمة الناس استطعت بسهولة أن أتوارى عنه وبسرعة بلغت العربة التي اختفت في ونحن عزت في ملح البصر . . وبعد دقيقتين وصلنا منطقة فم الخليج حيث الشقة التي كان قد جهزها حسن كخبأ لي على بعد دقائق قليلة .

كان هذا في أكتوبر سنة ٤٤ كما قلت . . وبقيت مخبئاً هارباً من وجه العدالة إلى سبتمبر سنة ٤٥ عندما سقطت الأحكام العرفية فيسقط الأحكام العرفية انتهى اعتقالى حسب القانون - هذه ميزة سيادة القانون التي أحترمها وأدين بها وأطبقتها الآن وأنا رئيس لجمهورية مصر . .

ماذا حدث لي طوال سنة كاملة منذ أكتوبر سنة ٤٤ إلى سبتمبر سنة ٤٥ وأنا هارب من وجه العدالة . . ويمكن في أية لحظة أن يقبض على وأعود إلى المعتقل أو ربما إلى السجن ؟

هذه قصة أخرى . .

كانت فترة الخروب مئنة بالأحداث . . فقد كان لابد أن أعمل لكي أجد لقمة العيش لي ولأولادى فلم يكن والدى في وضع يسمح له بمساعدتى بأى شيء على الإطلاق . . ولذلك كان على أن أخرج للحياة فأطلقت ذقنى لأخفى ملائحى وسميت نسي الحاج محمد .

أول ما قامت به هو أتى عملت حمالاً على عربة لورى كان يملكها زميلي حسن عزت . . بدأنا أنا وسانى المورى بالعمل لحساب تاجر اسمه غويبة كان متعهداً للجيش البريطانى في الإسماعيلية . . وأذكر أنه في مرة من المرات وصلنا الإسماعيلية في المساء فتكرم علينا غويبة وسمح لنا أن نبيت ليلتنا في مكتبه على الأرض .

كان غويبة هذا مليونيراً من أغنياء الحرب فلما أصدر عبد الناصر قوانين الاشتراكية في سنة ٦١ وضع غويبة أمواله تحت البلاطة كما نقول وارتنى ملابس رثة للغاية فصدق عبد الناصر ورجاله أنه معدم فعلا . . ولم يكن غويبة فريداً في هذا فقد فعل مثله الكثيرون من الأثرياء في عهد عبد الناصر وقبله . فالشعب المصرى على مدى تاريخه الطويل قد تعلم كيف يخدع حكامه إذا تعارضت أوامر الحكام مع رغبات الشعب ومصالحه .

نعود إلى قصتى مع غويبة . . في المرحلة الثانية من عملى معه عهد إلى بنقل الخضر والفاكهة إلى معسكر الإنجليز في النل الكبير . . وأذكر أنني عندما سلمت أول شحنة لاحظت أنها عملة بأسوأ أنواع البرتقال . فاندعشت ولكنى اكتشفت أن هناك اتفاقاً بين المتعهد ومسؤول التموين بالجيش الإنجليزى Quarter - Master على الغش طبعاً . .

وبعد فترة طلبوا منا عدم إمدادهم بأى تموين . . فقد لجأوا إلى استيراد جميع متطلباتهم من اليهود في فلسطين . . ربما لأنهم كانوا أكثر قدرة على الغش والرشوة من المصريين . . وربما لسبب آخر لا أعرفه ولكن بهذا توقف عملى مع غويبة . .

عملت بعد ذلك في بلدة اسمها مزغونة (بالقرب من القاهرة)
وكان عملي بها أن أنقل الحجر (الدبش) من المراكب الآتية بالنيل إلى أن أصل
بها إلى الطريق الذي كان في ذلك الوقت يرصف بين القاهرة وأسوان .
كنا نعمل من مطلع الفجر إلى غروب الشمس دون توقف وفي نهاية
اليوم كنت أهرع إلى مطعم صغير حيث أتناول شوربة العدس الساخنة في
برد الشتاء القارس بعد جهد وجوع يوم بأكمله . . فكانت أشهى طعام
أكلته في حياتي بمجرد أن أنهيه وأحس بالشبع والدفع آوى مباشرة إلى
جراح مستف بالصنّيع لأنام . .

كان ذلك في ديسمبر سنة ٤٤ ومع مجيء سنة ٤٥ انتقلت إلى بلدة أبو كبير
بالشرقية وعملت في مشروع شق ترعة رى تسمى ترعة الصادى بالمنطقة
وكان من عادة مصلحة الرى في ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل
سنة

سكنت في منزل صغير في مكان اسمه عزبة طلعت أجرتة منه . . وكان السقف
من حطب القطن . . وفي ليلة من ليالى الشتاء أمطرت السماء مطراً شديداً
فاخترق الماء سقف الحجرة وبدأ يتساقط فوقى . . ماذا أفعل ؟
غطيت رأسى وجسمى بقماش خيمة صغيرة كنت أحملها معى دائماً . .
وتحمل قماش الخيمة المطر الذى لم ينقطع طول الليل وظل ينهمر بغزارة فوق
الخيمة وأنا تحتها أسمع يضرب القماش بعنف مما أطار النوم من عيني . . ولكن
لعله التعب والإجهاد . . أو لعله صوت المطر وهو يسقط فوقى في رتابة . .
لا أعرف ولكنى نمت تلك الليلة نوماً عميقاً إلى أن طلعت الصباح . .
وكان الخفير يعاملنى فيقدم لى كل صباح اللبن الزبادى أو اللبن « المترد »
فأتناوله . . ولم أكن أعلم أن معدنى ليست سليمة وأن اللبن بالذات من أكثر
الأشياء التى تضر بها . .

ثم مشروع شق الترعة فوجدت نفسى مرة أخرى بدون عمل ولكن لم يطل
انتظارى . . ففى بلدة سنور شرق النيل جنوب بنى سويف فى صعيد مصر
وسط الصحراء الفاحشة وجدت عملاً واشتغلت . . كانت هناك شركة مصر

للمناجم والمخاجر وهى تملك امتياز منجم الرخام الألباستر الوحيد الموجود
فى هذه المنطقة . . وكان هذا المنجم يعمل أيام القراغنة ثم أهمل إلى أن أتى
محمد على فأعادته إلى العمل وبنى منه مسجد القاعة . . فى هذا المنجم عملت
وكان يبعد عن شاطئ النيل ٥١ كيلو متراً ولكن محمد على أقام
استراحات كل منها تبعد عن الأخرى ١٧ كيلو . . وبنايا هذه الاستراحات
قائمة وموجودة إلى اليوم . .

كنت أعمل كمقاول لنقل الرخام . . وسوف تدهش إذا علمت أن الاستراحة
التي بناها الملك فاروق فى الحرم لنفسه من هذا الرخام (وهى اليوم كازينو) وأن
جميع رخام هذه الإستراحة قد قطعه أنا من الحجر ونقلته بنفسى إلى منطقة
الأهرامات لكى يبنى فاروق استراحته ثم لكى يستمتع بها الشعب اليوم
بعد أن أصبحت كازينو مفتوحاً للشعب .



بأنهاء الحرب سقطت الأحكام العرفية وكان ذلك فى سبتمبر سنة ٤٥ فخرجت
إلى الحياة إذ بسقوط الأحكام العرفية أو ما يسمى قانون الطوارئ . . سقط
حق الاعتقال . . وهذه ميزة سيادة القانون .

وهكذا عدت إلى يبنى بعد ثلاث سنوات من التشرذ والحرمان .
وارتديت ملابسى وبدأت أظهر بالصورة التى يعرفنى بها أهلى وأصحابى .
صورى التى تعودتها . .

فى تلك الفترة لم يكن عندى أى عمل . . وكانت الخمسة مليمات بالنسبة
لى عملة صعبة بكل معنى الكلمة . . فكنت أسير على الأقدام يومياً
من منزلى بكوبرى القبة إلى العتبة . . أى أكثر من ٢٠ كيلو . . لأنى
لا أملك ٦ مليمات أجرة الترام . . ولقد نشأت على حبي للجسمال فى كل
شئ . . وكانت ملابسى ضمن الأشياء التى أنقلب فيها الجسمال . . وكانت
عندى جاكطة أعز بها كثيراً ارتديتها قبل اعتقالى مرات معدودة فقررت أن

أبيعها في محل من محلات وسط البلد التي تشتري الأشياء المستعملة . .
 وفعلنا أخذتها وتوجهت إلى إحدى هذه المحلات ولكنني عندما أصبحت على مسيرة
 قدمين من المحل توقفت . . لا بد أن صاحب المحل سيتصور أنني سرقها فليس من
 المعقول أن شاباً وث المظهر بهذا الشكل يمكن أن يمتلك هذه الجاكطة الوجيهة . .
 خطر لي هذا الحاضر وأنا أقف أمام التاجر فترجعت وعدت إلى البيت سراً
 على الأقدام ومعى الجاكطة . . كنت أعرف أن التاجر لن يسألني من أين أتيت
 بالجاكطة . . وكنت واثقاً من أنه سيشتريها مني بأي ثمن . . وأن البيع الذي
 سيدفعه مهما كان ضئيلاً سوف يترك ضائقي . . ولكنني فضلت أن لا أشوه
 صورتي في نظر إنسان لا أعرفه ولا يعرفني مهما كلفني هذا . .

ولكن ماذا عن صورتي لنفسى كما أراها بعيني ؟ هل هي حقاً ما أردت لها
 أن تكون ؟

لقد عادت حزيني . . هذا ما كان يعنيه انتهاء الأحكام العرفية . . ولكن هل
 أحسست أنا بالحرية كما يشعر بها سجين أطلق سراحه ؟ إن مصر ما زالت
 حبيسة والشعب ما زال لا يملك من أمر نفسه شيئاً . .

ولذلك بمجرد أن عاد إلى كيانى ك مواطن حر طليق كان أول عمل
 قمت به هو تكوين الجمعية السرية . . فكيف تتحرر الذات بدون أن يتحرر
 الوطن ! ؟

كان ذلك في سبتمبر سنة ٤٥ ولم يمض على خروجي إلى الحياة سوى أيام قليلة . .
 اتصلت بعمر أبو على شقيق زميلي سعودي حين الطيار الذي سبق أن
 أرسلناه لروميل وضربت طائرته - وعرفني عمر بشاب اسمه حسين
 توفيق اتضح أنه كان يمارس قتل الجنود الإنجليز في المعادى قبل أن ينضم
 إلينا . . ولكن هل قتل حفنة من الجنود الإنجليز هو الطريق إلى تحرير
 مصر ؟ طبعاً لا . . ربما كان هذا العمل مجرد تدريب ولكن المهم أن نتخلص
 ممن كانوا يساندون الإنجليز في ذلك الوقت . .

كان على رأس هؤلاء في نظرنا مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد
 الذي منط في نظرنا منذ أن فرضه الإنجليز بنسوة السلاح في ٤ فبراير ٤٢ . .

فلا شيء يعادل خيبة الأمل التي يصب بها الشعب في رجب كان يوماً مشهوداً
 الأعلى . .

وما زلت أذكر كيف كنا ونحن خمسة نخرج إلى شارع مرزوق كل يوم . .
 نتنظر ذهاب النحاس إلى بيت الأمة وعودته منه لتراه ونهتف ونصق له
 كان بطلاً أسطورياً ورمزاً فريداً للوطنية والثناء والعضاء . . أما بعد
 ٤ فبراير فقد فقد كل شيء وأصبح في نظرنا خائناً لمصر ولشعبها يحتم عيب واحد
 الوطنى أن تزيله من طريقنا . . ولذلك قررنا التخلص منه

كانت عادة النحاس أن يذهب في يسوء مولد ابني إلى نادى السعدى وهو
 مقر حزب الوفد ليلقى خطاباً بهذه المناسبة . . وصادف ذلك يوم ٦ سبتمبر
 سنة ٤٥ فخرجت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية منتظرين خروج النحاس من
 جاردن سيني إلى شارع القصر العيني حيث يوجد النادى . . كان جوليس
 يحرس الطريق منعاً للشغب . . فلا أحد يملك أن يمنع النحاس من إلقاء خطابه
 رغم أن أحمد ماهر كان في الحكم والنحاس ضِعماً خارج حكمه . . ولكن
 كانت هناك قيم وأصول يحترمها الجميع في ذلك الوقت . .

كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال القنابل اليدوية . . وكنت ندى
 سيقوم بالعملية هو حين توفيق . . وفعلنا ألقى القنبلة في الوقت المناسب
 ولكن سائق النحاس فوجيء وهو يتنطلق من جاردن سيني بعربة تراه في شارع
 القصر العيني تكاد تصطدم به . . فأسرع لكي يتحاشاها . . كان فرق السرعة
 ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافية . . فعندما انفجرت القنبلة كان
 النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار . . فأصاب الشظايا عربة أتوبيس
 بها فتيات A. I. S. التابعات للقوات المسلحة البريطانية . .

طبعاً كنت أنا وبعض أفراد الجمعية السرية في مواقفنا نراقب العملية
 فانسحبنا في هدوء وركبنا الترام إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن)
 وهو على بعد دقائق قليلة من مكان الحادث . . حيث توجهنا إلى مقهى (أسترا)
 مكاننا المفضل الذي كنا نعقد فيه أغلب اجتماعاتنا . .

في نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمان الذي تولى وزارة المالية طوال
 حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز في ٤ فبراير . .

ولكن لم يكن هذا هو السبب في إدانتنا لأمين عثمان . . فلم يكن له أثر يذكر في سياسة الوفد أو على النحاس نفسه . . ولكنه كان أكثر من صديق للإنجليز . . ومسانداً لبقائهم في مصر بشكل لم يسبق له مثيل . .

كان قد كون في تلك الأيام نوعاً من الحزب السياسي أطلق عليه اسم (رابطة النهضة) وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أنه لم يكن في مصر حزب سياسي واحد لم أدخله من باب المعرفة ربما أو من باب البحث عن منفذ نخلص به مما كنا فيه . كان مقر (رابطة النهضة) هذه في شارع عدلي وسط القاهرة . . وكانت لها ستة مبادئ أساسية ينص المبدأ الثاني منها على أننا مرتبطون بإنجلترا ارتباطاً حقيقياً . . فقد أعلن أن مصر وإنجلترا قد تزوجا زواجاً كاثوليكيّاً . . فحقى لو تركنا هي يتحتم علينا أن لا نتركها .

هذا التصريح كان بمثابة حكم الإعدام عليه . .

كان ذلك في يوم السبت ٦ يناير سنة ١٩٠٦ وأمين عثمان قد عاد من إنجلترا قبل ذلك بيومين وزار المندوب السامي البريطاني لورد كيلرن في ظهر نفس اليوم وفي المساء ذهب إلى مقر الرابطة . . وكان حسين توفيق في انتظاره عند باب العمارة حسب الخطة . . قبل أن يصل إلى المصعد ناداه حسين : يا أمين باشا . . يا أمين باشا ، التفت إليه أمين عثمان فأطلق عليه حسين رصاصاً مسلماً .

كان الظلام مازال يسود القاهرة طبقاً لما كان يطبق أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في الإمكان أن يهرب حسين توفيق دون أن يلتفت إليه أحد ، ولكن تصادف مرور ضابط طيران اسمه مرسى رأى حسين توفيق وشاهد القنبلة كلها ونبه الناس إليه . . فجروا وراءه . . وظل يجري وهم وراءه حتى ازداد عددهم واشتد حصارهم ففجر قنبلة من قنبلتين يدويتين كنت أعطيتهما له وأوصيته ألا يستعملهما إلا في حالة الضرورة . . وبعبداً عن الناس . . وفعلنا عمل بالوصية فرمى القنبلة داخل سور (صندوق الدين) . . وأدى الانفجار الغرض المطلوب فانصرف عنه الناس . . وعاد هو في هدوء إلى بيته بمصر الجديدة .

كنت في هذه الأثناء أجلس في مقهى قريب فسمعت على أثر سماعي الانفجار

لأننا أكد من عدم وجود ضحايا بين الأهالي . . فلما اطمأن بالي أخذت السراويل وذهبت إلى بيتنا في كوبرى القبة .

في الصباح قرأت خبر اغتيال أمين عثمان في الجرائد وكيف أن المندوب السامي البريطاني استدعى له كبير أطباء الجيش الإنجليزي في محاولة يائسة لإنقاذه . وذكرت الصحف أيضاً ضمن تفاصيل الحادث كيف أن أمين عثمان يوم اغتياله كان ضيف المندوب السامي البريطاني الذي استقبله في الظاهر وتناول طعام الغداء على مائدته .

في تلك الأيام كانت مقابلة المندوب السامي تعتبر تشریفاً كبيراً لأي سياسي . إذ كانت تعنى في أغلب الأحيان ترشيحاً لرئاسة الوزارة . . ثم إن أمين عثمان كان قد عاد قبل يومين من إنجلترا . . فهو إذن موضع حماية ورعاية من الحكومة البريطانية ومن يمثلها في مصر . . ولكن رغم هذا تم اغتياله . . وقد ترك كل هذا أثره في نفوس الجماهير فقد أوضح بما لا يقبل الشك أن الإنجليز قد فقدوا القدرة على حماية أنصارهم . . بل على العكس أصبح من هو قريب منهم في موضع ضعف لا موضع قوة كما كان الحال من قبل . .

وهكذا تحقق لنا ما نريد باغتيالنا لأمين عثمان . . فإلى جانب أننا نخلصنا من أحد أنصار الاستعمار قضينا إلى حد كبير على الحالة التي كانت تعيق السلطات البريطانية وجعلنا صورة الاستعمار تهتز في نظر الناس بشكل لم يحدث من قبل . .

طبعاً لم يمر مقتل أمين عثمان بدون تدخل البوليس الذي ذهب يتحرى في مكان الحادث فإذا بالطيار مرسى يتطوع لمعاونتهم ويعطيهم أوصاف القاتل التي انطبقت على حسين توفيق وقد كان عندهم محل شبهة منذ أن كان يمارس قتل الإنجليز في المعادى فذهبوا إلى منزل والده حيث كان يقيم فوجدوه على مائدة العشاء . . سألوه أين كان وقت حدوث الجريمة ولما لم يستطع الإجابة قبضوا عليه على ذمة التحقيق . .

صمت حسين توفيق في أول يوم . . وفي ثاني يوم لازم الصمت أيضاً . . وأغاظ هذا وكيل النيابة وكان رجلاً ماكرأ فأوعز إلى الصحف بالإشارة إلى أن

الجريمة كانت أسبابها نسانية . . وهنا انفجر حسين توفيق واعترف . .
 . كان وكيل النيابة يعرف فيه طبيعته في حب البطولة ولذلك أفلح في الكمين الذي
 اعترف بها (أبلر) الجاسوس الألماني إن لم يكن أكثر اندفاعاً وعنفاً .
 في يوم ١٠ يناير سنة ٤٦ اعترف حسين توفيق ودل البوليس هو وبعض أفراد
 الجمعية السرية على مخزن السلاح الذي كان في جبل المقطم . . قلت في نفسي
 لقد انتهى الأمر تماماً ولكن كان ما زال عندى بصيص أمل في أن يكون حسين
 توفيق قد أخذنى أمرى عن البوليس . .

في ١١ يناير ١٩٤٦ وصل الملك عبد العزيز آل سعود إلى القاهرة في زيارة رسمية
 للملك فاروق وكانت المدينة والدولة كلها تستعد لاستقباله منذ فترة . . فقد كان
 عند العزيز رحمه الله بطلا شهماً كريماً وقد أكرم فاروق عند زيارته
 للعويدة فاروق أن يزيد في إكرامه له . . هذا إلى جانب أن الملك عبد العزيز
 كان يحب مصر . . وهذا تقليد عند الأسرة السعودية فهم دائماً حريصون على
 تنسيق وتوثيق علاقاتهم بمصر . . فخرجت مع غيرى من الناس لاستقبال
 الملك عبد العزيز . . ووفقت في انتظار الموكب إلى أن مر أمامى في ميدان
 الأوبرا تحت حراسة مشددة جعلتني أضحك منهم . . فنحن لا نفكر في أن نصيب
 الملك عبد العزيز بأى أذى . . إن هدفنا أعداء مصر لا أصدقاءها . .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما مر الموكب فعدت إلى بيتنا في
 كوبرى القبة . . فلم يكن في مقدورى أن أفعل شيئاً سوى أن أبقي في البيت ،
 أعيش على أعصابى وأنتظر . .

ولم يطل انتظارى في الساعة الثانية صباحاً من ليلة ١١ - ١٢ يناير ٤٦ قرعوا
 الباب ودخلوا كما فعلوا في سنة ١٩٤٢ . . ولكن هذه المرة لم يكن هناك
 الإنجليز . . بارحت فراثى وذهبت إليهم . . وكان الجو قارس البرودة . .
 سألت :

— هل معكم أمر من النيابة بالتفتيش ؟
 وأجابوا : إن معنا وكيل النيابة نفسه .

وقال وكيل النيابة كامل قاويش : نعم أنا هنا بنفسى . . وأنا بنفسى الذى
 أحقق قضية اغتيال أمين عثمان . .

فهمت . . فقد كان هو الذى نصب الكمين لحسين توفيق واضطبره إلى
 الاعتراف .

نشوا البيت حجرة حجرة . . وبعد التفتيش أخذونى معهم إلى سجن
 الأجانب . . تماماً كما حدث في سنة ١٩٤٢ .

٩

في سجن الأجانب وضعونى في ررانة بمفردى . . سألت على حسين توفيق
 فعرفت أنهم وضعوه في الزرانة رقم ١ في الدور الأول - وهي حجرة كبيرة
 جداً . . أما بقية أعضاء الجمعية فوزعوا على حجرات أخرى كل على
 انفراد . . طبعاً أنا إلى سابق معرفة بسجن الأجانب وحراسه وكل من يعمل به
 عرفت مهم أن وكيل النيابة يلتقى بالأولاد كل ليلة حيث يجرى معهم التحقيق
 وأنه يسهر معهم إلى مطلع الفجر . . يتناولون العشاء معاً على حساب وكيل
 النيابة . . المسألة أصبحت مسألة صداقة . . وخاصة . . كما علمت . . بين وكيل
 النيابة وحسين توفيق . .

ماذا أفعل ؟ اتصلت بالأولاد عن طريق السجانين وأوصيتهم بأن ينكروا
 إنكاراً تاماً اعترافاتهم السابقة . . فهذه هي الطريقة الوحيدة لعدم إدانتهم .
 بدأ بعضهم فعلاً ينكر ما سبق أن اعترفوا به - أحس وكيل النيابة بأن شيئاً
 ما يحدث ضد مصلحته ومصلحة التحقيق . . وأنى أنا السبب فأمر بنقلى إلى
 الدور الأعلى حيث أكون بمعزل عن بقية المتهمين . . وفعلاً تم نقلى ولم يعد
 في إمكانية الاتصال . .

بقيت في حجرى الجديدة حوالى أسبوع . . لا تحقيق ولا اتصال من أى
 نوع . . وفجأة فتحوا باب حجرى في الساعة الثانية صباحاً وطلبونى للتحقيق . .
 نوع من الإرهاب . . وإلا فلم الساعة الثانية بعد منتصف الليل بالذات لبدء التحقيق
 ونحن في يناير والشتاء قارس البرودة ؟

فتحوا المحضر وسألوا :

— أقوالك ؟

— بالنسبة لماذا ؟

— حين توفيق اعترف عليك بكذا وكذا وكذا . .

عرفت أن حسين اعترف بكل شيء . . أدق التفاصيل ذكرها . . لم ينس شيئاً على الإطلاق . . وكان عقله آلة تسجيل . .

كنت أعرف أن بعض الأولاد قد أنكروا ما اعترفوا به من قبل وأن هذا الإنكار فيه تميع للقضية . . ولكن بقي ركن هام لإفساد القضية لإفساداً تاماً . . وهو التعذيب . . فكرت بسرعة وقلت لوكيل النيابة : —

— كل ما اعترف به حسين توفيق غير صحيح على الإطلاق أما بالنسبة لغيره من الأولاد فأنا مستعد لمواجهتهم واحداً بعد الآخر . . وسرى بنفسك كيف أن اعترافاتهم السابقة كانت كلها كاذبة ولذلك أنكروا بعضهم . . ثم إن هناك شيئاً هاماً يجب أن يثبت في التحقيق . .

— ماذا ؟

— أنكم استدعيتوني للتحقيق في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

— هذا مثبت بالمحضر . .

— أعرف ولكن أطلب إثبات أن هذه عملية تعذيب — فقد أبقتهم في النوم في حين كان النهار كله أمامكم وهذا الذي فعلتموه قد أصابني بهزة عصبية شديدة .

أثبتوا ما قلته . . ثم أقفلوا المحضر وهم في غاية الاطمئنان فقد كانت القضية في نظرهم منتهية وخاصة بعد اعترافات حسين توفيق وغيره . . بعد ذلك كانوا يرملون في طلي أثناء النهار . . ومرة سألوني :

— أليس لديك أقوال جديدة ؟

— لا . . أبداً . . على العكس أما ما زلت أصر على مواجهة جميع المتهمين . .

وكيل النيابة وجد أني ثابت . . بدأ يهتز . . فأخذ خطأ جديداً في التحقيق . .

— تعرف عمر أبو علي ؟ تعرف فلان ؟ أجبت أني طبعاً أعرفهم جميعاً . .

فهذا شقيق صديق قديم لي . . وذاك عرفته بمناسبة كذا . . وكذا . . وجدت مبرراً لمعرفتي بهم . . ولكني أنكرت . . بل استكرت أن تكون لمعرفتي . . آية صلة بما يدعونه في اعترافاتهم والدليل على صدق كلامي أني مستعد لمواجهتهم واحداً واحداً .

بدأ الخوف يدب إلى قلب وكيل النيابة فأنا بإصراري هذا أفدت ما قالوه فأمر بإعادتي إلى زنزاني وتركني أسبوعاً بأكمله دون تحقيق . . في خلال هذا الأسبوع كان وكيل النيابة يكدح ذهنه . . كيف يدينني وكنت أنا أيضاً أفكر كيف أفسد القضية . . وأهتديت في تفكيري إلى أن الشخص الوحيد بين المتهمين الذي صمد ولم يعترف بأي شيء هو ابن خالة حسين توفيق وكان شاباً صغيراً اسمه محمد كامل . . اتصلت به عن طريق السجان فوجدت منه استجابة أسعدتني كثيراً . . فهو شاب يمكن الاعتماد عليه وأنا وهو معاً يمكننا إفساد القضية تماماً . . (هذا الشاب محمد كامل هو وزير الخارجية الحالي) .

في هذه الأثناء عرفت أن وكيل النيابة كان على اتصال دائم بحسين توفيق وبقيّة المتهمين . . يسهر معهم كل ليلة ويرسل في طلب العشاء لهم من خارج السجن هو إذ أن يواصل جهوده لاستمالتهم إليه . . قررت أن أسبقه . .

في ليلة فجأة طلبت استدعاء مأمور السجن وقبل أن يسأل عن سبب استدعائي له فاجأته بقولي : —

— أريد ورقة وقلماً لأكتب برقية إلى النائب العام . .

أحضروا ما طلبت فكتبت برقية أطلب فيها إرسال وكيل نيابة للتحقيق لأنني أعيش تحت ضغط شديد . . ووكيل النيابة المحقق يريدني أن أعترف بأمور لم أرتكبها إطلاقاً . . ومأمور السجن وضباط البوليس السياسي يمارسون معي أقصى أنواع التعذيب . .

قرأ مأمور السجن هذا الكلام فاندحش : —

— ما هذا الذي كتبت ؟ من هم ضباط البوليس الذين عذبوك ؟

— توفيق السعيد والحزار .

- ولكن متى وكيف ؟

- هذا شأن . .

كان سبب هذه الحكاية التي ألفها أنه في يوم من الأيام قبل نفي من الدور الأرضي إلى الدور الأعلى فتح باب زنزاني الضابط توفيق السعيد لكي أخرج وأتمشي في فناء السجن مدة الربع ساعة المخصصة لكل منا قبل دخول المساء . . كنت أعرفه ويعرفني منذ إقامتي بسجن الأجانب في سنة ١٩٤٢ فبادلنا التحية وإذا به يقول لي : -

- مفيش داعي يا أنور للإنكار . . كلهم اعترفوا . . وليس هذا فقط . . بل أخذونا معهم إلى مخزن الأسلحة في جبل المقطم وأثبتنا بالأسلحة من هناك ، يعني كل شيء ثابت والقضية اكتملت فقيم إصرارك على الإنكار ؟

قلت : هل تريدني أن أعترف ؟

قال : نعم .

قلت : وهل عندك أدنى شك في أننا قتلنا أمين عثمان ؟ نعم قتلناه - لأنه خائن ويستحق الذبح !

قال مستكراً : أمرك غريب والله . . هل نيت أن في البلد قانوناً ؟

قلت : أعرف أن هناك قانوناً ولكنه لا يسرى على الخونة ولذلك يتحتم علينا أن نسولي نحن أمرهم . .

قال : على أي حال أنا سعيد لأنك اعترفت . . فالإعتراف سيخفف الحكم عليك . .

وفجأة التفت إليه وقلت : اسمع يا توفيق . .

قال : نعم

قلت : هل صدقت أننا قتلنا أمين عثمان حقاً ؟ أنا قلت لك هذا لأخذاك وجهها لوجه ولو كان معنا اثنان من الشهود لما قلت لك شيئاً لأن العبرة في الاعتراف أن يكون أمام اثنين من الشهود . . هل نيت ؟

قال : لا تتعب نفسك على أي حال . . فالكل اعترفوا . . وإنكارك لن يفيدك في شيء . .

قلت : سري . .

اخترنت هذه الواقعة مع توفيق السعيد لاستعمالها في الوقت المناسب . وبناءً عليه أرسلت البرقية إلى النائب العام استغيث به . . وأعطينا مأمور السجن الذي نزل بها إلى وكيل النيابة القاويش ففتح المحضر وأثبت البرقية فيه . لم يكن يملك أن يفعل غير هذا فرغم أن التحقيق كان مازال سريعاً إلا أنه عندما تزول السرية وأبلغ المخامين أني أرسلت برقية للنائب العام ولم تثبت في المحضر ستعتبر القضية لاغية من أولها إلى آخرها . .

استدعاني القاويش بعد ذلك فترلت حيث رأيته جالساً وإلى جانبه مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار وابتدأ التحقيق . .

س : هل كتبت البرقية ؟

ج : نعم .

س : لماذا ؟

ج : لأن هناك تعذيباً وقع على .

س : من الذي عذبك ؟

ج : مأمور السجن وتوفيق السعيد والجزار .

س : تركوا علامات على جسمك ؟

ج : لا وليس بالضرورة أن يترك التعذيب علامات . . يكفي أنهم شتموني

وصفغوني على وجهي وضربوني « بالشلاليت » فهل ترك هذه أي آثار ؟

ثم لأنهم يريدون إجباري على الاعتراف . . توفيق السعيد حاول هذا

أكثر من مرة . . وقال لي لكي يغريني على الاعتراف بأنهم ذهبوا

إلى جبل المقطم وأتوا بالأسلحة التي يقول إنني أخفيها هناك .

بدت الدهشة على وجه القاويش لأن هذه الواقعة من أسرار التحقيق والمفروض أن يواجهني هو بها . .

أخذ أقوال مأمور السجن والجزار وتوفيق السعيد والكل أنكروا . . التفت
إلى توفيق السعيد وقلت : -

- في اليوم التالي ألم تفتح باب حجرتي على في الساعة الثانية صباحاً ؟ ألم توقظني
من النوم في البرد القارس وتهجم علي ؟

- توفيق السعيد أجاب : أبداً . . لم يحدث هذا .

قلت : حاول أن تذكر جيداً . .

وراح توفيق السعيد يضرب كفأ بكف وينظر إلى باستغراب . .

قلت : هذا حصل .

قال : أبداً كل ما حدث أتى قابله في فسحة العصر ودار بيننا حديث .

قلت : أبداً . . الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل ، وانت أنهجت علي
وشتمني وضربتني ، وقلت لي إذا لم تعترف فسوف تلقى أسوأ مصير . . لأن
القضية جاهزة . . وإدانتك واضحة وخاصة بعد أن اعترف الجميع .

كنت أعرف أن مثل هذه الأقوال كغيلة يهدم القضية وخاصة عندما تخرج
إلى حيز العلانية ويتناولها الخمامون ويستغلونها أحسن استغلال . .

أدرك وكيل النيابة القاويش ذلك . . فواجهني بالتهمين ما عدا حسين توفيق . .
بعضهم قد اعترف وتمسك باعترافه . . أما عمر أبو علي فكنت واثقاً منه . .
نظرت إليه ففهمني مباشرة . . أنكرك كل ما سبق أن قاله . . جن جنون القاويش
إذ أدرك أن القضية بدأت تنهار فأمر بعودتي إلى الزنزانة . . راجعت مع نفسي
كل ما حدث . . كنت مرتاحاً إلى أن عمر أبو علي أيدني ثم أتى أثبت التعذيب . .
ولكن ما زال هناك شوط على أن أقطعه . .

طلبت مأمور السجن . . حضر إلى زنزانتي . .

.. ورقة وقلم . .

- مرة أخرى لا ما الذي جدد ؟

- هذا شأني . .

أحضروا الورقة والقلم . . وكتبت إلى النائب العام : « أرجو إنقاذي من

وكيل النيابة المحقق . . لقد سبق أن امتعشت بك من التعذيب الذي حدث لي
وقد أخذ وكيل النيابة أقوالى وأقوال من عذبوني ولكن التعذيب مازال مستمراً . .
ولذلك فأنا أطالب بوكيل نيابة آخر يحقق معي . . علماً بأنني مضرب عن الطعام
منذ هذه اللحظة احتجاجاً على ما يحدث لي . . وقد طلبت من مأمور السجن
أن يقتش حجرتي ليتأكد من أنه لا طعام بها . .

أرسل القاويش وكيل النيابة في طلبي وفتح المحضر . .

- أنت مضرب عن الطعام ؟

- نعم .

- السبب ؟

- التعذيب .

- من الذي يقوم بتعذيبك ؟

- أنت أولاً ثم الجزار وتوفيق السعيد . . ومأمور السجن الذي يأمر
رجالہ باقتحام حجرتي في الليل والتهجم على بالب والضرب ثم ينسحبون
ليعاودوا التهجم مرة أخرى وهكذا طول الليل . .

أخذ القاويش أقوال كل من اتهمهم . . طبعاً أنكروا . . وخصوصاً
مأمور السجن الذي أكد أن شيئاً مما قلته لم يحدث على الإطلاق . . تمسكت
بأقوالى .

أدرك القاويش أن هدفي من كل هذا تقويض أركان القضية . . وخاصة أن
محمد كامل كما سبق أن رويت رفض الاعتراف وأن عمر أبو علي غير
أقواله . . لم يكن أمام القاويش إلا أن يواجهني بأكثر المتهمين صلابة وأكثرهم
انحيازاً إليه وهو حسين توفيق . .

وفعلًا تمت المواجهة في الحال . . حسين توفيق أصر على موقفه . .

الفصل الثالث

نحو تحرير الذات الزنزانية ٥٤

١

كانت الساعة الخامسة والنصف مساءً عندما وجدت نفسي داخل الزنزانة ٥٤ في سجن قره ميدان . . وثلفت حولي . . كل شيء يختلف اختلافاً تاماً عن سجن الأجانب . . فلا سرير ولا مائدة صغيرة ولا كرسي ولا نور . . ولا أي شيء على الإطلاق . . فقط أرضية الحجرة المصنوعة من الأسفلت وفوق جزء منها « برش » من الليف الحشن بالكاد يكفي لكي يتمدد عليه الإنسان لينام ملتجئاً ببطانية قدرة إلى أبعد حدود القذارة التي لا يمكن أن تتصورها مهما حاولت . .

أما حيطان الزنزانة ففي الشتاء ينشع منها الماء ليل نهار وفي الصيف تغطيها مع الماء جيوش من البق لا حصر لها . . كيف يستطيع البق أن يعيش مع هذه المياه التي لا تجف لحظة ؟ . . لم أعرف . ولا أعرف إلى الآن . .

هكذا عشت سنة ونصف كاملة . . لا قراءة ولا كتابة ولا راديو ولا نور ولا أي شيء مطلقاً . . ففي هذه الأثناء كانوا قد نقلوا بالتدريج جميع المتهمين في القضية إلى سجن قره ميدان . . كل في زنزانه منفردة بطبيعة الحال . . فقد كان هذا من حقنا لأننا مازلنا رهن التحقيق . . بالإضافة إلى أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا أن نسجن في الزنزانات الكبيرة التي خصصت للمحكوم عليهم ما بين لص وقاتل وتاجر مخدرات وحرامي الخزن . . ! وكان هذا الأخير - كما علمت - أكثر الناس احتراماً في نظر المجرمين . .

في أول الأمر كان يسمح لكل منا بفسحة لمدة ربع ساعة منفردة يومياً ثم بعد أن قدمونا لقاضى الإحالة جعلوا الفسحة ثلاثة أرباع الساعة صباحاً ومثلها بعد الظهر . . وفي أثناء الفسحة سمحوا لنا باللقاء والكلام . . وتكلمنا . . كل كلامنا تقريباً كان يدور حول ما نعانیه في هذا السجن اللعين . . وخاصة دورات المياه

واخترعت أنا قصة أفسر بها معرفتي بحسين توفيق ومقابلاتي معه . . وطبعاً كانت بعيدة كل البعد عما حدث . . حاول حسين توفيق تكذيب ما قلت . . ولكني أصروا على أن هذه هي الحقيقة وأبدت دهشتي لقدرته على تشويه الواقع وحاولت أن أوحى إلى حسين توفيق أن الإصرار على هذا الكلام معناه الإعدام . . بدأ حين توفيق هو الآخر يهتز وأدرك وكيل النيابة خطورة ما يحدث فأبى التحقيق على الفور . . ولكي يتخلص مني . . لكي يبعثني عن بنية المتهمين حتى لا أؤثر عليهم وبذلك يتغير مسار القضية . . أمر بشلي فوراً إلى سجن قره ميدان أو سجن مصر العمومي حيث أودعت الزنزانة ٥٤ .

التي كان يستحيل على أي آدمي أن يقضي بها حاجته فإلى جانب قذارتها بصورة لا يمكن أن نرى العين مثيلاً لها . . كان علينا عندما نضطر إلى اللجوء إليها أن نقضي حاجتنا جميعاً . . هكذا كما يفعلون في الأدغال أو ربما في الريف . . ولكن في الخنيقة أسوأ بكثير . . فالأرض هناك واسعة . . ولكن هنا في السجن كانت طاقة دورة المياه ألف شخص في حين كانت حمولتها دائماً ثلاثة آلاف في أي وقت . . وقد أثر هذا تأثيراً سيئاً للغاية على معوياتنا بل لقد كان السبب في تخصيص غير للجرب في كل سجن من سجون مصر . . فكثير من المساجين كانوا يمرضون بهذا المرض . . لأنهم ينتقلون أصلاً من بيئة قادرة إلى بيئة أكثر قذارة وهي السجن . . فينتشر هذا المرض بينهم بسرعة . . كما سبق أن انتشر عندنا في معتقل الزيتون في الأربعين . . وهكذا «بقدرته» أصبح لا فرق بين الأربعين والادمي في السجن . . (وقد عالجت كل هذا بعد أن توليت) .

عشنا سنة كاملة في هذه المعاناة التي لم يستطع أن يتحملها الكثيرون كما تحملتها أنا بفضل نشأتي بالقرب وللخشونة التي اكتسبتها من خدمتي بالتواتر المسلحة فمثل هذه المسائل لها أثرها دون شك . . من خلال وساطات بعض أهالي المهين معنا من الأكابر سمحوا لنا في مرحلة متأخرة - بعد سنة تقريباً - بالأكل بالمعلقة . كما ركبوا شبابيك زجاج فوق شباك الزنزانة الذي لم يكن سوى كوة في أعلى الحائط مفتوحة على الدوام لبرد الشتاء وقيظ الصيف . .

في هذه المرحلة كان المفروض فيمن هو تحت التحقيق أن يأخذ أكل السجن أو يطلب طعامه من متعهد خارج السجن وكان هناك متعهد يملك دكاناً في مواجهة السجن . . في الإفطار كان يرسل لنا بعض العسل والخبز والجبن أيضاً . . ربما . . لا أذكر . . ولكني أذكر أني لم أكن آخذ وجبة الظهر من المتعهد فقد كان الإفطار وحده يتكلف سبعة جنيهات ونصف في الشهر . . وكان أهلي في كثير من الأحيان لا يستطيعون دفع ثمنه لأنهم لا يملكونه . .

في يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقي طلعت وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهرياً لأسرتي . . تماماً كما سبق

أن فعل إخواني الضباط وأنا في معتقل ماقوسة بالمليا . . ولكن توقفت المعونة المالية بعدما انتهى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى ولما عدت إلى السجن كان مازال لأثرها على الإطلاق . . ربما نسوا ساعهم الله .

وأخيراً أتى الشيخ حسن البنا يعطى لعائلتي عشرة جنيهات شهرياً في . . . شقيقي طلعت لا يجد ثمن إقطاري ولا حتى ثمن زجاجة ملح الفواكه التي كان ثمنها في ذلك الوقت ١٢ قرشاً . . وملح الفواكه بدأت أتناوله أول شيء في الصباح وأنا في السجن وما زلت إلى الآن استخدمه . . فترة طويلة تقرب من ثلاثين عاماً لم يمكنني فيها الاستغناء عنه إطلاقاً . . أضف إلى هذا ثمن إيجار السير والمنظدة وكريمي بعد أن سمحوا لي في السجن بالمنظدة ولكن بشرط أن ندفع عنها إيجاراً يومياً قدره عشرة قروش

ورغم أن سجن الأجانب لم يكن تزلزله إلا من أسافل القوم ورغم أن السجون العمومية هي لأبناء مصر . . لكن التفرقة كانت واضحة . . فمثلاً ندفع وندفع مقابل ماذا ؟ مرتبة من قش الأرض صلبة خشنة والأرجح أنها مصنوعة من ألياف جامدة كالحجر . . أما هناك فالفرش وثيرة والور الكهربائي متوفر وكذلك الطعام . . وكل هذا بدون مقابل . . تمييز عنصري حتى في السجون بيتنا نحن أبناء الوطن وبين الأجانب . .

ولكن للأسف كانت سجوننا من أسوان إلى الإسكندرية هكذا على نفس الطراز . حتى أني لما ذهبت في ٦ أكتوبر ١٩٧٥ لأهدم سجن طهره كرمز لإنهاء امتحان كرامة الإنسان وأمسكت المعول بيدي أضرب به أحسنت أن جدران السجن هي نفس جدران سجن قره ميدان . فالطوب تحت المعول مبلل هش من المياه التي تتخلله وحتى قبل أن أصل للطوب . وأنا أزيل الطلاء أحسنت بالطوبية ورأيت الصراير تخرج من بين الطوب والطلاء . . جيوش من الصراير لا حصر لها . . كان منظرها قبيحاً ولكني لم أترك المعول لحظة . . ظلمت أضرب في الحائط وأعصابي مشدودة فلا بد أن أزيله . . حاولوا أن يوقفوني . . ولكني رفضت وقلت لهم أنا بخير . . المهم أن تزول هذه السجون وتحل محلها سجون يمكن أن يعيش فيها الإنسان . . ولذلك أمرت ببناء سجون جديدة تتوفر فيها جميع الشروط الصحية . . وفي الوقت نفسه نصلح للانتاج بحيث لا يقضي

السجن طول مدة سجنه بين أربع جدران عاطلا عالة على المجتمع . . بل
يجب أن يفيد ويستفيد فيخرج من السجن بحرفة جديدة تعلمها وبيعها المال
الذى يستطيع ادخاره في السجن مقابل عمله وفعلا بدأنا التجربة في السجن
الذى أقمناه بدلا من سجن قره ميدان ، وهو الآن موجود على طريق مصر
اسكندرية الصحراوى وإلى جانبه قطعة أرض تم استصلاحها ويقضى بها
المساجين نهارهم يزرعونها خضرا وفاكهة بعد أن هدم سجن قره ميدان
وأصبحت في مكانه حديقة عامة يستمتع بها الشعب . .

نعود إلى قره ميدان . . في أثناء إقامتنا به كان وكيل النيابة القاويش دائم
السعى بطبيعة الحال إلى إدانتنا . .

قبل أن أغل من سجن الأجانب حدث أن جاء أخى طلعت لأخذ ملابسى
للغسل كالعادة وكنت قد وضعت في جيب البيجامة ورقة بها رسالة باللغة
الإنجليزية تقول :

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

شك القاويش في الملابس ففتشها وأخرج الورقة وصورها ثم أعادها إلى مكانها
بالبيجاما . . أحس أخى طلعت وهو في طريقه إلى البيت أن هناك من يتبعه . .
أدرك أن هناك شيئا ما . . في البيت وجد الورقة نقل الرسالة التى تحملها وترك
الرسالة الأصلية في جيب البيجاما حيث تم غسلها مع بقية الملابس . . وفى عودته
إلى السجن كان مازال تحت المراقبة وكان القاويش ينتظر النتيجة - فتح جيب
البيجاما فوجد الورقة - الرسالة الأصلية - في مكانها ولكنها قد أصبحت عجينة . .
ذهب المشتبه الذى كان يتطلع إليه ! خاب أمله وازداد خيبة عندما علم من رجاله
أن الرسالة لم تُلغ إلى أية جهة . . فقد بلغها أخى طلعت في الساعات الأولى
للفجر في يوم كان واقفا فيه من أن أحدا لن يفكر في أن يتبعه . .

كان التنظيم « أ » كله من المدنيين وأما التنظيم « ب » فقد كان خليطا من
المصريين والمصريين . . ولكن لا أحد يعرف أن الآخر في التنظيم . .

أراك يا عزيزي القاويش تتسلم إلى من بلغت الرسالة فأجيبك على الفور . .

إلى من عهدت إليهم الأقدار بالقيام بشوة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . (وكان تصرف
وكيل النيابة في هذا الموضوع من الأركان الرئيسية لبرائتى) .

بعد عودة الملابس مباشرة أتى إلى السجن القاويش وطلب التحقيق معى
أعطائى ورقة وقلماً وقال . . اكتب وأملانى .

FORMATION A OUT OF ACTION ALL

FORMATION B GOT IN TOUCH WITH ME

فهمت أن الرسالة التى بعث بها قد وقعت في أيديهم . . كنت قد كتبت رسالة
بحروف مفردة . . ولكننى كتبها الآن بالخط المشبك . . فعاد وطلب أن أكتب
بالحروف المفردة . . أنا عادتى أميل الكتابة لليمين أو أقت في الوسط . فتعمدت
أن أميلها للشمال . . كتبت ثلاثة صفحات كاملة بالحروف المفردة واشتكت منه
كان هدفه أن يقارن ما كتبت بخط صورة الرسالة التى عنده . ويصح لديه .
مستند يحقق الأمل الذى كان يراوده وهو أن يقع في يده تنظيم الجيش . ولكن
خاب ظنه .

لم يأتى القاويش إلى بعد ذلك الإمتحان الذى فشل فيه .

كان بقية المتهمين في القضية - « الأولاد » كما كنت أسميهم - قد بدأوا
يفقدون إلى سجن قره ميدان كما سبق أن رويت . . وكان معنى هذا أننا مازلنا
تحت التحقيق إلى أن نذهب لقاضى الإحالة الذى له أن يحكم بتحويلها إلى
محكمة الجنايات أو باعتبارها جنحة لا ترقى إلى جنائية . . أو أنها لا شئ على
الإطلاق فيخرج عن المتهمين . .

بمجرد أن عرضت القضية على قاضى الإحالة رفعت عنها السرية وتداولها
المحامون فوجدوا أننى قد قوضت أركان القضية بانكارى وتكذيبى للآخرين
واتهامى مأمور السجن ووكيل النيابة وغيرهم بتكذيبى . . ووجد المحامون في
القضية لقمة سائغة فأخذ كل محامى يوصى موكله بالإنكار قالوا لهم « لو أنكم
استمعتم في بداية الأمر إلى نصائح أنور السادات ؟ إنه رجل . . أما أنتم فما
زلم صبيه صغارا . . كان عمرى ٢٧ عاماً في ذلك الوقت أى سنة ١٩٤٦ أما
أعمارهم فكانت تتفاوت بين ١٤، ١٧، ٢٠، ٢٢ سنة . . كنا سبعة وعشرين منهم

في القضية وكان رقمي السابع أى كان أمامي ٦ وخلق عشرون . . وبالمطبع
تختلف مهمة كل منا عن نهم الآخرين ولكنها تدور جميعاً حول مقتل أمين
عثمان . . أفرج قاضي الإحالة عن اثنين منا فقط بكفالة . . بينما ظل الباقيون
وكنتم منهم طبعاً في السجن تنتظر المحاكمة .

ولكى نشغل الوقت راح المحامون عنا يقدمون المعارضة بعد الأخرى . .
ولكن بدون فائدة . .

هكذا مرت سنة ٤٦ ثم أتت سنة ٤٧ ولم يكن فيها من جديد سوى أنهم
حددوا لنا دائرة جنائيات . وكان موقف المحامين في هذه المرحلة طلب التأجيل
مرة بعد أخرى ودعواهم أن القضية كبيرة وملفاتها كثيرة - مجرد كسب
وقت - ونجحوا طبعاً . . فمع مرور الزمن تغيرت دائرة الجنائيات إلى
دائرة جديدة . .

فقد كان الذين يترافعون عنا من أكبر محامي مصر . . وكان الواحد
يتقاضى عن القضية الواحدة آلاف الجنيهات ولكن للأسف لم يكن هذا حالهم
في العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عطلت سيادة القانون : فلم يصبح هناك
أى مجال للمحاماة أو القضاء . . وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا .

ولكن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعي اليوم بعد أن أعدت سيادة القانون . .
أصبحت الحاجة ملحة إلى المحامين للعمل على رفع الظلم عن الناس . .

وبعد الانفتاح زاد الطلب على المحامين إذ لابد لكل رجل أعمال أجنبي
يفسد إلى مصر من أحد المحامين لكي يرفع شؤونه . . وبذلك عاد الكيان لا إلى
القضاء وحده بل إلى المحاماة أيضاً .

٢

مكانان في هذا العالم لا يمكن للإنسان فيهما أن يهرب من ذاته . . هما الحرب
والسجن . . وفي الزنزانة ٥٤ عشت مع نفسي . . تلازمني والأزمها ليل نهار . .
لم تكن هذه الفرصة قد أتيت لي من قبل . . فقد كنت مشغولاً بأشياء كثيرة
أعمل بالجيش وأشتغل بالسياسة بينما كان نهار الحياة اليومية يترقني معه أينما

ذهب أو ذهبت . أما الآن فأنا أعيش في الزنزانة ٥٤ دون أن تكون لي صلة
بالعالم الخارجي . . فلا راديو ولا صحف ولا أى شيء على الإطلاق .

وحدة رهيبية لم يكن هناك من سبيل إلى الخلاص منها سوى أن أعيش مع
نفسي . . وفعلاً عشت معها ولكن رغبة هذه المعيشة لم تستع لي شئ
إليها كأن شيئاً ما يقف بيني وبينها . .

ظلمات كنت أعاني منها من زمن ولكني لم أدركها تمام إلا في سنة ٤٦
أن أنقلها إلى منطقة الضوء .

وعندما سمحوا لنا في السجن بالكتب والمجلات ونصحف كنت أعيش 'قر'
في نهم وأجد في كل سطر شيئاً جديداً يفتح أمامي آفاقاً عرفتها من قبل .

كان أكثر من نصف قراءتي باللغة الإنجليزية وبقاى باللغة العربية وعدم
كانت تستهويني فكرة أو قصيدة شعر أو أى شيء فيما قرأت كنت على عرق
ما يروقني في كراسة ما زلت أحتفظ وأعزها كلها كل الإعتزاز به الآن وهي كتب
السجن . . وقد أودعتها أغلب ما كان له أثر على حياتي من آراء أو مشاعر كتبت
ومفكرين من الشرق والغرب .

ولم يقتصر أثر قراءاتي المتعددة على توسيع آفاني الفكرية والمخاضية بل
لقد ساعدتني هذه القراءات على المزيد من التعرف على الذات . . فاستطعت أن
أتلخص من أزمة عصبية كنت أعاني منها منذ زمن وكانت بسبب القنص على
في الساعة الثانية صباحاً في برد الشتاء القارص في كل من عامي سنة ٤٢ . ٤٦ .
لم أكن أدرك طبيعة هذه الأزمة ولكني كنت أشعر أنها تعكر صفو سلامي
الروحي . . إلى أن دخلت السجن وعشت مع نفسي فطقت هذه المعاناة على السطح
تلقائياً . . أسبوع واحد في السجن يكفي لهذا . . أما كيف تخلصت من هذه الأزمة
فالفضل يرجع إلى مقال قرأته في الـ ريدرز دايجست : لأحد علماء النفس
الأمريكان . . كانت خلاصة المقال أو النتيجة التي وصل إليها الطبيب النفسي
بعد تجارب ٢٤ سنة هي أن الإنسان في أية مرحلة من مراحل حياته معرض
لأن يصاب بصدمة تكون نتيجتها أن يحس أن كل شيء حوله مغلق . . وكأنه
في سجن لا باب له . .

أول باب لهذا السجن أن يعرف الإنسان ماذا يضايقه . . وثاني باب . . الإيمان . . ما معنى الإيمان ؟ أن تنظر إلى أى شيء كرهه يحدث على أنه قدر لابد من مواجهته وتحمله . . وبعد ذلك تغلب على الآثار الناجمة عن هذا . . فيجب ألا تفكر أنه ليس هناك حل لأية مشكلة . لأن الحل دائماً هناك . . ما الذى يجعلك تفكر هكذا ؟ إيمانك بأن الله قد خلقك لأن عليك دوراً يجب أن تؤديه في هذه الحياة . . والإله الذى خلقك ليس شريراً على الإطلاق . . بالعكس إنه خير جداً . . لا كما يصوره لنا الشيخ في كتاب القرية - جبار . . مخيف . . وذلك فالعلاقة المثل بين الإنسان والله لا تنبنى على الخوف أو على الثواب والعقاب . . بل على قيمة اسمى من كل قيمة . . وهى الصداقة . . فمن صفات الخالق . . الرحمة والعدل والحب ثم هو قادر على كل شيء لأنه مصدر الأشياء جميعاً فإذا اتخذت منه صديقاً منحك الاملئنان . . فتحت أية ظروف وفى جميع الأحوال غبه وينحك .

إن تحليل العالم النفساني لم يعمل لى عشدة المرة العصبية فقط بل فتح أمامى آفاقاً من الحب لا حدود لها فى علاقائى بالكون . . كانت كامنة فى خضم الحياة العادية فكشفت عنها تجربة السجن ومعاناتها بحيث أصبح الحب المنطلق الرئيسى لكل أفعال ومشاعرى .

من أجل هذا . . ولأنى أصبحت مليئاً باليقين والاملئنان لم أهنر لحظة واحدة وسط الأحداث المتقلبة التى واكبت حياتى فى جميع مراحل العمر . ولم يخذلنى الحب مرة واحدة . . بل كان دائماً ينتصر فى النهاية . .

وهذه حكايتى أو طرف منها مع جمال عبد الناصر . . فى الثمان عشرة سنة التى لازمتها . . كانت هناك أوقات لا أستطيع فيها أن أفهمه أو أن أقر بعض تصرفاته ومع ذلك كانت مشاعرى نحوه هى نفس المشاعر . . الحب والحب وحده . .

أما سؤال الحب فى حياة الحب فسيكون هذه المرة الفصولية مع عبد الناصر من غير أن يقع بيننا ما وقع بينه وبين بقية زملائه مثلاً نامل مصححى أحببى فى لندن قائلاً إما إننى كنت لا أساوى شيئاً على الإطلاق وإما أنى كنت شيئاً

غاية الحب بحيث تعاشيت الصراع معه . . وبقيت أنا الرجل الوحيد من رجال الثورة الذى لم يحسه سوء بل على العكس عندما فارق عبد الناصر الحياة كنت أنا نائب رئيس الجمهورية الوحيد . .

وإن دل هذا السؤال الساذج على شيء فإتما يدل على جهل أصحابه بطبيعتى فلا أنا كنت عديم الصفة أثناء حياة عبد الناصر ولا كنت شيئاً أو شيئاً فى حياتى قط . . كل ما فى الأمر أنى وعبد الناصر تصادقنا ونحن فى سن التاسعة عشرة ثم جاءت الثورة وأصبح هو رئيساً للجمهورية مصر . . فقلت فى نفسى أهلاً وسهلاً . . صديق الذى أثنى فيه قد صار رئيس جمهورية . . وهذا شيء يستعنى ونفس الإحساس شعرت به عند ما أصبح عبد الناصر رئيساً للأمم المتحدة العربية وبني حوله هالة كبيرة . .

أحياناً كنا نختلف ونحدث بيننا جفوة قد تستمر شهرين أو أكثر يرجع السبب فيها ربما إلى اختلافنا فى رأى أو إلى دس بعض من لم تأثر عليه من حوله . فقد كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للشيل والقال . ولكن أبداً كان الأمر فلم يحدث مرة واحدة أن وضعت نفسى موضع الدفاع وليس من طبعى أن أعمل هذا بالنسبة لعبد الناصر أو لعامة من الناس . طبعاً كانت تنهى الجفوة مهما طاللت عندما يتصل فى تليفونياً ويسأل أين كنت طوال هذه الأيام ولماذا لم أتصل به ؟ كنت أحب أنة كان لابد من عدم أن يفت ففعلت أن أتركه لمشغوليته . . ثم تلتقى وكان شيئاً لم يكن . .

حدث هذا مراراً عديدة ولحظى كنت أعابل كل ما يصطبه عبد الناصر من الحب الخالص من جانبي . . لقد تسلم تنظيم الضباط الأحرار فى نهاية سنة ١٩٤٢ وقطع به شوطاً طويلاً استمر فى ٦ سنوات كاملة كنت أنا أنامض فى السجون والمعتقلات ثم بعد خروجى من السجن كان لابد لى من العودة إلى الجيش لكنى أشاركه وزملاءه فى الجهود التى بدأتها ثم استأنفوها هم من بعدى . . وفعلنا تحقن هذا عندما عدت إلى الجيش عام ١٩٥٠ .

ثم قامت الثورة فى ١٩٥٢ وساهمت فيها ولكن لم تكن مساهمى بالأمم المتحدة . . الأهم من كل شيء أن الثورة قد قامت وتحقق بها الحلم الذى استعولى على حياتى منذ أن كنت صبياً لم ألتج الثانية عشرة بعد

هذا ما جعلني أعيش مع عبد الناصر ١٨ سنة دون صراع . لأني لم أكن أريد شيئاً . . . لم تكن لي مطالب من أي نوع وفي أي وضع كنت . . . عضواً في مجلس قيادة الثورة أو سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي أو رئيس تحرير جريدة الجمهورية أو وكيلًا بمجلس الأمة . . . أو رئيس مجلس الأمة . . . لم يتغير حبي لعبد الناصر أو تختلف مشاعري نحوه . . . فأنا إن جازبه منتصراً كان أو مهزوماً . . . ولعل هذا ما جعل عبد الناصر يلتفت حوله بعد ١٧ سنة وينتبه إلى أن هناك إنساناً لم تقم بينه وبينه معركة في يوم ما . . .

وهذا ما جعلني أقول إن الحب ينتصر في النهاية . . . فلم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عيني عبد الناصر . . . وداخله مليء بتناقضات لا يعلمها إلا الله . . . ينعم على واجبي كصديق أن لا أكتشفها أو أفصح عنها . . . ولكنها كانت موجودة . . . عبد الناصر مات دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون . . . فقد قضاهما كلها بين انفعال وانفعال . . . التلقى يأكله أكلاً فقد كان يقترض الشك في كل إنسان مسبقاً . . . وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا أن خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أقرب الناس إليه أو داخل البلد نفسه بجميع صفاته . . .

ولكني كما قلت وكما زلت أكرر . . . انتصر الحب في النهاية . . . هذا الحب الذي كان وليد المودة والألم في الزنزانة ٥٤ . . . فلا شيء مثل المعاناة يضقل النفس ويؤذي عنها الفساد ويكشف عن معدنها الأصيل . . . فقد تكشف لي أنني بطبعي ونكروني أحب الخير . . . وأن الحب هو الدافع الحقيقي لكل ما أفعل . . . وبدون الحب لا أستطيع فعلاً أن أعمل . . .

لقد منحني الحب اليقين والثقة الكاملة في نفسي وفي كل شيء حولي . . . فحبى للكون مستمد من حبي لله عز وجل . . . ومادام الخالق صديق فقيم الخوف من البشر ؟ . . . إنه هو الذي يملك أمرهم وأمر الوجود كله . . .

بهذا الإحساس الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ مني . . . والذي كان كذلك طوال حياتي ولكن دون أن أعيه وعياً كاملاً . . . ارتفعت فوق المكان والزمان في الزنزانة ٥٤ فلم يعد المكان الزنزانة ذات الأربعة جدران . . . بل اتسع بحيث شمل

الكون كله . . . أما الزمان فلم يعد له وجود بعد أن دخل قلبي حب سيد الكون فاستول على وأصبحت أشعر أنني أينما كنت فأنا منه قريب . . . يقول تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .
صدق الله العظيم

أصبح صديقي الذي تملأ صداقته كل كياني وتملأ فراغ الزنزانة هو الله منبع الحب والخير والوفاء وكل ما يجعل قوته شريفة . . . فقد كنت معه أحبه وأعبدته في كل ما خلق . . . كم أصبح كل شيء مصدراً للبهجة والسعادة فالكلمة أصدقائي لأن الكل من صنع الله . . . الشجرة التي أراد لها أن تكون فكانت والحبة التي نبتت بإرادته التي هي حبه . . . والزهرة والجبل والشجرة والجذور والفروع والبشر على مختلف ألوانهم وطباعهم . . . كل ما في الوجود أصبح موضع حبي . . . لأنه كان مثلي كان ويكون بحب الله له . . . وبحبه لله . . .

٣

ما تعلمته في الزنزانة ٥٤ أن العاقل هو من يحرص على النجاح الداخلي لأنه سيظل دائماً متوازناً داخل ذاته صادقاً مع نفسه والصدق مع النفس يعني الصدق مع الناس . . . وأنا لا يهمني النجاح الذي يراه الناس في بل النجاح الذي أراه أنا في داخل نفسي وأرتاح إليه . . . هذا النجاح يعتمد أساساً على معرفة الذات ولذلك فمن يؤمن . . . يحاسب نفسه قبل محاسبته للغير وهو لا يأخذ في الاعتبار ما يناله الإنسان من مكاسب مادية بل على مدى اكتشاف صورة الإنسان لذاته وتحقيق هذه الصورة فيما يصدر عنه من أفعال . . . إن النجاح الداخلي قوة دائمة مطلقة لا تخضع لأي مؤثرات خارجية على عكس النجاح الخارجي الذي يهتز ويتغير من وقت إلى آخر حسب الظروف والعوامل الخارجية فقيمه دائماً نسبية .

أغلب الناس يبههم النجاح الخارجي - ما يصلون إليه من مراكز اجتماعية أو مال أو سلطان - باختصار صورتهم في نظير الغير ولذلك إذا تغيرت هذه الصورة لسبب أو لآخر اهتزوا وأصابهم الإنهيار . . . فهم لا يعرفون الصمود لأنهم لا يعرفون الصدق مع النفس أو مع الآخرين فالغاية عندهم دائماً تبر

الوسيلة . . . أما أنا فقد فرحت على أن تكون صورة الذات في نظري أهم من
 صورتي في نظري الناس . . . دراسة المذهبية ليست أكبر عادي من
 التي كانت . . . فأمر حلت به من هو الشك في كل شيء . . .
 أو من هو . . . لهذا ليس له مكانة خاصة بين الناس بل هو
 هو من كان

الاعتناء في جميع الناس في بحث الإنسان عن نفسه . . . والجميع في نفسه
 هو أنه أو ما يمكن أن يصيب المرء إذا نشأت الظلمة داخل النفس . . . وبانشارها
 بعد الإنسان الزوجة وتضع منه معالم الطريق ليصبح سجيناً داخل نفسه . . .
 بدلاً من كل ما عداها . . . وهذا يقف كجدار الإنسان . . .

هذا الجدار لا يمنع إلا بالاتصال والاتصال دائماً بين الإنسان والكوكب . . .
 أو بين الإنسان وبين الإنسان في ما يقرب إلى الإنسان من قطع أو قطع
 الإنسان نفسه في كل شيء . . .

لقد وجدنا نحن . . . بقدرنا أصبح وقد عثر على بعض الناس بأنفسهم
 بعد عيشنا في هذا العالم . . . من طريق الحب والصدق من العظم
 بعد هذا حبنا لا يكون إلا حباً في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك

الحق القسري في كل شيء في الحياة . . . ولكن كم من الناس يذكرون هذا ؟ وكيف
 يذكرون وهم لا يذكرون إلا . . . وفي أنفسهم وفيهم القوي ففهمهم التي أصبحت
 معارفهم من كل شيء في هذا العالم بالكون من خارج كل شيء في هذه الدار في هذا
 من أن يحفظها في نفسها ؟

في أوامر المصنفات كانت التي حلتها أسوأها بإدانة صوت العرب . . .
 وقد أحسن أن الجميع المصري لابد له من العبودية إلى أفعاله الأممية التي
 حلتها هذه دولة والمصنف من الناس الذين يوشعوا القوي من العبودية
 إلى هذه العبودية التي يكون من العبودية في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 في بعض هذه القسري في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 ولا يعرف من هذا كسر من السام . . . وأما لا أريد بهذه القصة الغريب

عبد الناصر . . . فالوفاء له يقتضي ألا أسمح لأحد باعتباره نفسه ما لدى من
 معلومات ويقدر ما أخذت نفسي به من إعطاء الشعب حريته

لهم لكي يحد الناس من أنفسهم في سمواتهم . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 وفاء في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 ولم أقل له ما لم يكن يعلمه وهو أن كنت قد كنت . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 أو تقوم . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 فقلت . . . أنا لم أضع نفسي يوماً موضع الدفاع أمام أحد . . .

والشعر عبد الناصر في كلامه يا بشير إلى الناس . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 الناس كثير . . . إلخ . . .

بعد هذا سجلت الحصة الأسيرة وحدهم جميع الناس . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 الجميع الناس . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 مع الناس . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك

لقد وجدنا نحن . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 أن لا نستطيع أن نصل إلى هذه الحالة . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 عبد الناصر وعنده عذره أو عذره أنه لا يمكن أن يكون في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 في وإنما يعني أن أرى أنا المصالح الداخل في نفسي . . . فحينئذ لم يكن في ذلك

ولعلنا نحدث ما أولنا . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 فهو أله أكثر لم يحصل حلالنا أهدانا بالأحرار . . . فحينئذ لم يكن في ذلك

٤

لقد سجلت مفهوم الجميع الناس من كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 من كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 أنفسهم في كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 من كل شيء . . . فحينئذ لم يكن في ذلك . . . فحينئذ لم يكن في ذلك
 في خضم الصراع على المسألة لديها أو غابت عما الحقة الأكرية التي لا يمكن لأي

مجتمع إنسانى أن يقسوم بدون أن تكون في بوثة شعوره باستمرار . . . وهي أن الإنسان قيمته تستمد من ذاته فهي مطلقة على الدوام ولا يمكن أبداً أن تكون نسبية .

يقول تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . »

صدق الله العظيم

لقد أفرد الله للإنسان دوراً تميز به عن جميع الكائنات . . . في التوراة يقول تعالى : « إن الله قد خلق الإنسان على صورته . » وفي القرآن : « نفخ فيه من روحه . . . وكل هذا يحم على الإنسان أن تكون له رسالة وإلا انتهى المعنى لوجوده . . فالأصل في هذا الوجود هو حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها . .

قد تختلف الرسالة من شخص لآخر . . ولكنها في جميع الأحوال تهدف إلى تحقيق ما أراد له الله أن يحققه من حملته الأمانة . . فإذا خلت حياة الإنسان من رسالة يؤديها كان هذا معناه أنه قد خان الأمانة .

ولكن لكي يؤدي الإنسان الرسالة التي خلق من أجلها : يجب عليه أن يستمد كيانه من ذاته لا من عوامل خارجية . . بهذا وحده يستطيع الإنسان أن يدين بالولاء لما هو أكبر وأبقى من هذه الذات فتكون له رسالة يؤديها في هذه الحياة . .

هذا يقين توصلت إليه في الزلزلة ٥٤ وأصبح جزءاً لا يتجزأ من كياني فإذا انقضى يوم بدون أن أفعل شيئاً نحو هذه الذات التي هي أكبر مني وأشمل بت غير راض عن نفسي ونساءلت ماذا فعلت بالأمانة التي أحملها يوماً بأكملها ؟

إن قيمة الإنسان مطلقة دون شك . . لأنها لو كانت نسبية فسوف تتغير من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع . . ومن زمن إلى زمن . . حسباً يفيد منه الناس كل من وجهة نظره . . فبراه البعض عظيم الفائدة وبراه الآخرون عديم النفع . . أو ربما كثير الضرر . . وهكذا إلى أن يفقد الإنسان قيمته كإنسان وبالتالي يفقد كيانه .

وهذا ما يحدث في المجتمعات الفاشية مثل المجتمع النازي أو الشيوعي حيث

تكون قيمة الإنسان مرهونة دائماً بمتطلبات هذه المجتمعات مما يمسح البشر أو يحلهم إلى أنصاف آلهة في الأحزاب الحاكمة أو يجعلهم عبيداً عليهم فقط أن يطيعوا الأوامر أو آلات تعمل دون أن تعي . .

وفي كل هذه الحالات يفقد الإنسان كيانه كإنسان له قيمة في ذاته ويسلب حتى حمل الأمانة التي كلفه الله بحملها ويجرد من الرسالة تلك الشعلة المقدسة التي خلق ليضيء بها الطريق لمن حوله ولمن يأتي بعده من أجيال . .

فعندما تصبح قيمة الإنسان نسبية تزول القوانين الآلية بل والوضعية أيضاً . . إذ يصبح لا مكان لما دامت سيادة القانون قد زالت كقيمة مطلقة وحلت محلها سيادة بعض الأفراد ممن هم أسرى النجاح الخارجي والذي يصبح المقياس الوحيد الذي يقيسون به الناس مما يؤدي بالضرورة والحتمية إلى ضياع القيم الإنسانية العليا التي من أجلها وجد الإنسان . .

وهكذا يضيع مجتمع الخير والجمال ويحل محله مجتمع القوة . . وأغلب البشر الآن يعيشون مجتمع الحقد والقوة مما أفقد العالم القيم العليا التي بناها الإنسان على مر العصور . . وفي اعتقادي أن المخرج الوحيد للبشرية من الأزمة التي تعانيها هو العودة إلى هذه القيم والإصرار على وضعها موضع الصدارة في جميع مجالات الحياة . . ولذلك تجددني لا أكف عن الدعوة إلى تبني قيم القرية المصرية ربما بشيء من التطرف أحياناً . . ولكنني أرى فيها الخلاص الوحيد من آثار مجتمع القوة الذي جربناه في مصر فأضاع القيم بأكملها . .

في الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستي للجمهورية حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد وقوة فقط ولكن التجربة فشلت ١٠٠٪ لأنها لا تتلائم مع تكويننا أو طبعنا . . نادينا بالديكتاتور العادل أو المستبد العادل فلما جاءنا . . قام البناء على الرمال . . وليت الأمر اقتصر على هذا . . فأقبح ما واجهته لم يكن الوضع الاقتصادي المتدهور ولا الوضع العسكري المهين . . بل جبل الحقد الذي نشأ عن محاولة بناء مجتمع القوة . . ففي هذه المجتمعات كما قلت تنعدم القيم الإنسانية ومع انعدامها يصبح الشاغل الوحيد لكل فرد في المجتمع أن ينال أكبر قسط من النجاح الخارجي (الكسب أو الجاه والقوة المادية) بحق أو بدون حق ومهما كلفه هذا من ثمن ولو كان القضاء على الآخرين .

من نتائج مجتمع الحق والقدرة حالة الضياع والخسارة التي يعيشها الشباب في مصر اليوم فقد وضعوا أمامهم قيمياً لمجتمع لا وجود له في ذاتهم ولا في تكوينهم وقالوا لهم هذا هو مجتمعكم الجديد وهو أحسن المجتمعات . . ومن هنا نشأ صراع داخلي مرير عند الشباب . . بين قيم جمالية ترسبت في وعيهم الجماعي على مرور آلاف السنين هي عمرهم الحضاري . . ومجتمع القوة الجديد الخالي من أي قيم والذي فرض عليهم فرضاً . . وازدادت حدة الصراع وأصبح الضياع أمراً عتوماً عندما رأى الشباب مجتمع القوة ينهار أمام أعينهم ومع ذلك فما زالوا يلتفتونهم أنه أفضل المجتمعات وأقواها . .



في الزلزلة ٤٤ بدأت الروابط التي تربطني بمطالب الحياة تنقطع الواحدة بعد الأخرى . . ولما تخفت الروح من أثقالها تحررت الذات وانطلقت كما ينطلق الطير من قفصه إلى الفضاء الواسع . . إلى الكون بأجمعه . . إلى اللانهاية . . فما دام الإنسان يريد أن يكون هذا أو ذاك أو أن يمتلك هذا أو ذاك فهو لا يمتلك شيئاً على الإطلاق لأنه سيظل عبداً لما يريد ولما يملك . . وبذلك فهو لا يكون . . فقط عندما يتخلص من كل ما يمت إلى ذاته يصبح سيد نفسه . . فيكون . .

فعندما يخرج الإنسان من الذات الضيقة بمعانيتها وانفعالاتها الدنيوية يجد أمامه عالماً جديداً لم يعرفه من قبل . . هذا العالم الجديد أرحب وأغنى من الحياة التي ألفها وهو أيضاً من نوع مختلف . . ففيه تتحرر الذات بحيث تصبح كل ما في الوجود فلا زمان ولا مكان يمكن أن يحتويها . . وفي هذا التحرر تتحول الإرادة إلى حب . . وكل ما كان يمكن أن يعكس الضيق . . إلى سلام لا حدود له ويعد الإنسان سعادة تفوق كل ما يمكن أن يسعد به على هذه الأرض . .

من أجل هذا كانت السنة شهور الأخيرة لي في الزلزلة ٤٤ وما زالت أسعد أيام حياتي . . ففيها تعرفت لأول مرة على هذا العالم الجديد . . عالم إنكار الذات إنكاراً تاماً بحيث ذابت في غيرها من الكائنات فاتسعت واتصلت بسيد الكون . .

طبعاً لم يكن هذا ليحدث قبل أن أدخل إلى نفسي وأعيش معها وأعرفها . . وما لا شك فيه أيضاً أن قراءاتي قد ساعدتني على اكتشاف هذا العالم الجديد . . أنا لم أدرس التصوف ولكن ما وقع في يدي من أقوال وكتابات المتصوفين وجد صدى في نفسي مثل الكثير من قراءاتي في السجن فقد عبرت لي عما كنت أشعر به دون أن تصل درجة إدراكي إلى مرحلة الوعي الكامل والتعبير ولكن لعل المعاناة من أهم العوامل التي قربت بيني وبين العالم الجديد الذي عرفت فيه السلام الروحي كما لم أعرفه من قبل فالآلام العظيمة هي التي تبني الإنسان وتجعله يرى نفسه على حقيقتها . . وهذه الآلام تندرج تحت الكثير من القيم الإنسانية العليا . . مثلاً غدر الصديق في يفوق كل ألم آخر في الحياة . . لأن الصداقة عندي شيء مقدس ولذلك عندما يغدر بي صديق أحس أن الأرض قد اهتزت تحت قدمي . . وعندما أقرر الاستغناء عن الصديق لغدره في أشعر أن جزءاً من كياني قد انسلخ عني . . وأعاني من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحملة . . إلى من ألتجأ؟ وما هو السبيل إلى دفن أحزاني؟

لم يعد هذا حالي بعد أن تعرفت على عالمي الجديد وعشت فيه . . لا وجود لذاتي . . فالوجود الوحيد لذات الكون وللذات العليا . .

كان هذا العالم الجديد فتحاً حقيقياً بالنسبة لي . . ففيه عرفت صداقة الله . . هو وحده عز وجل الصديق الذي لا يمكن أن يخونك أو يتخلى عنك . . فهو الذي خلقك وكونك وحملك الأمانة وأعطاك من روحه وهو لا يعرف إلا الحب الذي لا حدود له والخير الذي ليس بعده خير . .

وهو يريد للحياة التي خلقها أن تسير شريفة . . قوية . . جميلة . . بعدما عرفت صداقة الله ، تغيرت كثيراً فلم أعد أغضب أبداً إلا في الحق وأصبحت الحياة بالنسبة لي أرحب وأجمل وأوسع وزادت قدرتي على التحمل مهما كانت الأمور والمشاكل التي على أن أحلها . . وسار أمر هدف لي في الحياة لإسعاد الآخرين وأصبحت البسمة على أبة شفاه وخفقت الفرحة في قلب أي إنسان تسعدني كما لو كان قلبي هو الذي يتحقق فرحاً . . ولم يعد للانتقام أو الحق أي مكان في نفسي . . وأصبح إيماني بأن الخير دائماً ينتصر جزءاً لا يتجزأ من وجداني . . وزاد إحساسي بجمال الحب وهو الإحساس الذي

صورته لى نشأتى بالقصرية كرباط يجمع بين الناس فى العمل والحياة . .
ثم غدته فى أمى خلال مراحل حياتى . . إذ كانت رحمها الله معيناً لا ينضب
للحب . . كان هذا تكوينها الطبيعى . . مجموعة انفعالات حب لا يعرف
الحدود .

ولذلك فلعل أكثر ما عانيت منه فى الزنانة ٥٤ هو شعورى بالفراغ العاطفى
فلكى يكون الرجل مكتملاً لا بد أن تكون له رفيقة . . تحبه ويحبها . . هذه فعلاً
أعظم نعمة فى الوجود . . فعندما تمتلئ نفس الإنسان بالحب يستطيع أن
يتم رسالته . . وبدون هذه العاطفة يعيش إلى أن يبلغ منتهى العمر وهو يشعر أنه
يفتقد شيئاً هاماً وأنه مهما حقق فهو لم يكتمل بعد .

كان هذا شعورى فى جميع مراحل حياتى . . لم أشعر أبداً أن الحب كقيمة
إنسانية عليا قد تغيرت فى نظرى يوماً ما . . بل على العكس إذ اكتشفت أن
الحب هو المفتاح لكل شيء . .

حدث هذا فى الزنانة ٥٤ عندما تجردت من ذاتى فتمت بصداقة الله . .
وعمر قلبى بحبه . . وأصبح ظله سبحانه وتعالى يحوتنى . . وعندما أدركت أن
الحب قانون تستقيم به الحياة وتزدهر وتثمر وأن بدون كل شيء عدم .

لقد اكتشفت ذاتى عن طريق الحب . . وعندما أنكرت هذه الذات وأذيتها
فى ذات الكون . . أصبح الحب الشمولى لمصر - للكون - للخالق عز وجل -
هو المنطلق الذى مارست منه وما زلت أمارس واجبى فى الحياة . . فى الشهور
الأخيرة لى فى السجن . . بعد خروجى منه . . عندما كنت عضواً فى مجلس قيادة
الثورة . . والآن وأنا رئيس جمهورية مصر . .

هذا ما يجعلنى أدعو دائماً إلى الحب . . فهو المظلة التى تحمى الإنسان
من كل الأزمات . . كل من عرفه لن يعرف الجذب بل التماء والإزدهار لأن
الحب عطاء والعطاء دائماً يبنى . . على عكس الحق الذى ساد حياتنا فى الثمانية
عشر عاماً الأولى قبل أن أتولى الرئاسة فهدم كل ما فى طريقه هدماً ما زلنا نعانى
من آثاره إلى اليوم .

ربى قد طويت من عمسى صفحات ونشرت اليوم صفحة فاجعل صفحتى

هذه أدعى للخير وأخلى من الشر . . وزينها بالحق وبرها من الباطل . واجعل
فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك والعمل لوجهك واجعل يقينى أفضل اليقين وصحح
بما عندك يقينى . . هكذا كنت أناجى ربى كصديق . . فى الأسبوع الأول بعد
وفاة عبد الناصر قبل ولايتى . .

٦

كان من الطبيعى بعدما عشت عالمى الحديد حيث تخلصت الروح من أنفاسها
واقتربت المسافة بينها وبين الكون وخالقه عز وجل أن تنضج فى نظرتى
بعض مفاهيمى للحياة وأن يصيب التغيير نظرتى إلى كثير من الأشياء . .

لم يعد الحب بالنسبة لى عملية احتواء للحبيب بل عطاء وقناء فى ذات من
تحب . . وليس هذا الفناء معناه العدم . . فالحب هو الطاقة الوحيدة القادرة على
إزالة الحواجز بين الروح والمادة . . بين ما ترى وما لا ترى . . بين الدات
وخالق الكون . . وبدون الحب يعنى بصراً عن أن ترى « غيرانية » الغير . .
فيتعذر الاتصال وتفقد أنفسنا فى أنفسنا . . ولا يقتصر الأمر على هذا بل يضيع
السلام الروحى . . وهو دعامة كبرى من دعومات الحياة فبدونه يفقد الإنسان
توازنه الداخلى ويدخل فى صراع مع نفسه لا يعلم متى ينتهى . .

عندما أنظر اليوم إلى الثمانية عشر عاماً الأولى من الثورة قبل أن أتولى
الرئاسة أجد أن هذه المرحلة من حياتى كانت فترة معاناة لم أدرك سببها فى ذلك
الوقت ، فقد ظلت كامنة فى العقل الباطن . . ولكنها أحدثت خللاً فى
توازنى . . عبد الناصر كان صديقى دون شك . . وعندما خرجت من السجن كنت
حريصاً على أن أبقى على السلام الروحى الذى اكتسبته فى الزنانة ٥٤ . . ولكن
حينما دخلت مجلس قيادة الثورة شعرت أن هناك خللاً فى توازنى الداخلى وأنى
فى طريقى إلى أن أفقد سلامى الروحى . .

كان لا بد من المحافظة عليه . . ولكن كيف ؟

إن الإنسان عقل وجسد وروح . . ولا بد من الغذاء لكل من هذه العناصر
حتى يتحقق السلام الروحى . . بلأت إلى المعرفة أنهل منها ولا أتوقف عن القراءة

يوماً . . فهذا غذاء العقل وبالإيمان الذى لا يعرف الحدود ووضعت روجى
أما الجسد فكانت وما زالت رياضته الوحيدة المشى على الأقدام أربعة كيلو مترات
كل صباح .

بهذا حاولت طوال فترة المعاناة أن أحافظ على السلام الروحى الذى أعتقد
أنه ضرورة لا بد منها لكى يؤدي الإنسان رسالته على هذه الأرض كما يجب
أن يؤديها .

وقد يظن البعض أن التصالح مع النفس الذى هو ثمرة السلام الروحى يعنى
الاستسلام للأمر الواقع أو على الأقل تقبله . . ولكن هذا غير صحيح فأننا
لا أقبل الأمر الواقع كما هو بل أحاول دائماً تطويعه والسمو به إلى ما هو
أفضل . فنى اعتقادتى أن الإنسان يجب أن يعمل دائماً ونصب عينيه مثل أعلى
يريد أن يبلغه . . فبدون المثل الأعلى كيف تكون للإنسان رسالة . . وإذا
خلت الحياة من الرسالة فلماذا نعيشها وأى معنى لها ؟

وفى الزرانة ٤٤ كانت المعرفة قريبة منى كما لم يحدث من قبل . . ويبدو
أن هناك علاقات متبادلة بين المعرفة والحياة الروحية . . فكلما نهلت من الواحدة
ازدادت الأخرى تضجاً - منوال دائم لا نهاية له . . ولكنه يؤدي إلى المزيد
من معرفة الذات ، وكلما ازدادت روية الإنسان لذاته وضوحاً ازدادت قدرته
على قهر ذاته فأصبحت أفعاله وأفكاره ومشاعره أكثر تحرراً وانطلاقاً بحيث
لا تهدف إلى منفعة ذاتية بل إلى طلب الكمال المطلق فى كل شيء .

وهكذا أصبح الجمال يلح على كل ما أرى وما أفعل . . أطلبه فى
جميع نواحي الحياة وكلما اغترفت منه ازدادت حاجتى إلى المزيد منه .

ومن هنا كانت المثالية التى هى فى الواقع ليست إلا سعيًا دائماً نحو الجمال . .
هذه المثالية التى أنحو إليها بكل كيانى جعلت الكثيرين من الناس لا يستطيعون
فهمي . . بل غمضت بعض تصرفاتى فى عيونهم .

بأنى البعض ما هى السياسة ؟ والإجابة دائماً تحيرنى . . فأننا لا ادعى أنى
درست السياسة وتخصصت فيها . . كل ما أعرفه أنى نشأت بقبول وآمال وأحلام
معبئة هى التى كونت شخصيتى منذ الطفولة إلى أن أصبحت رئيساً للجمهورية . .

هذه الآمال والميول كانت وما زالت تهدف إلى هدف واحد هو تخليص مصر
من المعاناة والسير بها دائماً نحو الجمال والكمال . .

يصف البعض السياسة بأنها فن الممكن ولكنى لا آخذ بهذا التعريف فإذا
قسناه على حرب أكتوبر لقلنا إن السياسة هى فن المستحيل . . فأيهما
أصح ؟

أنا لم آخذ دكتوراه فى السياسة ولم أتبحر فى علومها . . أنا مجرد
إنسان اكتشف ذاته ولذلك فأنا صادق مع نفسى فى كل ما أقول وما أعمل
والمعاملة بينى وبين الناس تقوم دائماً على الصدق . .

ولعل هذا ما يدهش البعض إذ يجدوننى رجلاً سياسياً يقول فى حجرة مغلقة
نفس الكلمة التى يقولها أمام الميكروفون . . ولا يستغل موقفاً معيناً لشعبية
رئيسية . . أو لحناف الجماهير . .

فأدراك الذات إنما يجعل كل تصرفات الإنسان تصدر عن موضوعيه
لا ذاتية مطلقة . .

ولذلك فالسياسة - فى رأيى - هى فن بناء مجتمع يحقق إرادة الله من خلق
هذا الكون وهى العمران . . فى هذا المجتمع يجب أن تكون حرية الفرد
مطلقة لا يحددها سوى ما تعارف عليه المجتمع من قيم إنسانية أصيلة نبت
من المجتمع نفسه فهى ثمار حضارته . . والحرية نفسها أجمل هذه الثمار
وأغلاها وأقدسها فلا يجب أن يشعر الفرد فى هذا المجتمع أنه تحت رحمة
أية قوة من قوى القهر . . أو أن إرادته مرهونة بما يريده الغير . .

وبالتأكيد فإن الحرية ليست لازمة لبناء مجتمع القوة . . ولكنها الدعامة
الكبرى لبناء مجتمع الحق والخير والجمال حيث تعمر النفوس بالحب والنور
والإيمان وبالتالي تعمر الكون صروح الإيمان والانتصار بالإنسان وما يشيد
من صروح الأمان والعزة والرفعة والسلام فتتحقق إرادة الله . .

ولكن لكى يقوم هذا المجتمع لابد لمن يتصدون لقيادته من أن يحملوا
مسئولية نفع أساساً من وجدانهم الإنسانى وأن لا تكون أفعالهم مجرد
ردود أفعال لانفعالات ذاتية أو لأوهام أجداد ديكتاتورية تسيطر عليهم وتلعب

بروسم . . . كما كان الحال مع هتلر وغيره . . . ففي مثل هذه الحالات لا مكان لمجتمع الحق والخير والجمال . . . لأن كرامة الإنسان لا تصبح موضع أى اعتبار . . . بل على العكس تهر حين يهدرون قيمته المطلقة كإنسان ويحولونه إلى شيء من الأشياء . . .

أنا أتكلم من واقع التجربة والممارسة . . . فترة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد أتت بأفكار جديدة وحاولت جاهدة إلى أن تنقل المجتمع المصرى إلى المرحلة الحضارية التى يعيشها اليوم . ولكن يجب أن أعترف بأن النجاح لم يحالفنا بالكامل فيما أردنا تحقيقه لأسباب كثيرة منها الصراعات الشخصية . . . ومنها أيضاً عدم وضوح الرؤيا بالقدر الكافى لا فى وقت مجلس قيادة الثورة ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية . . . فقد كان بطبعه كثير الشك . . . ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة وعن أهم وأتمن ما فى الوجود وهو الإنسان . . . وليت الأمر توقف عند هذا الحد . . . ففي غمرة شكوكة وانشغاله بأمنه تحددت آفاق الإنسان المصرى وأبعاده . . . وهكذا حدثت فى مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه . . . وهو آدمية الإنسان وإنسانيته . . .

٧

فى الزنزانة ٥٤ لازمنى الاحساس بأننى منذ أن تخرجت من الجيش وأنا أواجه الخطر . . . كان إحساساً صادقا ، فقد حدث أن واجهت المخاطر فى جميع مراحل حياتى منذ أن أصبحت ضابطاً بالجيش إلى آخر لحظة قضيتها بالزنزانة ٥٤ . . . عندما بدأت بالتمهيد لوجود رأى عام بالجيش . . . ثم جهودى لحماية مصر من غزو قوات هتلر والى أدت إلى فصلى من الجيش واعتقالى . . . وبعد ذلك محاولتى للقضاء على أعوان الاستعمار الإنجليزى وقضية أمين عثمان . . . والزنزانة ٥٤ حيث أصبح الخطر قائماً وخطيراً بل ومحققاً كما كان يبدو لى . . .

كيف تنتهى القضية ؟ لم أكن أعلم . . . كل ما كنت أعرفه أن ترتيبى فى الاهتمام كان السابع . . . وأن همى يمكن أن تودى إلى الإعدام أو الأشغال

الشاقة المؤبدة . . . ولا وسط فى العقوبة . . . فلما أن تكون هكذا أو لا تكون على الإطلاق . . . أى البراءة . . . ولكن كيف ؟

أثناء وجودى فى السجن قامت حرب فلسطين . . . كان ذلك فى منتصف عام ٤٨ ويعلم الله كم عانيت وتألمت من الغارات الإسرائيلية على القاهرة . . . وكان مصدر ألمى أفى فى السجن لا أملك أن أفعل شيئاً . . . وأن الإسرائيليين بهذه الغارات ينتهكون حرمة الشهر المقدس . . . شهر رمضان . . .

كنت أعرف أنها مجرد حرب نفسية . . . لا أكثر . . . وزاد فى اطمئنائى أن جيوشنا كانت تشق طريقها إلى نصر أكيد . . . ولكن فجأة عقد الملك عبد الله الهدنة التى أنقذ بها رقبة إسرائيل . . .

تم هذا طبعاً بالإتفاق مع الإنجليز . . . وكم أثار ما فعله الملك عبد الله غضبى ولكن ماذا كان يمكن أن أفعل وأنا بين أربعة جدران سجين فى الزنزانة ٥٤ ؟ لماذا عهدوا إلى الملك عبد الله بقيادة الجيوش العربية ؟ ما الذى دعاهم إلى هذا ؟ ما السبب ؟ ما السر ؟

رحت أتساءل مع نفسى وقلبي ينفطر مرارة . . . من أجل ذلك . . . وحتى لا يتكرر ما حدث . . . لا أكف اليوم عن الدعوة إلى أنه لا مجال للمجاملات . . . وأنا يجب أن نضع النقطة فوق الحروف . . . فلا نسمح للعناصر غير الصالحة أن تشكل مصيرنا وأنه لزام علينا أن نردع كل من تسول له نفسه الغيب بمصيرنا .

استغرقت محاكمتنا ثمانية شهور من يناير إلى أغسطس سنة ١٩٤٨ وأذكر أنه عندما أتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة ، حاولوا وضع (الكلبشات) فى أيدينا فرفضت وقلت « إذا حكم على فافعلوا ما تشاؤون . . . ولكن الحكم لم يصدر بعد . . . وهذا الذى تحاولونه لا أقبله إطلاقاً » . . . طبعاً هذا الأولاد حذوى . . . فاكنتى البوليس بأن يضعنا كلنا فى (لورى) كبير ليأخذنا إلى المحكمة ثم يعود بنا إلى السجن .

فى هذه الأثناء هدأت أعصاب الحكومة - قليلاً - فسمحوا لنا بالخروج بعض الوقت . . . وانتهزت أنا الفرصة وطلبت أن أعالج أسنانى عند طبيب أسنان

أعرفه في الجيش اسمه أحمد علي - فمحوالى . . كانت الرحلة من القلعة إلى مستشفى الجيش في كوبرى القبة طريفة للغاية . . إذ كنت أقطعها في التاكسي وأملأ عيني بملامح القاهرة وشوارعها وأملأ رثتي بهواء الحرية ساعة كاملة على الأقل في كل مرة . . نعم كان إلى جوارى دائماً أحد ضباط البوليس ولكن ماذا يهم ؟ أوصيت الطبيب أن لا يعالج الضرس المريض . . حتى تمتد الرحلة وتكرر . وفي كل مرة كان يقف ضابط البوليس يراقب الطبيب . . ولكنه لم يفتن خبعا إلى أن الطبيب كان يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا الضرس موضع الداء . . ما زالت متعنى بهذه الرحلة عالقة بذاكرتي . . فقد كانت نسمة الحرية لطيفة رغم قصرها . . وأحيانا كنت أتبرق الفرصة وأزور والى الذى كان يعمل بمشفى الجيش . . ونشرب الشاي معا .

م تقدم متعنى ضويلا فتجأه هرب حين توفيتي - وهو المهمل الأول - من السجن وكان رد الفعل المباشر أن أوقفوا خروجنا مهما كان السبب .

واستمرت المخافة يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . كان الرأى العام كله معنا . . وكنت قد شككت في سلامة القضية بما يكفي كما سبق أن رويت . . هذا إلى جانب أن القضية كانت في أيدي كبار رجال الحمامة في مصر . .

انتهت المخافة في أوائل يوليو ١٩٤٨ ثم جاء انطق بالحكم وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩٤٨ ، فذهبت إلى المحكمة وأنا لا أرتدى سوى ينظلون رمادى رث وجاكت بيضاء . . فقد كان هذا كل ما عندي . . بدأوا طبعاً بالمتهم حسين توفيق . . وبمجرد أن سمعت الحكم وهو ١٠ سنوات سجن (غنياً طبعاً) جأني إحساس بأنهم سيحكمون على بالبراءة . وفعلًا عندما أتى دوري أعلنت المحكمة المتهم رقم ٧ براءة .

صدر الحكم في الظاهر . . ولكن كانت التعليمات تنقضي بالبقاء في السجن حتى الساعة الخامسة مساء فعدت إلى السجن وبقيت به إلى الساعة الخامسة مساء ، حيث سمحوا لي بالخروج . .

قررت الذهاب إلى حلوان وهناك بحثت عن بنسيون رخيص يتناسب مع ما معي من نقود قليلة . . وعشت أعالج معدني بمياه حلوان المعدنية . .

الفصل الرابع

العمل من أجل قيام الثورة

كان من الطبيعي بعد أن قضيت ٣١ شهراً متواصلاً في السجن . . أن أشعر كأي قد ولدت لتوى في عالم جديد لا أعرفه . . ولذلك كنت أقضي وقتي متنقلاً بين البنسيون الرخيص الذى سمحت لي نقودى القليلة أن أقوم به . وبين الحديقة اليابانية حيث كنت أسترخى على أحد مقاعدها الخشبية أقرأ في صحيفة أو كتاب بعيداً عن الناس . . قانعاً بخلوتي . . أتأمل ما أنا فيه . . وما حدث . . وما قد تأتى به الأيام . .

كنت أتخاضى الجلوس مع الناس أو الكلام معهم . . فلو أتى حوالت هذا لتطلب منى جهداً لم يكن في مقدورى أن أبذله ، فقد أصبح ما كان مألوفاً من أمور الحياة العادية عالماً غريباً بالنسبة إلى لا بد أن أتألم معه . . حتى أشعر أنني واحد من سكانه . .

أذكر أنني بعد شهر تقريباً من خروجي من السجن ، ركبت سيارة أقودها بنفسى ورغم اتقانى القيادة فقد هالني أن أجد أنني لم أكن أعرف كيف أسير في شوارع القاهرة . . وانتهى بي الأمر إلى حادثة تحت نفق الجزيرة . . هكذا قضيت أيامى في حلوان أحاول التخلص من آثار السجن وأحاول شفاء معدني بتياها المعدنية إلى أن جاء يوم فوجئت فيه بزيارة زميلي وصديقي القديم حسن عزت الذى بحث عني في كل مكان إلى أن أهدنى إلى مقامي . .

كنت أصلى النجسر عندما هبط على . . وكانت نقودى قد نفذت تقريباً ولم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى .

- ما الذى يتعدك هنا ؟ قم معى - تعال . .

قالما لي حسن عزت وهو يتأمل أثاث وجدوان الحجرة البالية التي كنت
أقطن بها . .

قلت : إلى أين ؟

وأجاب : إلى بيتي في السويس - هيا بنا . .

وارتديت ملابس . . الجاكته البيضاء والبنطلون الرمادي - نفس الملابس
التي خرجت بها من السجن وكانت كل ما أملك ولاحظ حسن عزت أن البنطلون
قد بلى من الخلف ، فقلت له ليس عندي غيره وحتى لو ذهبنا إلى بيت والدي
ما وجدت بديلاً عنه .

قبل أن نتوجه إلى السويس ذهبت مع حسن عزت إلى القاهرة حيث اشترينا
قمصان وفصلت بذلتين وكانت هذه أول مرة أرى فيها الجوارب السوكيت
التي يبدو أنها ظهرت وانتشرت في الأسواق وأنا في السجن - فأعجبني
واشترى لي حسن عزت ثلاثة أزواج أو أربعة منها . وبعدها ركبنا معه
سيارة وذهبنا إلى السويس . .

في بيته هنالك التقيت لأول مرة بجيهان - زوجتي - حيث كانت في
زيارة لابنة عمها زوجة حسن عزت - قضيت معهم بعض الأيام ، تبينت خلالها
أن حسن عزت لم يبحث عني ويأتني في السويس لوجه الله . . فقد كان على خلاف
مع شركائه في عمليات تجارية بين مصر والسعودية عن طريق السويس - فأراد أن
يخفيهم يبطل قضية أمين عثمان حديث كل الجلات والصحف . . الذي
هو أنا طبعاً . . واشتركت معهم فعلاً في بعض الصفقات وكان نصيبي منها كما
علمت بعد ذلك ١٨٠ جنيهاً من الذهب أعطاني منها حسن عزت ٦٠ جنيهاً
وأخذ الباقي لنفسه وكان الخيخيه الذهب في ذلك الوقت يساوي ستة جنيهات مصرية . .
ولذلك عندما عدت إلى حلاوان لأستأنف علاج معدني . . وضعت المبلغ
في خزينته اللوكائدية حتى لا يسرق - وطبعاً لم يحدث هذا . . الذي حدث أن المبلغ
صرف عن آخره على إقامتي بحلاوان . .

انتقلت بعد ذلك إلى بنسوين في وسط البلد بالقاهرة عاطلاً بدون عمل
بينما تترام الديون على يوماً بعد يوم . . فذهبت إلى إحسان عبد القدوس وهو

صديق قديم لي . . لبيحت لي عن عمل . . قصدنا جريدة الأهرام ولكن لم تكن
بها مجالات للعمل - فاقترحت روز اليوسف ولكن إحسان قال إن روزاً لا تتحملنا
نحن الاثنين - وكان إحسان وقتها يعمل بروز اليوسف ودار الهلال كمعيد
للصياغة Rewriter وفي جريدة الزمان . . في ثلاثة أماكن في وقت واحد . .
ولكن حدث أن استغني إحسان عن عمله بدار الهلال ، فأخذني وقدمني لأصحاب
الدار . . الذين اشترؤا مني مذكراتي التي كتبها في السجن وبدأوا نشرها .
ويبدو أنهم أرادوا اختباري للتأكد من أن المذكرات بقلبي - فأنا في شكري
زيدان أحد أصحاب دار الهلال - وأشار إلى جزء من المذكرات وقال إنه
بحاجة إلى تطويل بما يساوي عموداً ونصف ، فقلت بكل سرور . . قال
إليك المكتب ولكن عليك أن تنتهي من الكتابة في خلال ساعة ونصف وهو
الزمن الباقي على إغلاق المطبعة .

فعلت ما طلبه وسلمته إليه قبل الزمن المحدد . . فقرأه وشكرني وانصرف .
لم يخامرني أي شك في أن هذا كان نوعاً من الاختبار . . إلى أن أرسل في طلبي
صباح اليوم التالي ، وطلب مني أن أعمل معهم في دار الهلال بصفة مستديمة
وأن أحدد المرتب الذي أريده . . كان هذا أمراً مذهلاً لي . . فقد كنت أعرف
أن كبار المحررين عندهم يعملون جميعاً بالقطعة .

قبلت العمل على الفور وأخذت مكان إحسان كمعيد للصياغة . .
واستمر عملي هذا إلى نهاية ديسمبر ١٩٤٨ . كنت أثناءها - وعلى وجه التحديد
في ٢٩ سبتمبر ١٩٤٨ - قد تقدمت لخطبة جيهان من أبيها وتمت الخطبة .

كنت راضياً عن عملي بدار الهلال بل وسعيداً به ولكن حدث أن اختلف
حسن عزت مع شركائه في السويس فانتقل إلى مصر ، وطلب مني أن أشاركه في
الأعمال الحرة . . لم يكن من السهل أن أرفض طلبه فهو زميل كفاح -
ثم إنه هو الذي خلصني من الأزمة المالية التي كنت أعاني منها عندما نفذت
نقودي في حلاوان وقبل هذا وذاك كانت عندي نقطة ضعف نحو حسن
عزت كصديق يحبني ولا يخون عني شيئاً ويعتبرني ضميمه .

طبعاً لم يكن خروجي من دار الهلال أمراً سهلاً فقد تصوروا أنني أريد أجراً

أكبر وعلى هذا الأساس بدأوا يساموننى ولكن فشلت كل محاولاتهم وبدأت العمل مع حسن عزت بعمليات مياه صخرى فى ٥٢ قرية من قرى محافظة الشرقية باسم حسن عزت طبعاً وأنا شريكه ولكن بدون تسجيل ..

انتقلت إلى الزقازيق عاصمة الشرقية .. وكنت قد تزوجت جيهان فى ٢٩ مايو ١٩٤٩ م . فأخذتها معى حيث قضينا شهر العمل وما بعده فى لوكانده متوسطة الحال من لوكاندات الأقاليم هناك .. التزمت بمجدول زمنى انتهينا بمقتضاه من العمليات فى نصف المدة المقررة وفعلاً تم هذا .. فقد كنت أخرج من الصباح الباكر لأعمل ١٥ أو ١٧ ساعة فى اليوم .. ثم أعود فى المساء إلى زوجتى فى اللوكانده .

انتمت العمل فى ٦ شهور فخرجنا بريح يساوى ٦ آلاف جنيه وأعطينا الحكومة شهادة تقدير طبعاً باسم حسن عزت .. فرست علينا ٨ عمليات مياه كبرى فى المنيا بمبلغ ٦٠ ألف جنيه وكان هذا يعنى بالمعدل الذى سرنا عليه .. ربما ما لا يقل عن ٣٠ ألف جنيه ..

كان من المقرر أن يبدأ عملنا بالمنيا فى نوفمبر ١٩٤٩ . ولكن قبل أن نبدأ العمل قلت لحسن عزت إننى أريد أن أستقر مالياً .. فى المنيا لابد أن تكون لى شقة أعيش فيها مع زوجتى .. ثم إن على التزامات مالية أخرى نحو أولادى من زوجتى الأولى التى انفصلت عنها رسمياً فى مارس ١٩٤٩ . راوغ .. ثم وافق .. ثم قال إننى أنفقت فى الزقازيق ٢٠٠٠ جنيه طبعاً لم يكن هذا صحيحاً أو قريباً من الصحة .. فى الزقازيق لم تكن عندي أى تكاليف إلى جوار اللوكانده المتواضعة سوى ثمن السجائر - ولكن حسن عزت أصر .. عرفته على حقيقته وأشمازت نفسى منه ومن السوق والعمل به فتركته وفى جيبى ١٢٠ قرشاً وكان لى عنده ٣٠٠٠ جنيه هى نصيبى من عملية الزقازيق ولكننى لم أطلبها منه .

كان كل همى أن أبتعد .. أن أنجو مما وقعت فيه .. فما قيمة المال إذا أصبح دنساً يهدد كيان الإنسان ويقوضه من داخله ؟ ثم أين أحلام الصبا وآمال الشباب ..

أصبح فى النهاية رجل أعمال كل همه أن يكسب من العمليات التى يقوم بها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر أو أقل ؟

طوال الفترة التى عشتها بعد أن بارحت السجن كنت أحس أنى بعيد عن نفسى .. غريب عن ذلك الإنسان فى داخل الذى عشت معه - وعرفته - وارتحت إليه وكنت شديد الاعتزاز به فى الزنزانة ٥٤ ..

كنت على ثقة من أنه لم يذهب بعيداً .. ربما لعبت الظروف دوراً فى ابتعادى عنه .. ولكننى كنت شديد السعادة عندما وجدتنى أقول لحسن عزت عند فراقنا .. كم أتمنى أن يكون عندك ١٠٠ ألف جنيه وأنا لا أملك شيئاً .. لسوف أكون دائماً أكبر منك بما لا أملك .. وأنت أقل منى بكل ما تملك .. لقد عادت ذاتى إلى .. وفى نفس اللحظة .. قررت أن أعود إلى الجيش .. الوسيلة الوحيدة لتحقيق الرسالة التى كانت بالنسبة لى كل شىء ..

٢

هناك على شاطئ البحر الأبيض بلاج فى غاية الجمال كانت تشغله فى سنة ١٩٤١ وحدات من الجيش المصرى وكنت أنا ضمنها مبعداً بأمر المخابرات وهناك فى الجراولة كما كانوا يسمونها .. تعرفت إلى ضابط طيب اسمه يوسف رشاد كانت خيمته إلى جوار خيمتى وتصادقنا .. كان لابد من ذلك فهو دمث الأخلاق مثقف يقرأ كثيراً ولا يكاد غلبونه بفارق شففيه ولا يكاد الكتاب يفارق يده .. وبلغت بنا الصداقة حد التلازم فكنا لا نكاد نفترق إلا ساعة النوم - نطهو طعامنا معاً - ونأكل معاً .. ونحدث ونفكر ونقرأ معاً .. وما زلت أذكر اليوم الذى أعطانى فيه كتاباً ترك فى نفسى أثراً عميقاً وهو كتاب من تأليف « جون ستيوارت ميل » عنوانه : النظام الشمولى والحرية والحكم النيابى وكان بالانجليزية .

ومرت الأيام وابتعد كل منا عن الآخر - ولكن صداقتنا ظلت كما هى - لم يحدشها شىء .. يوسف رشاد هو أمل الوحيد فقد أصبح طبيباً فى الحرس الملكى ولا أعتقد

أنه سيرد لي طلباً . فأتصلت به تليفونياً وطلب مني زيارته في بيته . .
هناك شرحت له حال - وكيف أن النيابة أستاذت ، وأن الامتثاف
قد نظر في أواخر عام ١٩٤٩ وأيدت المحكمة الحكم بالبراءة فلم يكن هناك إذن
ما يمنع عودتي إلى الجيش .

واستمع إلى يوسف رشاد وهو يدخن غليونيه في هدوء ويدماثته المعهودة
وعد بأنه سيتصل بي في أقرب وقت . . وما هي إلا أيام قليلة حتى اتصل بي يوسف
رشاد . . وكان ذلك على وجه التحديد يوم ١٠ يناير ١٩٥٠ وطلب مني أن أقابل
حيدر باشا قائد عام القوات المسلحة .

كان حيدر باشا في انتظارى وما أن رأيت حتى انهال على بالسباب . .

- أنت ولد مجرم . . تاريخك أسود

حاولت أن أتكلم . .

- لا داعى للكلام . . لا تفتح فمك على الإطلاق - وفجأة دق الجرس
فدخل كاتب أسراره .

- أقدم يا باشا . .

- الولد ده ترجمه الجيش الهارده . .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتي إلى القوات المسلحة اعتباراً من ١٥ يناير
١٩٥٠ برتبة يوزباشى - وهى الرتبة التى خرجت بها - وكان زملائي في الجيش
قد سبقوني في ذلك الوقت برتبتين . . رتبة صاغ ورتبة بكباشى .

كان أول من زارنى مهتماً جمال عبد الناصر ومعه عبد الحكيم عامر . . علمت
من عبد الناصر أن تنظيم الضباط الأحرار قد أصبح أوسع انتشاراً وأن قوته
تشهد يوماً بعد يوم . . وكأنما أراد أن يثبت لى مدى قوة التنظيم أو أن يخبر
هذه القوة - طلب مني أن أقدم لامتحانات الترقية بحيث أستعيد ما فقدت من
رتب وأنا خارج الجيش ؛ وأن لا أهتم بالصعاب التى سوف تواجهني . . ففهما
كان شأنهما سيئاً للتنظيم ويتخطاها . . وفعلاتم هذا . . وحصلت على رتبة
بكباشى في وقت قصير . .

طلب مني عبد الناصر أن لا أقوم بأى نشاط سياسى واضح . . لأنى بسبب
تاريخي النضالى لابد أن أكون بطبيعة الحال مراقباً ولو أن هذا لم يمنع جمال
من أن يكشف لى عن خريطة الضباط الأحرار في وحدات الجيش المختلفة ،
فكنت أزورهم وأتبادل الحديث معهم ولكنها كانت جميعاً أحاديث ودية لاعلاقة
لها بالسياسة . . فلم يكن من المفروض في التنظيم أن أكشف لهم عن نفسى
أو أن أشعرهم أنني أعرف أنهم ينتمون إلى الضباط الأحرار .

كانت هذه قاعدة أساسية أرساها عبد الناصريوم تسلمه التنظيم من بعدى عندما
قبضوا على في صيف ١٩٤٢ - وهى أن يظل تشكيل كل خلية سراً لا يعرفه
إلا أعضاؤها .

كان الرجل الثانى بعدى في ذلك الوقت هو عبد المنعم عبد الرؤوف الذى ظل
على اتصال بالشيخ حسن البنا رائد الإخوان المسلمين - والذى كان على
اتفاق تام معي في أن تنظيم الضباط الأحرار يجب أن لا يخضع لأية هيئة أو لآى
تنظيم حزبي لأن الهدف منه هو خدمة مصر بأجمعها لا فئة معينة . .

عندما دخلت المعتقل كان عبد الناصر ما زال في السودان ولكن بمجرد
نزوله بكتيبته ووصوله مصر أواخر ١٩٤٢ ، اتصل به عبد المنعم عبد الرؤوف
لضمه إلى التنظيم - فقد كان عبد الناصر من الضباط الممتازين - وكانت هذه
هى القاعدة التى أرسيتها . . أى أن لا ينضم إلى التنظيم إلا من كان متميزاً في عمله
بالقوات المسلحة . . فالضباط الممتاز موضع ثقة الجميع . . ومن السهل
أن يقاد إليه الآخرون . .

استجاب عبد الناصر على الفور . . ولم يكن من الصعب عليه بعد ذلك
أن يزيح عبد المنعم عبد الرؤوف من طريقه وأن يتولى هو قيادة التنظيم بدلا
منه . .

كانت قيادة عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار تختلف عن قيادتي ، فقد
لجأ إلى تكوين خلايا سرية في الجيش ، كل خلية منها لا تعرف الأخرى . . وتكاثرت
الخلايا يوماً بعد يوم ، حتى شملت القوات المسلحة بأجمعها وخاصة المناطق
الحساسة فيها مثل إدارة الجيش . .

في سنة ١٩٥١ ، شعر عبد الناصر أن التنظيم قد و... مرحلة النضج وأنه لا بد له من قيادة خاصة وأن الكثيرين من أعضائه قد بدأوا يتساءلون من قائد التنظيم أو قاداته... بينما كان بمصر في هذا الوقت خمس أجهزة سرية هي بوليس السيامي... والمباحث الجنائية... والمخابرات الحزبية للجيش... والمخابرات الخاصة بالإنجليز والـ C.I.A. الأميركية التي دخلت مصر بعد الحرب العالمية الثانية... هذا بخلاف جهاز آخر خاص بالملك ويتبع السراى مباشرة.

لذلك كان الحرص مطلوباً في تكوين الهيئة التأسيسية فبدأ عبد الناصر في اختيار أعضائها ممن احتك بهم هو شخصياً في حرب فلسطين مثل كمال الدين حسين وصلاح سالم ومن له صداقة عمر معه - عبد الحكيم عامر - ثم ممن كانوا أصلاً قادة التنظيم قبل أن يتسلمه وهم عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف بغدادى وحسن إبراهيم وخالد محي الدين وأنا... .

قد يبدو اختيار عبد الناصر لى دليلاً على الوفاء - صحيح أنني كنت قد بدأت تنظيم الضباط الأحرار - ولكنني بقيت بعيداً عن التنظيم ثمانى سنوات وهى الفترة ما بين فصلى من الجيش سنة ٤٢ إلى أن عدت إليه سنة ٥٠ ، ولكن لم يكن عبد الناصر ينتمى إلى ذلك الصنف من الرجال الذين تحركهم مشاعرهم نحو الآخرين إلا إذا كانت هذه المشاعر وليدة صداقة وطيدة الأركان كصداقته مع عبد الحكيم عامر... ورغم أننا تعارفنا إلى بعض وعمرنا لم يتجاوز الـ ١٩ سنة... إلا أنني لا أستطيع أن أقول سوى أن علاقتنا كانت علاقة احترام وثقة من جانب كل منا... وليست صداقة على الإطلاق... .

فلم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان وهو المتشكك دائماً - الحذر - الملىء بالمرارة... العصبى المزاج... لا أقصد بهذا تجريد عبد الناصر في اختياره لى من عامل الوفاء ولكننى أنصيف إلى هذا عاملاً آخر وهو الذكاء... فمن خط سيرى في القوات المسلحة ومن علمه منذ أن تقابلنا في مستقبل العمر أنى رجل ذو مبادئ وقيم... لم يكن من الصعب على عبد الناصر أن يدرك أنه يمكنه الاعتماد على وأن إضافته لى إلى الهيئة التأسيسية سوف تجعلنى مدى العمر وفياً لهذا الوفاء من جانبه... .

وما لا شك فيه أن عبد الناصر وهو الحذر دائماً بتكوينه كان واثقاً كل الثقة أنني سأقف إلى جانبه باعتبارى قوة لها تجربتها وتاريخها... قوة مسانده في الصراعات التي بدأت داخل الهيئة التأسيسية حتى قبل قيام الثورة... ولذلك كان يهرع إلى عندما أعود إلى القاهرة في أجازة ليشرح لى المضاعف التي يلائها من بعض الأعضاء... وعندما تعود لى الذاكرة إلى تلك الأيام البعيدة لأبأبلغ إذا قلت إن عبد الناصر كان يقضى معى خمسة أيام كاملة في كل إجازة من إجازاتي التي لم تكن تتعدى الأسبوع... وكنا كل مرة نندرس أحوال التنظيم... والمشاكل التي تواجهنا... هذا إلى جانب أن عبد الناصر كان يضع تجربتي مؤل تقدير... أذكر مثلاً أنه في سنة ١٩٥١ طرأت له فكرة أن تبدأ الثورة بحركة اغتيالات واسعة ، وسألني في هذا فقلت له : غلط يا جمال... ما هي النتيجة... إلى أين ستصل ؟ إن الجهد الذي يبذل في حركة الإغتيالات يساوى تماماً الجهد الذي يبذل في قيام الثورة ولذلك دعنا نأخذ الطريق المباشر المستقيم... وليكن هدفنا المباشر هو الثورة... .

وقد اقتصرت بهذا الرأي فوراً وأخذ به... ولم يكن هذا حال عبد الناصر بعد أن قامت الثورة وأصبح هو قائدها... مثلاً في سنة ١٩٥٣ عندما بدأت الصراعات تشدد وتمتد داخل مجلس قيادة الثورة بحيث أصبحت تشكل خطراً على الثورة وعلى مصر... أذكر أنى ذهبت إلى منزله في ذلك الوقت وقلت له : يا جمال الثورات تأكل نفسها وتاكل أبناءها... ونحن لا نريد أن نصل إلى هذا المدى... فلماذا لا تضع حداً لكل هذا... لماذا لا تواجه الزملاء وتقول لهم... فليبق معنا كل من هو من رأى وفكر واحد أما من يريد أن يتفرد برأى فليتركنا... لقد أنجزنا المرحلة الأولى وهى قيام الثورة وهذا عمل تاريخي رائع يكفى كل من ينسلخ عنا الآن فخراً أنه ساهم في قيام الثورة... .

كان ينصت إلى بكل إمعان وتابعت كلامي :
- بعد ما نصل إلى السلطة تتغير أمور كثيرة - ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب مصر - لقد انتخبناك رئيس مجلس قيادة الثورة بالإجماع فلا خلاف عليك إذن... ولذلك يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع أن من يستطيع أن يسير معك يمكن أن يستمر أما من لا يستطيع فعليه أن يعتزل

ولم أستطع أن أكمل حديثي فقد فوجئت بعبد الناصر وهو يقاطعني محتداً -
عصبياً - غاضباً - ساخراً . . . وكأنني أقف ضده لا معه . . . كانت ردوده كلها
تشير إلى ذلك . . . مليئة بالمرارة التي انفجرت فجأة في صدره وكأنها حمم بركان
يقذفها في ثورته . . . طائشة المرمى . . . تلهب وتؤذى بلا سبب ودون أى اعتبار . . .
فأثته وحده يعلم أن هدى من الحديث معه كان تجنيب البلاد انعكاسات الصراع
الذى كان يشتد كل يوم بين من ييدهم الأمر مما جعل ثورة ٢٣ يوليو رغم
إنجازاتها الرائعة تصل بمصر إلى مرحلة رهيبة انتهت بهزيمة ٦٧ التي كادت أن
تمحو كل ما حققته الثورة .

٣

لم يكن دورى في التمهيد لقيام ثورة يوليو قاصراً على إسداء النصيحة لعبد الناصر
كما أمكن ذلك أو على مساندته في مواقفه المختلفة من الصراعات القائمة في الهيئة
التأسيسية أو على توزيع منشورات الضباط الأحرار في المناطق المخصصة لى -
فقد كانت الأحداث تسير بسرعة مذهلة . . . وكان على أن ألحق بركب الأحداث
وأن أكيف نفسي وفقاً لطبيعتها . . .

فى أكتوبر عام ١٩٥١ ألقى النحاس باشا المعاهدة المبرمة بين مصر وإنجلترا
عام ١٩٣٦ . وبدأت حركات القوميين والإخوان المسلمين فى القتال واشتركت
فيها بالتدريب وبالإمداد بالسلاح والدخيرة وأصبح الجو العام يبشر بأن
الهدف الذى كنا نعمل من أجله لم يعد بعيداً فاجتمعت الهيئة التأسيسية
للضباط الأحرار فى أوائل يناير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة فى نوفمبر عام ١٩٥٥ . .
ولكن ما هى إلا أيام قليلة حتى فوجئنا بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ .
لم يعرف حتى الآن من الذى دبر حريق القاهرة ، ولكن الهدف كان واضحاً لدى
الجميع . فما لاشك فيه أن حريق القاهرة كان موجهاً ضد الملك كما كان تعبيراً
عنياً عما يلاقيه أكثر من ٩٥ من الشعب - وهى القاعدة العريضة التى حرمت
فى ظل نظام طبقى رأسمالى صارخ من كل شئ وأصبحت الأحزاب
السياسية هى الأخرى أداة فى يد الملك والإنجليز وأصبح كل همها أن تتحالف
مرة مع الإنجليز ومرة مع الملك لكى تحقق لنفسها المكاسب على حساب
الشعب .

وكان حريق القاهرة هو جرس الإنذار قبل ثورة دموية لو أنها قامت
لهدمت وأحرقت كل شئ ، ورغم أن الفاعل كان مجهولاً إلا أن الهدف قد
أصاب فأضعف من مركز الملك .

فى ضوء هذا الحدث الأخير كان علينا أن نراجع حساباتنا وأن نعرف أين
نقف بالضبط - وهنا تذكرت يوسف رشاد الذى أصبح طبيب الملك الخاص .
وصلة الصداقة التى تربطنى به . . . لقد آن الأوان لكى أستخدم هذه الصلة لمصلحة
القضية التى نعمل من أجلها . . . واتصلت بيوسف رشاد وكان فى ذلك الوقت
صديقاً شخصياً للملك كما كان على رأس جهاز المعلومات الخاص بالسرائى .

وجدت يوسف رشاد يأخذ كل ما أقوله له أمراً مسلماً به . . . فلا جدال
ولا مناقشة ولا شك من أى نوع . . . الطريق مفتوح إذن لتضليل الملك وتخديره
حتى يقوم تنظيمنا بالثورة .

والحقيقة أن هذا هو ما فعلت . . . فكنت أقدم له معلومات خاطئة . . . وعندما
كان يعرض على منشورات الضباط الأحرار . كنت أوهمه أنها من صنع
خيال ضابط معروف بحب التظاهر والعظمة ولكنه فى الحقيقة لا حول
له ولا طول . . . وعندما كانت تصل إليه بعض الحقائق كنت أعمل جاهداً
على تصويرها فى عينيه على أنها أكاذيب ومبالغات لا نصيب لها من الصحة .

ولم يكن هذا كل دأبى . . . فقد كنت دائم السعى للتخايل للتعرف على
أخبار الملك وخططه ونواياه . . . ونجحت إلى حد كبير فى تحقيق هدى ، فبعد
حريق القاهرة بأيام عرفت من يوسف رشاد أن الملك بات يشعر بأنه لم يعد له مكان
فى مصر . . . بل وأعد قائمة باسماء من سيصاحبونه فى المنفى ومن بينهم يوسف
رشاد طبعاً . . . كما أنه بدأ يرسل الذهب فى طائرته الخاصة إلى بنوك جنيف
الأمر الذى جعلنى أنا وعبد الناصر نقتنع بأن حركة الضباط الأحرار لن تجد
مقاومة تذكر من جانب الملك . . . فقد كان واضحاً أنه قد بدأ ينهار فعلاً وبناء
عليه جمعنا الهيئة التأسيسية فى فبراير ١٩٥٢ وقررنا قيام الثورة فى نوفمبر ١٩٥٢
بدلاً من نوفمبر ١٩٥٥ . . . لماذا نوفمبر ؟

لأنه في نوفمبر يكون الملك والحكومة قد عادا من الإسكندرية وبذلك نستطيع تركيز ضربتنا في القاهرة . .

باستثناء عبد الناصر لم يكن أحد يعلم باتصالنا بيوسف رشاد الذي ظل سلاحاً من أهم أسلحة معركتنا . . ولم نتوقف عن استخدامه إلى أن بلغنا هدفنا بالكامل . . أذكر أنه في أول يوليو ١٩٥٢ ، كنت أقضي إجازتي الشهرية بالقاهرة وفي حديث لي مع عبد الناصر طرأت له فكرة استطلاع أخبار الملك فركبت عربتي الفوكس هول وتوجهت إلى الإسكندرية حيث التقيت بيوسف رشاد في نادي السيارات بسيدي بشر وعلمت منه أن الملك قلق لزيادة منشورات الضباط الأحرار . . طمأنته بأنه ونسبت المنشورات كما اعتدت أن أفعل إلى أحد الضباط الذي كان مولعاً بالتظاهر وإيهام الناس بأنه مهم . . وكنت قد ابتكرت بعض المعلومات الخاطئة المضللة . . فحكيتها ليوسف رشاد وبعد أن أطمأن بالى إلى أنه نقلها إلى الملك . . ركبت عربتي وتوجهت إلى القاهرة حيث أطلقت عبد الناصر على نتائج رحلتي وكانت إجازتي قد انتهت فعادت إلى مقر عملي في رفح .

فوجدنا بعد ذلك في ١٨ يوليو بالملك يصدر أمراً بإلغاء انتخابات مجلس إدارة نادي الضباط وهي التي كان التنظيم قد كسبها من الضباط الموالين للسراني . . الملك قد بدأ يتردد أخفاه إذن . . بل ويتحدى . . وفي نفس الوقت أبلغ أحمد أبو الفتح (الصحفي الوفدي) جمال عبد الناصر - وكان صديقاً شخصياً له - بأن الملك يعزم تغيير الوزارة وأن وزير الحربية في الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سرى عامر الذي يعرف الكثير عن الضباط الأحرار والذي سوف يكون أول ما يفعله بالتأكد هو أن يقضي عليهم ويجهض كل مشروعاتهم بنجرده توليه الوزارة لكي يثبت بتمسك قوته وولاه .

وبتحليل بسيط وصل عبد الناصر إلى حقيقة تفرض نفسها علينا وعلى مستقبل الثورة والبلاد . . إما نحن وإما حسين سرى عامر الوزير القادم والذي يعرف الكثير عنا بل ونحن أغلب أعضاء الهيئة التأسيسية الذين تحولوا فيما بعد إلى مجلس قيادة الثورة .

ولم يتردد عبد الناصر .

فقد اتخذ قرار قيام الثورة قبل تولي هذا الوزير لمهام منصبه وقبل أن يفلت زمام المبادرة .

وكان معنى هذا أن تقوم الثورة في يوليو بدلاً من نوفمبر ٥٢ .

وفي يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ أرسل عبد الناصر رسالة إلى مع حسن إبراهيم لستة في مطار العريش يطلب مني فيها أن أنزل إلى القاهرة يوم ٢٢ يوليو لأن الثورة قد تحدد لقيامها ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس . . وفعلنا وصلت القاهرة يوم ٢٢ يوليو . . ولكنني لم أجده عبد الناصر في انتظارى على محطة السكة الحديد كمعادته . . فقلت في نفسي لابد أن تفرقت لم يبق بعد . . ولذلك توجهت إلى بيتي واسطحبت زوجتي إلى السينما ولكنني عندما عدت إلى بيتي في منتصف الليل وجدت بطاقة من عبد الناصر يطلب مني فيها أن أقامه في منزل عبد الحكيم عامر الساعة ١١ مساء . . وعلمت من السواب التي سلمني عنها الضقة أن عبد الناصر قبل أن يترك البطاقة أتى إلى بيتي مرتين . . مرة في الساعة شائعة مساء ومرة أخرى في العاشرة .

غيرت ملايستي وأخذت مدسني معي وتوجهت إلى منزل عامر ووضعت له أجهده فذهبت إلى ثكنات الجيش في العباسية . . لم أكن أعرف كلمة السر بطبيعة الحال فنحنوني من الدخول وعندما تبينوا رتبتي طلبوا مني أن ألزم بيتي . . فهذه هي الأوامر بالنسبة للضباط العظام . . ناورت وحاولت كثيراً ولكن دون فائدة - كدت أجن فكيف تقوم الثورة أمام عيني وأنا لا أشارك فيها ؟ لقد كمرست كل حياتي لهذه اللحظة بالذات . . من أجلها كافحت وعانيت بل وكنت . . في كل مرحلة من مراحل العمر . . فقيم كان كفاحي وقيم كان كيانى . . وأنا أقف موقف المتفرج مما أعطى لهذا الكيان مبرراً لوجوده ؟ ناورت وحاولت مرة أخرى وعدة مرات إلى أن التقيت بعبد الحكيم عامر وهو ينظم مزور القوات . . ناديت عليه . . لم يكن في موقف يستطيع فيه أن يرائي ولكنه تعرف على صوتي . . عرفت منه أن القيادة قد سقطت إذ اقتحمها قواتنا القادمة من معسكر (هاكستب) (ومعسكر هاكستب كان معسكراً أمريكياً أثناء الحرب العالمية الثانية وسمى على اسم أحد

الأمريكيين) وعلى رأسها عامر ويوسف صديق وأن رئيس الأركان حسين فريد قد حددت إقامته أما بقية القادة فكان عامر يقودهم إلى المعتقل في مقر الكلية الحربية حينذاك .

أخذت عربتي وتوجهت إلى رئاسة الجيش حيث كان عيد الناصر الذي طلب مني أن اتصل تليفونياً بجميع وحداتنا لأرى إذا كان كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعية . . . نزلت إلى حجرة التليفونات بالطابق الأرضي . . . ولكني وجدتها خالية . . . ناديت على العساكر عدة مرات ولكن لم يظهر منهم أحد - ألححت في النداء ورحت أطمئنهم فظهروا الواحد بعد الآخر وبعد أن تعرفوا على وهدأت نفوسهم عادوا إلى عملهم تحت إشرافي وبدأنا التتبع على جميع وحدات الجيش في سيناء والصحراء الغربية والإسكندرية والقنطرة شرق والعريش ورفع .

وحدث أن اتصل بنا حيدر باشا وزير الحربية في ذلك الوقت يطلب توصيله بالضابط التوتيجي فأوصلته بعبد الناصر - لم أسمع المكالمات ولكني عرفت أنه لعب دور الضابط التوتيجي وقال لحيدر باشا رداً على تساؤلاته أنه لا توجد أية تحركات في الجيش وأن كل شيء على ما يرام . . . بعد قليل اتصل حيدر باشا بنا مرة أخرى وطلب توصيله بسلح المدرعات (السوارى) فأصدرت أمرى إلى العساكر بإهماله .

في الساعة الثالثة صباحاً أنت جميع التمامات من جميع الوحدات فأبلغنا عبد الناصر والزعماء أعضاء مجلس قيادة الثورة . . . وفي الحال اتصل عبد الناصر تليفونياً باللواء محمد نجيب في بيته بمحكمة الزيتون وأرسل عربية مدرعة أنت به إلينا في الفجر . . .

في شرقة القيادة ونسيم الصيف الرقيق يلفح وجهي . . . وقفت أنا مل الشارح التسيح الطويل الممتد بامتداد ثكنات الجيش وقواتنا تندفق إليه من مصر الجديدة ومنشية البكرى وتتجه إلى قلب القاهرة . . . المدفعية - والمشاة - والدبابات . . .

كل شيء هادئ في ساعات الصباح المبكر ولكن الثورة قد بدأت . . .

أخيراً تحقق الحلم الذي عشت به وله سنوات عمرى . . . تحول إلى حقيقة . . .

يزخر بها صبرى . . . تستولى على كيانى . . . فيتضاءل إلى جانبها هذا الكيان . . .

كل شيء في الواقع يتضاءل . . . يصبح وهما . . . إلا هي . . . الحقيقة الوحيدة . . . شاعرة مهية تحجب الرؤية عن كل ما عداها . . .

هكذا كانت فرحتي بها . . . أكبر وأجمل من أن أتخيلها وحدي . . . ولذلك ما أن طلوع صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى هرعت إلى الإذاعة أعلن ميلاد الثورة ليشاركني الناس ما أنا فيه من سعادة . . .



العجلة تدور . . . لا تتوقف لحظة . . . هذا أمر لا مفر منه ، ولكن المهم أن ندبرها نحن . . . نتحكم فيها . . . نوجهها الوجهة السليمة . . . وهذا ما فعلناه . أو على الأقل فعلنا كل ما بوسعنا لكي نحققه .

قبل أن أعلن قيام الثورة ، وفي فجر ليلة ٢٣ يوليو ، فكرنا في الاتصال بالأمريكان لتعظيم فكرة عن أهداف الثورة وطبيعتها . . . فقد كانت صورة أمريكا في أذهاننا مقترنة بحماية الحربية ومناصرة حركات التحرر . . . وكنا نهدف من هذا الاتصال أيضاً إلى تحييد الإنجليز . . . ولكن كيف نتصل ونحن لا نعرف أحداً بالسفارة الأمريكية ؟ هذان البحث إلى ضابط مسئول عن غابرات الطيران اسمه على صبرى ، وكان في ذلك الوقت صديقاً للملحق العسكرى الأمريكى . . . فأرسلنا في طلبه وحملناه رسالة إلى صديقه . . . الذى نقلها بدوره إلى مستر كافرى السفير الأمريكى في ساعة مبكرة من صباح ٢٣ يوليو . . . اعتبر السفير الأمريكى كافرى هذا لفنة طيبة منا وخاصة أنه كان صديقاً شخصياً لفاروق أو هكذا كان يعتبره الملك ، وبالفعل كان اتصالنا به بداية علاقة طيبة بيننا وبينه . . . حتى أنه في الوقت الذى كان فيه الإنجليز يذلون كل جهدهم لمعرفة من هم رجال الثورة ، كان السفير الأمريكى قد دعانا إلى العشاء في بيته بالسفارة ، فليتنا جميعاً دعوته . . . أعضاء مجلس الثورة جميعاً . . .

كان من الواضح أن البلاد كانت مهتزة للثورة ، فقد فقدت الناس ثقتها في الأحزاب ، أما بالنسبة لشعور الشعب نحو الملك والإنجليز فقد بلغ قمة

الرفض والكرهية . . . ولذلك التفت الجماهير حول دبابتنا في كل مكان ،
ترقص وتغنى وهي في قمة السعادة .
كان علينا أن نواجه مشولياتنا وأولها تكليف وزارة بإدارة شئون البلاد -
ولكن من يكون رئيسها ؟

بعد مناقشة لم تدم طويلا ، اتفقنا جميعاً على أن أصلح الموجودين هو على
ماهر باشا ، فهو بعيد عن الأحزاب ثم إنه معروف بالحزم .
« يا أنور » خاطبني جمال عبد الناصر قائلاً : « دانت طول عمرك بتشغل
بالسياسة . روح شوف لنا على ماهر وكلفه علشان يشكل الوزارة . »

لم أكن أعرف بيت على ماهر . ولكن حدث أن إحسان عبد القدوس وهو
صحفى مهم بجمالاته الصحفية لقباه الثورة وصديق عملت معه في الصحافة كان
قد أتى لربارقي في القيادة . ولما كان يعرف بيت على ماهر توجهنا معاً إليه .
استقبلنا على ماهر بترحاب : وجلسنا في شرفة الدور الثاني حيث
كانت حرارة الجو محسنة بعض الشيء . . . أبلغته بتكليف مجلس قيادة الثورة له
رئاسة الوزارة . . . اضطرب ولم يقل شيئاً . . . فبعت أنه مخرج فالتكليف يأتي
من الملك . . . ثم إنه ليس واثقاً من أن حركتنا سيكتب لها النجاح ، قلت له إننا
قد سيطرنا على الموقف تماماً . . . وأثناء حديثنا مرت في الجو أربع قاذفات قنابل
على ارتفاع منخفض . . . فسألني إذا كانت الطائرات تابعة لنا . . . قلت « نعم ،
لما قل لك إننا سيطرنا على كل شيء » منذ النجف والقوات المسلحة في أيدينا . .
وكذلك جميع المرافق الحيوية . . . كل شيء أصبح في أيدينا . . . نحن نطلب
منك أن ترأس الوزارة . . . هذا أمر مجلس قيادة الثورة الذي هو صاحب الكلمة
الوحيدة في مصر الآن . »

سألني ماذا ستفعل بالملك . . . قلت له إنه حر يتصرف كما يشاء ، وعلى ضوء
تصرفاته ستعامله . . . في هذه اللحظة دق جرس التليفون في الحجرة المجاورة
وتغيب على ماهر بضع دقائق ثم عاد لينقول إن الملك قد اتصل به وأنه موافق
على تعيينه رئيس وزراء ويستقبله مساء نفس اليوم بالإسكندرية . . . « مبروك »
قلت له وعدت إلى إخواني بالقيادة أبلغهم ما تم .

لقد كلفنا هذا السيامي بتشكيل الوزارة بدلا من أن تشكل وزارة من
العسكريين لأننا لم نعد أنفسنا لتولى الحكم وكان هدفنا هو تطهير الحياة السياسية
واقصاء الملك والأحزاب والإنجليز .

إلى هنا كنا قد كسبنا الجولة الأولى ، لكن ما زالت هناك جولات أخرى أولها
انتقال قوات عسكرية من القاهرة إلى الإسكندرية فقد كان الملك يقضى الصيف
بها كعادته رسمياً ، ولكن لكي يتم هذا لابد لنا من بعض الوقت ، ولم يكن أمامنا
من سبيل إلى هذا سوى أن نصطنع بعض المطالب من الملك . . . كياً للوقت أولاً
ولكى لا يشك في حقيقة نوايانا نحوه ثانياً . . . فاتصلنا بعلي ماهر نطلب منه
انتظارنا قبل سفره بعد ظهر ٢٣ يوليو لمقابلة الملك حتى يحمل مطالبنا إلى
الملك .

كان مطلبنا الحقيقي الوحيد هو رحيل الملك عن البلاد . ولكن كان علينا
أن نخفي هذا إلى أن يتم انتقال قواتنا إلى الإسكندرية في هدوء . . . وبناء عليه
اصطنعنا بعض المطالب التافهة - ست مطالب على ما أذكر . . . وذهبنا بها
أنا وعبد الناصر ، إلى على ماهر وسلمناها له ، وسافر الرجل إلى الإسكندرية
بعد ظهر ذلك اليوم ليقابل الملك .

وفي الليل اتصل بي على ماهر من الإسكندرية وقال إن الملك قد قبل
طلباتكم كلها . . . وأسقط في يدنا فقد كنا نعتقد أن الحوار سيبدأ . . . وبناء عليه
فهو يرى - أى على ماهر رئيس الوزارة الذي فرضناه على الملك - أن يحضر
إلى الإسكندرية اثنان من مجلس قيادة الثورة ليسجلا اسميهما في دفتر التشريعات . .
« شكراً للملك على الاستجابة إلى مطالب الجيش » قلت له : « سأدوس
الموضوع مع زملائي »

جهزنا القوات يوم ٢٤ وفي صباح ٢٥ يوليو بدأت تتحرك . . . علم الملك
فأبلغ على ماهر الذي اتصل بي ليستفسر . . . فقلت له إن هذه القوات قادمة
إلى الإسكندرية لتأمين المرافق كما فعلنا في القاهرة . . . ولا داعي للقلق ثم إنني
شخصياً سأحضر إلى الاسكندرية في المساء لتنفيذ ما اتفقنا عليه .
عبد الناصر قال لي في ردة القيادة العامة للقوات المسلحة : « اسمع يا أنور

خلصنا بقى من الجدد دا بسرعة . . اديله إنذار ومشيه . . عاوزين نخلص منه بسرعة علشان تستقر الأوضاع فى البلد . . قلت له « طيب » . أثناء حديثنا مرنا عند نجيب فصار علم موضوع الحديث طلب منا أن يذهب معى . . ووافقنا . أخذت معى محمد نجيب طائرة عسكرية من طراز دوف (Dove) صغيرة أوصفتنا إلى مطار الزهة بالإسكندرية ومن هناك توجهنا إلى بولكلى : وهو مقر رئيس الوزراء العسكى فى الإسكندرية ، حيث دخلنا على رئيس الوزراء على ماهر . . وجده مضطرباً بسبب القوات المتجهة إلى الإسكندرية . . طمأنته باله : . كما فعلت من قبل . وأكدت له أن الغرض من القوات هو تأمين المرافق والأهالى والممتلكات . . خاصة وفى الإسكندرية كثير من الأجانب ، فقد يفتعل بعضهم أشياء تعرض البلاد للخطر وبالذات كنا نحسب حساب أى عمل من جانب المخابرات البريطانية . .

عند خروجى وجدت مقر رئيس الوزراء مليئاً بالصحفيين من جميع الجنسيات ، الكل يهرع إلى مسائلنا عن آخر الأخبار . فقلت لهم ، لا جديد ، وسوف ألتقى برئيس الوزراء مرة ثانية فى السادسة مساء .

لا أعلم إذا كان من حسن حظى أو العكس ، أننى كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى كتب عليه مواجهة جميع الأحداث : منذ إعلان قيام الثورة إلى خروج الملك من مصر . فقد تسبب هذا فى خلق حساسيات كثيرة بينى وبين زملائى فى مجلس قيادة الثورة خاصة وأننى كنت الاسم الوحيد المعروف بينهم لدى الجماهير نتيجة لنضالى السياسى الطويل وبعد أن خلقت منى الصحن والمجالات بطلاً أسطورياً فى قضية مقتل أمين عثمان .

لم أنبه إلى هذه الحساسيات فى بادئ الأمر ، فقد كنت أقوم بكل ما أفعله فى عشوية وبفرحة من بدأ عملاً كبيراً . . لا يهمه إلا أن يكتمل ، بصرف النظر عن شخصه أو أى شخص آخر . . هكذا كنت أرى الأمور ، وانصرف وقتاً لما أراه . . ولكنى بعد ذلك عانيت الكثير من هذه الحساسيات التى لم يكن لى يد فى إيجادها ، بل ولم أكن حتى على وعى بها ولكن هكذا شاءت الظروف . لا أعرف ما الذى عاد بذاكرتى إلى تلك الحساسيات ، فمن المؤكد أنها لم تترك

أى أثر فى نفسى حتى عندما تبينتها وأصبحت واضحة لى كل الوضوح ، ولكن من المؤكد أيضاً أنها أثرت على الآخرين بما كان يمكن أن يجعل الموقف يتقجر أكثر من مرة فيفسد العمل الجميل الذى قمنا به . . ولذلك أعتقد أننا ينبغي أن ننشئ أبناءنا على استبعاد الذاتية فى كل ما يفعلون لتحل محلها الموضوعية الخالصة .

فليس المهم أن أكون أنا أو غيرى الذى بنى البيت ، الأهم من هذا كله . . بل الشئ الوحيد المهم أن يوضع حجر أساس البيت وأن يكتمل بناؤه .

٦

بعد أن تركت على ماهر ، توجهت إلى قشلاق مصطفى باشا مقر قيادة القوات العسكرية بالإسكندرية ، حيث كان زكريا عيسى الدين . . كان جزء من قواتنا قد وصل والباقي فى الطريق . . ولكن زكريا أخبرنى أنه لن يكون مستعداً لمحاصرة قصر رأس التين وقصور الملك الأخرى قبل أن توجه له الإنذار إلا فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى ٢٦ يوليو ، إذ أن الجنود بعد هذه الرحلة الشاقة من القاهرة إلى الإسكندرية ، لابد لهم من تناول وجبة ساخنة ، ثم إنه لن يكتمل وصولهم قبل الساعة السادسة مساء ٢٥ يوليو ، وهو الميعاد الذى حددته لمقابلة على ماهر ، وإبلاغه بإنذار مجلس القيادة .

لم يكن هناك مقر من التأجيل ، فاتصلت بعلى ماهر ، وطلبت منه تأجيل ميعادنا إلى الساعة التاسعة صباح ٢٦ يوليو . . ولكن قبل أن يتم اللقاء كان زكريا قد حاصر بالجزء الأكبر من قواته مقر الملك حيثذاك وهو قصر رأس التين حيث قامت معركة بين القوات وبين الحرس الملكى . . أصيب فيها عدد من الحرس . . انزعج الملك . . فسحب قوات الحرس ، واتصل بعلى ماهر ، كما اتصل بالسفير الأمريكى يستنجد به خوفاً من القبض عليه وقتله ، ولكن كافرى كان حريصاً فأرسل له سكرتيره الخاص خوفاً من خلق حساسية معنا ولمعرفته أن الملك مكروه وأنه قد خسر المعركة .

فى التاسعة من صباح ٢٦ يوليو ، اتجهت ومعى اللواء محمد نجيب إلى بولكلى ،

كان في البهو المؤدى إلى حجرة رئيس الوزراء عدد ضخم من الصحفيين والكل يتطلع إلى ويسأل ما الأخبار ؟ وفجأة تقدم منى رجل عرفت منه أنه مستشار السفارة الأمريكية . وسألني وهو في حالة انفعال لماذا حاصرت قواتنا الملك في قصر رأس التين وكيف حدث إطلاق النار . . . إلخ . . . نظرت إليه بلامبالاة ، وقلت له إن هذا ليس من شأنه فانسحب ، وتقدم منى رجل آخر . . . مصري هذه المرة . . . وهمس في أذني « حاجة مهمة يا فندم . . . الدكتور يوسف رشاد على التليفون وبلغ أنه يكلمك قبل ما تدخل عند على ماهر » .

كان واضحاً أن الملك يريد أن يطمئن ، وأنه كان ما زال يعتقد أني كصديق ليوسف رشاد يمكنني مساعدته ، فالتفت إلى الرجل وقلت :

« قل ليوسف رشاد ينتظر . . . العجلة دارت ولن تعود مرة أخرى إلى الورا » .
لقد كان الدكتور يوسف رشاد صديقاً عزيزاً استخدمته في تضليل الملك ولذلك ولأن الأمر أكبر من الصداقة وهو مصلحة الوطن فقد رفضت أن أكلمه إلا بعد أن تنتهي معركة التخلص من الملك .

أما بعد خروج الملك وبعد أن أصبح كل شيء في أيدينا فيوسف رشاد بالنسبة إلى هو الصديق الذي أحبه وأحفظ له وقوفه إلى جانبي في ساعة الشدة ، ولذلك فإنه بعد التخلص من الملك وحين طلب مني مجلس قيادة الثورة اعتقال يوسف رشاد ، فوجيء بمجلس قيادة الثورة بي وأنا أدخل الاجتماع ، أحمل في يدي حقيبة ملابسي . . . وأقول لهم « يوسف رشاد هذا الذي تتكلمون عنه أنا فعلت معه كذا وكذا وكذا . . . عبد الناصر يعلم كل التفاصيل ولذلك إذا اعتقلتم يوسف رشاد فيجب أن تعتقلوني معه . . . وأنا على أتم استعداد لذلك كما ترون . . . فمعي حقيبة ملابسي . . . فهذا أمر خلقي ومبدئي بالنسبة لي » . . . ولم يعتقل يوسف رشاد وتركه وشأنه إلى أن مات .

بعد أن دخلنا حجرة على ماهر . . . لم أضيع وقتاً ففتحت الحقيبة التي في يدي ، وأخرجت منها الإنذار الموجه من مجلس قيادة الثورة - وهو بخط يدي - إلى الملك وبدأت أقرؤه ، طلباً فيه مغادرة الملك للأراضي المصرية في الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسؤولية كاملة .

كانت الصدمة واضحة على وجه رئيس الوزراء ، ولكنه أفاق منها بعد لحظات .
وأخذ الإنذار ليبلغه إلى الملك .

وفي العاشرة والنصف أي بعد ساعة ونصف من تسليم الإنذار اتصل بي على ماهر رئيس الوزراء من مقره في بولكي بعد عودته من مقابلة الملك .
وأبلغني أن الملك قد قبل الإنذار ورجاني أن ألحق به في مكتبه للاتفاق على صيغة التنازل . فقد كان مطلبنا في الإنذار أن يتنازل الملك عن عرشه لابنه الأمير أحمد فؤاد .

ذهبت إلى مكتب على ماهر مع أحد الزملاء ، المرحوم جمال سالم ، حيث اطلعنا على صيغة التنازل ، وفيها أن يوضع الأمير أحمد فؤاد تحت الوصاية ، فقد كان في ذلك الوقت طفلاً صغيراً . . . ووافقنا على الصيغة ، ثم أرسلناها إلى الملك . فوقعها وعلى الفور اتصلت بقائد المحرسة تحت الملك الخاص وطلبت إعداده للإبحار بالملك وأسرته في السادسة مساء على أن يعود اليخت إلى مصر بمجرد أن ينتهي من مهمته .

في قشلاق مصطفى باشا جلست مع إخواني في القيادة ممن كانوا معي في الاسكندرية ، نتلقى التهاني من مواكب رجال الأحزاب وكبار البشوات والباكوات والإقطاعيين فإذا بنا نفاجاً يطلب المقابلة من القائم بالأعمال البريطاني وفي صحبته الملحق العسكري في السفارة البريطانية وطبعاً كان الملحق العسكري يرتدي زياً رسمياً على طريقة مواكب الإمبراطورية القديمة التي كانوا يرهبون بها المستعمرات ، وكان السفير البريطاني في إجازة . . . استقبلناهما . . . قدم القائم بالأعمال لنا مذكرة ، فحواها أنهم باعتبارهم أصدقاء لنا : فهم يطلبون معرفة موقف الثورة من أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية : ويطلبون كذلك فرض حظر التجول لحماية لأرواح الأجانب .

كان هذا أول اصطدام لنا مع الإنجليز بعد الثورة ، فقلت هذه فرصة لكي نلقنهم درساً كنا نتوق إليه طوال عمرنا . . . التفت إلى الرجلين وقلت : -

« البند الأول ، أسرة محمد علي وحقوقها التاريخية . . . ما دخلكم أنتم في هذا ؟ هل هي أسرة إنجليزية ، أمركم غريب والله ! أما عن حماية الأجانب ، فيجب

أن تعلموا أن هذه بلدنا . . وأنه منذ اليوم لا أحد مسئول عنها إلا نحن . .
ونحن فقط . . أفهمتم ؟

ثم إننا نريد أن نعرف . . بأيه صفة تقولون هذا الكلام ؟ هل هي صفة رسمية ؟
إذا كان الأمر كذلك فنحن نريد كلامكم مكتوباً وموجهاً من الحكومة
البريطانية حتى نستطيع أن نتخذ موقفاً من حكومتكم .

تراجع القائم بالأعمال البريطاني على الفور وقال إن الورقة التي قرأ منها
الكلام ، ورقة عادية وإن حكومته لا تعرف شيئاً عنها أو عن زيارته لنا ، وأنه
قد أتى إلينا كصديق فقط ، وليس بأيه صفة أخرى ، ورجائي أن أعتبر الزيارة
كأن لم تكن . . باختصار انسحب بكل الأساليب الناعمة التي يمكن تصورها .
بمجرد خروجه ، أبلغت إخواني في القيادة بالقاهرة بأن أول احتكاك لنا مع
بريطانيا قد وقع في الساعة الثانية عشرة ظهر يوم ٢٦ يوليو ، وأنه انتهى بانسحاب
بريطانيا وتراجعها تراجعاً كاملاً .

اتصلت بعد ذلك بالميناء ، فعرفت أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لليخت
المحروسة ، واجراءات خروج الملك على ظهرها - أصدرت أوامري لمدفعية
السواحل بعدم التعرض للمحروسة ، كما أعطيت تعليمات ل سلاح الطيران
بتجهيز بعض الطائرات لتحية الملك أثناء مبارحته المياه المصرية .

وهكذا في السادسة من مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، غادر الملك فاروق الأراضي
المصرية . . وكان في وداعه من رجال الثورة على اليخت محمد نجيب وجمال
سالم وحسين الشافعي . أما أنا فقد وقفت على ظهر البارجة إبراهيم في الميناء ،
أكبر قطعة بحرية عندنا في ذلك الوقت . . أراقب الطائرات وهي تجوم فوق
المحروسة تحمي الملك مودعة . . لفئة بسيطة - هكذا قلت لنفسى - ولكنها تحمل
من معاني الثقة بالنفس والكبرياء والسماحة ما يعبر عن روح مصر عبر الزمان .

الفصل الخامس

الشوار يحكمون

في مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ أى بعد خروج الملك بيوم واحد دعانا عبد الناصر
- مجلس قيادة الثورة - إلى الاجتماع في القيادة . . وافتتح الاجتماع قائلاً .
المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد نجحت بخروج الملك أمس ، واليوم نحن
المشولون عن البلاد وبناء عليه يجب أن نتخذ قراراً في أمر مهم جداً . ولكن
قبل أن نتخذ هذا القرار . . يرى من واجبه أن يتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ،
فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الثورة ونحن من اليوم اسنا مجلس قيادة
الثورة .

لم أرى أى معنى في كلام عبد الناصر ، فلماذا يستقيل ؟ وما الفرق بين
رئيس الهيئة التأسيسية ومجلس قيادة الثورة ؟ لقد نجحت الثورة فماذا يهم بعد
ذلك ، وما الداعي إلى تغيير الأوضاع والمسميات ؟

كان من الصعب على في تلك المرحلة البعيدة إدراك ما يهدف إليه عبد الناصر . .
فبالنسبة إلى - بنجاح الثورة ودخول مجلس قيادة الثورة - انتهى كل ما كنت
أطمح فيه منذ أن كنت أستمع إلى موال زهران فوق مطح القرن في
ميت أبو الكوم وأثناء الاعتقال وبعد الفصل من القوات المسلحة وخلال سنوات
السجن والجوع والتشريد . . عمر جيل بأكمله من الكفاح والحرمان في
سبيل تحقيق رسالة ، لا أغالى إذا قلت إنه بدونها لم يكن في الإمكان أن يكون
للحياة أى معنى . .

والآن وقد تحققت الرسالة وشاركت أنا بالفعل في تحقيقها فأعلنت ميلاد الثورة
وأخرجت الملك من البلاد ، وواجهت بريطانيا التي كانت تمثل عدو الشعب
رقم ١ . وعلمته درساً كنت أتوق إليه من زمن ، عندما أتى إلينا القائم بالأعمال
البريطاني ومعه الملحق العسكري في قشلاق مصطفى باشا بالاسكندرية فأعلنت

بكل وضوح وعزم وتصميم أن لا إرادة بعد اليوم إلا لمصر ، ومصر وحدها . .
فماذا أريد بعد ذلك اليوم ؟ وأى شيء يهم ؟ حتى ولو لم أدخل مجلس القيادة
وحتى لو لم يكن لى دور ملمسوس فى قيام الثورة . . يكفىنى أن الثورة قد قامت
ونجحت فتحقق بذلك حلم حياتى . .

كانت هذه حقيقة مشاعرى منذ البداية ، فالثورة قد قامت ولا يمكن أن يكون
قيامها إلا لمصلحة مصر ولتحقيق قيم الخير والحق التى كنت أتوق إليها منذ
الصبا . . فلتسركما تشاء وليتخذ قادتها من القرارات ما يرون اتخاذها ، فالخليفة
فى النهاية هى خير مصر والمصريين .

ولذلك دهشت عندما تقدم عبد الناصر باقتراحه بالتنحي واعتزضت عليه ،
ولكنه ألح وصمم على أن يوضع اقتراحه موضع التنفيذ . . وفعلنا أعدنا انتخابه
بالاجماع رئيساً لمجلس قيادة الثورة . . لم يكن عهدى بعد الناصر أن
يقول أو يفعل أى شيء اعتباطاً ، فلماذا فعل ما فعل ؟ لم يكن عبد الناصر
الرجل الذى يمكن وصفه بالثبات . . بل كان فى الحقيقة عملياً إلى أقصى
حد . . كثير الشك . . به مراة تجعله يلتزم الحذر فى كل خطواته . .
فلا بد من سبب لاصراره على تنحيه عن الرئاسة ، وإعادة انتخابه رئيساً لمجلس
قيادة الثورة ، وهنا تذكرت بعض الصراعات التى قامت بينه وبين بعض أعضاء
الهيئة التأسيسية . . صراعات على السلطة بطبيعة الحال . . ولكن بعد أن قامت
الثورة لماذا الصراع ؟ سألت نفسى هذا السؤال أكثر من مرة إلى أن اهتديت
لا إلى الحل - بل إلى طريق لإدراك ما يدور حولى . . لقد جاءت الثورة بالنسبة
إلى بصورة تختلف اختلافاً كلياً عما حدث لهم جميعاً . . فالثورة بالنسبة إلى
ومعصرة للتكرار ، كانت غمرة كفاح عمر بأكمله ، ولذلك فيحكم ما أدين به
من قيم ومثل ، ما أن نجحت الثورة حتى أصبحت لا أريد أى شيء ، وأصبح
أى شيء فى نظري يساوى أى شيء آخر . . ولذلك كنت دائماً أفكر بعيداً عن أية
مصلحة قاصرة . . وكنت أفسرهم لسوئى هذا إلى عديم الاهتمام والمبالاة بكل
شئ . . غير قادر على البت فى الأمور . . ولم يخطر على بالهم أنى أيتعد
توقفاً لا عجزاً . . وامتلاءً بدائى لا خواء ولا خوفاً . . بل حرصاً على الثورة . .
وحرصاً على أن نظل المؤسسة متراصة لأن هذا لا بد أن ينعكس على البلاد . .

ونعاليًا على صغائر الأمور وفى مقدمتها السلطة . . واقتناعاً منى بأننا ما دمنا قد
صنعنا الثورة فلا شيء يهم بعد ذلك . . أما هم أى زملائى من أعضاء مجلس
قيادة الثورة فمجموعة من الضباط الشباب كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلى
مكاتبهم فى القاهرة كما يجلس الكثيرون غيرهم من أفراد القوات المسلحة . لم يعرفوا
الجوع أو التشرد ، لم يتعرضوا للسجن والاعتقال . . لم يعانون مرارة الأمل
واللهفة والإحباط . . ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم ينتقلون
فجأة من مكاتبهم ومراكزهم فى الجيش إلى مركز السيادة . . وهم
يحكمون مصر بلا منازع ولا منافس ، ومن ثم كان الصريح على السلطة ، وهو
الشيء الذى لم يخطر ببالى فى أى وقت من الأوقات . . ولذلك نجد كل
أفعالى طوال مدة قيام مجلس قيادة الثورة ، وبعد ذلك ، بمنأى عن هذا الصراع
أى الصراع أو الرغبة فى السلطة أو المزاخمة على المناصب .

لو لم أر هذا بنفسى لما صدقته . . ولكن لم يكن الأمر كذلك مع
عبد الناصر ، فقد كان على وعى كامل بالصراع على السلطة ، وكان يعد
لكل أمر عدته ، فبعد أن اطمأن إلى انتخابنا له رئيساً لمجلس قيادة الثورة .
طرح علينا أمراً وصفه بأنه فى غاية الأهمية ، وهو الاختيار بين حكم البلاد عن
طريق الديمقراطية أو طريق الديكتاتورية .

ما هذا الذى يفعله عبد الناصر ؟ هل فقد عقله أم ماذا ؟ قلت فى نفسى . .
فقد كنت على ثقة من أننا جميعاً بل والشعب الذى أيد الثورة بهدير وهيب
وأولنا عبد الناصر قد كفنا بالديمقراطية نتيجة لما صنعته بنا وبالبلاد ديمقراطية
الأحزاب وصراعاتها من أجل السلطة وخضوعها للملك وللإنجليز . . ثم إننا جميعاً
ضباط ، وقد تعودنا فى العسكرية سرعة الإنجاز . . هذا إلى جانب الهدف الرئيسى
الذى قامت الثورة من أجله وهو إصلاح أحوال البلاد فى أسرع وقت .

طرح الموضوع للمناقشة ، وللحقيقة والتاريخ أصر جمال عبد الناصر
على رفض طريق الديكتاتورية لأنه كما وصفه هو طريق الدم ، والعمل الذى
يبدأ بدم لا بد أن ينتهى بدم . . وقال إنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان
الحزبى القديم وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من

جانب الشعب ، على أن نلجأ إلى أسلوب الديكتاتورية . . فكيف نخرج البلاد من ديكتاتورية الأحزاب لندخلها في ديكتاتورتنا ؟
هذا إلى أن الأحزاب كانت تخاف من الملك ومن الإنجليز . . أما نحن فلنا الآن مطلق السيادة ، ولن نخاف من أحد . .

تكم الخديج وربما كنت أنا أكثرهم حماساً . فقد كان دفاعي من متعلق الخديج على مصلحة مصر . فالشيء الذي ننجزه بالطريق الديمقراطي في سنة يمكن اختاره عن طريق الديكتاتورية في يوم . . ولم يخطر ببال مطلقاً في تلك اللحظات أن المسألة كلها ليست إلا اختباراً للقوة من جانب عبد الناصر فهو يهدف في بداية رئاسته للمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار .

احتدم الصراع وشعرت أننا سوف نواجه انقساماً يضرب وحدتنا فتدخلت ، وبدأت ألخص الكلام الذي قبل بهدف تجميع الموقف ، وإذا بعيد الناصر ينافيني بعدة وعنف قائلاً : -

- أنت قاعد تلخص كلام الأعضاء وتكلم كلاماً لا معنى له . . وتصرف كأنك رئيس مجلس قيادة الثورة . . ما هذا الذي تفعله ؟
قلت له مندهشاً : يا جمال أنا آسف . . أنا بأحاول أجد حل وسط . . أنا لا رئيس مجلس قيادة ثورة ولا شيء من هذا القبيل . .

وأخذت الأصوات فكانت النتيجة ٧ ضد واحد هو عبد الناصر . . سبعة أصوات منا مع الديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر .
عندها وقف محتجاً وقال في حدة : -

« أنا لا أستطيع أن أقبل هذا القرار الذي هو قرار الديكتاتورية . . هذا طريق خطر على الثورة وعلى البلاد ، وأنا مستقبل من جميع مناصبي » .
وبرغم إعادة فتح باب المناقشة للمرة الثانية وأخذ الأصوات في نهايتها فإن النتيجة لم تتغير سبعة للديكتاتورية وواحد للديمقراطية هو عبد الناصر وجميع جمال أوراقه وأعلن استقالته من جميع مناصبه متمنياً لنا التوفيق ولكنه كما قال

طريق خططر على البلاد سيثبت لنا خطوؤه وغادر القاعة إلى منزله في الساعة الثانية من صباح ٢٨ يوليو ١٩٥٢ وأسقط في يدنا جميعاً بعد انصراف جمال ونحن حول منضدة الاجتماع ورائت فترة من الصمت . .

ثم بدأت المناقشة هذه المرة بدون جمال وتغلبت روح الوحدة على روح الصراع والإنقسام خاصة وأن جمال كان الدينامو الذي لم تصور أبداً أن يبدأ العمل في إعادة البناء بدونه واتخذنا في نهاية المناقشة قراراً بأن يعود جمال ولنا فيه كل الثقة وذهب إليه في منزله اثنان منا ليلغوه . . وفي فجر عاد جمال متصراً . . بتفويض منا . . وكان قراراً تاريخياً مهماً اختلف الآراء عليه .

٢

كان أول قرار اتخذناه لتطبيق الديمقراطية هو مطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وأصدر مجلس الثورة قانون تنظيم الأحزاب ثم طلبنا من الأحزاب القديمة أن توافق على قانون الإصلاح الزراعي الذي هو مبدأ أساسي من مبادئ الثورة . . فيه وحده سوف يتغير هيكل المجتمع . . وهذا ما كنا نبغيه . .

وأصدر مجلس الثورة أيضاً في نفس الوقت قراراً بإجراء الانتخابات العامة في فبراير ١٩٥٣ أي بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة وحينما هاجم على ماهر - رئيس وزراء الثورة الذي فرضناه على الملك - عندما هاجم الأحزاب في بيان لم يذكر فيه تاريخ الانتخابات الذي حددناه في مجلس الثورة أي فبراير سنة ١٩٥٣ أوقفنا مطابع الصحف وأصدرنا بياناً من مجلس الثورة يؤكد التزامنا بإجراء الانتخابات الديمقراطية في فبراير سنة ١٩٥٣ .

وكانت صفقة لرئيس الوزراء .
بالنسبة لتطهير الأحزاب فقد استغلت الأحزاب الفرصة فقام الأقوياء في كل حزب بطرد الضعفاء ، واعتبروا أن هذا هو التطهير المطلوب . .
كانت طبعاً مسألة شكلية بحجة . . أما بالنسبة لقانون الإصلاح الزراعي . .

فقد رفضته الأحزاب جميعاً كما رفضه على ماهر رئيس الوزراء في أول حكومة للثورة .

لم يكن هناك مفر من اتخاذ إجراءات جديدة وخاصة بعد أن صدر قانون تنظيم الأحزاب . . ماذا كانت النتيجة ؟ تقدمت الأحزاب القديمة طبعاً وتقدم معها ٢١ طلب بتكوين أحزاب جديدة . . في نفس الوقت وبعد ثلاثة أسابيع من قيام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيادة قد بلغت حداً يحتم ضم عناصر جديدة ومحايدة إلى المجلس عسى أن يخفف ذلك من حدة الصراع . . وفعلنا ضممتنا إلى المجلس خمسة أعضاء كان على رأسهم محمد نجيب الذي عهدنا إليه برئاسة مجلس قيادة الثورة كطلب جمال نظراً لأنه كان أكبرنا سناً فأصبح أعضاء المجلس ١٤ وهو أكبر رقم وصل إليه .

كان من الواضح أننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولى الحكم - كانت أقصى آمالنا أن تنجح ثورتنا وأن تظهر الأحزاب نفسها وأن تقوم في مصر حياة ديمقراطية نظيفة وشريفة وأن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم في أسلوب العمل وفي نظرته إلى الأشياء ، أما نحن كجيش فنجلس في الخلفية ، نراقب سير الأمور إلى أن تصل البلاد إلى بر الأمان وتوصل الحرية والاستقلال . . فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن . .

لم تكن الوزارات مطمئنة فنجح لم نعد أنفسنا لها بل ولم نعد برنامج حكم معين . ولكن رغم هذا كله حدث أننا في أحد اجتماعاتنا قلنا لقد آن الأوان لكي نوزع أنفسنا لمناصب أعمال الوزارات بمعنى أن يصبح كل واحد منا مثلاً عن وزارة أو مجموعة وزارات لكي نعطي للعمل دفعة جديدة . . كل واحد بدأ يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك . . إلى أن أتى دوري فقلت : - لا أعتقد أنني بحاجة إلى وزارة - فأنا لا أفهم إلا في السياسة . .

وسألني صلاح سالم منكم : -

وما هي السياسة التي تفهم فيها ؟

قلت : - أنا أقصد بالسياسة . . كيف نوصل مصر من أقصر وأسرع طريق إلى أماننا . . وأن نكتب لمصر تاريخاً جديداً . . هذه هي السياسة في عروني . .

ما أن قلت هذا ، حتى خيل إلى أنني ارتكبت جريمة ، فقد هاجمني صلاح سالم على الفور واشترك معه بعض الحاضرين وعلى رأسهم عبد الناصر . . لم يهني هجوم صلاح سالم فقد كان معروفاً بحب الظهور والتهجم . ولكن هالتي أن ينضم إليه عبد الناصر وهو من كان يربطني به رباط من الاحترام المتبادل منذ أن كان عمرنا تسعة عشر عاماً . . لم أجده مبروراً لهذا الهجوم المفاجئ ، فقد فعلت ما في وسعي منذ قيام الثورة وقبل ذلك للحفاظ على عبد الناصر . مهما كلفني الأمر . . فإذن هذا الهجوم والهكم والسخرية وكأنني دحيل يريد أن يسلبهم حقوقهم أو غريب يتكلم لغة غير لغتهم ؟ . .

حزنت لا لنفسى . . ولكن لعبد الناصر وهم . . ومنذ تلك اللحظة انسحبت إلى نافذة عالية أطل منها عليهم وأضحك على صراعاتهم . . فقيم يتصارعون ؟ سألت نفسي أكثر من مرة هل أنا كذلك ؟ لا ، أنا لا . . ولكن هذا الاكتشاف لم يعنى من أن أفضل أى واحد فيهم على نفسه العادية . . ولكن هذا الاكتشاف لم يعنى من أن أفضل أى واحد فيهم على نفسه لاشيء إلا انطلاقاً من مفهوم الصداقة ومفهوم العمل الذي قمنا به مجتمعين من أجل الملايين . . ولكن مهما حاولت أن أذيب ذاتي في ذاتهم مبتدئاً بالقيم والمثل العليا التي نشأت عليها . . ظل السؤال حائراً في رأسي . . قيم الهجوم على ومن عبد الناصر بالذات ؟ وفيما ارتياح الآخرين لهذا الهجوم ؟ لم أستطع أن أجده الإجابة في ذلك الوقت ولو أنني أدركتها فيما بعد . . فعندما قامت الثورة وفي أيامها الأولى لم يكن الشعب يعرف أحد من رجالها سوى أنور السادات بطل قضية أمين عثمان كما صورته الصحف ووسائل الإعلام وحكت قصة نضاله الوطني الطويل . .

ولكن هل كانت مراحل الكفاح التي مرت بها جريمة استحق عليها أن يعاقبني عبد الناصر وبعض الآخرين عليها ؟

لم أكن قد عرفت بعد كل جوانب شخصية عبد الناصر . . فقد كان حين

له بحجب الحقيقة عن عيني ، ثم إنه من المعتاد أن نحكم على غيرنا بما جيلنا عليه من طبائع وخصال . .

أنا مثلاً أثنى في كل إنسان إلى أن يثبت العكس ، أما عبد الناصر فقد اكتشفت فيما بعد أنه يشك في كل إنسان وفي كل شيء إلى أن يثبت العكس وفي ظروف حياتنا المعقدة هذه قليلاً ما يثبت العكس . .

أنا أكتب هذا الكلام الآن بعد تجارب سنوات وسنوات ، أما في تلك المرحلة المبكرة فلم يكن من السهل على أن أتقبل أو أتصور أن يشك جمال في وأنا الوحيد الذي لم يدخل معه معركة . . أو يطلب شيئاً لنفسه . . ولذلك فبعد أن حدث ما حدث وفي الأيام الأولى للثورة دخلت برجاً بعيداً وعشت فيه . . أراقبهم عن بعد فإذا قام خلاف بينهم أحاول الإصلاح ، وإذا لم يكن هناك خلاف فكل شيء يتساوى عندي مع أي شيء - حاولوا مراً أن يعرفوا مسلوكمي هذا . . قالوا إنه ضعف وعدم معرفة بالأمور أو عدم اهتمام ، ولكنهم لم يتوصلوا أبداً إلى الحقيقة .

لقد اكتشفت ذاتي داخل الزنزانة رقم ٥٤ في سجن مصر العمومي ومن يومها عرفت أن نفسي أكبر من كل المراكز والمناصب والألقاب . . فقيم الدهشة إذن لابتعادى عن هذه الصراعات البشرية ؟

إن ليلة ٢٢ - ٢٣ يوليو قد حققت كل آمالي . . فوجدت فيها نفسي . . وإذا ما وجد الإنسان نفسه فماذا يريد من الحياة بعد ذلك ؟

٣

في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، كانت الصورة قد انضمت أمامنا . . فقانون الإصلاح الزراعي مرفوض من رئيس وزراء الثورة على ما هو ومن الأحزاب جميعاً . . ونظير الأحزاب لم يكن تطهيراً إلا بالاسم فقط . . يجب إذن أن تتولى السلطة . . وهذا فعلاً ما كان . . فذهبت مع عبد الناصر وجمال سالم إلى على ماهر في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء وقلنا له شكراً . . لقد أدت مهمتك على

أحسن وجهه . . فقدم استقالته ، وعينا اللواء محمد نجيب رئيساً للوزارة على أن يكون الوزراء كلهم من المدنيين . .
هكذا كان بدء اتجاهنا نحو السلطة . .

كان الأصل في تعيين محمد نجيب رئيساً لمجلس قيادة الثورة أن وجوده سوف يضع حداً للصراعات داخل المجلس نظراً لأننا جميعاً من أعمار متقاربة . . أما هو فيكبرنا بكثير . . ولكن للأسف فإن الذي حدث هو العكس . . فقد بدأت صراعات جديدة دخلها نجيب . . وفوجئت أنا بعملية اشاعات قذرة يقودها محمد نجيب وصلاح سالم كما أخبرني عبد الناصر في ذلك الوقت . .

لم يكن هذا بالأمر الذي يهني أو يشغل بالي ، ولكن المسائل تطورت بعد ستة شهور فقط من قيام الثورة أي ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، فإذا بنا نقاباً باتصال بعض رجال الأحزاب ببعض ضباط القوات المسلحة وكان تفسير هذا الأمر بسيطاً . . وهو أن الأحزاب التي كانت تتصارع على الحكم بالتقرب إلى الملك تارة وإلى الإنجليز تارة أخرى أو إلى الاثنين تارة ثالثة وجدت فجأة أن الثورة في الأيام الثلاثة الأولى لها قد عزلت الملك وعزلت أيضاً في نفس الوقت نفوذ بريطانيا الإمبراطورية العتيدة وأصبحت سلطة السيادة في مجلس قيادة الثورة الذي يتكون من ضباط مصريين في القوات المسلحة المصرية ، أو بمعنى آخر أصبحت القوات المسلحة هي مصدر السلطات فلماذا لا نحاول الاتصال بها كما كان الحال مع الملك ومع الإنجليز ؟

وعندما عرفنا ذلك في مجلس قيادة الثورة كان لابد من مواجهة الوضع الجديد لكي نفهم السياسيين والأحزاب أن القوات المسلحة ليست لحزب ولا لفئة معينة ولا لطائفة وإنما هي للوطن . . وكان لابد من اتخاذ إجراء قوري لتأكيد هذا المعنى . .

وضعنا السياسيين في المعتقل ، أما الضباط الذين حاولوا التآمر مع هؤلاء السياسيين من الأحزاب فحوكموا عاكمة عسكرية ، وفي ١٦ يناير ١٩٥٣ ، ألغينا الأحزاب ، وصدر قرار مجلس الثورة بإلغاء الأحزاب ووضع السلطة

التشيدية والتشريعية في مجلس الثورة لمدة ثلاث سنوات تنتهى في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .

هنا بدأ الإخوان المسلمين الصراع المفتوح . . فصدر قرار من مجلس الثورة بجل الجماعة ، ولكنهم ظلموا على نشاطهم إلى مارس ٥٤ ثم إلى أكتوبر ٥٤ عندما حاولوا قتل جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية . . المهم أن الأحزاب كلها ألغيت وأخذنا سلطة السيادة ولكننا وعدنا بالدستور في نهاية الثلاث سنوات . . وقد كان . . في ١٦ يناير سنة ٥٦ أعلننا الدستور المؤقت . . ولا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتاً .

وعندما تعود بي ذاكرتي إلى تلك الأيام البعيدة ، أرى نفسي وأنا أكتب استقالتي من مجلس قيادة الثورة . . وأطلب جوازات سفر لي ولزوجتي لكي نعيش في لبنان . . لماذا لبنان ؟ لأنني كنت أسمع أنها بلاد جميلة . . غنية بمناظرها الطبيعية ، وأنا أحب الجمال . . ويسعدني أن أعيش مع الطبيعة . . أما سبب استقالتي فقد كان محمد نجيب . . والحرب المستمرة التي أخذ يشنها على سرأ وعلمنا . . وبدون مبرر من جانبي على الأقل . .

وقد عرفت فيما بعد من ضباط المخابرات الذين اشتركوا في الحملة ضدتي أن السبب كان ما سبق أن حكيت عن معرفة الشعب لي بسبب كفاحي القديم وتصوير ذلك لنجيب على أنه محاولة مني للتسلق عليه وقد أذكر ذلك عنده عضو أو أكثر كما اعترف هؤلاء الضباط لي أمام جمال عبد الناصر بعد ذلك . أنا أكره الصراعات ولا أرى في الحياة شيئاً يستحق أن أتصارع عليه مع زملائي . . ولكن أن يجتمعنا مجلس الثورة معاً أصبح بالنسبة لي أمراً لا يطاق . . في العمل ؟

لقد عينا محمد نجيب رئيساً لمجلس الوزراء كما سبق أن قلت وتنازل له جمال بعد انتخابه كما أسلفت وقدمناه للناس كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، فلا سبيل إلى التراجع وخاصة في تلك المرحلة المتقدمة . . ولذلك فضلت أن انسحب أنا وأعيش في هدوء . . اتصل بي عبد الحكيم عامر ثم عبد الناصر الذي أقنعني بسحب الاستقالة . ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد .

نفس الشيء للأسف حدث لرشاد مهنى الذي كان من ضباط المدفعية وعين أحد الأوصياء على الأمير أحمد فؤاد ، فقد تخيل هو الآخر أنه مادام وصياً على العرش فهو صاحب السيادة . . ولقد انضم هو الآخر إلى عملية الصراع على السلطة وأبلغني جمال أنه عندما قابله للتضام معهما اشترط خروجه من مجلس الثورة كشرط أساسي قبل أي تفاهم ومرة أخرى تعجبت أنا الذي لم أراحم أحداً أو أطلب منصباً ولا دخلت صراعاً كيف تغلبي بصائر الناس غشاًوة إلى الحد الذي يصبح النعم فيه حقيقة والحقيقة وهماً ؟ ثم ما هو السبيل إلى إعادة الأمور إلى نصابها السليم ؟ كان لابد من أن نفعل شيئاً وشيئاً حاسماً لا رجعة فيه . . وهذا ما فعله عبد الناصر حين دعا مجلس الثورة للانعتاد ، وفي يوم واحد من شهر مارس سنة ١٩٥٣ رقي عبد الحكيم عامر من رتبة صاغ إلى رتبة لواء وعين قائداً عاماً للقوات المسلحة وفي نفس اليوم أعلننا الجمهورية فمخلصنا من مجلس الوصاية وصايرنا أموال العائلة المالكة وقورنا تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية بعد أن أرغم على ترك القيادة العامة للقوات المسلحة في ذلك اليوم كطلب مجلس قيادة الثورة . .

ودخل عبد الناصر الوزارة كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية . ولإنهاء كل الصراعات وخاصة بعد تعيين عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة دخل بعضنا الوزارة .

هذا كله مجتمعاً كان الحادث الأول المهم في عام ١٩٥٣ وفيه نرى أنه في أقل من سنة من بداية الثورة ، اتضح الصراع بين محمد نجيب وبقية الأعضاء ، كما انضمت حقيقة لم أكن أنا على الأقل أدركها من قبل . . وهى أن للحكم بريقاً يمكن أن يخلب لب الثوار ويلعب برؤوسهم . . هذا أمر بشري على ما اعتد ولكن أحمد الله أن هذا لم يكن شأنى فالإنسان عندما يكون في دخيلة نفسه أكبر من أى شيء يصبح في غنى عن كل شيء .

تحررت منذ قيام الثورة وأصبحت مصرية وحررة ١٠٠٪ ولذلك فلا مجال للكلام عن قاعدة أو الانضمام إلى أحلاف .

كانت ميزانية مصر في ذلك الوقت ٢٠٠ مليون جنيه وهى اليوم ٥٠٠٠ مليون ، ومع ذلك فقد كان وضعنا الإقتصادى لا بأس به . . فبعد رفض الأمريكان لنا ، اتصلنا بالسوفيت في أوائل عام ١٩٥٣ وكان ستالين في مرض الموت وقتذاك ولكنهم رفضوا هم أيضاً بدورهم ، لأن مبادئ ستالين كانت تمنعه من إعطاء السلاح إلا للدول الشيوعية ، ولكن حدث أن التقي شواين لائى بعبد الناصر في مؤتمر باندونج في ربيع ١٩٥٥ فتوسط لدى السوفيت ، وبناء على توصيته عقدت أول صفقة سلاح بيننا وبين السوفيت ، وتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر ١٩٥٥ .

أذكر بهذه المناسبة أنه لما مات عبد الناصر أرسلت أنا مبعوثين إلى جميع الدول . . كان مبعوثنا إلى الصين رئيس مجلس الشعب الذى بادره شواين لائى بالسؤال : -

« تعرف مين اللى قتل عبد الناصر وهو عنده ٥٢ سنة ؟ »

واختار رئيس مجلس الشعب . . ولكن شواين لائى قال رداً على سؤاله :
- السوفيت .

وهذا صحيح على ما أعتقد . . فبعد الناصر كان يجب رقعة واسعة للمناورة . . وعندما يجدها فهو متاور ممتاز ، ولكن الذى حدث أنه قطع علاقاته بأمريكا والغرب ، والعرب وإيران - ولم يبق له إلا السوفيت . . وهذا لم يعطه حرية المناورة ، خاصة وأن السوفيت عاملوه معاملته أبعد ما تكون عن الكرم أو الكرامة . . وقد كان لهذه المعاملة أثرها على صحته . . فقد كانت دون شك من أهم العوامل التى جعلت حالته النفسية سيئة مما ساعد على إصابته بمرض القلب ومرض السكر وهما اللذان أجهزا عليه . . طبعاً الأعمار بيد الله . . ولكن شواين لائى كان على حق .

ولقد كان تعليق عبد الناصر لى شخصياً يوم أن عاد من رحلة استغرقت ٢١ يوماً في الاتحاد السوفيتي قبل موته بشهرين وكنت أسأله عما تم فقال لى بالحرف

٤

أحداث سنة ١٩٥٣ كثيرة ومتنوعة فهى وليدة الدفعة الثورية التى هى بطبيعتها شابة قتيبة . . أذكر من هذه الأحداث أننا طلبنا السلاح من أمريكا ، وكان السفير الأمريكى مستر كافرى صديقاً لنا - فرحب واتصل ببلاده على الفور . . وجاءنا الرد بأن أمريكا ترحب بأن تعقد معنا اتفاقية الأمن المتبادل

Mutual Security Pact

وهى صيغة ابتكرها الأمريكان بعد الحرب العالمية الثانية ، تمكنهم من ملء الفراغ كما كانوا يسمونه (Vacuum) أى أن يحلوا محل إنجلترا وفرنسا في البلاد التى كانت تحت نفوذ هذين البلدين . .
فإذا الصيغة فإذا بها تنص على أن أمريكا على استعداد لإمدادنا بالسلاح أى أن يمد إلينا السلاح عدد من الخبراء الأمريكان وألا يستعمل السلاح ضد أى حليف لأمريكا . .

رددنا الورقة للسفير الأمريكى وقلت له : شكراً . . نحن نريد أن نشترى السلاح بخير ماله ولا نريده مجاناً ونرفض أيضاً اتفاق الأمن المتبادل لأنه ضد استقلالنا الذى نحرص عليه كالحياة تماماً .

وسأيرتنا أمريكا أول الأمر ولكن من غير حماس ووافقت على استقبال بعثة عسكرية فى واشنطن للتفاوض على شراء ما نريد من سلاح .

وكان جارحاً لنا جداً أن نرى الأمريكان وقد تجاهلوا البعثة تماماً بعد وصولها إلى واشنطن بما لا يدع مجالاً للشك فى أنهم لا يريدون بيع السلاح لنا وأن الأمر لم يكن إلا مناورة فقط .

حاول الأمريكان بعد ذلك أن يتنصرونا بالانضمام إلى بعض الأحلاف التى بدأها جون فوستر دالاس فيما كان يسمى بسياسة احتواء الاتحاد السوفيتي بتطويقه بأحلاف وقواعد وهى السياسة التى أطلق عليها Containment والى بدأت بخلف الأطلنطى وامتدت إلى جنوب شرق آسيا ثم ربط حلف بغداد فيما بعد بين الإثنين . ولكننا أفهمناهم بصراحة ووضح أن إرادتنا قد

الواحد وبالإنجليزية Hopeless case وأخذ يشرح لى كيف أنه من شدة ضيقه أعلن القادة السوفيت في نهاية مفاوضات فاشلة أنه سيعلم قبوله في الحال في كرت قد أعنت من جاب أمريكا قبل ذلك بشهر ولم يعلن عبد الناصر موقفه منها إلا على مائدة الاجتماع في الكرملين في يولييه سنة ١٩٧٠ وقال لى عبد الناصر أن بريجنيف انفع لهذا الإعلان وقال لعبد الناصر بغضب هل معنى هذا أنك تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر بعدما فتمتموه معنى فإني أقبل حلاً حتى من الشيطان .



منعاً للتعارض والازدواج بين مجلس قيادة الثورة وبين مجلس الوزراء ، شكلنا ما أسميناه بالمؤتمر المشترك من الاثنين للبت في الأمور وقد تبدو هذه صورة مثالية . ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فقد كان العدد كبيراً وأخذت المناقشات تطول وتنشعب . . . كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا يصل إلى قرارات . وهكذا كانت تعطل الأمور في وقت كنا فيه بحاجة إلى كل يوم وكل ساعة لإنجاز ما لدينا من مشروعات تهدف إلى إصلاح حال البلاد والانتقال بها إلى مرحلة أكثر تقدماً . وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في إحدى الاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديرة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الأسلوب المعوق والبحث عن أسلوب آخر .

كانت حقبلة أراضي العائلة المالكة المصادرة ٧٠ مليون جنيه أنشأها على بناء الوحدات الخجعة والمستشفيات والمدارس في ريف مصر بحيث كنا نبنى ٣ مدارس كل يومين - وأذكر أننا بنينا في سنة واحدة قدر ما بنى في مصر من مدارس خلال ٢٠ سنة .

أنشأنا عند ذاك مجلسين ، أحدهما للإنتاج والآخر للخدمات . . . أما مجلس الإنتاج فقد بدأ عمله بمشروع (كيما) للسماد . . . وعندما تعود في الذاكرة إلى

تلك الأيام . . . أرى أمام عيني المهندس اليوناني الأشعث الشعر ، الزائغ العينين الذي كان يتردد علينا في القيادة بالعباسية في أى وقت وبدون سابق ميعاد . . . كان اسمه على ما أذكر (دانيوس) ، وكان في كل مرة يتنعم مقمرنا بتفوه بعبارات محمومة . . . فحواها دائماً فكرة واحدة . . . وهي أن النيل عند منطلقة أسوان يجب أن يغلق بسد عال .

كان تمسكه بالفكره وإلحاحه عليها - والبريق الذي يشع من عينيه يوحى إلينا بأنه مجنون دون شك ، ولكن التعبير الذي كان يعلو وجهه دائماً لم يدع مجالاً للشك بأنه مؤمن بفكرته إيمان العابد بالله عز وجل . . . مما دعانا إلى أن نكلف مستشار المجلس المرحوم المهندس محمود يونس بدراستها . . . وقد عاد إلينا بعد فترة ليقول إنه بعد الدراسة والمعاينة يرى ابتداء أنها فكرة رائعة ، إذ أثبتت الأبحاث على قاع النيل في تلك المنطقة صحتها وطلب لذلك الموافقة على بدء الأبحاث مع بيوت الخبرة العالمية .

وهكذا نشأت فكرة السد العالي . . . وليلة للإيمان والحماس والبصيرة . . . كما تنشأ عادة كل الأفكار العظيمة .

في سنة ١٩٥٣ بدأنا أيضاً إنجاز مشروع قديم ظل يتلأأ بين حكومات الأحزاب المختلفة ، وهو مشروع كهربية خزان أسوان ، الذي انتبنا منه في سنة ١٩٦٠ مما أعطانا فرصة بدء السد العالي اعتماداً على الكهربية التي زودنا بها .

ولكن لعل المشروع الذي غير وجه المجتمع المصري ، والذي جعل ثورتنا ثورة حقيقية لا مجرد انقلاب عسكري . . . هو مشروع الإصلاح الزراعى . . . فبعد أن ترك على ماهر الحكم في سبتمبر سنة ١٩٥٢ وتولى رئاسة الوزارة محمد نجيب مباشرة كان أول عمل للوزارة الجديدة تحديد الملكية الزراعية بـ ٢٠٠ فدان . وللتاريخ فإن الذى صنع هذا القانون بجميع تفصيلاته هو المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الآن . . . وكان سيد مرعى في ذلك الوقت من نجوم الحزب السعدى اللامعين ، ولكنه على أساس هذا المشروع دخل الوزارة وظل متابعاً له كوزير زراعة ورى ، وكنايب رئيس وزراء ، وهو أيضاً الذى صنع لنا القانونين ، الثانى والثالث للإصلاح الزراعى ، وفي كل

قامت عليه النظرية يقرر غير ذلك بل ويضع الرأسمالية الوطنية كإحدى قوى التحالف الخمس .

وبدأت مرحلة التخطيط الاقتصادى .

وجاءت هزيمة ٥ يونيو بإبعادها المهيمنة .

وبعد أن أفاق الشعب من هول الصدمة بدأ النقد العنيف مرة أخرى ، وفى هذه المرة جاء الانفجار فى فبراير سنة ١٩٦٨ بعد صدور أحكام مخففة على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوى أسباب الهزيمة المهيمنة . . ثم اكتشف الشعب أيضاً أن ما سعى بالميثاق لم يطبق وأنه لم يكن إلا لامتنصاع نكسة الانفصال بين مصر وسوريا وعندئذ أصدر عبد الناصر ما سعى بهد ذلك ببيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ بواسطة نفس الملتفين حوله والذين لم يكن لهم من هم إلا السلطة الديكتاتورية المطلقة لكى يبقوا فى مناصبهم واكتشف الشعب مرة أخرى أن بيان ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ لم يغير من القبضة الديكتاتورية شيئاً وأنه قد أرجأ الدائم الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان وكرس حق الاعتقال وكانوا يظنون أنه سيقودهم إلى الديمقراطية . .

لقد اكتشفوا أن هذا البيان لم يكن إلا لامتنصاع آثار هزيمة يونيو وانفجار الجماهير وكما عانيت أنا من سياسة الامتنصاع هذه بعد ذلك . . فأنا أحب أن أغير . . لا أمنص . . وأن أعالج . . لا أحذر . . وفى نظر الناس أريد أن يكون كل شيء واضحاً كما هو فى نظرى تماماً . . وعندما أبدأ إلى حل بعض المشكلات ، أفعل كل ما بوسعى لكى يكون الحل جذرياً . . لا مؤقتاً . . ولكن الناس طبايع وخصال . .

مثلاً كان من الواضح أن هناك صراعاً داخل مجلس قيادة الثورة منذ أوائل ١٩٥٣ . . وبطريقة الحلول المؤقتة لجأ عبد الناصر إلى تعيين أعضاء مجلس قيادة الثورة فى الوزارة واحداً بعد الآخر ، حتى أنه قبل أن تنهى سنة ٥٣ كان جميع الثوار يحكمون . . ما عدا واحداً هو أنا .

ولكن هل استطاع عبد الناصر بهذا أن يخلق دائرة الصراع حقاً ؟

مرة كان القانسون يهدف إلى المزيد من تحديد الملكية الزراعية . وبطبيعة الحال إلى المزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية .

من الناحية السياسية ، كان لابد نتيجة حل الأحزاب ما بين ٥٢ ، ١٩٥٣ ، أن ينشأ فراغ ، وكان علينا طبعاً أن نملأ هذا الفراغ ، فانشأنا ما يسمى بهيئة التحرير ، وكان شعارنا الاتحاد والنظام والعمل . . ثم تلاها اتحاد قومى أول وبعد ذلك اتحاد قومى ثان ، ثم اتحاد اشتراكى أول وبعده اتحاد اشتراكى ثان ، ولابد أن أقرر هنا أن هذه الصيغ كلها كانت مستعارة من يوغوسلافيا بعد أن توطلدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو ، وكان عبد الناصر يمضى وقتاً طويلاً معه فى المناقشة ويعجب بآرائه .

كانت صيغة الاتحاد القومى بمراحلته تشبه تماماً صيغة اتحاد الاشتراكيين الذى أقامه تيتو بعد أن انتصر فى حرب التحرير بحركة البارتيزان Partisan التى جمعت كل يوغوسلافيا وليس الشيوعيين وحدهم أى كل الأحزاب التى كانت قائمة فى الصرب ومختلف جمهوريات يوغوسلافيا الخمسة مع بقاء عصابة الشيوعيين كنواة لهذا الاتحاد .

ثم عدل عبد الناصر بواسطة مؤتمر قومى عقد بعد انفصال سوريا والنكسة التى سببها فى مصر والتى حفزت الشعب على النقد العلنى العنيف إلى صيغة الاتحاد الاشتراكى الذى يقوم على تحالف قوى الشعب العامل وهى خمسة كما أقرها المؤتمر عندما تقدم بها عبد الناصر فيما سعى بالميثاق . وهذه القوى هى الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والرأسمالية الوطنية .

ولم يكتب لهذا الاتحاد الاشتراكى النجاح كما حدث من قبل للاتحاد القومى فهو ببساطة صيغة الحزب الواحد فى الحالتين .

وزاداد الحالة سوءاً عندما أصبح الاتحاد الاشتراكى (الحزب الواحد) أداة سيطرة كاملة حتى على أرزاق الناس . . حين استعار الملتفون حول جمال والذين يفلسون له الماركسية كأسلوب فبدأ فرض الحراسات والمصادرة والاعتقال ومنع النشاط الخاص بحجة ضرب الرأسمالية مع أن الميثاق الذى

في سنة ١٩٥٤ وصل الصراع إلى مرحلة عنيفة ، خاصة بين وبين محمد نجيب . . بيننا وبين الأحرار المسلمين وبعض فلول السياسيين الذين ألتفوا حول نجيب ، ظنوا أنهم يستطيعون أن يهتفوا شيئاً .

في مارس من تلك السنة كان الصراع قد طغى على السطح بحيث أصبح لا يمكن تجاهله فاجتمعنا في مجلس الثورة ، وأعلننا النخبة ، وتوالى الأحداث خلال بضعة أيام عدل بعدها مجلس الثورة عن النخبة . .

تصور الصراع قسماً إلى جانب محمد نجيب خالد محي الدين - وهو شيوعي ماركسي - حاول أن يستخدم سلاح الفرسان تحت ستار عودة الديكتاتورية والأحزاب معتقداً بذلك أنه يستطيع فرض ديكتاتورية اليسار تلك التي تحيل البشر إلى عجالات في آلة ، لا هم لها إلا طلعن الإنسان ، والقضاء عليه وسلبه أنخص مقوماته التي خلقها له الله سبحانه وتعالى . .

فضينا على فترة الفرسان وتكفل الضباط الأحرار بالكشف عن مزايدات المرائيين من الضباط والسياسيين ، وأفلنا محمد نجيب ثم أعدناه بعد ذلك . وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا المفاوضات مع بريطانيا من أجل الجلاء عن القناة . وصاحبت المفاوضات حركة مقاومة ضد الإنجليز في القناة . ورغم هذا كله حاولت كل العناصر المضادة للاستقلال الانشقاق مع محمد نجيب ليس في نجيب وتأييداً له بل في محاولة لإنهاء الثورة وتسليم السلطة . فكانت مظاهرات الأحرار وهي تجوب شوارع القاهرة وتتوجه إلى قصر عابدين ، يحمل أفرادها مناديل ملطخة بالدماء وينادون بسقوط الثورة .

لم يكن هناك بد إزاء كل هذا من حسم الوضع مع نجيب فعزلناه نهائياً في أكتوبر ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا في نفس الشهر تلك الاتفاقية التي أنهت الاحتلال البريطاني لمصر لأكثر من خمسة وسبعين عاماً .

كان عبد الناصر رئيس وفد المفاوضات ، وكان قد وصل مع الإنجليز إلى أنهم على استعداد للجلاء عن القاعدة خلال ٢٤ شهراً ، على شرط أن يحتفظوا بمخازن و ١٢٠٠ خبير من المدنيين ، يتم انسحابهم بعد ٧ سنوات ، وتصبح المخازن وكل ما بالقاعدة ملكاً لمصر ، وجزء لا يتجزأ منها . .

جمعنا عبد الناصر في استراحة الحرم . وعرض علينا المشروع بأكمله وطلب من كل منا رأيه مسجلاً .

طبعاً كانت هناك معارضة من بعضنا . مجرد مزايدات وصراعات كالعادة ، أما أنا فكنت مذهولاً لما يحدث ولذلك عندما جاء دوري لإبداء الرأي انفجرت قائلاً : -

« أنا موافق على المشروع بدون مناقشة - فما الذي يمكن مناقشته ؟ ١٢٠٠ خبير ليسوا عسكريين وتحت حراستنا نحن المصريين ؟ هل هذا يحجبنا ؟ فليكونوا عشرة آلاف خبير - وليبقوا بدلاً من السبع سنوات عشر - ما قيمتهم وقد حصلنا على استقلالنا وأصبحت إرادتنا حرة ؟ أى سياسى أبله يرفض هذا الحل لمشكلة عمرها فوق الخمسة وسبعين سنة ؟ » .

وقعنا اتفاقية الجلاء في أكتوبر ٥٤ وهكذا وضعنا أقدامنا على أول طريق الاستقلال . . وكنا قبل ذلك قد وافقنا على حق تقرير المصير للسودان فيما الاستقلال أو الاتحاد مع مصر ، وقبل الموعد المحدد انسحبنا وتركنا السودان يقرر مصيره بنفسه مما اضطر لإنجلترا أن تحذو حذونا فقال السودان استقلاله قبل أن يتم جلاء الإنجليز عن مصر .

٦

كانت فترة الانتقال ما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، فترة مليئة بالأحداث الهامة التي يمكن اعتبار أغلبها بمثابة نقط تحول في تاريخ مصر والثورة . . فكما رأينا وقعنا اتفاقية جلاء الإنجليز عن مصر في أكتوبر ١٩٥٤ وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندي بريطاني ورفع علم مصر على القاعدة البريطانية بالقناة بعد كفاح ونضال يزيد على الخمسة وسبعين عاماً .

في هذه الفترة أيضاً عزلنا محمد نجيب ، وبذلك تخلصنا من الصراعات التي حاول السياسيون المحترفون استغلالها لعودتهم ، وجنبنا البلاد آثارها ، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس قيادة الثورة في نفس الوقت ، وبهذا تركزت السلطة كاملة في أيدي من قاموا بالثورة .

ورغم عزوفى فترة طويلة عن أى منصب تنفيذى إلا أننى دخلت الوزارة التى شكلها جمال فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ كوزير دولة بعد أن بقيت أكثر من سنة العضو الوحيد الذى لم يتقلد منصباً وزارياً وكان جمال يصف هذا الموقف ببنى وبينه بأننى رجل الداورية الذى يبقى فى الخارج لكى يضمن سلامته وهو تعبير عسكرى عندنا Get Away Man

ومن أهم ملامح تلك الفترة أيضاً ، حلف بغداد الذى نادى به مستر إيدن بعد وقت قصير من اتفاقية الجلاء بدعوى أن منطقة الشرق الأوسط قد نشأ بها فراغ لابد من أن يملأ . . . وقد انضمت إلى الحلف كل من تركيا والباكستان والعراق . . . كان موقف الثورة من الحلف معادياً بطبيعة الحال فكيف تقبل أن تنضم إلى حلف كهذا فى حين أن من سبقونا قد رفضوا إقامة اتفاقيات ثنائية ، ثم نحن قد نخلصنا من الاحتلال البريطانى بمعاهدة الجلاء فكيف نرضى أن نرتبط مصر بعجلة بريطانيا أو بأية قوة أجنبية مرة أخرى ؟ .

ولم تقتصر مناومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه بل شملت جهودا مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان وفعلاً نجحنا فى ذلك . . . مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزنا إلى إسرائيل بالانتقام منا - وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول فى تاريخ مصر والثورة والمنطقة ودول العالم الثالث لأنه جعلنا نشعر بحاجتنا الملحة للسلاح - مما أدى فى النهاية إلى عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهرو وشواين لائى كما أسلفت لاقناع روسيا بذلك . . . وقد كان لهذا أثره فى كسر الحاجز وإذابة الثلوج بيننا وبين السوفييت ، كما كان من العوامل الفعالة فى رفع الروح المعنوية لدول العالم الثالث التى شعرت بأن هناك من يمكن أن تلجأ إليه لاسترداد إرادتها من قبضة الاستعمار الذى ظل جائماً فوق صدورنا قروناً طويلة حتى ولو كان طريقها إلى ذلك هو طريق البيع والشراء . . .

من أهم إنجازات تلك الفترة على المستوى العالمى والحقلى مؤتمر باندونج الذى كان أول مؤتمر دعم دول عدم الإنحياز وجعلها قوة ثالثة يحسب لها

حساب وفى نفس الوقت الملاذ الوحيد الذى تلجأ إليه الدول الصغرى ومثلها الأعلى الذى تحذو حذوه . . . أما بالنسبة للأثر الحلقى لمؤتمر باندونج فقد أضاف الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذى استطاع أن يقف جنباً إلى جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشواين لائى وأن يستحوذ على اعجابهما رغم أنه كان فى ذلك الوقت دونهما بكثير سناً وتجربة .

٧

أين كنت أقف من أحداث تلك الفترة ؟ إلى أى مدى شاركت فيها وكيف كنت أنظر إليها ؟ .

فى ديسمبر ١٩٥٣ ، انشأت جريدة الجمهورية وتوليت رئاسة تحريرها وكانت تعتبر لسان حال الثورة ، وقد قامت بدور ملحوظ فى إحباط حلف بغداد . . . ورغم عزوفى عن السلطة فترة طويلة ، إلا أننى قبلت العمل كوزير دولة فى الوزارة التى شكلها عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٤ تضامناً معه فى دفع عجلة الأمور . . . وفى يناير ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامى وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لى زيارة بلاد المنطقة لجمع شمل الدول العربية والإسلامية ، وكذلك العمل من أجل تحقيق أهداف سياسية وقومية تخدم قضايانا . . . فلست أبالغ إذا قلت إننى قمت بدور فعال فى إحباط حلف بغداد . . . فى الأردن مثلاً . . . تسنى لى إقناع الملك بعدم الانضمام إلى الحلف . . . وكان من الآثار الجانبية لهذا طرد جلوب باشا قائد عام الجيش الأردنى البريطانى الجنسية . . . بقرار من الملك حسين .

وفى لبنان التقيت بالرئيس شمعون ونجحت فى إبعاد لبنان عن الحلف معتمداً فى ذلك على العداء القديم المستحكم فيما بين شمعون وعائلته من ناحية وبين الأتراك من ناحية أخرى . . . وفى بغداد اجتمعت مع نورى السعيد لمحاولة اقناعه بالعدول عن الإشتراك فى الحلف . . . ودام اجتماعنا طويلاً فما كان من الدهاية إلا أن أبلغ الصحفيين أن أنور السادات مجتمع به للتفاوض بشأن دخول مصر حلف بغداد . . . فعندما انتهى الاجتماع وخرجت فاجأتى الصحفيون

بهذا انقهر - فقلت إن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق وإن هذه حيلة من حيل نوري السعيد المعروفة عنه .

هكذا كان موقفي من أحداث سنوات الانتقال .. ولكن هل تكتمل بهذا صورة تلك الفترة من حياتي ؟ لا أعتقد .. فهناك جانب من الصورة لا تكتمل بدونها رغم أنه قائم اللون .. ألا وهو الصراع الداخلي بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي تكشف واحتدم بعد عزل محمد نجيب والشعبية التي نالها عبد الناصر في مؤتمر باندونج .

أذكر مثلاً أنه في غياب عبد الناصر أناب عنه جمال سالم وكان رحمه الله حاد المزاج .. عصبياً إلى حد غير طبيعي .. غير متزن في جميع نواحي شخصيته .. فلما وجد الناس منصرفاً عنه لسوء معاملته ، بدأ يثير الممارك هنا وهناك .. وفي كل مجال .. إلى أن عاد عبد الناصر فازدادت الممارك حدة خاصة وأن جمال سالم في غياب عبد الناصر كان قد اتخذ إجراء ما ضد عم عبد الناصر .. وكانت لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله .. فكان يكنى أن يبلغه أن أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور في المعتقل ويتخذ ضده من الإجراءات ما يحلو له .. وهذه إحدى نقاط الضعف التي كان يستغلها فيه أصحاب مراكز القوى وأتباعهم لينالوا حظوة عنده ، وفي نفس الوقت يناوون من أعدائهم .. وفي رأي أن عبد الناصر كحاكم كان يجب أن يدرك أن هذه هي طبيعة الحكم وطبيعة البشر أيضاً .. والحكمة العربية تقول إن نصف الرعية ضد الحاكم - هذا إن عدل ! ، وهذا في رأي أمر طبيعي .. فالحاكم هو الوحيد الذي على المسرح .. كل الأنظار تتجه إليه ولا نرى سواه ولذلك فكل من لديه مشكلة أو أمر ينغص عليه حياته أو حتى يعكر مزاجه ولو قليلاً لابد وأن ينسبه إلى الحاكم حتى ولو كان الحاكم أعذل الناس وأبعدهم عن مسئولية ما تشكو منه الرعية فما بالك إذا كان الحاكم كعبد الناصر - قد جمع زمام الأمور كلها بين يديه فأصبح في نظر الناس - ولعلهم على حق - الممثل الوحيد عن كل ما يصيبهم ؟

أنا شخصياً على نقیض تام من عبد الناصر في هذه الناحية . بل إنني في وقت من الأوقات راودتني رغبة شديدة في أن أقول للناس : بما أنني قد ألغيت بالنسبة

لكم المعتقلات إلى الأبد وأعدت سيادة القانون فأرجو أن تمتحسوا رئيس الجمهورية الحق في أن يعتقل أهله .. وأهله فقط .. صحيح أن نشوة الحكم والمظهر لا تدبر رأسي إطلاقاً ولكن من يضمن لي أنها لا تدبر رؤوس أهلي وأقاربي يظلمون الناس من حيث لا أدري ؟ .. ومن هنا كان أمر الاعتقال الوحيد الذي أصدرته طوال مدة ولايتي خاصاً باعتقال شقيقي الأكبر وهو من ساعدني ووقف من خلقي في السجن والمعتقل وجميع الأزمات التي مرت بي ..

ليس معنى هذا أنني أتكرر لأهلي أو لا أدين لهم بالوفاء فهذا يتنافى مع قيم الأسرة التي نشأت عليها والتي ما زالت تسري في عروقي وتشكل وجداني كما لا يشكله أي شيء آخر .. على العكس فإن إيماني بهذه القيم يزداد يوماً بعد يوم .. حتى أصبحت أرى في التمسك بهذه القيم الخلاص الوحيد للمجتمع لا كأسر متفرقة بل كأسرة واحدة كبيرة .

أذكر أنني في إحدى جولاتي في المنطقة كسكرتير عام للمؤتمر الإسلامي زرت الهند وكان ذلك قبل انعقاد مؤتمر باندونج بفترة قصيرة .. واستقبلني نهرو استقبالا ودياً خالصاً وأقام حفل استقبال تكريماً لي .. وقدم لي ضمن من قدم من ضيوفه نائباً في البرلمان الهندي وزوجته وهي أيضاً نائبة مثله وكلاهما شيوعى ومن أشد المعارضين ل نهرو - هذا ما كنت أعلمه علم اليقين فقد سبق أن تعرفت بهما في القاهرة ونشأت بيننا صداقة ولذلك ذهلت عندما رأيت الرجل يقبل نهرو من خديه ونفس الشيء فعله زوجته من بعده . لم يكن نهرو يعلم أنني أعرفهما فقال لي مداعباً وهو يشير إليهما « كن على حذر يا مستر سادات فهما شيوعيان وأرجو أن لا يتمكننا من بلشفتك »

قالها بروح أبوية خالصة وهو يتسم في ساحة وحب فضحكا وقالاً بنفس روح المحبة واحترام الأبن لأبيه : -

- « لا بأس ولكننا نتردد عليك في البرلمان » .

أخذت بما رأيت وسمعت ، فلا شيء يستطيع أن يستولى على أو يأمرني بالفعل مثل الجمال .. وقد كانت الصورة جميلة بكل ما تحمل من حب ولغات إنسانية وقيم نشأت عليها في قريتي الصغيرة .. حيث الكل عائلة واحدة

يحترم فيها الصغير الكبير مهما اختلف معه في الرأي لأنه كبير العائلة . . وبالمثل
يقود الكبير الصغير ولا يغصب منه إذا اختلف معه لأنه أولا وقبل كل شيء .
أب ولا يمكن للأب أن يتخاصم مع ابنه .

خرجت من الاستقبال ذلك اليوم وأنا في قمة السعادة بالصورة الجميلة
التي رأيته والتي ظلت عالقة بوجداني تسعدني كلما استدعتها . . إلى أن وصلت
مصر . . فإذا بكل شيء على نقيض تام مع صورتي الجميلة . . صراع وتشاحن
لا على شيء معين بل على كل شيء مهما بلغت تفاهته . .

لم أشترك طبعاً في هذه المشاهدات - فقط كنت أراقبها من برجى العالى وأسخر
حيناً وأدهش حيناً آخر ولكنني في جميع الأحيان كنت أنالم لها . .

آه للنفس البشرية ما أضعفها وأنفها عندما تطفئ المصلحة الشخصية فتحجب
عنها رؤية الأشياء على حقيقتها . إنهم يحقدون على عبد الناصر لأنه قد حقق
نجاحاً كبيراً في باندونج وارتفعت مكانته في عيون العالم . . أليست مكانته
هي مكانة مصر ؟ ونجاحه أليس نجاحاً لنا جميعاً ؟ ولكنهم لا يصرون . .
بعنوان : الحبيب العائد كتبت مقالاً صغيراً بجريدة الجمهورية بمناسبة عودة
عبد الناصر من باندونج . . ولو أعاد التاريخ نفسه وتكررت نفس الظروف
لنعمت ما فعلت مرة ثانية - فنكوبني الأسامي قوامه الحب ولذلك عندما ألجأ
إليه ارتاح وأجد الحل لأية مشكلة وعندما يبتعد عني يختل توازني ويستولى على
إحساس بالعجز مرير . . ومن هنا كانت قوتي لا تتجلى بأكملها إلا من خلال

بهذا التكوين الذي فطرت عليه - وبالصورة الجميلة التي عدت بها من
عند هرو من الهند . . وفي جو الخقد والصراع على السلطة الذي سيطر بشكل
واضح على مجلس قيادة الثورة في سنة ١٩٥٥ أصبح من الصعب على أن أحفظ
بمركز المنسرج من البرج البعيد كما اعتدت . . فقد ضاقت نفسي بما ترى
من صراعات لا تكف لحظة ولا تنتهي . فكبت استغالي وقدمتها لإخواني بمجلس
القيادة ونقلتها إليهم اللوحة الجميلة التي شاهدها بالهند عسى أن يتعلموا . .

كانت هذه هي الاستقالة الثانية بعد استقالة سنة ١٩٥٣ .

والآن وأنا أعيش تلك الأيام البعيدة في ذاكرتي مرة أخرى . . أستطيع أن
أرى بكل وضوح أن الاستقالة الثانية كانت مثل الأولى تتبع من نفس المنبع فكلاهما
احتجاج صريح على جو الصراعات الذي كان يورد المجلس وهما في نفس
الوقت دعوة لا تفل صراحة إلى تصحيح مسار الثورة بعد أن بدأت الاحتاد
تعصف بها وتحرفها عن أهدافها التي قامت من أجل تحقيقها . .

كان التنصاع على السلطة قد صرف الاهتمام ولو جزئياً عن مصالح الشعب .
مما أدى إلى إشاعة جو يصعب فيه التمييز بين من يصلح ومن لا يصلح . فأصبح
الإنسان يؤخذ بحرم غيره أو بدون جرم على الإطلاق . . وكانت الإشاعات
وحدها كافية للقضاء على أي إنسان . . وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقاد
القادة بأن لهم الحق في أن يفرضوا على البلد ما يشاؤون بحجة المستقبل العادل . .
ولم لا . . أليس هم الذين صنعوا الثورة ؟

كان من الواضح أن نشوة الحكم قد بدأت تلعب برووسهم فقسموا البلاد
إلى مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب وأصدقاء . . ومن الأمثلة
الحية على ذلك . . مثال وزارة الخارجية التي جنت الثورة عليها . . فقد اتخذها
عبد الحكيم عامر مقراً يرسل إليه الضباط المتقاعدون حتى يتسنى لهم أن
يتمسوا بها سن الماش الخاص بالمدينين وهو سن الستين .

على هذا المنوال سارت الأمور في كل اتجاه ، فليست العبرة بما يفيد البلاد
بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام . . وهكذا
فقدت القيم واستولت الخيرة على الناس فأصبحوا لا يعرفون ماذا سيأتي به
الغد أو كيف سينتهي اليوم . .

انتهى مجلس الثورة في ٢٢ يونيو ١٩٥٦ ، عندما انتخب جمال عبد الناصر
رئيساً للجمهورية بالاستفتاء . . ولكن قبل أن ينتهي المجلس كان الشعور بالخوف
قد عم البلاد . . وهذا في رأي أبشع ما يمكن أن يصيب الإنسان . . فالخوف
يقتل الشخصية ويشل الإرادة ويمسح تصرفات البشر .

هل كان أعضاء مجلس الثورة يدركون ما فعلوا بشعب مصر ؟ لا أعرف . .
ولكن الذي أعرفه أن الشعب كان يدرك تمام الإدراك ما يفعله حكامه به

وبأنفسهم . . وليس أدل على ذلك من النكتة التي انتشرت في تلك الأيام عبر البلاد معبرة أحسن تعبير عن رأى الشعب في قاداته . .

« كان فيه مرة تغلب عدلى الحدود ودخل ليبيا - مسكوه هناك وقالوا : أنت حارس هنا ؟ فقال لهم : نعم : انضمم في مصر بيمسكوا الجبال . . فقالوا له : لكن أنت تغلب . . قال لهم : حتى على ما يعرفوا انى تغلب . . »

نقلت إلينا النكتة ونحن في مجلس الثورة فضحكنا طويلا . . وكان الأجدر أن نعي ما تتضمنه من إهانة الشعب لنا . . فتدبر أمورنا قبل فوات الأوان . . ولكن هل كان هذا في الإمكان بعد أن تغلبت العوامل البشرية على المثالية التي بدأت بها الثورة فحجبت الرؤيا حتى عن ذاتنا ؟ لا أعرف . . ولكن الذي أعرفه جيداً هو أنني كنت سعيداً بانتهاء مجلس قيادة الثورة - ولذلك هرعت إلى عبد الناصر صبيحة اليوم التالي لانتخابه رئيساً لأطلب منه عدم اشتراكى في الحكومة التي كان يصدد تشكيلها . . ومع ذلك فانا تحت أمره في أية مشورة أو رأى . . فنحن أصدقاء وسنظل دائماً كذلك . .

لقد ضقت بما شهدته من صراعات على مدى أربع سنوات كانت حملاً ثقيلاً نامت تحته نفسي حتى كادت تنحطم . . هكذا اكتشفت فيما بعد . . فحيث لا يوجد الحب لا مكان على الإطلاق لي .

الفصل السادس

عجز القوة

بانتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهورية في ٢٢ يونيو سنة ٥٦ حل مجلس قيادة الثورة وأصبح عبد الناصر الممثل الأول والأخير عن مصر سواء من ناحية السيادة الداخلية أو السيادة الخارجية . .

في ١٩ يوليو من نفس السنة أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصري وتراجع أمريكا والبنك الدولى عن تمويل السد العالى ، وفي ٢٣ يوليو شارك في الإحتفالات بذكرى قيام الثورة شيبولوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى . . وكان وقتها نجماً صاعداً في سماء الاتحاد السوفيتى واتصل بعبد الناصر ليعلن استعداد السوفيت لتنفيذ السد العالى . .

رفع هذا روح عبد الناصر المعنوية بينما كان يستعد للسفر إلى الإسكندرية للإحتفال بذكرى ٢٦ يوليو كعادته فاتصل بى في صبيحة ذلك اليوم يدعونى للسفر معه . . حيث كان ينوى إلقاء خطابه في ميدان المنشية . . كنت مريضاً بنزلة معوية حادة فاعتذرت له . . فقال - ه ما دام الأمر كذلك أرجو أن تستمع إلى خطابى في الراديو . .

قلت له طبعاً سأفعل ، واندحشت لطلبه ، فقد كان أمراً طبيعياً أن أستمع إلى خطابه دون أن يطلب منى ذلك . فما الذى جعله يطلب هذا الطلب الغريب ؟ لم أعر الأمر كثيراً من الاهتمام إلى أن جاء وقت الخطاب . . ففتحت الراديو وجلست إلى جواره . . كان خطاباً طويلاً كالعادة ولم يكن به شيء يلفت النظر إلى أن جاء نصف الخطاب تفسرياً . . فسمعته يتحدث عن (فرديناندى دى ليسبس) . . ساعتها أدركت ماذا ينوى فعله . . ولم تحض دقائق

بعد ذلك حتى تحقق ما أدركت . . فقد سمعت عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس رداً على جون فوستر دالاس . .

حقيقة أنني شعرت بالفخر . . فيها هي مصر الدولة الصغيرة ترفع صوتها أخيراً لتحدى أكبر قوة في العالم . . كانت هذه نقطة تحول في تاريخ ثورتنا بل وفي تاريخ مصر بأكمله . . فقد أحدث القرار دويماً هائلاً في خارج مصر ودخلها وأصبح عبد الناصر منذ تلك اللحظة بطلاً أسطورياً من أبطال الشعب المصري الذي كان تواقاً إلى أن يرفع رأسه ويشعر بذاته بعد ما ذاقه من هوان وقهر على أيدي الاستعمار البريطاني طوال قرن تقريباً .

في اليوم التالي استقل عبد الناصر القطار عائداً إلى القاهرة فوجد الشعب المصري كله في استقباله - ذهب إلى مجلس الوزراء ومن الشرفة هناك التي خطباً زادار الحماس اشتعالاً . . ودخل بعد الخطاب مكتبه فقلت له : اسمع يا جمال .

قال : نعم

قلت : أنت ما قتلش على هذا القرار وأنت خلاص أخذته . . لكن أنا عاوز أقول لك حاجة .

قال : إيه ؟

قلت : لو سألتني كنت حاقول لك حاسب . . لأن هذه الخطوة معناها الحرب واحتمل جاهزين . . دا احنا له واخذين السلاح من روسيا - في سبتمبر من السنة الماضية (١٩٥٥) انعقدت الصفقة ولم يبدأ التوريد إلا في أكتوبر ونوفمبر ولسه ما اندريناش عليه بالقدر الكافي ، لأن كل تدريبنا كان إنجليزي غربي . . فلم يأت الوقت بعد الذي يسمح لنا بتغيير العقيدة العسكرية بتاعتنا من غربية إلى شرقية . . لو كنت سألتني عن رأيي كنت حاقول لك حاسب يا جمال . . ولكن بما أنك أخذت القرار خلاص فيجب أن نفق جميعاً إلى جانبك وأنا أولهم . .

وفعلاً من يوم ٢٧ يوليو أخذت أهاجم في مقالاتي بحريدة الجمهورية دالاس وأمريكا بصرارة وعنفت . . الإتحاد السوفيتي سعد بكل هذا أعظم سعادة

لأنه وجد من يحارب له معركته - من يوقظ له دول العالم الثالث والمستعمرات - بينما لم يدفع السوفييت مقابل هذا كله إلا أسلحة يتقاضون ثمنها بالكامل . . ويبدو أن الإتحاد السوفيتي استمر هذا فقد دأب على أن نحارب نحن معركته في كل مكان ، وهو يعطينا السلاح ويأخذ ثمنه - دون أن يخسر شيئاً . . بل كما تبين فيما بعد كان هو الرابع أولاً وأخيراً . . فالسلاح الروسي أعلى من السلاح الغربي لأن عمرة كل من سلاح من سلاحه من ١٠ إلى ١٥ سنة بينما سلاحنا من ١٠ إلى ١٥ سنة يتقاضاها السوفييت لاتضح لما أن السلاح الغربي أرخص على المدى الطويل

سمع إيدن بخبر تأميم القناة أنشاء مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك العراق ونوري السعيد رئيس وزرائها ففرض المأدبة وبدأ يتصل بنبي موليه في فرنسا وبين جوربون في إسرائيل - في ذلك الوقت كان الإنجليز قد جلسوا عن القناة ، ولكن نصف أسهم القناة كانت ملك الإنجليز والنصف الآخر لفرنسا . .

لم يكن هذا وحده الذي أعاظ إيدن فالموقف الذي اتخذه عبد الناصر بعد أن أفسد عليهم حلف بغداد ثم قام بتأميم القناة لم يكن من السهل على (إيدن) بعقليته الاستعمارية التقليدية أن يتقبله . . فاتفق مع جى موليه وبين جوربون على استخدام القوة ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك . . بل قاموا بمحاولات متعددة مثل المؤتمر الذي عقده إيدن في لندن وجمعية المتفعبين وغير ذلك . . إلى أن أحيل الموضوع في النهاية إلى الأمم المتحدة . . واتفق على أن يجتمع الدكتور محمود فوزى وكان في ذلك الوقت وزير خارجيتنا مع وزير خارجية إنجلترا سلوين لويد وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا سوياً الحل السلمي والتعويضات المالية . .

لم يحدث طبعاً شيء من هذا ، إذ أن يوم ٢٩ أكتوبر كان هو اليوم الذي اختاره إيدن وجى موليه وبين جوربون لتنفيذ خطتهم . . وفعلوا هاجمت إسرائيل سيناء وأطلقت صفارات الإنذار في القاهرة في آخر ضوء يوم ٢٩ أكتوبر (الذي كان محددًا للتسوية السلمية في الأمم المتحدة ١) وكان عبد الناصر في بيته فطلع إلى سطح المنزل وشاهد بنفسه الطائرات وهي تقصف مطار المازة القريب

من منزله وهي تحمل علامات إنجليزية وفرنسية - فأدرك عبد الناصر أن المؤامرة قد تمت . . . وذهب إلى القيادة في مساء نفس اليوم وأصدر أمره بانسحاب قواتنا فوراً من سيناء تهادياً للفتح الذي كانت مستتعة فيه . . . إسرائيل في المواجهة في سيناء والإنجليز والفرنسيين من الخلف . . . ونفذ الأمر بمنتهى الدقة وعلى مدى ثلاثة أيام . . . بحيث حفظ لنا أكثر من ثلثي قواتنا المسلحة . . . ولذلك يجب أن نذكر هذا القرار لعبد الناصر كقرار عبقرى - صحيح أن جميع طائراتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهي ما تزال على الأرض - وكنا قد اشتريناها من الاتحاد السوفيتي منذ أقل من سنة ونعزى بها غاية الاعتزاز . . . ولكن لم يكن عبد الناصر أو غيره يستطيع أن يفعل شيئاً وقد باعتنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان والفساد الذي وصفته بأنه قذر في مقالتي في جريدة الجمهورية إذ سرود إلينا في نفس اليوم الذي اعتدوا فيه على مطاراتنا .

كانت مدة الإنذار ١٢ ساعة وقد أحدث بلبلة عند بعض السياسيين القدامى في مصر . فقرروا أن يتجمعوا فيرسلا رسالة إلى عبد الناصر لإقناعه بقبول الإنذار تحت شعار إنقاذ ما يمكن إنقاذه . . . سمع عبد الناصر بهذا فأرسل في طلب ثنية صرب تار من الخمرس الجمهورى ووقفت في ساحة مجلس الوزراء ونقم أن يقدم رمية بالرصاص أى إنسان باقى ليقترح عليه قبول الإنذار .

شعاً كانت الخطوة التالية أن أعلن عبد الناصر على العالم رفض مصر للإنذار البريطاني الفرنسي وتصميمها على القتال وليكن ما يكون . . . وكان ذلك في خطاب القاد في الأزهر يوم ٢ نوفمبر . . . والشعب كله ملتف حوله بعد ذلك إليه في غربة مكشوفة . . . وفي نفس اليوم كان الشعب الإنجليزي يضرب وزير رئيس وزراء بريطانيا (١٠ داوننج سترى) بالطوب والحجارة احتجاجاً على العمل الملائع الذي قام به .

بعد رفض الإنذار أرسل عبد الناصر في طلب سفير أمريكا رايموند هير وبعث رسالة لأيزنهاور يقول له فيها : . . . « أرجو أن تتكفل أنت بحلفائك بريطانيا وفرنسا واترك لي أنا إسرائيل أتكفل بها » . . . رد إيزنهاور وقال إنه سيفعل كل ما يمكن فعله . . .

ونحن في أوج المعركة بين يومى ٢٩ أكتوبر و ٢ نوفمبر ١٩٥٦ كان شكرى القوتلى رئيس سوريا في ذلك الوقت في زيارة رسمية للإتحاد السوفيتى فتحدث إلى الزعماء السوفيت بشأن معركة القناة وطلب منهم مد يد المساعدة لمصر ، ولكن السوفيت تخاذلوا تخاذلاً تاماً . . . فأرسل القوتلى إلينا بذلك ونصحنا بالاعتماد على أنفسنا فلا أمل إطلاقاً في السوفيت - وهذا ما جعلنى منذ تلك اللحظة أؤمن بأن من يتغلى بالسوفيت فهو دائماً مكشوف - وفي ٥ نوفمبر تدخل أيزنهاور وطلب من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل الانسحاب فوراً . . .

عندما علم السوفيت باستجابة هذه الدول لطلب الرئيس الأمريكى أرسلوا الإنذار المعروف باسم خروشوف وبولجانين إلى إنجلترا وفرنسا . . . والذي لم يكن في الواقع إلا مجرد استعراض عضلات ومحاولة للظهور بمظهر المتفرد . . . مع أن الذى أنقذ الموقف حقيقة كان أيزنهاور فقد استجاب لأوامره كل من إنجلترا وفرنسا فانسحبتا في ٢٣ ديسمبر سنة ٥٦ وتلتهما إسرائيل في مارس سنة ٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل في ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً في الكنيست ضم سيناء وإعطاء اسم جديد لشم الشيخ مما جعل بن جوريون يقول مقولته المشهورة « لا بد من الخوف مما لا بد من الخوف منه » . . . يعنى أمريكا بطبيعة الحال . . . فلم يكن في استطاعة إسرائيل أن تنقذ تأييد أمريكا وهي القوة العظمى في العالم . . .

وهنا يجب أن نتوقف للعودة إلى الوراء قليلاً حتى نتبين خط إسرائيل منذ أن نشأت. فقد كانت دائماً الاستناد إلى القوة العظمى في العالم في أى وقت من الأوقات . . . كانت بريطانيا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية هي القوة العظمى في العالم ولذلك استندت إسرائيل إليها ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تعهقت بريطانيا وفرنسا وتقدمت أمريكا فأصبحت القوة الأولى . . . ولذلك نجد بن جوريون يلجأ إلى نقل نشاط الحركة الصهيونية كاملاً إلى أمريكا - بل ويسعى جاهداً إلى أن يفرد بتأييد أمريكا فلا يسمح للعرب بأن تكون لهم صداقة قوية مع أمريكا . . . كما حاول أن يبنى سياسته بعد قيام ثورتنا على ضرورة الإيقاع بين مصر وأمريكا . . . ولذلك انزعج بن جوريون عندما وطننا علاقتنا بأمريكا

في بداية الثورة كما رويت . . فاتفق مع لافون وزير الدفاع في حكومته على عملية سرية وهي أن يرسلوا إلى مصر بعض العملاء ليضربوا المصالح أو المراكز الأمريكية في مصر . . وفعلاً حدث في سنة ٥٣ اعتداء على سينما مترو الأمريكية بالقاهرة والتفجيرية الأمريكية في الاسكندرية . . ولكن البوليس المصرى تمكن من الإمساك بالجنّة وكانا شابين من شباب إسرائيل اعترفا بالمؤامرة فحوكما ولكنهما انتحرا في السجن وهما في انتظار حكم الإعدام . . وكانت فضيحة أبلغنا بها الأمريكان . وقد اختلف لافون مع بن جوريون بعد ذلك واستقال بفضيحة تعرف في التاريخ الإسرائيلي بفضيحة لافون .

كان على عبد الناصر أن يتعلم درساً مما حدث فيلزمك أن استراتيجية إسرائيل هي أن تكون على خلاف مع أمريكا . . ولكنه بدلاً من أن يفعل ذلك فعل العكس تماماً فنجده بعد عدوان سنة ٥٦ يشيد بالإنذار الروسي وينسب إلى السوفيت كل شيء ويهمل الإشارة إلى قرار أيزنهاور بالانسحاب رغم ما في هذا من خباقة للحقيقة : فالذي جعل هزيمة تنقلب إلى نصر كان القرار الأمريكي وليس الإنذار الروسي . . هذا إلى جانب أن عبد الناصر وهو الرجل السامي الخوف : كان عليه أن ينتهز هذه الفرصة لتوطيد العلاقات بين مصر وأمريكا - ولو من باب ضرب استراتيجية إسرائيل التي كانت تسعى إلى العكس .

ولكن هكذا كان عبد الناصر . . تختلط عليه الأمور ويفقد البصيرة وخاصة لأنه كان يتأثر جداً بتحليلات المحيطين به والذين لم يكونوا شرفاء في تقديم النصيح له فقد كان كل همهم أن يضحكوا ذات عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم

٢

إلى يوم ٢١ ديسمبر سنة ٥٦ كانت المعاهدة المصرية البريطانية ما زالت قائمة . . كنا قد قمنا أثناء المعركة بوضع الخبراء الإنجليز البالغ عددهم ١٢٠٠ تحت الحراسة وأصبحوا معتقلين . . وكانت المعاهدة تنص على بقاء الخبراء بالقناة لمدة سبع سنوات ونصف ابتداء من عام ٥٤ وهو تاريخ عقد المعاهدة .

انسحبت القوات البريطانية المعتدية في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ بناء على أوامر أيزنهاور وفي أول يناير سنة ٥٧ أعلن عبد الناصر سقوط المعاهدة المصرية البريطانية وانتهى بذلك ما علينا من التزامات وأصبح الخبراء أمري فيبادلتهم بعد ذلك في عملية تبادل الأسرى بيننا وبين بريطانيا - وفي نفس اليوم أعلن عبد الناصر قراراً آخر أهم من القرار الأول وهو تخصيص الاقتصاد المصرى كرد فعل للتخريب الذى أحدثته الغارات الجوية البريطانية والفرنسية . . كانت هذه ضربة كبرى فإلى ذلك الوقت كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أى أوروبية بصورة أو أخرى .

تلت ذلك عملية تصفية ديون القناة لمستحقيها من حملة الأسهم فدفعناها بالتسيط وكانت في مجموعها لا تزيد على دخل القناة في سنة واحدة . . وفي مقابل هذا أفرجت إنجلترا عن ٤٠٠ مليون جنيه استرليني كانت قد جمعتها نتيجة لتأميم القناة . .

وهكذا بدأنا سنة ٥٧ ونحن نملك اقتصادنا بالكامل . . بالإضافة إلى أرضتنا من الاسترليني أى الـ ٤٠٠ مليون جنيه التي أفرجت عنها بنوك إنجلترا . كان يجب أن تكون هذه مرحلة انطلاق فالأرضة متوفرة . . وكذلك الاحتياطي . . كان كل شيء في الواقع معداً لكي نخطط ونبدأ بناء أنفسنا من الداخل بناء ضخماً يعوض على مصر ما فاتنا في سنوات التخلف والاحتلال . . ولكن للأسف لم يتم شيء من هذا فقد كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها . . خرافة كبيرة جداً في مصر والعالم العربى فهو البطل الذى حقق النصر على إمبراطوريتين كبيرتين « بريطانيا وفرنسا » فبعد أن أغفل عبد الناصر الدور الحقيقى الذى لعبه أيزنهاور في هذا المجال مما حول الهزيمة العسكرية إلى نصر سيمى أصبح كما يبدو أول المصدقين لأنه انتصر . . لا للحقيقة وهي الهزيمة العسكرية .

تلت بعد ذلك محاولات من جانب دالاس لإضفاء البطولة على الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية وجعله الرجل الأول في المنطقة

حتى يقضى بذلك على عبد الناصر ويعزل مصر تمهيداً للاجهاز عليها . .
ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل رغم ما بذله دالاس من جهود لتخويف
سعود من عبد الناصر وكل من يلوذ به ، فمثلاً أطلعني سعود على تقرير
للمخابرات المركزية الأمريكية عنى يقول إننى العميل الأول للسوفييت
في مصر . لا شئ سوى أننى كنت أكتب مقالاً يومياً بالجمهورية أهاجم
فيه أمريكا لخاولاتها تعويق سير ثورتنا ، وكان هجومى مركزاً على دالاس وزير
خارجية أمريكا وكان مدير المخابرات هو شقيقه ألان دالاس . . وإن دل
ذلك على شئ . فإتماً يدل على أن المخابرات المركزية كانت تستقى معلوماتها
من مصادر نافذة تشبه المصادر التى يستقى السوفييت اليوم معلوماتهم منها .

٣

يأس دالاس بعد أن فشلت مساعيه فى عزل مصر والقضاء على
عبد الناصر . . فأوعز إلى تركيا بخشد جيوشها على حدود سوريا وبدأوا
فى تصعيد الوضع هناك تصعيداً سريعاً - فى هذا الوقت كانت بيننا وبين
سوريا اتفاقية دفاع مشترك . وهكذا صبحا العالم ذات صباح على خبر وصول
سفن حربية مصرية إلى ميناء اللاذقية وإنزال حوالى خمسة آلاف جندى بعتادهم
وعندئذ مما طأجاً الأمريكان والأتراك معاً إذ أن التسوية قامت من الاسكندرية
بغراً إلى اللاذقية دون أن يشعر بها أحد مع وجود الأسطول السادس والقوات
الإسرائيلية فى شرق البحر الأبيض .

طبعاً كان لهذه الحركة أثرها فى إشعال العالم العربى ، فقد أصبح
عبد الناصر بطلاً قومياً لا يمكن لأحد أن يقف فى طريقه ومن هنا نشأت
فكرة الوحدة بين مصر وسوريا . .

بعد ذلك أخذنا فى الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة - وراعينا
أن نأخذنا . . أولها حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة . . وفعلنا بعد
أن تمت الترشيعات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان المقباس فى الاعتراض
الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عداء المرشحين للثورة - أما الإجماع

الثانى فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا
الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية . . وفعلنا أغلقنا ٦٠ دائرة
من الـ ٣٥٠ . ثم أجريت الانتخابات . . واجتمع فعلاً أول برلمان فى ظل
الثورة فى سنة ٥٧ . . أى بعد خمس سنوات من قيامها .

قبل الاجتماع بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر فى استراحة برج العرب . .
فإذا بى أفاجأ بطلب منه بأن أمتعد لرئاسة المجلس وقيلت . . ولكن قبل افتتاح
المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به فى القاهرة . . وقال إنه يفكر
فى إسناد رئاسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى بعفته أقدمنا . . كيف
غير عبد الناصر رأيه فى خلال يومين فقط . . وما الذى دعاه إلى ذلك ؟ . لا أعرف
إلى الآن . . ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يعرف أنه كان يمكن أن يغير
رأيه فى آخر لحظة ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأياً أو
قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر بنفسه على الناس أجمعين .

طبعاً لم أهتم أنا برجوع عبد الناصر عن قراره فى مسألة تعيين رئيساً لمجلس
الأمة ، فأنا عضو به على أى حال - ولم أكن فى حياى أسمى إلى منصب
أو مركز ما . . ويكنى أننى عندما انتخب عبد الناصر رئيساً للجمهورية كنت
أول من اعتذر له عن الاشتراك معه فى الوزارة . . بل وطلبت منه صادقاً
أن لا يعهد إلى بمنصب من مناصب الدولة . .

كان لابد على أى حال أن يتولى منصب وكيل المجلس أحد الضباط
الأحرار فعرض عبد الناصر هذا على أكثر من واحد ولكن الجميع رفضوا . .
فلم يجد مفسراً من أن يتقدم بهذا الطلب إلى . . وقبلت . . وقد تعجب إخوانى
كيف أقبل العمل تحت رئاسة البغدادى وقد كنا - على الأقل - زملاء فى مجلس
الثورة لا يتميز أحدنا عن الآخر فى شئ . . طبعاً لم يكن هذا تفكيرى . .
فلم يحدث فى حياى أن ميزت عملاً عن آخر - مادام العمل من أجل مصلحة
مصر - وسواء كنت عضواً بالمجلس أو رئيساً أو وكيلاً له . . فالعمل عندى
بتساوى والعبء بالعمل لا بالمنصب . .

في أواخر سنة ٥٧ هـ جاءتنا دعوة من البرلمان السوري الذي كان يرأسه
أكرم حوراني ازياره دمشق . . قبلنا الدعوة وافق جمال مع البغدادي
على أن أراس الوفد المسافر إلى سوريا - وفعلنا سافرنا في نوفمبر سنة ٥٧
ووجدنا المسائل تتصاعد بسرعة مذهلة - كان شكوى القوتلي في ذلك
الوقت رئيساً للجمهورية ولكن كان الجيش مختلفاً عليه - والجيش ممزق إلى
فرق وكل فريق عليه أن ينال في المعسكر الخاص به خشية حدوث أي انقلاب فالجميع
يربصون بعضهم البعض . . المهم . . فوجئنا في أوائل فبراير سنة ١٩٥٨ بخمسة من
قادة الثوات السورية يصلون إلى القاهرة ويلتقون بعبد الناصر في نفس الليلة التي
وصلوا فيها ويطلبون الوحدة مع مصر . . حاول عبد الناصر جاهداً أن يثنيهم عن
عزمهم إذ لا يمكن أن تتم الوحدة هكذا فجأة وبدون تمهيد . . خاصة وأن البلدين
مختلفين في أوجه كثيرة . . ولكن عيناً حاول ليلة بعد أخرى إلى أن كانت
الليلة الثالثة فلم يجد أمام اصرارهم مناصاً من الموافقة على الوحدة -
فتمتدت في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

معظم البلاد العربية لم تستقبل الوحدة بارتياح . . فالسعودية على وجه
الخصوص كان يهمنها أن تظل سوريا محايدة لا تنضم إلى أحد ، فبين البلدين
حدود مشتركة . . ولذلك كانت السعودية تصرف رواتب منتظمة لبعض رؤساء
الأحزاب والحكومات والوزراء في سوريا حتى يظل الوضع القائم كما هو . .
وبانضمام سوريا إلى مصر بدأ الخوف يتزايد في البلاد العربية الأخرى
خشية أن يفعل بها عبد الناصر ما فعل بسوريا . . وهكذا كان أيضاً وضع الملك
حسين في الأردن والملك فيصل في العراق وشعون في بيروت . . الكل
يخشى القوة الجديدة التي ظهرت بالوحدة بين مصر وسوريا فقلبت الموازين
في المنطقة - ليس فقط بالنسبة للبلاد العربية بل بالنسبة لإسرائيل أيضاً
والإمبريالية الغربية . .

بالصدقة ، وقبل أن تتم الوحدة بأيام ، كان الملك فيصل رحمه الله (وكان
ولياً للعهد) في زيارة مصر . . كان في ذلك الوقت ما زال أميراً وكنا أصدقاء
اعتدنا في زيارته المتكررة لمصر أن تناول طعام عشاءنا البسيط في بيتي بالهرم . .
وفي هذه المرة قال لي فيصل على مائدة العشاء :

« أنتم رايمين فين ؟ . . مشيراً بذلك إلى الوحدة مع سوريا . . قتلته :
« العملية انتهت خلاص . . قال : - « أنا في عرضك قل للأخ جمال ان
البلاد دي عشائر واحنا أدري بيها منكم . . هذه الوحدة لن تستمر ولن
تتمشى مع التيارات السياسية هنا وستضركم . . أنا واثق من هذا وأنا باكلمك
كصديق وأخ . . الوحدة دي حتأخذوا فيها ضربة . . »

أنصت طبعاً إلى كلام فيصل فقد كان مخلصاً في نصيحته . . وكان دائماً
شخصية متزنة عاقلة . . ثم هو قبل هذا وذاك صديق حقيقي فعلاً . . ولكن ماذا
كنت أستطيع أن أفعل ؟

قلت له : يا فيصل دي انتهت خلاص . . بعد غد سيأتي القوتلي وستعلن
الوحدة ولا رجوع فيها الآن . .

قال : أنا باكلمك علشان أريح ضميري . . ولكن ثق - وسوف أذكرك -
هذه الوحدة ستنهى بكارثة . .
وقد حدث فعلاً . .

المهم . . جاء يوم ٢٢ فبراير ووقف جمال والقوتلي في سرفة مجلس الوزراء
حيث ألقى كل منهما خطاباً يعلن فيه قيام الوحدة . . وقبل ذلك بدقائق
كان جمال والقوتلي قد وقعا على وثيقة الوحدة وكنت أنا ضمن الموقعين أيضاً
نزولاً على رغبة عبد الناصر برغم أنني لم أكن في ذلك الوقت أشغل أي منصب
رسمي في الحكومة . .

بعد ذلك حل مجلس الأمة في مصر ونظيره في سوريا . . تمهيداً لتشكيل
مجلس موحد بين البلدين . . ثم أعدنا طائرة كوميته عادية من طائرتنا
استقلها عبد الناصر وأنا بصحبته وسافرنا بها في منتهى السرية إلى دمشق خشية
أن يتسرب خبر السفر إلى إسرائيل ، فقد كان وقع الوحدة عليها كالكارثة
تماماً . . حتى أن بن جوريون لم يستطع أن يخفي هذا فكان من تصريحاته المشهورة
أن مصر وسوريا قد وضعتا إسرائيل في كسرة البندق . .

وصلنا دمشق وقضينا أسبوعاً بقصر الضيافة هناك : من الصعب على أن أصفه -
فقد كان عبارة عن هديان لا يتقطع ليل نهار ولا يتوقف لحظة واحدة -

كان عبد الناصر يخطب إلى أن يصيبه التعب . . ثم يخطب القوتلى - ثم أخطف أنا . . وهكذا واحداً بعد الآخر نواصل الخطابة ومعنا بعض الزملاء من قادة الشعب السورى لا نتوقف . . والشعب السورى ينصت إلينا ويطلب المزيد . . لا يمل ولا يشبع وكل ما كان يقال مقبول وعظيم يلهب الحماس وترتفع له الحناجر بافتافات ولا تكل الأيدي عن التصفيق إعجاباً واستحساناً تطلب المزيد . . أسبوعاً بأكمله لم تنزع فيه جماهير الشعب المختلفة حول قصر الضيافة شيراً واحداً . . فكانوا يأكلون ويشربون وينامون وهم وقوف أو جلوس في أماكنهم بالميدان الذى يطل عليه القصر . . ومن نفس هذا الميدان في نهاية الأسبوع أعلنوا الدستور المؤقت . . أعلنته أنا بصوتى فقرأت مواد الدستور مادة مادة . . والناس تحت شرفة القصر سكارى بالحماس يهللون ويكبرون لكل قنصرة وكلمة ومقطع من كلمة .

٤

في يوم ١٤ يوليو سنة ٥٨ كان عبد الناصر في طريق عودته من جزيرة بربوني حيث كان في زيارة للمارشال تيتو ، عندما تلقى رسالة من عبد الحكيم عامر نائبه في مصر يخبره فيها أن الثورة قد قامت في العراق ، وفي نفس الوقت تلقى رسالة أخرى من تيتو ينصحه فيها بأن يقطع رحلته ويعود إلى بربوني ، فالأسطول السادس في البحر الأبيض وقد يعتدى عليه الأمريكان نتيجة لثورة العراق . . اتصل عبد الناصر بتيتو فوراً ليجهز له طائرة في مطار (بولا) ثم استقل الطراد الذى كان يحرس بخته وانطلق عائداً إلى بربوني في حين واصل البخت وعليه عائلة عبد الناصر رحلته إلى الإسكندرية .

من مطار (بولا) في يوغوسلافيا أخذ عبد الناصر الطائرة واتجه إلى موسكو حيث التقى بخروشوف وطلب منه مساعدة ثورة العراق ضد ضغوط الغرب وتأمره وشراته التى بدأها بعدوان سنة ٥٦ .

وكما قال لى عبد الناصر شخصياً - استمر الحديث بينه وبين خروشوف ١٦ ساعة كاملة حاول فيها عبد الناصر إقناع خروشوف بنجدة الثورة العراقية

ولكن عبثاً ذهب كل محاولاته . . فقد رفض خروشوف تقديم أى نوع من المساعدة . . نفى ما حدث في سنة ٥٦ عندما حاول شكرين القوتلى حث السوفيت على مساعدتنا ضد العدوان الثلاثى

خرج عبد الناصر من هذا اللقاء وهو حزين حزناً عظيماً لم يطلع عليه أحداً إلا أنا وعامر ثم توجه إلى دمشق حيث أعلن قبل الشعب السورى والعراقى في كل مكان أن الاتحاد السوفيتى يقف إلى جانب ثورة العراق وذلك تعظيماً لوقف السوفيت ومحاولة منه لإيهام الغرب بأن ثورة العراق لها من يساندها . .

بقى عبد الناصر في دمشق فترة إلى أن استتبت ثورة العراق ثم عاد إلى القاهرة ولكنه أثناء زيارة أخرى لدمشق عام ٥٩ فوجئ بهجوم عيب من جانب خروشوف على الوحدة بين مصر وسوريا . . فكلما نعرف أن النظرية الشيوعية لا تعترف بالوطنية ولا بالقومية . . تصادى جمال لمخوم خروشوف وهو في دمشق واتصل بى من هناك لشن حملة مماثلة وكنت وقتها سكرتير الاتحاد القومى (التنظيم السياسى الوحيد) فألقيت خطاباً في ميدان عاديىن - ثم ذهبت إلى الإسكندرية حيث ألقيت خطاباً كان مشهوراً في ذلك الوقت بعفته عبات فيه الشعور ضد السوفيت كما لم يعبأ من قبل - وقد روى لى جمال بعد عودته من دمشق أنه لما بدأ الحركة ضد السوفيت . . اتفقت به وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وقالت إن الأمريكان ينفذون كل إمكانياتهم تحت مره وإنهم على استعداد لتقديم أية معونة يطلبها فقال لهم إنه سيحارب معركته وحده وإن كل ما يطلبه من أمريكا هو أن تعينه بالنسبة للتمتع والريوت وما شابه ذلك . . وفعلًا كانت المعونة الأمريكية تقوم بدور هام فقد كانت توفر لنا الكثير من الميزانية بحيث أنها لما توقفت في سنة ٦٥ كان لذلك أثر على الاقتصاد المصرى . .

بعد قيام ثورة العراق بفترة استولى على الثورة عبد الكريم قاسم . . وهو عميل شيوعى مسجل بالحزب الشيوعى فألقى السوفيت بكل ثقلهم وراعه . . وكان هذا أحد العوامل التى دعتهم إلى تصعيد حملتهم ضدنا وضد الوحدة

مع سوريا . . . وهي الحملة التي قابلناها بالمثل - فكلما صعدوا صعدنا ،
 بما جعل خروشوف يقول متسولة الشهرة وهي مثل روسي شعبي قديم
 مرداه : لا تبصر في برك لأن مصيرك أن تشرب منه مرة ثانية » . يقصد بهذا
 نصيح عبد الناصر بأن لا يعكس علاقاته مع السوفييت لأنه سيضطّر إن عاجلاً
 أو آجلاً إلى أن يعود إليهم .

٥

بأنهاء الحمسينات ودخول الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام
 والخزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا . . وكما أقول دائماً - كما كانت
 ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في الحمسينات فإنها كانت عملاقة في أخطائها
 في الستينات .

الشيء المضيء الوحيد في سنة ٦٠ كان إتمام كهربية خزان أسوان القديم
 ثم التفجير الأول لبدء السد العالي بحضور الملك محمد الخامس ملك المغرب
 الله يرحمه . . فيما عدا ذلك بدأت الصراعات تطفو على السطح فيما بين
 أعضاء المكتب - يسى بمجلس الثورة وينب أن أقرر هنا أني إلى هذه اللحظة
 لا أستطيع أن أدرك لماذا كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهية من الاحتاد . .
 أما بالنسبة لي فلم يكن هذا حالي في يوم ما فلا أذكر أني حققت يوماً على
 عبد الناصر رغم أن بعض تصرفاته معي كان يمكن لغيري أن يفسرها تفسيراً
 سيئاً . . ولكني لم أكن أريد شيئاً لنفسي ولذلك لم أعرف الحق . . أما
 بالنسبة للآخرين فأنا أعرف أن كلامهم كان بل وما يزال يحمل في نفسه كمية
 هائلة من الحق على عبد الناصر . . حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر
 الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته بعد الناصر في أواخر أيام حياته إلى عملية
 حقن رهية .

المهم . . بدأنا الستينات بأحتاد تطفو على السطح وفي نفس الوقت فوجئنا
 بالوحدة مع سوريا وقد بدأت تنفك . . كان قد انقضى على قيام الوحدة عامان
 وضح بعدهما أن الأمور غير مستقيمة . . كنا قد ألغينا الأحزاب في سوريا

وكان من ضمنها حزب البعث الذي قبل مع الأحزاب الأخرى عملية
 الإلغاء آملاً أنه (أو أي حزب سوري آخر) سوف يستطيع أن يحقق ما يريد
 من خلال الوحدة . . فلما اتضح أن هذا غير ممكن بدأوا يتندرون بالاتحاد القومي
 ويتآمرون على الوحدة . . أحس عبد الناصر بهذا في سنة ٦٠ ولكنه لم يكن
 يستطيع أن يمنع . . كان يشعر أنه أمام طريق مسدود وأن أمراً ما سوف يحدث
 ليدمر هذه الوحدة بل ربما دمر الأوضاع في مصر نفسها . .

في نفس هذه السنة أصيب عبد الناصر بمرض السكر نتيجة لحالة اليأس
 والعجز التي وجد نفسه يواجهها ويشاء الله أن أصاب أنا أيضاً بنوبة قلبية في
 ١٥ مايو من نفس السنة . . نتيجة للإرهاق سنوات عديدة متتالية
 وللإرهاق الذي أصابني في تلك السنة بالذات عندما ذهبت إلى كوناكري
 كرئيس لمؤتمر التضامن الآسيوي الإفريقي حيث طفا على السطح لأول مرة
 الخلاف بين الاتحاد السوفيتي والصين الشيوعية .

قبل أن أذهب إلى كوناكري كنت قد تركت الاتحاد القومي لأنني شعرت
 أن عبد الناصر قد بدأ يأخذ موقفاً مني ربما نتيجة لوشايات مغرضة وصلته - فقد
 كانت لديه عادة الاستماع إلى الوشايات وعندما تمس شخصه أو بيته أو أمنه
 يصبح من السهل التأثير عليه . . المهم أني كالعادة في مثل هذه الأحوال كنت
 أنا أيضاً آخذ موقفاً منه فأعتكف أو أبتعد عنه إلى أن يعود الصفاء إلى نفسه
 فيتصل بي . . وتزول الجفوة . .

وكان هذا ما حدث هذه المرة فبعد عودتي من كوناكري ومرضى جاء
 لزيارتي . . وكان صلاح سالم قد أشاع في تلك الأيام أن سبب إصابتي بالقلب
 كان عبد الناصر فسألني إذا كان ما يشيعه صلاح سالم صحيحاً . . فقلت له :
 لا . . غير صحيح فالسبب على ما أرجح هو تراكم سنوات عديدة بأكلها من
 الإرهاق والتعب الشديد قبل الثورة وبعدها ثم مناخ كوناكري الحار الشديد
 الرطوبة الذي عانيت منه كما لم أعاني من شيء في حياتي . .

في صيف سنة ٦٠ طلب مني عبد الناصر أن أشرح نفسي لرئاسة مجلس الأمة
الإتحادي الذي كان أعضاؤه مصريين وسوريين أي كان بمثابة برلمان للوحدة
فقبلت واشتريت رئيساً للمجلس وكان هذا أول عمل أباشره بعد فترة نقاهتي
من النوبة القلبية التي أصابني . . وفي نفس الوقت تقريباً عين عبد الحكيم عامر
قائداً عاماً للجيشين الأول والثاني - أي الجيش السوري والجيش المصري -
نبة مشير وخلص عليه عبد الناصر لقب نائب رئيس جمهورية . .

دخلت سنة ٦١ والطريق المسدود الذي سلكته الوحدة يزداد انسداداً ،
فالأحزاب كلها قد بدأت تنشط والتذمر السياسي أخذت رقعته تتسع . . فقد كان
عبد الناصر يعتمد في سوريا على شخص واحد هو عبد الحميد السراج -
وكان الشعب السوري قبل الوحدة يعاني مما كنا نعانى منه في مصر إلى وقت
غير بعيد من كبت للحريات وسجن وتعذيب وإهانات وتصفيه جسدية تبلغ
حد القتل - فبعد أن تمت الوحدة كان أملهم كبيراً في أن تتغير الأحوال
ولكن هذا لم يحدث للأسف ، فلما استمر الحال على هذا المتوال بدأت الناس
في سوريا تضح وتضيق وتزداد شقاء وسخطاً ، وفكر عبد الناصر وتشاور
معنا في أن يرسل إلى سوريا عبد الحكيم عامر بصفته الرجل الثاني في الدولة
جديدة وقائد عام قواتها المسلحة عسى أن تستقيم الأمور هناك وتجتاز الوحدة
الطريق المسدود الذي وصلت إليه . . ووافقناه على رأيه . . وفعلاً سافر
عامر إلى سوريا رغم أن عبد الناصر كان قد ترك بها عبد الحميد السراج كما هو . .
وكان هذا خطأ فاحشاً لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا . .

كانت لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ولكن الأهم من ذلك أنه كان
يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح . . وكان من أبرز ملامح شخصيته روح
القبيلة فهو يساند من يعاونه على حق كان أم باطل .

ونتيجة لكل هذا نشب صراع خفي بين عامر والسراج . . ثم أخذ
بتساعده إلى أن نزل إلى رجل الشارع في دمشق . . بينما كان عبد الناصر كعادته

يناصر عامر ظالماً أو مظلوماً . . فإذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دفع
سبعة ملايين جنيهه أوصلها الملك حسين ملك الأردن للمتسلمين والمتأمرين
في سوريا ثم القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر في ٢٣ يوليو سنة
٦١ وأثرها على المجتمع السوري الذي هو بطبعه تجار لأدركنا مدى سخط
الشعب السوري على عبد الناصر والوحدة وهو السخط الذي بلغ أقصاه
عندما صحا الناس في دمشق في يوم ٢٦ سبتمبر سنة ٦١ على وحدات من الجيش
السوري وهي تعاصر القيادة العسكرية هناك . . كان عبد الحكيم يعيش في فيلا
ملاصقة فهرع إلى القيادة . . ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه وبدأوا
يكلّمونه عن طريق الميكرفون مهددين متوعدين ثم بدأوا في إصدار
بلاغات حربية - بلاغ رقم ١ ، بلاغ رقم ٢ . . الخ . . وكان البلاد في
حالة حرب - علم عبد الناصر بهذا فحاول إنقاذ الموقف . . ولكن عبثاً ذهبت
كل عاolاته بعد أن ألغوا القبض على عامر وشحنوه في طائرة إلى مصر . .
وبهذا تم الانفصال وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن . . وتخلفت
نبوءة فيصل لي .

٧

على مستوى رجال الثورة كان الانفصال شمانة كبيرة في جمال عبد الناصر
وعبد الحكيم عامر - أما على المستوى الشعبي فقد بدأت الناس تتعلم
وتسأل : لماذا حدث هذا ؟ ومن المسئول ؟ صحيح أن الانفصال قد سبقته
بفترة وجيزة القوانين الاشتراكية (صدرت في ٢٣ يوليو ١٩٦١) ووقع
الانفصال في ٢٦ سبتمبر ١٩٦١) تلك التي صدرت من أجل مصلحة الجماهير . .
ولكن مجموع الشعب كان ما زال يفتقد شيئاً هاماً في حياته . . وهو الحرية . .
فبعدما لا يكون الإنسان آمناً على نفسه لا يمكن أن يعرضه شيء عن هذا . .

هذه حقيقة لم يدركها عبد الناصر إلى يوم أن مات . . كان يتصور أن الشعب
مرتاح وسعيد وراض عن أسلوب الحكم لأن الناس عندما تراه كانت تهتف له
وتهلل وتصفق . . ولكنه نسي أن في ضمير كل مواطن - حتى في الطبقات

التي كان يعتقد أنه يخدمها - حقيقة أساسية تغطي على كل حقيقة أخرى . .
وهي الإحساس بالحاجة إلى الحرية والأمن .

بعد عودة عامر من سوريا بعد أن عومل معاملة مهينة التي بعبد الناصر
وقال إنه لا يستطيع أن يستمر كفائد عام للقوات المسلحة بعد الإهانات التي
وجهت إليه من جيش سوريا فكرامته كفائد عام لا تسمح له بالاستمرار في
عمله . . رجب عبد الناصر بهذا أشد الترحيب فقد كان ينتظره أو يتمناه منذ
معركة سنة ٥٦ وبعد الموقف المتخاذل الذي وقفه عامر آنذاك والحالة التي كانت
فيها القوات المسلحة في ذلك الوقت وعند الانفصال ، ولكنه لم يشأ أن يظهر لعامر
ترحيبه باستقالته حتى لا يراجع فيها فقد كان كل منهما يعرف الآخر حق المعرفة
ويتربص بالآخر في غيابه وحضوره . .

انقضى أسبوع بعد ذلك وعامر لا يذهب إلى القيادة وعبد الناصر يجهرز
الخطاب الذي سيلقيه ليعلن أن هذا هو الطريق الذي اختارته سوريا فليحفظها
الله ويسارك خطواتها وعلى الجميع أن يحترموا إرادتها وما اختارته . . وفعلا
أتى عبد الناصر خطابه وكان له صدى طيب في البلاد العربية ، ولكنه لم يمض
يوم أو يومان بعد ذلك إلا ويفاجأ بعبد الحكيم عامر يطلب منه سد حاجات
النفس في القوات المسلحة وغير ذلك مما يشير إلى أنه مستمر في عمله كفائد
عام . . حيثئذ أسقط في يد عبد الناصر ولم يدر ماذا يفعل . . طبعاً كان وراء
تراجع عبد الحكيم مستشاروه من أمثال شمس بدران وبعض خاصته وأهله
وكان لهم تأثير سيء عليه . . وإحساسه بأنه شريك عبد الناصر فما دام عبد الناصر
يعلم ، يجب أن يظل عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة . .

حينما سمع عبد الناصر هذا من عامر جنونه ، ولكنه أخفى شعوره ودعانا
جميعاً للاجتماع به وطرح الأمر علينا . . قلنا له ببساطة إن هذا الأمر لا يحتاج
إلى مناقشة فرائنا يا جمال أن عبد الحكيم كان يجب أن يترك القيادة منذ ٥٦
لا في ٦١ . . صحيح أنه شهم ولطيف إلى آخره . . لكنه لا يصلح من ناحية
العمل العسكري . . باختصار قلنا جميعاً وفي نفس واحد لجمال إن استبعاد
عامر من الجيش مسألة مفروغ منها ولا تقبل الجدل .

لم يمنعنا هذا بطبيعة الحال من أن نتساءل فيما بيننا بعد خروجنا من الاجتماع
لماذا استدعانا جمال عبد الناصر ؟ فقد كان من الطبيعي وهو رئيس للجمهورية
أن يصدر بعد الانفصال مباشرة قراراً بتعيين قائد عام جديد للقوات المسلحة
والاكتفاء بأن يكون عامر نائباً لرئيس الجمهورية كما كان . . اتضح لنا
فيما بعد أن عبد الناصر كان يريد أن يأخذنا كراي عام ضد عامر . . بينما لم تكن
المسألة في نظرنا تحتاج إلى هذا . . فنحن لسنا الشعب . . أما الشعب فقد كان يطالب
برأس المسئول عن السبب في كل هذا . .

بعد خروجنا قام عبد الناصر باستدعاء عامر وجعلنا يناقشان الأمور فيما
بينهما . . وبعد عدة اجتماعات بينهما اختفى عامر فاستدعانا عبد الناصر مرة
أخرى وقال لنا إنه أبلغ عبد الحكيم بالقرار الذي اتخذناه ولكنه رفض
الاستجابة له . . ثم اختفى حيث لا يعلم أحد ولم نعرف عن ذلك شيء كان في
موسى مطروح . . كان ردنا على عبد الناصر أنه لو تراجع في القرار
الذي اتخذناه بالإجماع فهو بصراحة يتنكر لمصلحة مصر . . ثم لماذا بسألنا
الرأي . . إنها مسئوليته وحده كرئيس للجمهورية .

في هذه الأثناء - وإغاطة في عبد الناصر - قدم عامر له الاستقالة المشهورة التي
طبعها بعد ذلك في سنة ٦٧ وقال فيها إنه استقال من أجل الديمقراطية في سنة
٦٢ وغير ذلك من أمور كان يعلم جيداً أنها تثير حق عبد الناصر . فمثلاً قال
إنه لا يقبل أن تحكم البلد هكذا بدون أحزاب وبدكتاتورية مطلقة . .

كان عامر يعرف جيداً أن عبد الناصر لن يقبل أن تخرج هذه المسائل إلى البلد
لأن الشعب كله كان يريد الديمقراطية . . فإذا قبلت هذه الاستقالة . . ستجعل
من عامر بطلاً قومياً . . فاستدعانا عبد الناصر مرة أخرى وعرض علينا
الاستقالة - وكان ردنا عليه أنه هو الرئيس المسئول وما كان بحاجة إلى أن يستدعينا
قبل ذلك أو في هذه المرة . .

أرسل عبد الناصر في طلب عامر والتقى . . وهنا تظهر علامة استفهام
كبيرة في علاقات عبد الناصر وعامر . . فقد حدث عكس ما كنا نتوقعه
تماماً . . إذ اتفقا على أن يترك عامر منصب قائد عام القوات المسلحة ويتسلم

أخسر اسمه نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة . . فالقائد الأعلى هو
 د. أنور رئيس الجمهورية - وهذه وظيفة شرفية حسب الدستور ولكنها ليست
 كذلك في وقت الحرب . فالقائد الأعلى عليه أن يرفع أمر القتال كما عليه أن
 يرفع الأمر الاستراتيجي لقائد القوات المسلحة الذي يحدد فيه استراتيجيته
 العسكرية . ومع ذلك أمر عامر على أن يتولى القيادة الفعلية - فلا يعين قائد عام
 إلا أنه . . وقد سلم له جمال بذلك بيذا كان يتوهم أن يعين محمد فوزي قائداً عاماً
 في ٢٣ يوليو سنة ٦٢ (وكنا في ذلك الوقت في ديسمبر سنة ٦١) فلمسا
 في ٢٣ يوليو ، وجدنا أن الوضع ما زال كما كان . . فما زال فوزي رئيس
 ركان حرب وجميع الضباط الكبار الذين كانوا مع المشير عامر كما هم لم
 يغيروا - فبدأننا نتساءل فيما بيننا . . فم كان إذن استدعاء عبد الناصر لنا
 وأخذ مشورتنا المرة بعد الأخرى ؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها بين عبد
 الناصر وعامر وكان شيئاً لم يكن . . كل ما حدث هو أن رقي عامر من منصب
 قائد عام القوات المسلحة إلى نائب القائد الأعلى بسلطات القائد العام . .
 واستمر الحال على ما هو عليه حتى وقعت كارثة ٦٧ . .

١٠ . . كان عبد الناصر قد أبلغ عبد الحكيم بأن الذي اتخذ قراراً نحيته عن القوات
 المسلحة هم إخوانه أعضاء مجلس الثورة - بدأت المياه بيننا وبينه تتعكر . . ولكنه
 بعد أن فكر في الأمر ملياً انتهى إلى أننا لم نتخذ هذا القرار وحدنا فلابد أن
 عبد الناصر هو الذي دعانا إلى اتخاذه - أضف إلى هذا أنه عرف بالاجتماع
 الذي تم بيننا وبين عبد الناصر في بيته ، ولذلك نجد أن عبد الحكيم عامر بدأ منذ
 ذلك الوقت - أي أول سنة ٦٢ - يأخذ احتياظه من عبد الناصر كما بدأ عبد الناصر
 يأخذ احتياظه من عبد الحكيم بدلاً من أن يحسم الأمور كرئيس للجمهورية
 وهكذا نشأ أول مركز قوة في مصر يباشر عمله بصراحة . . فقد أصبح هم
 عامر الأول أن يؤمن نفسه ضد عبد الناصر بعد ما تأكد لديه المعنى الذي كان
 دائم الاحساس به وهو أن هناك صراعاً وعدم ثقة وفجوة بينه وبين عبد الناصر
 وبينه وبين الباقيين من مجلس قيادة الثورة . .

وهكذا نجد أن الصراع الذي بدأ في أول الستينات قد ازداد اتساعاً وازداد
 معه التمزق لأن الحقد أصبح دفيناً بين عبد الناصر وعامر ، وعامر

وحده والباقيين ، وعبد الناصر وحده والباقيين وأنا واقف أتأمل موكب الصراع
 هذا وقلبي يتمزق ألماً . .

كان هذا الموقف هو المقدمة الأولى لهزيمة ٦٧ . . فقد انتصرف عبد الحكيم
 عامر إلى تثبيت مركزه ليس فقط داخل القوات المسلحة بل في البلد
 كلها . . وهكذا دخلت مصر أسوأ دوامة يمكن أن تدخلها . .

فالقوات المسلحة التي فاجأها الانفصال وهي في حالة عدم استعداد زاد فيها
 الإهمال ثم جاءت حرب اليمن قبلها من أن تكون مجال تدريب وتجهيز
 لقواتنا المسلحة أصبحت عملية انتفاع واستغلال . . ولم يكتفى عامر بهذا
 فلكي يثبت أقدامه في جميع المجالات سعى إلى أن يعهد بالمؤسسات المدنية
 إلى الضباط وكذلك كان لابد أن يكون رؤساء المؤسسات من الضباط السابقين -
 ونفس الشيء بالنسبة لرؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد حتى
 الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها . .

كان عبد الحكيم عامر يتصور أنه بهذه الإجراءات يثبت نفسه عند الشعب
 ولكنه لم يكن يعلم أن العكس هو الذي حدث . . فقد زادت هذه التصرفات
 من سخط الناس عليه وتبرمهم بالنظام بأجمعه . . وفي أعقاب الانفصال كانت
 البلد ممزقة نتيجة لكبت الحريات وعدم وجود الديمقراطية بأي شكل من
 الأشكال . . مما شجع العناصر الغير راضية على أن تتحرك وهكذا ازداد تملل
 الشعب وقلقه . . وقد صور كل هذا إلى عبد الناصر على أنه ثورة مضادة وبناء عليه
 فرضت الحراسات على السياسيين القدامى . . ولكن لم يكن هذا الإجراء كافياً
 لامتصاص غضب الناس وتذمرهم بل على العكس ربما زاده وعمقه . . ولذلك
 لجأ عبد الناصر إلى إجراء آخر وهو إنشاء لجنة تأسيسية أو كما أسموها لجنة
 حوار مكونة من أكثر من مائتي شخص أغلبهم من المثقفين . . عهد بأمانتها
 إلى وكنا نجتمع في قاعة مجلس الأمة وكان عبد الناصر يحضر أغلب جلسات
 هذه اللجنة ويشارك في مناقشاتها التي نشرت على الناس في الصحف فقد كان
 الهدف من العملية كلها أن يظهر عبد الناصر بمظهر من يشارك الناس
 همومهم ويسعى إلى حل مشاكلهم ولذلك نجده يرحب بما استقر عليه رأى

اللجنة في النهاية وهو إصدار ما يسمى بالميثاق يحدد فيه خط الثورة وأهدافها وسياساتها فقد كان هجوم أعضاء اللجنة من المثقفين منصباً على عدم وجود أي منجز وفعلاً وضع الميثاق وتقدم به عبد الناصر إلى المؤتمر القومي الكبير الذي عقدناه . . وقرأه مادة مادة وصدق عليه الحاضرون وحقق بعض الغرض من صدوره فقد شغل الناس بمحاولة استيعابه وتفهم التواحي الأيديولوجية التي كان يحتويها .

في هذه الأثناء كان التنظيم السياسي موجوداً ولكنه كان بالتعيين لا بالانتخاب فهو أعرج لا يملك من أمر نفسه الكثير . . لذلك نجده لا يقوى على أن يضع الميثاق موضع التنفيذ . . لقد صدر الميثاق فعلاً وأصبح يدرس في منظمات الشباب والجامعات ولكن شيئاً مما نص عليه لم ينفذ . .

٨

في صيف سنة ٦٢ عقد في لبنان مؤتمر شتورة الذي ضم السعودية وسوريا والأردن والعراق ولبنان بقصد مهاجمة مصر وعزلها ثم ضرب النظام . موقف مؤسف للغاية - ولكن يشاء الله أن تقوم ثورة اليمن بعد ذلك بفترة وجيزة في ٢٦ سبتمبر سنة ٦٢ (وهو تاريخ الانفصال قبل ذلك بسنة) فكانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي مول الانفصال والذي كان في ذلك الوقت يزعج الحملة ضدنا . فاليمن على حدوده مباشرة . . ولذلك عندما اجتمع مجلس الرئاسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة كنت أول المتحمسين وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة - وفعلاً تم هذا .

كنت أنا المسئول عن الجانب السياسي في الثورة اليمنية وكان عامراً هو طبعاً المسئول عن الناحية العسكرية - ولكنه كما دته أساء التصرف فبدلاً من أن يعمل من حرب اليمن ميداناً لتدريب قواتنا على حرب العصابات وعلى تكتيكات جديدة . انقلبت الحرب إلى تجارة ومنفعة وأصبحت مسرحاً جديداً يثبت عليه عامر أقدامه وينشر نفوذه بحيث لا يستطيع أحد أن يزعزعه عن مكانه . كركز القوة الأولى في مصر . . هذا إلى جانب أنه تروط في المعونة العسكرية

من لواء إلى لوائين إلى أن أصبح لنا في يوم من الأيام ٧٠ ألف جندي هناك لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة ٦٧ عندما اتفق الملك فيصل مع عبد الناصر في مؤتمر الخرطوم على ذلك . .

فشلت حرب اليمن عسكرياً فقد كنا نحارب بجيش نظامي عدواً متمسكاً في حرب العصابات ، ولكن رغم كل شيء لا أستطيع القول بأن تضحياتنا ذهبت هباء ، فاليمن قد تخلصت من حكم الإمام الذي كان أسوأ من أي حكم في البصور الوسطى . . ثم إن عدن نالت استقلالها كنتيجة طبيعية لمعركتنا في اليمن . . صحيح أن الحرب قد استنفدت جزءاً كبيراً من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك في حرب ٦٧ . . ولكن هذا كله لا ينفي أن التدخل في ثورة اليمن كان ضربة سياسية لا بد منها . . فقد كانت من العوامل الهامة التي كبرت جماح سعود وهزت مكانته بين أهله وعائلته مما أدى في النهاية إلى أن يحل الملك فيصل مكانه . . وكان هذا مكسباً رائعاً لا للسعودية فحسب بل للقومية العربية كلها .

٩

في سنة ١٩٦٥ كانت حالة البلاد الداخلية قد وصلت إلى مرحلة يرقى لها فعلي صبرى كرئيس للوزراء لا يتخذ قراراً في أي شيء . . لأنه بطبعه يخشى المسؤولية وربما لهذا السبب وقع اختيار عبد الناصر عليه . . فعبد الناصر بطبيعته الديكتاتورية كان يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره وحسب . . وهكذا كان على صبرى . . فإذا أضفنا إلى هذا ميله الطبيعي إلى التجسس على الناس وتدبير المؤامرات والعمل في الخفاء لأدركنا سر تبرم الناس به . . فعماذا يمكن للبلد أن تستفيد من حكومة هذا شأن رئيسها . . ومما جعل الحالة تزداد سوءاً أن مشاكل الخدمات عندنا من تليفونات ومواصلات وإسكان وخلافه أخذت تؤجل ابتداءً من سنة ٦٢ على أساس حلها بخطط طموحه لم تكن قابلة للتنفيذ . . مما جعل هذه المشاكل تزداد

وتراكم منه بعد أخرى . . بحيث أصبح من العسير حلها . . وكان العذر الذى يتنوع به المسؤولون فى هذا أن الخدمات والمراقب يمكن التضحية بها فى سبيل إقامة مصانع للانتاج بالاشتراك مع السوفييت .

فى نفس السنة قطع جونسون المعونة الأمريكية عن مصر . . فوضعنا فى موقف حرج . إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا فى التمتع الذى كنا نستورده منها بالخبثه المصرى فيوفر لنا حوالى ٨٠ مليون استرلينى نستفيد منها فى مشاريعنا .

لم نجد إزاء قطع المعونة الأمريكية سوى أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتى فذهبنا إلى موسكو فى سبتمبر ١٩٦٥ . . عبد الناصر وأنا وزكريا محيى الدين . .

كان قد حدث تغيير فى القيادة السياسية للاتحاد السوفيتى سنة ٦٤ عندما عزل خروشوف . . الرجل الذى كان يدرك قوة مصر بعد معركةين لنا معه فى سنة ٥٩ ثم سنة ٦١ وبدأ يستجيب لمطالبنا واتخذنا منه صديقاً - إن لم يكن لأى سبب - فلأنه كان حاسماً صادقاً معنا لا يراوغ مثل من سبقوه . .

سلك حملتنا حملة شديدة على السوفييت فأرسلوا لنا شيليين الذى قام بالإنقلاب ضد خروشوف . . ليمهد الجو للمصالحة بيننا وبين السوفييت فلما ذهبنا إلى موسكو فى سبتمبر ١٩٦٥ وجدناهم - أى القيادة الجديدة - حريصين كل الحرص على إرضائنا لكي يصلحوا ما تركته عملية عزل خروشوف فى نفوسنا من راحية ومن ناحية أخرى لكي يعادلوها أو يمحوا أثر زيارة (شواين لاي) نصر التى استغرقت أسبوعين كان ينتظر فيها ما سوف يحدث بالنسبة لمؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقى الذى كان من المفروض أن يعقد بالجزائر ثم قام بومدين بالإنقلاب على بن بيللا فبيل انعقاد المؤتمر مباشرة .

كان هدفنا من زيارة موسكو أن نتبع السوفييت بتأجيل الأقساط التى علينا حتى يمكننا بما عندنا من مال تعويض قطع المعونة الأمريكية عنا وكذلك استكمال خططنا الطموحة . وقد استجاب السوفييت لمطالبنا بصورة لم نكن نتوقعها . . وكانت الديون التى علينا تعادل ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى - تقريباً - حذف نصفها بحيث يكون ما يتبقى لهم من ديون ٢٠٠ مليون جنيه فقط . . ونتيجة لهذا تخفص الأقساط بطبيعة الحال . .

استجاب عبد الناصر لمشاعر الجماهير فى نهاية سنة ١٩٦٥ فمزل على صبرى من رئاسة الوزارة وعين بدلا منه زكريا محيى الدين . . ولكن زكريا لم يكت فى منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر . . ولو أن وراء هذا الخلاف كان عبد الحكيم عامر الذى كان يكره زكريا ويفضل أن يرأس الوزارة رجل من أتباعه . . وقد تحقق له ما أراد فعين صديق سليمان رئيساً للوزارة بدلا من زكريا . . ولكن هذا لم يمنع عامراً من استمرار زحفه على السلطة حتى أصبح كل شئ فى البلد يعهد به إلى القوات المسلحة أو البوليس الحزبى . . النقل العام مثلاً فى حالة سيئة فيتبع للقوات المسلحة لاصلاحه - الثروة السمكية تشرف عليها القوات المسلحة وفى سنة ٦٥ عندما قيل إن هناك مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمون تولى أمرهم البوليس الحزبى وشمس بدران أهم معاونى عامر . . وكما اتضح بعد ذلك كان هناك تعذيب وإهانة وامتهان لكرامة الإنسان .

لا أستطيع أن أجزم بأن عبد الناصر كان على علم بما حدث . . ولكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع تبرئته من المسئولية فالرئيس دائماً هو المسئول مهما كانت أخطاه معاونيه ومساعديه ومهما كانت نواياه هو .

وكالعادة فقد كان عبد الناصر يعتبر أن أى احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة لتقصي الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنقيص عما بالصدور ثورة مضادة . ولا بد من إجراءات لمواجهة . . ولذلك فإنه بعد عملية الإخوان كان لابد فى نظره من إجراء مضاد ، وكان الإجراء هذه المرة أقسى وأعنف ما شهدته مصر فى تاريخها ، فقد شكلوا لجنة أطلقوا عليها اسم لجنة تصفية الإقطاع وطبعاً تولى رئاستها عبد الحكيم عامر .

كانت لجنة تصفية الإقطاع تمثل قمة الإرهاب والكتب والإذلال . . فقد اعتدوا على كرامة الإنسان وهو ما لا يقبله شعبنا تحت أية ظروف ولأى سبب . . فالشعب المصرى يقبل الجوع والفقر والحرمان . . ولكنه لا يقبل امتهان

الكرامة . . . ولقد وضعوا تحت نظري في ذلك الوقت عدة حالات تدل على ما كانوا يفعلون ولكنني لم أصدق إلى أن مارست التجربة بنفسى . . . في يوم وأنا في زيارة لقرينى ميت أبو الكوم وكان ذلك في سنة ٦٦ التقيت بأحد أبناء القرية وهو مهندس زراعى فسألنى إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإقطاع بالنسبة لمركز تلا وهى بلدة قريبة من قرينى . . . فقلت لا لم أقرأ شيئاً بهذا الصدد فأطلعتنى على إحدى الصحف اليومية فإذا بي أفاعاً بأن عدداً من العمدة وأهل المنطقة قد وضعوا جميعاً تحت المراقبة وعزلوا من مراكزهم . . . كنت أعرفهم واحداً واحداً . . . وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس وأنهم جميعاً يؤيدون الثورة بما لا يقبل الشك . . .

لم أكن أتصور أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد . . . فأخذت سيارتى وعدت في الحال إلى القاهرة وأنا غاضب كل الغضب . . . وبحضرت عن عبد الحكيم عامر إلى أن وجدته : فالتصفت به تليفونياً وقلت له كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بتقدير الناس . . . فرد على بهدوء : وفيهم الغضب ؟ تلقى القرار . . . وقملاً تلقى القرار في نفس اليوم الذى صدر فيه . . . وكان هذا هو القرار الوحيد الذى تراجعت عنه لجنة تصفية الإقطاع في نفس يوم صدوره . . .

كانت هذه تجربتى مع لجنة تصفية الإقطاع - ولكننى سمعت بعد ذلك قصصاً رهيبه تدل كلها على مدى امتنان السلطة للإنسان المصرى والقيم التى نشأ عليها . . . فمثلاً كانوا يفتحون البيوت بالليل ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن في الشوارع والأزقة يبحثن عن مأوى يستريحن .

١١

هكذا كان حال مصر داخلياً في سنة ٦٦ . . . أما من الناحية الخارجية فقد كنا في حالة مواجهة كاملة مع أمريكا وكان عبد الناصر عتياً في خصوماته لا يعرف لها حداً فاندفع في هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة معتمداً على مساندة السوفييت له - ولكن حدث في هذه الأثناء أن وجهت

الحكومة الأمريكية الدعوة إلى زيارة أمريكا بصفتى رئيساً لمجلس الأمة رغبة منهم في أن يحققوا شيئاً من الهدنة أو التنازل .

من جانبى . . . ولقد كنت قد وافقت على هذه الدعوة . . . فقبلت الدعوة . . . وسافرت مع زوجتى إلى أمريكا حيث استقبلونا أحسن استقبال . . . وعندما زرت الكونجرس أجلسونى على مقعد الرئيس وهو نفس الكرسي الذى جلست عليه عند زيارتى لأمريكا عام ١٩٧٥ . . .

ولكن في عشاء رسمى أقامه هاريمان أكبر مستشارى الرئيس الأمريكى فاجأنى صحيفة أمريكية بسؤال لم يكن يفترض على بال . . . قالت وفى يدها إحدى الصحف : ما رأيك في هذا التصريح ؟ قلت : أى تصريح ؟ فقرأت من الصحيفة التى معها تصريحاً لعبد الناصر يهاجم فيه أمريكا بأعنف الألفاظ . . . قلت لها وقد وجدت :

ليس عندى أى تعليق . . . وتساءلت في نفسى لماذا يفعل عبد الناصر ما فعله ؟ بعد أن اتفقنا على أن نبذل مجهوداً لتحسين العلاقات وبعد تشجيعه لى على اتمام الزيارة ؟

وإذا كان هذا قصده فلماذا وافق على الزيارة أصلاً . . . ؟

أمور غريبة لا يمكن فهمها أو تمييزها . . . ولكننا لم نؤثر على زيارتى لأمريكا . . . فقد بذل الأمريكان أقصى جهدهم لانجاح الرحلة . . . وأذكر أننا في زيارتنا لسان فرانسيسكو كانت مديرة المراسم يهودية فحاولت أن تعتلل لموضعها عن استقبال ومصاحبة زوجتى . . . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تمكنها من ذلك . . . فقد أمروها بأن تؤدى واجبها أولاً ثم تدخل المستشفى بعد ذلك . . .

انتهت سنة ٦٦ وانصراف بين عبد الناصر وعامر على أشده فكل منهما مريض بالآخر وخاصة أن عامر كان كل يوم يوسع رقعة سلطانه . فعن طريق لجنة الإقطاع والتعلل بالثورة المضادة استطاع أن يضرب من يشاء وأن يعزل أو يبق من يشاء في مؤسسات الدولة وجميع مناصبها بما في ذلك النوادي الرياضية بل إن شكاوى الهيئات العامة أو الأفراد كانت تحال إلى القوات المسلحة للنظر فيها وحلها حسب ما يراهي لها . وهكذا تراكت السلطات في يد عامر حتى أصبح الأمر الناهي والمتحكم في مصير الناس وفي كل ما يتعلق بالبلد من أحداث .

هذه هي الصورة التي كانت عليها مصر في مستهل سنة ١٩٦٧ فكيف كانت في عيون من تبقى من رجال الثورة في الحكم ؟

خرج ذكرى محي الدين من رئاسة الوزارة وفي حلقه غصة . . ولكنه من النوع الكتوم لا يتكلم كثيراً . . أما عبد الناصر فكان يراقب ما يفعله عامر وهو أيضاً مليء بالمرارة ، عاجز لا يستطيع أن يفعل شيئاً - بينما كان عامر يزيد كل يوم من رقعة سلطته بل كان يسعى إلى رئاسة الوزارة ليضع السلطنة في يده كاملة . .

هكذا دخلنا سنة ٦٧ والكآبة تخيم على مصر فالبلاد مفلسة لأن الخطة طموحة ولا يوجد المال الكافي لتمويلها ومشاكل الخدمات التي أجعل على صبرى حينها منذ سنة ٦٢ نواكم يوماً بعد يوم وذلك حتى يتظاهر أمام عبد الناصر بأنه يبنى صناعات لم تكن تقوم في الحقيقة على أى أساس وأخطر من هذا كله الصراعات التي بلغت أشدها بين من يحكمون من رجال الثورة وأذئابهم .

في يوم جمعة في فبراير سنة ٦٧ ذهبت لزيارة عبد الناصر على غير موعد كعادته . . فسألت الضابط المختص إذا كان عبد الناصر قد استيقظ من النوم فأجابني بأنه استيقظ منذ مدة وهو الآن في حجرة مكتبه قد دخلت الحجرة ورأيت عبد الناصر يجلس وقد وضع رأسه بين يديه حزناً مهموماً . . وقفت أراقبه حوالى دقيقتين ثم فاجأته بسؤال : « جرى إليه يا جمال ؟ مالك ؟ »

التفت إلى في دهشة فقد كان واضحاً أنه لم يحس بدخول الحجرة وقال :
- إيه اللي جابك النهارده يا أنور ؟

قلت : النهارده الجمعة - وأنا لى مدة لم أرك - قلت أقوت عليك أودش معاك شوية وأنا عارف إنك يوم الجمعة بتبقى لوحدهك . .

قال لى : والله عملت طيب . . اتعد .

جلست وسألته مرة أخرى : مالك شاييل الدنيا على دماغك ليه يا جمال ؟ واضح أنك شاييل الدنيا على دماغك . .

قال : أيوه . . فعلاً أنا شاييل الدنيا على دماغى . . يا أنور البلد بتحكمها عصابة وأنا مستحيل أكمل بهذا الشكل . . أفى أبى الرئيس المشول واللى بيحكم هو عبد الحكيم وينفذ اللى عاوزه . . طيب أخرج أنا أحسن وأروح اتعد فى الاتحاد الاشتراكي . . ويتولى هو رئاسة الجمهورية وأنا مستعد لأن أسأل عن الفترة اللى قعدتها لغاية ما أخرج . . أجاب عن أى شىء . .

كان واضحاً أن عبد الناصر كان على معرفة بما يجري في البلد : المشاكل المتراكمة منذ سنة ٦٢ وما تفعله لجنة الإقطاع بالناس - وضراوة مراكز القوى سواء من ناحية عامر أو شعراوى جمعة وسامى شرف أو على صبرى أو مستشاره الصحنى . . وحجرهم على الحريات واحتكارهم لجميع الامتيازات . .

قلت له : مش معقول يا جمال تسبب رئاسة الجمهورية وتقعده في الاتحاد الاشتراكي عشان عبد الحكيم وأعوانه يحكموا مصر . . أنت عارف أن عبد الحكيم أسوأ من يختار معاونيه - هم اللى تسبوا في فشل الوحدة مع سوريا - ومع ذلك فبعد الحكيم متعصب لمعاونيه تعصب قبلى تقول له نشيل صدق قائد الطيران يقول قبل ما تشيلوه شيلوقى أنا . . خلتنه كده . . ولذلك أعتقد أنه أفضل شىء إنك تجيبه وتكلمه بينه وبينك وبالشكل ده ممكن توصلوا لحل مع بعض .

قال جمال : والله الصورة سيئة يا أنور وأنا حاسس أن احنا عاجزين عن كارثة .

بعد ذلك ببضعة أيام ذهبت لزيارة عبد الناصر فقالوا لي إن عنده ضيفا وانتظرت في حجرة مكنته إلى أن يخرج الضيف . . وبعد فترة جاء عبد الناصر وبادرنى بالسؤال :

تعرف يا أنور مين اللي كان عندي دلوقتي ؟ قلت : مين ؟ قال : شمس . . فأكبر حديثنا اللي قلت لك فيه على حكاية العصابة ؟ قلت له : آه .

قال لي : يا سيدى الحكاية كملت . . شمس بدران جاي لي دلوقتي يطلب رسمى إن المشير يأخذ رئاسة الوزارة . . حجته إيه ؟ إن البلد بتشتكى . . مش عارف أن معظم الحاجات اللي بتشتكى منها الناس هي من تصرفاته وتصرفات

النساء .

قلت له : طيب أنت قلت إيه ؟ قال : والله أنا خدت الموضوع ببساطة . . قلت له أنا ما عنديش مانع . . قال له أنا موافق بس يترك القوات المسلحة ويأخذ رئاسة الوزارة - أنا حلاقى مين يمسك الوزارة أحسن من عبد الحكيم ؟

قلت له : أنا ما زلت عند رأيي إنك تقابله وتتكلموا مع بعض وأنت عارف أنه بيقل منك ما لا يقله من أى شخص آخر - بالشكل ده ممكن الموضوع يتم والمسائل تتحل .

عبد الناصر قال : لا يا أنور . . العملية ماشية في اتجاه غلط . .

طبعا كان رد عامر على رسالة عبد الناصر بالنسبة لرئاسة الوزارة هو الصمت فهو يعتبر القوات المسلحة مكانه الطبيعي ولا يمكن أن يتخلى عنها لأى سبب من الأسباب فهي مركز القوة الأول . . بعد ذلك تطورت الأمور في لجنة الإقطاع فبلغت أقصى الظراوة في مارس وإبريل ومايو حيث عقدت آخر اجتماعاتها وكانت متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفيه العائلات . . وهي في رأيي مسألة خطيرة . . في تصديري - والله أعلم - أن مستشارو جمال كانوا يغلبون هذا الاتجاه في نفس عبد الناصر . . وكان أهمهم وهو مستشاره الصحفي فهو يمتك العائلات ويتحين الفرصة للشتم فيها . . ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات كلها وإذلال وإهانة كرامة الإنسان . . حتى أن أهل

الصعيد عندما كانت تفرض عليهم الحراسة كان الرجل يصرخ محتجاً « آخذ نفقة زى الست » ؟

فقد كانوا يطلقون على المبالغ الضئيلة التي يدفعونها لمن تفرض عليه الحراسة مقابل ما أصابهم كلمة (نفقة) وهي نفس الكلمة التي تطلق على المبلغ الذي يدفعه الزوج ليعول مطلقته . .

استمر الحال على هذا النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يهبط القضاة على العائلات جميعها ابتداء بعائلات محافظة البحيرة . . ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبه القائمة في أواخر مايو وأوائل يونيو فأوقفت تلك الإحراوات فكل كارثة لها جانب آخر . . يقول المثل الإنجليزي « كل سحابة داكنة لها شريط فضي يترق وسط الغيمة » . .

سافرت في ذلك الشهر وهو مايو سنة ١٩٦٧ إلى كوريا الشالية ثم إلى موسكو حيث استمعت هناك إلى عبد الناصر وهو يلقي خطابه في أول مايو . . كان يتكلم عن الثورة المضادة والإقطاع . . ويستشهد بخادث وقع في قرية مجاورة لقرينتي وسمعتة يذكر اسمي فكنت أعجب كيف تنقل الحقائق إلى عبد الناصر ثم تصدر الأحكام بدون فحص لهذه الحقائق .

القرية كانت هي كمشيش وقد كانت مسرحاً فعلاً لإقطاع ثم نشهد له البلاد مثيلاً ، ولكن أولئك الذين كان يستشهد بهم عبد الناصر كانوا في الواقع أسوأ من الإقطاع الذي نشهد به جميعاً في المنطقة . إذ كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن طريق مكافحة الإقطاع إلى تطبيق الماركسية وفي هذا السبيل لم يتورعوا عن إهانة كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع ولم يكن هناك ما يدعوا لذلك لأننا صفينا الإقطاع في هذه القرية ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة . .

لقد كانت هذه القرية في ذلك الوقت مركزاً من مراكز النشاط الشيوعي في الدلتا حتى أن الشيوعيين أخذوا يجان بول سارتر إلى كمشيش تفاخراً بما صنعوا فيها . .

تضايقت وأنا أستمع للخطاب فعبد الناصر كان معي منذ سنتين ونحن نمر بهذه البلدة ضمن بلاد المنوفية الأخرى وذلك أثناء انتخابات الرئاسة ، وقد أفهمته حينذاك حقيقة الضجة التي أثارها العناصر الشيوعية وعنّف مساعديه على ذلك في ذلك الوقت .

على أى الأحوال فإنه بعد ١٥ مايو ٦٧ لم تتعقد لجنة الإنقطاع إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ .

١٣

في عودتي من موسكو كان برافتني إلى المطار سيمينوف نائب وزير الخارجية ومعه رئيس البرلمان السوفييتي . . . وتعدّنا طويلاً إذ تأخرت الطائرة ساعة أو أكثر وكان حديثهما معي يدور حول موقف سوريا وكيف حشدت إسرائيل عشر لواءات على حدودها . . . وعندما عدت إلى مصر وجدت أنهم قد أبلغوا عبد الناصر نفس الخبر وبعدها صرح أشكول رئيس وزراء إسرائيل أنه إذا اقتضى الأمر فسوف تحتل القوات الإسرائيلية دمشق .

في ذلك الوقت كانت بيننا وبين سوريا إتفاقية دفاع مشترك . . . وإلى جانب هذا كان الروس على طريقتهم يمارسون لعبة ضرب الزعماء العرب بعضهم البعض . . . كما حدث أثناء حكم عميلهم قاسم في العراق . . . وفي هذه المرة استأثروا عبد الناصر وضربه بالقيادة السورية على أنها أكثر تقدمية ولذلك أعطى الأوامر لعبد الحكيم عامر بخشد قواتنا في ميناء وكان الهدف الحقيقي من هذا تخويف إسرائيل . . .

ولكن ما لبث زمام الأمور أن أثلت من يديه ففي ذلك الوقت كان الكثيرون من إخواننا العرب يعايرون مصر بأنها تركت مضايقت تيران مفتوحة حتى أن عامر وهو في زيارة لباكستان تضايقت من المزايدات العربية بالنسبة لمضايقت تيران فأرسل برقية يطلب فيها إغلاق المضايقت . . . على أى الأحوال جمعنا عبد الناصر على هيئة لجنة تنفيذية عليا في أواخر مايو سنة ١٩٦٧ كان فيها عامر وزكريا عبي الدين وحسين الشافعي وأنا وعلى صبرى وصدّق سليمان رئيس الوزارة في ذلك الوقت . . . وقال لنا : - إن حشودنا في ميناء تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ أما

إذا أقفلنا المضايقت فالخرب مؤكدة مائة في المائة . . . ثم التفت إلى عامر وقال له : - هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فوضع عامر يده على رقبته وقال : - برقبتي بباريس . . . كل شيء على أتم استعداد . . .

كنا نعلم أن تسليحنا كامل دون شك . . . وقد كان سلاحنا بالفعل حينذاك أقوى عشرات المرات من سلاحنا في حرب أكتوبر ٧٣ ولذلك عندما سألنا عبد الناصر عن رأينا وافقنا بالإجماع على إغلاق المضايقت ما عدا صدق سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت الذي طلب التروى وأن نأخذ في الاعتبار حالتنا الاقتصادية والحطط الفلمسوحة التي لم تستكمل وأكثرها لم ينفذ وخاصة بعد قطع المعونة الأمريكية . لم يعر عبد الناصر اعتراض صدق سليمان أى اهتمام فقد كان ميالاً إلى إغلاق المضايقت حتى يوقف مزايدات العرب عليه وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية . - وبهذا أصدرت الأوامر بإغلاق مضايقت تيران وسحب قوات الطوارئ الدولية .

وقد صنع عبد الناصر من كل هذا دراما عنيفة الوقع في حين كان السوفييت لا يكتفون عن التنبيه بأن توقيت الأحداث أسرع مما يجب ولكن عبد الناصر كان مصراً على اندفاعه وأنزل الستار على هذه الدراما الصاخبة بالمؤتمر الصحفي الذي عقده على مستوى عالمي وكان قمة في التحدى والعنف .

ارتبك الموقف الدولي نتيجة لهذا . . . وساعد السوفييت على بليلة الرأى العالمى كما هم عادتهم في مثل هذه المواقف خوفاً من أن نورطهم في شيء أو آخر وبدأت إسرائيل في نفس الوقت تستخدم سياسة الاستكاثنة والصراخ والاستنجاد .

بعد إغلاق مضايقت تيران أصبحت الحرب مؤكدة ولذلك كنا نتوجه للاجتماع في القيادة العامة يومياً . . . كانت هذه الاجتماعات تضم جميع قادة القوات المسلحة بينما كانت قواتنا كلها محتشدة في ميناء . . . وأرسل السوفييت في طلب أحدنا فاسفر إليهم شمس بدران بصفته وزيراً للحربية . . . وفي الكرملين سألوه كيف سيكون تصرف مصر لو تدخل الاسطول السادس الأمريكى فأجاب بلا تردد : « عندنا ما يدمره » مشيراً بذلك إلى الطائرة في ١٦ حاملة الصواريخ وسرعتها وهي تحمل الصاروخ ٥٠٠ كيلو أى نصف سرعة البوينج التجارية . . .

وكانت نكتة تندرنا بها في الكرملين كما تندرنا بها نحن هنا كثيراً . . المهم عاد وزير الخارجية من روسيا بعد أن عقد مع السوفييت صفقة أسلحة غير متبذرة من ماله كما هي عادتهم ، فهدف السوفييت دائماً وفي كل الظروف أن يربحوا الموقف ارتباطاً ولكن الأهم من هذا أن يكون التوقيت في أيديهم . . حتى تكون لهم السيطرة وهذا ما جهاني اتخذ ما أخذت من قرارات بالنسبة بالخبراء السوفييت أو غير هذا فأنا أدري بمصلحة بلادى منهم . . ثم رفض أن يكون لنا ولي أمر يتولى عنا شئوننا .

يوم الجمعة ٢ يونيو صدق جمال عبد الناصر على الخطة بصفتها رئيساً للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة . . هذا إلى جانب أنه كان عسكرياً ممتازاً وخدم وحارب في سيناء ويعرفها شبراً شبراً . . وأذكر في يوم أن عبد الناصر قال لقائد الطيران صدق محمود إن أول ضربة ستقع على إسرائيل . . والتفت هذا إليه وقال في عصبية واضحة : يا فندم احنا عاملين حاسين ولن نريد الخسارة على عشرة في المائة . .

في نفس اليوم قال عبد الناصر إن الهجوم سيقع يوم السبت أو يوم الأحد وعلى أكثر تقدير يوم الإثنين ٥ يونيو فقد تغيرت الحكومة الإسرائيلية وشكلت وزارة الدفاعية دخلها موشى ديان وزيراً للدفاع واشترك مع شكول وحبسون في عملية تسمية متعمدة حتى يوجهوا العرب أنه ليس في نيتهم دخول الحرب ولكن المسألة كانت أوضح من أية تسمية .

عندما وقعت الكارثة يوم ٥ يونيو علمت أن الخطة التي صدق عليها عبد الناصر غيرها بعد ذلك عبد الحكيم عامر بالكامل . . وكان هذا واضحاً كل الوضوح فقد احتلت إسرائيل العريش مساء ٥ يونيو مع أنها لم تستطع ذلك في سنة ١٩٥٦ بينما كانت قواتنا في ذلك الوقت أضعف عشرات المرات مما كانت عليه في سنة ٦٧ .

من يوم الإثنين ٥ يونيو إلى يوم الجمعة ٨ يونيو جميع القادة معاً في طائرة وراح يفشش على سيناء - ومن الطبيعي أنه عندما يكون القائد العام في الجو تصدر الأوامر للصواريخ بالتوقف عن العمل وفي هذه الأثناء ضربت إسرائيل

جميع مطاراتنا ومطاراتنا وهي على الأرض . . وهكذا يمكن أن نقول إن الحرب بدأت وانتهت وعامر في الجو .

كيف علمت أنا بالكارثة وكيف استقبلتها ؟ في صباح الإثنين ٥ يونيو عرفت من الراديو أن إسرائيل قد بدأت الهجوم فقلت في نفسي . . حسناً . . سوف يتعلمون درساً لن ينسوه مدى الحياة - كنت مطمئناً كل الاطمئنان . . فحلقت ذقني وارتديت ملابس على مهل وتوجهت بسيارتي إلى القيادة - كنت قد حضرت لإعداد الخطة بالكامل وكانت ثقتي بالنصر أكيدة . . فعدتنا أكثر من كافية والخطة محكمة للغاية . . وصلت القيادة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً وشاهدت سيارة السفير الروسي تتقدم بسيارتي فقلت لابد أن السفير قد أتى ليقتدم تهانيه . . سألت ما الأخبار . . فقال بعض الضباط إننا أسقطنا ٤ طائرة إلى تلك اللحظة . . قلت : عظيم ! . . دخلت مكتب عبد الحكيم عامر فوجدته واقفاً يتطلع حواله بعينين زائغتين . . قلت له : صباح الخير فلم يرد - أعدت التحية فردها بعد دقيقة - على التو أدركت أن في الأمر شيئاً . . سألت بعض الموجودين فقالوا إن سلاح الطيران قد ضرب بأكملة وهو على الأرض . . وبعد قليل رأيت جمال عبد الناصر يخرج من الصالون - ثم بدأ عامر يلقي باللوم كله على الأمريكان قائلاً إن سلاح الطيران الأمريكي هو الذي ضربنا وليست إسرائيل . . ورد عبد الناصر :

« أنا لست مستعداً لتصديق هذا الكلام ولا لإصدار بيان رسمي بأن أمريكا هي التي اعتدت علينا إلا إذا أثبت إلى بيننا طائرة واحدة عليها العلامة الأمريكية » .

كان إصرار عبد الناصر على موقفه هذا قوياً لا يقبل الشك أو التردد - ولكنه بعد ذلك عندما أدرك مدى الكارثة تراجع وأصدر بياناً يتهم فيه أمريكا بالعنوان علينا وكان هدفه من هذا تغطية الموقف سياسياً أمام الشعب . .

من الأمور العجيبة أيضاً التي حدثت يوم ٥ يونيو المشنوم أنه بمجرد هبوط طائرة عامر وإدراكه ما حدث أرسل في طلب السفير السوفيتي لكي يطلب منه وقف إطلاق النار بعد بدء الحرب بساعة واحدة . . وكان هذا سر وجود

السفير السوفيتي في غرفة العمليات صباح ذلك اليوم . . ماذا كان يبدى أن أفعل ؟ عدت إلى بيتي وبتيت به إلى يوم ٩ يونيو وهو اليوم الذي حدده عبد الناصر لإعلان بيان منه في الراديو والتلفزيون الساعة السابعة مساء - كنت وأنا في البيت دائم الاتصال بعامر وعبد الناصر - فانتصت بعامر في الساعة الخامسة مساء فقال لي في خشونة وضيق إن إسرائيل قد وصلت إلى العريش واستولت عليها . . لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسى . . كنت معتاداً على أن أخرج للمشى أربعة كيلومترات يومياً . . ولكن بعد ٥ يونيو كنت أسير وحسب . . لم أكن أدري كم من الزمن أسير - عشرة كيلو مترات أو أكثر أو أقل لا أعرف . . فقد استولى على ذحول غريب لم أعد أستطيع معه أن أثبتن الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه في بعض الأحيان .

ومما كان يزيد في ذحول وتمزق نفسى ما كنت أشاهده يومياً من جماهير الشعب وقد امتلأت بها اللوريات قادمة من مديرية التحرير أو وهى تسد شارع الحرم الواسع العريش . . كانت تسير متراسمة والجميع يهتفون ويهللون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذى تذيعه عليهم أجهزة الإعلام ساعة بعد ساعة . .

كانت فرحتهم بالنصر تثير في نفسى إحساساً قوياً بالإشفاق عليهم والأسى لهم والحنق على من كانوا السبب في خداعهم وخديعة مصر بأكملها . . لقد تمخبت على الله وأنا أراقب مواكب النصر هذه ، الصادقة الزائفة معاً ، أن يعيبنى بأزمة قلبية كالتي أصابتنى سنة ٦٠ حتى لا أعيش لأرى حال هذا الشعب الغريب الكريم عندما يفتق على الحقيقة ويعرف أن هذا النصر الذى زينه لهم ليس إلا كارثة رهيبة نزلت بهم .

في يوم ٧ يونيو اتصلت بليفونيا بعبد الناصر فوجدته في بيته يتابع سير المعركة عن طريق القيادة . . الحقيقة أنى ذهلت . . لماذا لم يتول عبد الناصر القيادة بنفسه يوم ٥ يونيو ؟ صحيح أننا كنا قد فقدنا الطيران ولكن كان في إمكاننا أن نفتق في خط المضايق . . ثم لماذا وقف مكتوف الأبدى أمام القرار الذى الذى أصدره عامر للقوات بالانسحاب غرب القناة ؟ فليس هكذا يكون

الانسحاب - أى عسكرى يعرف أن الذى يبلغ بقرار الانسحاب هو مدير العمليات الذى عليه بدوره أن يضع الخطة اللازمة والجدول الزمنى المناسب لتنفيذ الانسحاب ويعطيه للوحدات لتنسق كل وحدة انسحابها حسب الجدول والخطة . . ولكن هذا لم يحدث ولذلك كان أمر الانسحاب الذى أصدره عامر هو في الحقيقة أمراً بالانسحاب . .

هذه الصورة كانت واضحة عسكرياً أمام عبد الناصر فلماذا لم يتصرف ولماذا لم يتدخل وأقول مرة أخرى لماذا لم يعزل عامر يوم ٥ يونيو ويتولى هو القيادة أو يعهد بها إلى قائد آخر ؟ لا إجابة . . فقط علامة الاستفهام التى تظهر في الأفق كبيرة واضحة كلما كان الأمر عند عبد الناصر يختص بعبد الحكيم عامر !

لم أكنم تناولت هذه عن عبد الناصر فقلت له على التليفون : -

« يا جمال ما تحاول تنفذ ما يمكن إنقاذه . . المسألة في وشك على أى حال فلماذا لا تغلب من عامر أن يبقى في بيته وتتعهد أنت في القيادة وتشغل ؟ »

قال : « والله يا أنور أنا عرفت أنه أعطى أمر بالانسحاب وقت له إزاي تعمل كده يا عبد الحكيم - ليه ما تنفخ في خط المضايق قال لي الخط مش جاهز : وكان اليهود قبل هجومهم قد أنشأوا ثلاث خطوط دفاعية للرجوع إليها إذا تطلورت الممارك ضدهم وكانت النصور التوبوغرافية تعرض علينا ونحن نرور القيادة قبل ٥ يونيو . .

أما نحن فلم يكن حتى خط المضايق - خط وسط ميناء - وهو المفروض أن يكون مستعداً في حالة السلم وفي حالة الحرب - لم يكن في الحبان أن يعمل .

عاودت الاتصال بعبد الناصر يوم ٨ يونيو فقال لي : « إن الوضع قد انتهى فتوات إسرائيل في مدينتها إلى القنطرة شرق بعد أن احتلت العريش والطريق ممهد ولا مقاومة على الإطلاق . . المسألة كلها مائة ساعة قليلة ونخل القنطرة هي الأخرى وقواتنا في شرم الشيخ صدر لما الأمر بالانسحاب حتى لا تدمر - وبذلك بدأت إسرائيل تزحف على ميناء من الجنوب أيضاً . . »

وفي نفس اليوم علمت من عبد الناصر أيضاً أن الفرقة الرابعة المدروعة وهي أفضل الفرق عندنا قد عبرت من الغرب للشرق حسب أوامر عامر فدمرت . . وبذلك انتهت قواتنا المسلحة وحلت القوضى . . ترك الجنود الدبابات والعربات وفروا إلى غرب القناة بل وصل بعضهم أسوان تطاردتهم طائرات العدو فتريدهم رعباً على رعب . .

وفي يوم الجمعة ٩ يونيو بيئنا أنا جالس إلى جانب الراديو في حالة الشروء التي كنت فيها سمعت بياناً من القيادة العامة يقول إن اليهود قد عبروا الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ويشهد العالم على ذلك - كان بياناً كله استخذاء واستسلام ومهانة مما جعل الدم يغلي في عروقي فممت للتو وارتديت زى المقاومة الشعبية وأخذت بندقيتي ذات الثلثكوب وركبت عربة فيات صغيرة كنت قد استعرتها من المخابرات ومضيت لأحارب معركتي - فقد كان من الأشرف لي أن أموت وأنا أقاتل العدو من أن أقيع في داري بلا عمل . . توجهت إلى مجلس الأمة وكنت في ذلك الوقت رئيس المجلس فأصدرت تعليماتى إلى أمين عام المجلس بأن يجمع جميع العرب المختارين لهم لخدمة عسكرية بأن يجمع كل واحد منهم من مائة إلى مائتي رجل . . كل في دائرته وأن يقوم بتجهيزهم لمقاومة الإسرائيليين في المكان الذي أحده لهم . . ذهبت بعد ذلك للقاء عبد الناصر فوجدته جالسا في حجرة مكتبه في بيته بمنشية البكري فقلت له :

أنت قاعد هنا منسني إيه ؟ لازم يا جمال تقوم علشان نوديك الصعيد لأن احنا حنكمل المقاومة من هناك . . وحتى لو سقطت القاهرة ضرورى تناوم لغاية آخر نفس قينا .

رويت له ما فعلته في مجلس الأمة وكيف أعددت الثواب للمقاومة الشعبية ثم سأله :

- أنت سمعت البيان الأخير بتاع القيادة ؟

كل ذلك وعبد الناصر ينظر إلى دون أن يرد . . وأخيراً أشار إلى كرمى بجانبه وقال لي :

أقعد يا أنور . . أقعد .

قلت له : - أقعد إزاي يا جمال ؟ دانت قعادك هنا غلط - أنت ضرورى تكون في الصعيد دلوقت عشان أنت حتكون رمز للمقاومة وزى ما قلت لك ضرورى نحاربهم لغاية ما نفنى كلنا أو نفنيهم كلهم وما تنساش أن الكثافة السكانية سلاح في أيدينا وسلاح قوى جداً . .

قال لي : والله أنت مسكين يا أنور . . زيك زى الشعب تمام . . أنت صدقت البيان ؟ أنا عارف البيانات بتصدر إزاي . . دى كلها كلام فارغ . . اليهود ماعدوش إلى غرب القناة : أنا سمعت البيان زيك وقلت لوكريا يا زكريا روح القيادة وشوف لي إيه الحكاية لأنى أنا عارف القيادة انفلت عيارها وأنهارت وانتهت خلاص - زكريا راح القيادة ورجع قال لي ضباط من ضباطنا هم اللي عبروا القناة من الضفة الشرقية إلى الغربية لما شافوا اليهود قدامهم على الضفة الشرقية . . ما تمالكوش أعصابهم وراحوا ضاربين فيهم بالموترو فردوا اليهود بغارة جوية على مصنع بويات في الإسماعيلية - أقعد يا أنور أقعد - أنت مش محتاج تحارب - العملية خلعت خلاص - الدور مرسوم بين إسرائيل وأمريكا وأهو انتفض تمام . . يتعدوا على الضفة الشرقية لكن ما يدخلوش الغربية لاعتبارات كثيرة أهمها خطورة الكثافة السكانية - وعلى العموم هم عاوزين إذلال لنا أكثر من كده إيه ؟ أقعد - أقعد معاً لما أخلص البيان اللي هأذيعه الليلة دى .

جلست وقرأت البيان قبل أن يقرأه أى إنسان آخر - وفي هذه الأثناء اتصل عامر بعبد الناصر وقال له على التليفون :

- حظني في الخطاب معاك .

رد جمال قائلاً : - سيبنى يا عبد الحكيم أعمل آخر عملية لوحدي . . أنا بأخلص مسئوليتي وبعد ذلك إذا كنت عاوز تقدم استقالتك ابقى قدمها . . .

لم أفهم المدافع وراء طلب عامر الغرب هذا . . وأخيراً بعد فترة أمرك أنه كان يخشى أن يرى ناصر نفسه في البيان فيصبح عامر المسئول الوحيد . . لكن لم يكن ما توقعه عامر صحيحاً فالبيان واضح وفيه يقول عبد الناصر إن هناك قوة واحدة تريد أن تحكم مصر والعالم وهي أمريكا وأنه لا يستطيع

الفصل السابع

فترة انتقالية الكفاح من أجل البقاء

لم تكن الفترة ما بين يونيو ٦٧ وسبتمبر ٧٠ غنية بالأحداث ولكنها كانت فترة معاناة رهيبه لا أعتقد أن مصر شهدت مثلهما - فقد كانت المعاناة وليدة الإحباط على المستوى القومى والسياسى والعسكرى مما جعل الكفاح من أجل البقاء السمة المميزة لهذه الفترة . . فليس مثل الإحساس بالإحباط شيء يحتفز الإنسان إلى أن يكافح من أجل البقاء .

صحيح أن هذا الكفاح أخذ أشكالا متعددة ولكنها كانت تهدف جميعاً إلى شيء واحد وهو تخلى العقبات التى تعرضها حتى تسترد كيائها وتستعيد وجودها فتبقى . .

وكثيراً ما نجد هذه المحاولات تشابك وتتصارع بحيث يصعب تمييز خطوطها بعضها عن البعض . . فمثلاً نجد أن كفاح عبد الناصر من أجل البقاء بطلا عظيماً - كما كان قبل هزيمة يونيو يتصارع مع إصرار عبد الحكيم عامر على البقاء قائداً عاماً للقوات المسلحة - بتشابك مع الرغبة فى إعادة بناء القسوة المسلحة وتشابك بشكل أو بآخر مع تعمد السوفييت أن يظلوا هم سادة الموقف يمنحون ويمنعون كما يشاؤون . .

فخروج الشعب فى ٩ و ١٠ يونيو وإصراره على عودة عبد الناصر إلى الحكم لم يكن فى الواقع إلا صورة من صور الكفاح من أجل البقاء . . بقاء مصر الأرض والشعب والإرادة . . رغم كل شيء . . فإلى أى مدى حققت مصر عزيمتها على البقاء وإلى أى مدى تصارعت هذه العزيمة مع عزائم أخرى كانت هى أيضاً تكافح من أجل البقاء ؟

أن يجيبها إلى ما تطلب ولذلك فليس أمامه سوى أن يتنحى ويعهد برئاسة الدولة إلى زميله زكريا محيى الدين . .

بمجرد أن انتهى عبد الناصر من إلقاء خطابه القصير كانت شوارع القاهرة قد امتلأت بحماير الشعب بحيث لم يعد هناك موضع لقدم - نساء ورجال وأطفال من جميع الطبقات ومختلف نواحي الحياة . . وحدث بينهم المحنة فأصبحوا كتلة واحدة تتحرك بإيقاع واحد وتتكلم بلسان واحد . . الكل يطالبون ببقاء عبد الناصر - فالكارثة عظيمة . . إذ فجأة عاد الزمن إلى الوراء فى غمضة عين . . فبدلاً من الاستعمار الإنجليزى سوف يكون هناك استعمار أمريكى . . هكذا أوحى خطاب عبد الناصر إلى الشعب فحرك لواعجه وأثب شعوره وأعاد إليه إرادة الرفض التى هى من أمضى أسلحته عبر آلاف السنين . . فخرج يتحدى الهزيمة ويعلن رفضه للانصياع لأية إرادة أجنبية مهما بلغت قوتها - لقد ضربت قوائمه المسلحة ولكن إرادة الشعب لم ولن تضرب . . سبع عشرة ساعة كاملة وجموع الشعب ترفض أن تترك أماكنها فى شوارع القاهرة . . وقد نسيت كل شيء . . الطعام والشراب والمبيت والمأوى . . نسيت كل شيء إلا شيئاً واحداً فقط وهو التمسك بوحدتها وتحدى إرادة الدولة العظمى التى تريد أن تتحكم فيها . .

انصلت بعبد الناصر أكثر من مرة وفى كل مرة كنت أجده أسوأ حالا عن دى قبل . . كنت أشعر أن صوته صوت رجل يتكلم من غياهب الماضى . .

لا بد أنه فى الفراش وأنه يعانى كثيراً ، فأهم ما لدى عبد الناصر هى كبرياؤه ولقد طعن فيها كما لم يحدث له من قبل . . فبعد أن كان العالم يلهث وراءه عندما عقد مؤتمره الصحفى المشهور أصبح الناس الآن فى كل مكان فى العالم يتكلمون عليه ويسخرون منه ، ولذلك كان ٥ يونيو طعنة أصابته فى الصميم فأتى . . ومن يعرف عبد الناصر لابد أن يدرك أنه لم يمت يوم ٢٨ سبتمبر سنة ٧٠ بل مات يوم ٥ يونيو سنة ٦٧ ، بعد المعركة بساعة واحدة . .

هكذا كان يبدو بل وظل يبدو لفترة طويلة . . الميت الحى . . صفة الموت تغطى وجهه وبديه رغم أنه كان يسير ويتحرك وينتص وتكلم . .

يوم ١٠ يونيو وأنا بمكتبى بمجلس الأمة سمعت صوت قنابل تفجر قرية منا - كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ، فلما سألت قالوا لى إن البوليس بفجر قنابل دخان على السفارة الأمريكية ليفرق جموع الشعب التى التفت حولها لتحرقها . . فانصلت فوراً بعبد الناصر وجعلته يستمع لى الانفجارات وحكى له القصة . . ثم قلت : -

الجموع دى بقى لما دلوقتى أكثر من ١٧ ساعة فى الشوارع . . حل تعب يا جمال أن تحترق القاهرة تانى زى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ؟ إحنا على وشك كده دلوقت - لازم نرجع يا جمال لأن إرادة الشعب هى الصمود ومفيش هروب من هذه المسئولية الهائلة . .

اقتنع جمال فرد على - بالموافقة . . ولكن صوته كان بعيداً كأنه يأتى من أعماق القبر . . ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اتصل بى مستشاره الصحفى ليلغنى بيان عبد الناصر الذى يقرر فيه العودة فكتبته وأمرتهم فى المجلس بدق الأجراس للإجتماع . .

كنا قبل ذلك قد قررنا عدم قبول استقالة عبد الناصر فلما اكتمل الاجتماع أعلنت للأعضاء أن عبد الناصر قد قرر العودة بناء على رغبة الشعب وأنه كان يوده لو يستطيع أن يتسأ عليهم القرار بنفسه . . وكان لهذا أثر رائع على النواب فملكتهم فرحة مناجاة صفقوا معها وهللوا وصرخوا وبكوا . .

بعد ذلك بفترة وجيزة اتصلت بزملائى فى القيادة جميعاً وطلبت منهم أن يجهبوا استقالتهم ومن ضمنها استقالتي حتى نعطي الفرصة لعبد الناصر لاختيار معاونيه فى هذه المرحلة الحرجة وكفانا الصراعات وما أدت إليها من هزيمة وإحباط . .

اتصلت بعبد الناصر وأخبرته بما حدث وأن الاستقالات كلها جاهزة ما عدا استقالة عامر (التي وعد بإرسالها لى عبد الناصر مباشرة) فطلب لى عبد الناصر تأجيل إعلان الاستقالات لأنها لو أعلنت فسوف يحس هو بأن الدنيا كلها

انهارت وسوف يكون هذا إحساس الشعب نفسه أيضاً . . لم أقتنع بكلامه فناقشته فيه ولكنه عاود الرجاء بتأجيل إعلان الاستقالات حتى يهتدى لى نقطة البداية . .

فكما قال لى لم يكن يعرف - بعد كل ما حدث - من أين يبدأ . . فى يوم ١١ يونيو اتصل بى عبد الناصر وقال إنه قد اهتدى أخيراً لى نقطة البداية وهى إعادة بناء القوات المسلحة ، ولكنه فوجئ بعدد كبير من الضباط فى بيته يطلبون منه عودة المشير عامر .

حاول عبد الناصر الاتصال بعامر ولكنه كان قد اختفى فأمر بصرف الضباط . . جاءت لى به بعد ذلك أخبار بأن البوليس الحزبى يتحرك من قشلاق الحلبة فى طريقه لى بيت عبد الناصر ليطالب بعودة عامر - فى ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر أى حرس ، فالحرس الجمهورى كان قد اشترك فى المعركة وعاد لى الإسماعيلية ولكنه لم يصل لى القاهرة بعد . .

كان عبد الناصر كما هو معروف كثير الشك بطبعه وخاصة إذا كان الموضوع يتصل بأمنه الشخصى . . وربما كانت هذه النظرة لى الأمن الشخصى وراء كل الإجراءات الاستثنائية التى حدثت وتطورت من مرحلة لى مرحلة حتى ناء كاهل الناس بثقلها . . فلما سمع بأن البوليس الحزبى قادم لى بيته - وهذه روايته لى - أخذ طبنجة ووضعها جوار فراشه وجلس ينتظر . . وفى هذه الأثناء حاول الاتصال بعامر مرة أخرى ولكن دون جدوى فانصل بمحمد فوزى رئيس أركان حرب القوات المسلحة فى القيادة الذى أخبره بأن هناك ٦٠٠ ضابط وأربعة فرقاء متجمعين فى القيادة ويطالبون بعودة عامر - على الفور أصدر عبد الناصر أمره لى فوزى بأنه قد عينه قائداً عاماً للقوات المسلحة وعليه أن يبلغ الفرقاء الأربعة بأن عبد الناصر قد استغنى عن خدماتهم ثم يتصرف مع الستمائة ضابط فيصرفهم أو يلقى القبض عليهم . . نفذ فوزى الأوامر وأبلغ عبد الناصر بذلك فطلب منه الحضور لمقابلته ومعه عبد المنعم رياض مساء نفس اليوم . . حيث وضعوا الجدول الزمنى الذى بمقتضاه يعاد بناء القوات المسلحة . . وكان ذلك أول عمل يباشره عبد الناصر بعد عودته . . ويعبر به عن الكفاح من أجل البقاء .

دهم إحسانى بالهزيمة نفسى ببحث استغرق شعورى فكنت أعيش الهزيمة فى ينظلى ومنامى . . . وكنت فى كل يوم يمر أنكشف أبعادها فيتمزق صدرى ولكنى لا أعرف ماذا أفعل .

حبست نفسى فى بيتى بالخرم ثلاثة أسابيع كاملة عشتها فى عزلة تامة عن الناس أنامل ما حدث وأنحمل على مضض حملة التشكيك فى قواتنا المسلحة وهى الحملة التى كانت تشن علينا بضرارة من العدو والصديق على حد سواء .

كانوا يقولون إن الجندي المصرى لا يصلح للقتال وأنه لن تكون هناك معركة أخرى نترد بها أرضنا وكرامتنا وهذا معناه الموت والدمار لشعبنا إلى آلاف السنين بحيث تنبئ كما انتهى المنود الحمر فى أمريكا . . أى هوان هذا ؟ وأية مذلة ؟ لقد نشأت على حب مصر والإيمان المطلق بالإنسان المصرى فهل يذهب كل هذا فى لحظات ؟ وإذا ذهب فسوف أذهب أنا الآخر . . لن أعرف بعد ذلك من أنا ولن أعرف أبداً على ذاتى بل سأعيش فاقد الكيان أهم على وجهى غريباً بين غرباء . . فقيم الحياة إذن ؟ !

كان لابد من الخروج من السجن الذى وجدت نفسى فيه فجأة . . وهنا تغلب حبي لبناء مصر على كل شيء آخر فقررت أن أرى بنفسي بعض من اشتركوا فى الحرب وأسألهم هل استطعنا أن نحارب أم لم نستطع ؟

اتصلت فوراً بمستشفى المعادى العسكري . . رد على القائد فسألته إذا كان عنده أحد من حاربوا فى سيناء فأجاب إن عنده لواء اسمه كمال حسن على . . كان قائداً للواء دبابات حارب فى سيناء ومعه بعض ضباطه وهم فى المستشفى على وشك إجراء عمليات جراحية له ولهم . . قلت للقائد : انتظر سأكون معكم حالاً وأخذت سيارتى وتوجهت إلى مستشفى المعادى . . سألت كمال حسن على . . نلى لي يا كمال بصراحة : أنت حارب فى سيناء ؟ قال لي : أبوه يا افتندم وعملت هجوم مضاد يوم ٧ يونيو قلت له : « طيب لمضى . . سلاحنا كان ناقص ؟ »

قال لي : « أبدأ ! الطلقة بناعتنا مش بس كانت بتصيب الدبابة . . دى كانت من عنفها بتقلبها . . . قلت له : « طب احكى لي على الهجوم » فقال - مشيراً إلى ضابطين صغيرين كانا فى انتظارى معه قبل إجراء العملية لهم - : « دعيم ينصون عليك ما رأوا وما حققوا . . فهم الذين فعلوا كل شيء أما أنا فكان عملي يقتصر على إصدار الأوامر . . »

كنت قد سمعت عن الهجوم المفض الذى قام به لواء مصرى يوم ٧ يونيو . صحف العالم كلها أشادت به ، وحتى موسى ديان كتب عنه ولكن الجميع كانوا يعتبرونه مجهوداً فردياً - أمراً شاذاً لا يصح أن يقاس عليه استعداد قواتنا المسلحة أو قدرتها على القتال . .

ولكنى بعد أن أدت حواراً طويلاً مع ضباط اللواء وقائدهم أدركت الحقيقة وهى أن كل ما قام به اللواء من بطولات كان يجب أن يكون القاعدة وكل ما عداه الاستثناء لولا تحفظ القيادة وضعفها . . فقد اتضح أنه بناء على أوامر القيادة المرتبكة قطع اللواء فى الثلاث أيام الأولى ١٠٠٠ كيلو فى عملية ذهاب وإياب فقط من شأنها أن تضعف قدرة الدبابة على السير . ولكن هذا لم يمنهم من إسقاط ٧ طائرات للعدو . . ورغم السيادة الجوية المطلقة لإسرائيل لم يفقد هذا اللواء إلا ٢٠ دبابة على مدى ثلاثة أيام - أى خمس قوته فقط . .

« إذن فى حرب ٦٧ لم يكن ينقصنا التدريب أو التكتيك أو السلاح أو القدرة على القتال . . الحمد لله . . فالمسألة كلها كانت مسألة إهمال من القيادة . . هكذا وجهت كلامي إلى الضباط وقائدهم وتركهم لأطباء المستشفى وانصرفت لأقضى يوماً من أسعد أيام حياتى وهى قليلة جداً بعد حرب ٥ يونيو سنة ٦٧ وقبل ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . . وكان مصدر سعادتي أنى عرفت الحقيقة .

بعد ذلك وفى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٧ على وجه التحديد عرفت أن جنودنا قد استوعبوا الأسلحة التى أرسلها لنا السوفييت بعد الهزيمة فى ٥ شهور وكان مقترراً لها أن تستوعب فى ثلاث سنوات تكون فيها الأحوال قد هدأت ، فلم يكن فى نية السوفييت أن تكون هناك معركة ثانية وإنما كانوا يحاملون عبد الناصر

من صور الكفاح من أجل البقاء في تلك الفترة صورتان كل منهما تختلف عن الأخرى ولكنها تحمل طابعاً مميزاً له مغزاه . .

الصورة الأولى وهي خاصة بالسوفييت تروى قصة مساعداتهم الحربية لنا بعد الهزيمة فقد أرسلوا لنا من الأسلحة ما استوعبه الجندي المصري في خمسة شهور كما سبق أن رويت . . ولكن لم يكن في هذا الكفاية فقد كنا مقلدين ثلاث سنوات على الأقل لكي نؤمن بلدنا ونرد العدوان . . فأرسل عبد الناصر إلى السوفييت يطلب المزيد من العون . . أرسل مرة ومرات ولكن لا استجابة بأى شكل من الأشكال . . فقد كانت خطتهم أن يسدوا رمقنا بالقدر الذى يكفل لهم الوصاية علينا ويحقق لهم البقاء في المنطقة وهذا هو الأهم .

كنا في أغسطس وكان يتو قد أتى لزيارتنا زيارة ودية ليوامينا ويشد أزرنا وقد كان صديقاً شخصياً لعبد الناصر ولذلك ذهلت عندما رأيت عبد الناصر يفقد أعصابه مع تيتو ويقول له بعد أن كفر بالسوفييت : روح للسوفييت أرجوك وقل لهم أنا مستعد أقبل الهزيمة وأقبل أى شئ ولكنى لا أقبل هذه المعاملة منهم أبدا . .

لا أعرف ماذا فعل تيتو بعد ذلك ولكن الذى أعرفه أن القادة السوفييت لم يغيروا موقفهم فكل ما كان يهمهم هو الحفاظ على البقاء في المنطقة وقد تحقق لهم ما أرادوا . .

الصورة الأخرى وهي أكثر إشرافاً هي صورة مؤتمر القمة العربى الذى عقد بالخرطوم في نفس السنة . . لم يكن عندى أمل كبير في المؤتمر ولكنى فوجئت كما فوجئ العالم بنتائجه . . فقد خرج الشعب السودانى لتحية عبد الناصر بصورة لا تقل عما حدث في مصر يومى ٩ و ١٠ يونيو . .

طبعاً خرج الشعب لتحية باقى الملوك والرؤساء العرب ولكن استقبال الشعب لعبد الناصر كان يفوق كل وصف حتى أن مجلة التايم أو النيوزويك لا أذكر وضعت صورة عبد الناصر على الغلاف وكتبت تحت الصورة (تحية

لوقته ضد أمريكا والإمبريالية ويحرسون على بقاء الوجود السوفيتى في المنطقة - هذا كل ما في الأمر . . ولكن خاب ظنهم كما خاب ظن الكثيرين غيرهم فبعد أن عين عبد الناصر محمد فوزى قائداً عاماً للقوات المسلحة وعبد المنعم رياض رئيس أركان حرب وأحمد إسماعيل قائداً للجبهة فتحت مراكز التدريب على الفور وعملت على أحسن صورة - وهذا نجد يكتب لأولادنا في التاريخ فليس من السهل أن نجد جيشاً يهزم هذه الهزيمة ثم ينهض ليستوعب كمية ضخمة من الأسلحة فيما لا يزيد عن خمسة شهور ويقف بها على خط دفاعى كامل طوله ١٨٠ كيلو متر من بورسعيد شمالاً إلى السويس جنوباً على استعداد لرد أى عدوان .

كم فرحت بما رأيت فقد أكد إيماني بأن قواتنا المسلحة ذهبت ضحية لهزيمة يونيو سنة ٦٧ ولم تكن أبداً أحد أسبابها . . وما يدل على ذلك عملياً أن قواتنا العسكرية لم يستمر أكثر من شهر وبضعة أيام . . في أغسطس سنة ٦٧ وقعت معركة رأس العش التى تصدت فيها قوات الكوماندوز المصرية لقوات إسرائيلية من القوات الخاصة وأبادتها ومنعتها من التقدم نحو بور فؤاد وهى شاطئ بورسعيد الشرقى : وشهد هذه المعركة جمع من محطات تلفزيون أمريكية متقدمهم اليهود لتصوير دخولهم بورفؤاد ثم لم يلبثوا بعد الضرب العنيف من قواتنا والحسائر الشديدة التى لحقت بهم أن احتسوا رجال التلفزيون الأمريكى لوقف الضرب .

طبعاً لم تكن بعد قد امتدنا قواتنا بالكامل ولكن كانت الجذوة ما زالت متقدة . . في ٢١ أكتوبر من نفس السنة (١٩٦٧) قامت زوارقنا الخفيفة بضرب الملمرة الإسرائيلية لإيلات فشطرتها نصفين وأغرقتها في مياه بورسعيد حيث ما زالت تترقد في الأعماق . .

ولكن حتى قبل معركة رأس العش وقبل إغراق إيلات كنت قد توقعت أننى ما زلت بين أهل في مصر الأرض الطيبة التى لا وجود لى بدونها . . وأن واجبى في الحياة هو الكفاح من أجل بقائها . . ليس فقط لأنها بلدى . . بل لأنها فعلاً

المهزوم) غير مدركين سر ارتباط الشعوب العربية بعبد الناصر فقد كان في نظرهم رمزاً للحفاظ على الأمة العربية ضد أى تدخل أو عدوان خارجي . . . كانت علاقتنا مع أكثر الدول العربية حينذاك علاقة خصومة وخاصة مع الملك فيصل عاهل السعودية الذي هاجمه عبد الناصر وندد به في أكثر من خطاب له ولذلك كان الموقف حرجاً بالنسبة لعبد الناصر . . . فيها هو في النهاية يلجأ إلى إخوانه العرب وهو في حالة هزيمة وانكسار . . .

لم نفت فيصل هذه الحقيقة فعندما بدأوا الحديث عن الدعم المالي لمصر مقابل إغلاق قناة السويس . . . أخذ فيصل المبادرة فقرر أن تدفع السعودية ٥٠ مليون جنيه سنوياً كما تقرر أن تدفع الكويت ٥٥ مليون سنوياً وليبيا ٣٠ مليون سنوياً . . .

أما قرارات المؤتمر فيما عدا ذلك فكانت لا صلح ولا اعتراف بإسرائيل ولا مفاوضات معها فإرادة الأمة العربية كلها هي الصمود . . .

وكانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث التي تجتمع فيه الأمة العربية على الكفاح من أجل البقاء .



كان تعيين محمد فوزي قائلاً عاماً للقوات المسلحة القرار الوحيد الذي استطاع عبد الناصر أن يتخذه بعد سنوات عديدة من الصراع مع عامر . . . ضِعاً لم يستقبل عامر هذا القرار بأى ترحيب ، في أول لقاء له مع عبد الناصر بعد ذلك رفض منصب نائب رئيس الجمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر وتمسك بأن يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة الأمر الذي لم يقباه عبد الناصر على الإطلاق . . .

تدخل بعض وسطاء الخير في الموضوع وأنعموا عامر بأن يذهب إلى (أستال) بلده في السويد ويقم بها إلى أن تستريح أعضائه وفعلاً أخذ عامر بالوصية وذهب إلى بلده ولكنه عاد بعد أسبوع إلى منزله بالجيزة وبدأ الاتصال بالقباط وتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة معارضة لعبد الناصر ، ولبنه اكتفى

بهذا ولكنه جمع الكثير من الأسلحة في بيته وراح يعقد الندوات مع الضباط يتحدث فيها عن الهزيمة وكيف أنه ليس مسئولاً عنها كما أنه ليس مسئولاً عن الأوضاع الداخلية والإجراءات الاستثنائية التي أدت إلى إذلال الناس وضيقتهم بالنظام كله . . .

لم يكن من السهل تصديق ذلك فبالجميع يعرفون أنه كان وراء بخنة تصفية الإقطاع والبوليس الحربي وهي أجهزة أهدرت كرامة الإنسان واستفحل شرها إلى أن جاءت الهزيمة فخلصت الناس منها ولو إلى حين ، ولكن هذا لم يمنع الناس من الاستماع إليه أو إلى بجاملته فازداد إمعاناً في الاتصالات بالقباط وبأعضاء مجلس الأمة الذين كانوا ينقلون ما يدور بينه وبينهم إلى شاكين متبرمين فلم أجدهم يبدأ من الاتصال به ونصحه بأن يكف عما يفعل حفاظاً على مصر ووحدتها وشفافاً بعبد الناصر وما هو فيه من محنة . . . فدعوته إلى العشاء عندي في البيت ورحبت به واستقبلته أسرقى أحسن استقبال كما كنا نستقبله دائماً عندما يأتي لزيارتنا . . . ولكني لاحظت أنه قد تغير تغيراً كاملاً . . . كان قد فقد الثقة في نفسه وفقد معها استقباله للحياة وأصبح شخصية مهترزة تكاد تكون مفقودة الكيان ، وقد آلمني هذا كثيراً وخاصة عندما التفت إلى وأبنائي يداعبونه كعادتهم وقال : « أنتم بتكرموني قوى يا جماعة . . . له لغاية دلوقتي بتكرموني ؟ فقلت له : دلوقتي يعني ايه يا عبد الحكيم ؟ علشان أنت ما بقتش قائد عام ؟ هو أنا كنت صاحبك علشان أنت كنت قائد عام ؟ ده برضه كلام حد يقوله ؟ ؟ »

في نهاية لقائنا رجوته أن يقبل منصب نائب رئيس جمهورية الذي عرضه عليه عبد الناصر ولكنه قال بجفوه : لا . . . طول ما جمال عبد الناصر يشغل رئيس جمهورية أنا لازم أشتغل قائد عام القوات المسلحة . . . لا كده لا يلاش . . .

بعد ذلك في أغسطس أثناء زيارة تيتو لنا استدعاني عبد الناصر ونحن في قصر رأس التين بالإسكندرية فذهبت إليه . . . ووجدت علامات الحيرة على وجهه قال : « والله أنا عايز أقول لك على موضوع يا أنور . . . أنا مشغول

قوى بحماية عبد الحكيم وأنا اتكلمت مع تيمو وحكيت له الحكاية كلها . .
تيمو قال لي ضروري تأخذ إجراء في العملية دي وإلا البلد مجروحة وبعدين
أى صراع داخلي وخضوصاً إذا كانت فيه القوات المسلحة . . جيتوسع وينقلب
إلى صراع كبير ، قلت له : يا جمال أنت سمعت منّا كلنا رأينا في الموضوع
ده وفعلنا ضروري أنت بالذات تواجه عبد الحكيم باللي بيعمله وتحسم الموضوع
نهائياً قال : « فعلاً أنا لازم آخذ إجراء . . »

كان ذلك في ١٣ أغسطس ولم يفصح عبد الناصر عن نوع الإجراء
الذي سبخذ - كل ما حدث أن الإجراء تأجل إلى يوم ٢٥ أغسطس . . لماذا
تردد رغم خطورة الموقف ؟ هنا مرة أخرى تظهر علامة الاستفهام
الكبيرة في كل ما يختص بالعلاقة بين عبد الناصر وعامر . .

كان عامر يعرف جيداً أن لا شيء يغيظ عبد الناصر مثل الحديث
عن الديمقراطية وأنه ديكتاتور . . فلجأ إلى طبع الاستقالة التي كان قد قدمها
لعبد الناصر سنة ٦٦ في شكل كتيب ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه
لا يضمن بحكم الفرد وأن لا بد من إعادة الأحزاب . . كلام لا يؤمن به
عامر بل ولا بطراً على فكره . . ولكن كانت آثاره على الناس غير حميدة
فانتشرت الإشاعات بأن الأحوال الداخلية غير مستقرة وأنه من المتوقع حدوث
انقلاب في أي وقت . . للدرجة أن (جاكوب مالك) مندوب روسيا في مجلس الأمن
كان في زيارة لمصر فطلب مقابلة عبد الناصر ليحذره من أن غداً سيحدث
انقلاب عسكري في مصر . .

في هذه الأثناء كان عامر قد جعل من بيته المطل على النيل في الجزيرة
قلعة بكل معنى الكلمة مما جعل عبد الناصر يقرر أخيراً تحديد إقامة عامر
في بيته بعد أن سحب منه جميع الأسلحة وبناء عليه أرسل إليه يطلب
حضوره للقاء في منزله مساء الجمعة ٢٥ أغسطس . . وقال لنا : « اسمعوا
يا جماعة أنا عاوزها جلسة مواجهة وأنتم تكونوا موجودين » وفعلنا أنا
وزكريا عبي الدين وحسين الشافعي كنا موجودين في هذه الجلسة . .

وكانت ترقيات عبد الناصر أنه بمجرد وصول سيارة عامر ونزوله منها

ودخوله لي الصالون تنزع منها الأسلحة في هدوء ويلقى القبض على من فيها
من حراس ثم تستبدل بسيارة أخرى تنقله إلى بيته حيث يبقى فيه تحت الحراسة .

وفي نفس الوقت كان عبد الناصر قد كلف محمد فوزي القائد العام
وعبد المنعم رياض رئيس الأركان بإخلاء بيت عامر من الأسلحة والضباط
والجنود المرافقين فيه بحيث يجد البيت عند عودته خالياً إلا من أسرته والضباط
المكلفين بحراسته . . وفعلنا تم ذلك . . أتى عامر في الساعة التاسعة إلا ثلاث
فجئنا بوجودنا . . وبدأ الحوار الذي لم يشترك فيه طول المدة لا زكريا
ولا حسين الشافعي - طبعاً أنكر عامر كل شيء ، ورغم أن عبد الناصر واجبه
بالمشورات التي كان يصدرها وبعدد الضباط المقيمين عنده في البيت وأنواع
الأسلحة وغير ذلك من الحقائق التي لا تقبل الجدل إلا أن المناقشة استمرت من
التاسعة تقريباً إلى الثانية صباحاً . .

قبل ذلك بدقائق أحس عامر أن في الأمر شيئاً فقرر العودة إلى منزله
ولكنه فجئنا عند البوابة بالحرس يمنعونه من الخروج ووجد عند باب البيت
سيارة أخرى غير سيارته التي حضر بها . . وبها بعض الحرس . . فأدرك أنه
مقبوض عليه وعاد إلى حيث كنا . .

أحس عبد الناصر بالإعياء أو خشي أن يتراجع في قراره فانسحب إلى
حجرة نومه ولحق به زكريا والشافعي على ما اعتقد فوجدت نفسي وحدي وجها
لوجه مع عامر الذي قال لي إنه ذاهب إلى دورة المياه فصاحبته ثم عدنا إلى الحجرة
فإذا به يفاجئني بقوله إنه تناول سيانور لينتحرر . . ودهشت فأنا أعرف
من قراءتي أن السيانور إذا لمس الفم يموت من يتناوله في أقل من الثانية . .
ومع ذلك أرسلت في طلب الأطباء لإسعافه وفعلنا حضروا وأسعفوه . .

كان الموقف عصياً للغاية فقد آلتني أن أرى عامر على هذه الحال وآلتني
أكثر إحساسى بأنه يحاول أن يفلت من المأزق الذي شعر أنه سعى إليه بنفسه
على أمل أن يعود إلى بيته ويتحصن فيه فهو لم يكن على علم بالإجراءات
التي تمت أثناء تقيبه عنه في جلستا هذه . .

كانت ليلة مؤلمة للشعور تعذبت فيها كما لم أتعذب في حياتي فقد
طلع علينا الصباح وأنا وحدي مع عامر أشاهده يعاني ولا أستطيع أن
أمد إليه يد المساعدة .

في الساعة السادسة والنصف مباحاً نزل زكريا والشافعي من منزل عبد الناصر
وأخذوا عامر إلى بيته حيث تحدثت إقامته .

لما إذا استجاب عامر لدعوة عبد الناصر وذهب للقائه في منزله ؟ سؤال
كان ينبغي أن يطرح نفسه على أي إنسان ولكن لم تكن الإجابة عليه
ليصلحه كعادتهما عقب أي سوء تفاهم يحدث بينهما . . كان عامر واثقاً من
نعمه وأن عبد الناصر سوف يستجيب لطلبه ويأخذه معه إلى مؤتمر القمة
في الخرطوم الذي اعتد بعد ذلك اللقاء يومين . . وكان عبد الناصر يعرف هذا كله
مقدماً من مكالمات تليفونية بين عامر وبعض أصدقائه كان عبد الناصر
قد أمر بتجليلها .

في سبتمبر كانت التحقيقات التي أجريت مع أعوان عامر قد بدأت
تأخذ شأكل القضية ثم وصلت عبد الناصر بعض التقارير التي تقول إن
عامر كان ما زال يجرى بعض الاتصالات مع أعوانه وأتباعه عن طريق
أبيه فكلف عبد الناصر محمد فوزي وعبد المنعم ربابي بنقل عامر إلى
مكان بعيد عن بيته . . وفعلاً أتي القبض على عامر في منزله ولكنه كان يشكو
من الألم فأخذه إلى مستشفى المعادي حيث وجد الأطباء بفمه خادراً -
كما يقول التقرير الطبي - فأخرجوه . وذهبوا به إلى قبلا على ترعة المربوطية
كانت قد جُمِرت كمعتقل فأحييت بالأسلاك الشائكة ووسائل الحراسة
الضخمة . .

بعد أن علم أن عبد الناصر إلى أن عامر قد استقر في المعتقل انتقل إلى
الإسكندرية - حيث أقام في الممنورة وانتقلت أنا كذلك إلى شقتي بشاطئ
مائل .

في يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر اتصل بي عبد الناصر تليفونياً ليخبرني أن

عامر يريد أن يراني اليوم أو في الغد الأربعاء على أكثر تقدير - قلت
له لازم أشوفه . . لازم أروح له قال لي : طيب ما تفكر . . قلت له : لا أنا
في هذا قاطع . . بس أنا رأيي ندى أمر للناس اللي بيعملوا التحقيق بيعتوا
لي صورة من التحقيق بكرة الصبح أقرأها وأعرف إيه الأقوال علشان
أواجه عبد الحكيم بيها وبعدين أروح له المعتقل يوم الجمعة .

وافق عبد الناصر وأرسل لي ملفات القضية صباح الأربعاء وكانت في ذلك
الوقت قد وصلت إلى آلاف الصفحات فتوفرت على دراستها واستغرقت مني
الأربعاء بأكمله ونهار الخميس أيضاً . .

كل هذا وأنا أعد نفسي للقاء عبد الحكيم عامر في المعتقل يوم الجمعة
حيث كان في نيي أن أنصحه بالتصالح مع عبد الناصر وكفانا تصارعاً فالمصيبة
التي نحن فيها أكبر وأخطر من أي شيء . . كما كنت مضطراً على أن أبقى معه
في المعتقل إلى أن تحل الأمور إما بالصلح أو بالمحاكمة . .

وفي مساء الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦٧ تناولت طعام العشاء ورأيت
ما زال مشغولاً بلقاء يوم الجمعة فإذا يجرس التليفون يدق وعبد الناصر يتكلم .

قال : أنور .

قلت : أيوه يا ريس خير .

قال : « أنور »

وسكت لمدة دقيقة . . دهشت

فقلت : جمال . . أنت على الخط ؟

قال : آه

قلت : أمال سكت ليه ؟ فيه إيه ؟

قال : عبد الحكيم عامر انتحر ومات الساعة ٧ مساءً وبلفونتي دلوقت
من المعتقل . .

قلت : والله إذا كان ده حصل فعلا يبقى ده أحسن قرار اتخذاه عبد الحكيم
عامر كقائد خسر معركة . . لأنني لو كنت مكانه كنت عملت كده بيوم
٥ يونيو . .

جمال سكت قليلاً ثم قال : إزاي بتأخذ الموضوع بالشكل ده ؟
قلت له : في التقاليد العسكرية أى قائد يينهم بيعمل كده . .

طلب منى عبد الناصر أنى نهاية الحديث أن اتصل بحسين الشافعى وعلى صبرى وأطلب منهما الذهاب إلى المعسورة معى لكى نساfer جميعاً إلى القاهرة وكان زكريا محيى الدين فى القاهرة . . ولكن دون أن أذكر لها الأسباب . .

وصلنا القاهرة بعد منتصف الليل فركت جمال فى منشية البكرى وتوجهت إلى المعتقل عامر الذى لم يكن يبعد عن بيتى فى الحرم بأكثر من خمس دقائق . . هناك وجدت النيابة والطبيب الشرعى وشقيق عبد الحكيم عامر وكان مستشاراً فى القضاء - حضرت التحقيق وأثبتوا ذلك فى المحضر ثم بدأت أسأل الطبيب الذى كان يصاحبه فى المعتقل وهو الدكتور بطاطا الذى ما زال إلى يومنا هذا طبيبى الخاص . .

كانت إجابة الطبيب أن عامر وهو فى الجمام أصيب بما يشبه أزمة قلبية على الأرض - جملوه إلى فراشه حيث كان يرقد أمامى . . وحاولوا إسعافه ولكن عبثاً فقد مات بمجرد أن وقع على الأرض . . لم يكن هناك أى شىء غير عادى فى جسمه سوى ما لاحظته الطبيب الشرعى عندما كشف عليه فوجد عند مفصل فخذه الشمال مع جسمه بلاستر وتحت جثتان . . ماذا كانا ؟ أعتقد أن هذا جاء فى تقرير الطبيب الشرعى . .

تأملت وجه عامر قبل أن أغادر المكان . . فلم أشاهد عليه صفرة الموت - بالعكس كان وجهه يبدو طبيعياً وكأنه مستغرق فى نوم عميق فلا انفعال ولا تقلصات ولا أى شىء من هذا القبيل - بالعكس عادت الساحة إلى وجهه فرأيت أمامى عبد الحكيم الأسمر اللون العادى الهادئ اللطيف الذى رأيته أول ما رأيته فى رفح . . وهو فى مقتبل عمره منذ سنوات وسنوات . .

عندما دخلت بيتى فى الصباح المبكر سمعت جرس التليفون يدق كان عبد الناصر على الطرف الآخر للخط يحاول أن يطمئن على ما حدث ورويت له ما رأيته وقلت لى سأغير ملايى لكى ألقى بالجنائزة فى بلدة عامر (اسطال) فتشيع الجثة هناك بعد خروجهما من المشرفة .

ولكن عبد الناصر لم يوافق . . فقد كان يخشى أن يخرج أولاد عامر عن حدودهم عندما يعلمون بالخبر - وليس هذا من المصلحة فى شىء فالوقت الذى تمر به يتحتم علينا الحفاظ على هيئة الحاكم . .

نحتم عبد الناصر حديثه معى بقوله ورنه الأسى فى صوته : -

« تصور يا أنور عبد الحكيم وأنا وأنت - احنا الثلاثة أصدقاء لكن تصور يا أنور أن عبد الحكيم يموت وأنا وأنت أن ما حدث حاشى فى جنازته هناك واحنا كان مش قادرين نمشى فى جنازته . . تصور . .

لم أكن أتصور فعلاً أن شيئاً من هذا يمكن أن يحدث وأن الصراع من أجل البقاء يمكن أن ينهى بين الأصدقاء بمأساة ولكن يبدو أن هذا هو شأن الحياة

7

كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفر منه . . فقد بدأت الناس تفتق بعد ٩ و ١٠ يونيو وتساءل من المسئول عن المذبحة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدأوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسياً فى الكارثة التى حلت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعى وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعاً حاول المتهمون إنفاذ رعايتهم فحولوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الاستثنائية وكبت الحريات وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح المذبحة كانت ما زالت تدمى فى قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا الانفجار الطلابى فى فبراير سنة ٦٨ الذى ما لبث أن عم جميع فئات الشعب .

حاولنا حصار الانفجار وانتهت عملية الحصار عندى فى مجلس الشعب عندما أرسلت فى طلب الطلاب وكانوا معتصمين فى الجامعة وجلست معهم خمس ساعات ذهب بعدها كل منهم إلى منزله . .

لجأ عبد الناصر كمعادته إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجته لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة - ولم يكف عبد الناصر بإصدار البيان بل طلب من الشعب الاستفتاء عليه فخرجت البلد بأكلها لتأييده مما أذهل المراسلين الأجانب فقد كانوا مؤمنين بأن أحداً من الناس لن يذهب للاستفتاء وهم ما زالوا جميعاً يعانون من المزعجة وآثارها . .

صورة أخرى من صور فترة الانتقال هذه كانت حرب الاستنزاف التي بدأتها في سبتمبر ٦٨ بعد أن كان اللواء أحمد اسماعيل قد انتهى من بناء خط الدفاع المعسرى وكنا قد سرنا شوطاً لا بأس به في تدعيم قواتنا المسلحة . . بدأت الحرب بالمدفعية فردت علينا إسرائيل بضرب محطة الخوالات في نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا في الصعيد . . فاضطررنا إلى التوقف من سبتمبر ٦٨ إلى مارس ٦٩ حيث استغلنا في تلك الفترة من حماية جميع المنشآت ثم استأنفنا في سنة ٦٩ رغم أن الاتحاد السوفيتى كان ضد هذا ولم يعوضنا عن الذخيرة التي استنفدناها حينذاك إلا مع الكوبرى الجوى عند بدء معركة ٦ أكتوبر سنة ٧٣ . وكان هذا عقاباً لعبد الناصر لأنه بدأ حرب الاستنزاف واستمر فيها ضد رغبة السوفييت .

من أحداث تلك الفترة التي كانت ذات أثر بعيد فيما بعد - أن عبد الناصر في ساعة صفاء وإلهام قال لى وكان ذلك يوم ١٩ ديسمبر ٦٩ : أنا مسافر يا أنور حضور مؤتمر القمة العربى في المغرب يوم ٢٠ ديسمبر . . ورى ما أنت شايف المؤامرات حولي كثيرة وعتمل جداً أن أصاب في إحدى هذه المؤامرات وأنا مش عايز البلد تبقى نايبة ومش عايز أسيب البلد في فراغ . . ولذلك قررت أن أعينك نائب رئيس جمهورية وتحلف اليمين قبل ما أمشي . كنت أعرف أن مؤامرات عملاء الاتحاد السوفيتى قد بدأت بعد أن أتى الخبيب الرومى شازروف إلى مصر ورأى عبد الناصر وأمر إلى وإلهم دون شك بأن الأزمة القلبية التي أصابت عبد الناصر من النوع الخبيث وأنه لن يعيش بها طويلاً . . فتمننت ما قاله لى عبد الناصر وأجبتة ؛ -

- فكرت يا جمال ورسيت ؟ أنا مش عاوز يا جمال تبقى نائب رئيس جمهورية . . أنا حاكمل معاك وأشتغل وإذا كان لابد من لقب كفاية على مستشار رئيس الجمهورية .

قال : لا . . بكرة نفوت على عشان تحلف اليمين . . . وفعلنا ذهب إليه في اليوم التالى ومعى حسين الشافعى كمعادتنا لاصطحابه إلى المطار . . في المنزل طلب أن أحلف اليمين وكان ذلك في وجود حسين الشافعى ففعلت وحينما ذهبت إلى المطار لتوديعه أعلنها عبد الناصر على الجميع . .

٧

من أوضح مظاهر الصراع من أجل البناء في هذه الفترة صراع عبد الناصر مع السوفييت من أجل بقاء مصر وصراع السوفييت مع عبد الناصر من أجل بقائهم في المنطقة . .

في أول يناير سنة ١٩٧٠ حينما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من ٧٠ عاملاً بريئاً استدعى عبد الناصر السفير السوفيتى وكبير الخبراء وأخبرهم أنه ليس في إمكانه الانتظار إلى يونيو وهو ميعاد تسليم بطاريات الصواريخ سام ٣ وخاصة بعد أن وصلت إسرائيل إلى العمق وضربت التجمعات العمالية والسكانية ، فحدد له القادة السوفييت ميعاداً في ٢٢ يناير وسافر إلى موسكو في زيارة سرية استغرقت أربعة أيام عاد بعدها وهو في قمة السعادة . . قلت له : خير يا جمال . .

قال : الدور ده الظاهر حيصدقوا معانا . . فانا لما قلت أن الأمر عاجل وملح وطلبت منهم يبعثوا لنا صواريخ سام ٣ بأطقم سوفيتية إلى أن يتم تدريب أطقمنا في أغطس جمعوا القيادة السياسية وأخذوا قراراً بإرسال سام ٣ ابتداء من شهر مارس سنة ٧٠ .

كنا منذ المزعجة نلح على السوفييت أن يعاونونا في الدفاع الجوى حتى أن عبد الناصر طلب منهم حينذاك أن يتولى الدفاع الجوى عن مصر قائد سوفييتى . . فقد كان الدفاع الجوى عندنا نقطة ضعف بارزة كما ثبت في عامى ٦٩ ، ٧٠ عندما ضربت إسرائيل مصنع أبو زعبل ومدرسة بحر

منذ هزيمة سنة ٦٧ لم يسلم عبد الناصر من المرض إلى أن مات . . . في ٥ يونيو ١٩٦٧ إنفلت السكر ولم يتمكن من السيطرة عليه إلا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ . . . خمسة شهور متتالية كانت كفيلة بأن تدمر الجهاز الداخلي لعبد الناصر على صورة أمراض متوالية أولا أصيب به في ديسمبر سنة ٦٧ على هيئة بثور في بعض أجزاء من جسمه وكان أي احتكاك للملابس بها يسبب له آلاماً رهيبية فأرسلنا في استدعاء الأطباء من مختلف أنحاء العالم إلى أن اكتشف المرض طبيب إنجليزي وأوصى بعلاجه عن طريق الهرمونات المضادة واضطر عبد الناصر إلى أن يخضع لهذا العلاج الذي كان يسبب له أزمات عصبية شديدة مدة شهرين كاملين إلى أن شفى من المرض فتلقته على الفور مرض آخر . . . إذ بدأ يحس في ساقيه بالآلام عنيفة أخذ عنها يزاد يوماً بعد يوم إلى أن وصلت إلى درجة لا يمكن احتمالها أو وصفها وما زاد الحالة ضراوة أن عبد الناصر كان عليه أن يكتم آلامه ليلظهر أمام الناس بكل هيئته وبالمهالة الضخمة التي كانت تسيطر به حتى إذا ما خلا إلى نفسه أغلق حجرة النوم عليه وعلى - فقد كنت الأزمه - وراح يصرخ بأعلى صوته كالأسد الجريح الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً . . . ظل على هذه الحال شهوراً متوالية إلى أن سافر للعلاج بالمياه المعدنية في (سخلطوبو) في روسيا .

وفي سبتمبر سنة ٦٩ أصيب بنوبة قلبية أخفيناها وأعلنا أنها أنفلونزا . . . بعد أن فحسه الأطباء المصريون أسروا إلى بأنها أزمة قلبية . . . وطلبني عبد الناصر وقال لي : ه والله يا أنور شوف حتمل ايه وصرف الأمور كما ترى ، قلت له : أنا حابعت أجيب لك الدكتور شازوف .

كان شازوف طبيب القيادة السوفيتية وقد سبق له أن تولى علاج عبد الناصر في موسكو ، فأثنى على وجد السرعة وأكد تشخيص الأطباء المصريين وأوصى بأن يلتزم عبد الناصر بالراحة التزاماً كاملاً لأن هذه النوبة القلبية بالذات كانت من نوع خبيث للغاية فإذا تعرض صاحبها لأي إجهاد بدني أو نفسي فسوف تؤدي بحياته بدون أن يشعر بأي ألم . . . وهذا ما حدث لعبد الناصر بعد

تحت رعاية

في خلال تلك السنة حدثت بعض الأمور التي أنهكت عبد الناصر صحياً وكان أولها قبوله لمبادرة روجرز فمجرد أن سمع الفلسطينيون بهذا شنوا عليه حملة شرسة هوجاء دون أن يترثوا أو يسألوه عن سبب قبوله لمبادرة روجرز وهو الذي وقف إلى جانب القضية الفلسطينية كما لم يقف أي رئيس أو حاكم عربي آخر . . . بل لا أبالغ إذا قلت إن عبد الناصر ببنيه لقضية فلسطين قد أضنى على القضية كل أبعادها السياسية التي لولاها لظلت مجرد قضية لاجئين . . . فهو الذي ملأ العالم العربي والعالم كله باسم فلسطين . . . وكان يهاجم بعنف أي حاكم عربي لا يقف إلى جانب القضية الفلسطينية . . . بل وكرس كل جهده واستخدم الثورة نفسها للدفاع عن حق الفلسطينيين في وطنهم . . .

كان من الطبيعي أن يتأثر عبد الناصر بموقف الفلسطينيين منه وأن يكون تأثيره شديداً وعميقاً . . . فهام الذين أفنى صحته في الدفاع عنهم يتذكرون له بالمازادات والشعارات والانفعالات الطائشة الهوجاء والسفاهات الصبيانية ! كيف يتحمل رجل مريض بأقصى أنواع المرض أن يطلعن كبريائه هكذا وليس على أيدي الغرباء كما حدث في آخر زيارته لموسكو بل على أيدي الأقرباء الأصدقاء . . . الإخوة الذين كثيراً ما فضل مصالحهم على مصلحته الشخصية ؟

كان من الطبيعي أن يؤثر كل هذا على صحة عبد الناصر فيعجل بنهايته . . . ولكن ليت الأمور توقفت عند هذا الحد . . . في سبتمبر دعا عبد الناصر إلى مؤتمر قمة عربي في القاهرة من أجل مذبحه أيلول (سبتمبر) سنة ٧٠ بين الملك حسين والمقاومة الفلسطينية . . . وكان السبب في هذه المذبحة أن الملك حسين قرر تصفية المقاومة في الأردن فاشتبك معها في صدام مسلح مما أدى إلى مذبحه بين أفرادها بالمعنى الكامل للكلمة . . .

لم يستطع عبد الناصر السكوت على هذا فدعا إلى المؤتمر في القاهرة ورغم كل ما ناله من أذى وحضر جميع الملوك والرؤساء العرب ما عدا الملك حسين . . . أما أنا فقد كنت قد شفيت لنوى من الأزمة القلبية التي انتابني للمرة الثانية سنة ٧٠ وحضرت إلى القاهرة للإشتراك في المؤتمر . . .

حضر المؤتمر معمر القذافي وكان ماهرة تفتت النظر بالطبيعة التي لا تنافى
حزاه سترته كما كان دائم السباب في الملك حين . . كان يصنفه بأنه رجل
عيب . . ولأنه من دحول مستحق الخباذيب . . وكنت أنا إلى ذلك الوقت أفسر
سبوكه على أنه نوع من ايدفاع الشباب والخماس الرائد عن اللازم . . المهم
نفس الاستياء إلى مؤيد غيب . الملك حين ومؤيد لعدم محبته ولكنهم اتفوا
في اقتراح عند الناصر من ضرورة اشتراك الملك حين في المؤتمر . . فعلا جاء
الملك حين وسار المؤتمر . ولكنه أصبح بشكل تقسلا رهيباً على الأعصاب
لا من ناحية الملك حين بل من ناحية معمر القذافي وتصرفاته هو وباصر

مختصين ذات صباح في جناح عبد الناصر في فندق هيلتون أثناء انعقاد
المؤتمر وكان معمر باصر عرفات وكان جمال حربيتا على أن يصل إلى صيغة
من الصلح . . من رأيه أن يضارب كل من القارتين قليلا فكلاهما غطى .
باصر عرفات بفعل وبينما سيدة من الانفجارات لا نهاية لها . . ضاق جمال
بوقت طويل . . ما أعرض ده كله عشائك ويتحرق دمي بالشكل ده
ت

وترب عبد الناصر بجاح عادياً إلى بيته بعد أن أعلن تصميحه على عدم
عودة إلى مؤتمر . . خطابه وهو بهم يركوب المتصد فأقنعناه بالعودة
مع وبعد محاولات عديدة ابتدا باصر عرفات يستجيب .

بعد أن المؤتمر كان حملاً ثقيلاً على أعصاب عبد الناصر . فقد أجهد
نفسه أكثر لإجهااد بسبب القذافي وتصرفاته من ناحية ومن ناحية أخرى
بسبب باصر عرفات الذي كان عبد الناصر قد دعا إلى عقد المؤتمر ليحل له
مشكلته . . انتهى المؤتمر بالإتفاق على ما اتفقوا عليه وعاد الملوك
وأروماه العرب إلى بلادهم وكان عبد الناصر في وداعهم جميعاً . . كان
آخر من سافر الملك فيصل وأمير الكويت . . وعند توديع الملك فيصل نبني
كبير الياوران إلى أن قدمي الرئيس جمال قد . . ولنت على بعضها ، وهو يسير
فطلبت من عبد الناصر أن يذهب إلى بيته ليستريح وأقوم أنا نيابة عنه بتوديع
أمير الكويت ولكنه رفض .

كان من الواضح أنه يتحامل على نفسه فعندما ركب أمير الكويت طائرته
لم يتحرك عبد الناصر من أمام الطائرة بل وقف مكانه والعرق يتصبب
من وجهه وقد امتنع لونه بصفيرة رهيبه . . فطلب أن تأتي السيارة إلى حيث
كان . . وتركته على اتفاق أن يسافر في الغد إلى الإسكندرية للإستجمام والراحة
وذهبت إلى منزلي لأستريح قليلا فاتفصل في مكثريه الخاص ليقول لي إن
عبد الناصر سيحضر عندي لتناول العشاء معي . . وذهبت لأنام قليلا ولكنهم
أيقظوني في الساعة مساء وقالوا إن بيت الرئيس جمال اتصلوا وقالوا إنك
مطلوب في البيت لأمر هام . .

ارتديت ملابسى بسرعة وذهبت إلى منشة البكري حيث وجهوني إلى
حجرة نوم عبد الناصر فوجدته على فراشه والأطباء يحيطون به قالوا
لي إنه مات منذ ساعة . . كشفت عن وجهه جمال فوجدته طبعياً جداً
وكأنه يستغرق في نوم عميق . . ألصقت خدي بخده فلم أحس بالبرودة التي
تصاحب الموت . . التفت إلى الأطباء وقلت : . . مش ممكن . . الكلام اللي بتقولوه
ده مش ممكن يبقى صحيح . . قالوا لي إنهم قاموا بجميع الإسعافات اللازمة
واستعملوا جهاز القلب الذي يعطى صدمة توقف القلب . . قلت لهم : . . حاولوا . .
حاولوا مرة أخرى . . فأنفجروا بالبكاء وعلمت منهم أنهم حاولوا كل جهدهم
لمدة ساعة كاملة قبل وصولي ولكن قضاء الله وقدره كان قد نفذ . .

أمرت بنقل الجثمان إلى سراى القبة وكنا في يوم الإثنين فجمعت مجلس
الوزراء واللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي وقررنا أن يكون ميعاد الجنازة
يوم الخميس حتى يتمكن معزول من ملوك ورؤساء من تسيع جنازة
وطلبت من الأطباء العمل على حفظ الجثمان بطريقة سليمة إلى يوم الخميس .
ومكنت بقصر القبة حيث جنم عبد الناصر إلى أن أتى وقت تسيع جنازة
فخرجت لعمل الترتيبات لسير الجنازة التي كانت تبدأ من مجلس قيادة الثورة
ولكن بعد أن وصل الجثمان وخساره على وشك الانتهاء
مناجيء . . فحملوني إلى مجلس قيادة الثورة وأعطاني الأطباء حسن حيل
لم أفق منها إلا حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر . .

كان أول سؤال سأله : هل دفن عبد الناصر ؟ فقد كنت أخشى أن تعمل
جماهير الشعب التي كانت تقدر بالملايين التمش وسير مندفعة به .

فصوت عبد الناصر كان فوجعة متاخنة الجميع

الفصل الثامن

الثورة الثانية

بعد موت عبد الناصر مباشرة لم تكن في رغبة في أن انتخب رئيساً للجمهورية ولما كان عبد الناصر في خطاب العودة يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧ قد أعلن أنه سوف تجري انتخابات للرئاسة بعد إزالة آثار العدوان فقد قلت إنني سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن أزيل آثار العدوان وبعد ذلك تجرى الانتخابات . .

ولكنني بدأت أراجع نفسي لما أحست من تيارات ومناورات من جانب مراكز القوى وأغلبية أعضاء اللجنة التنفيذية العليا التي تركها لي عبد الناصر وهي المكتب السياسي . . كما أنني لاحظت أن البلد رغم حالة الحزن الشامل الذي كان يخيم عليها كانت في حالة ترقب . . فالشعب يريد أن يعرف إلى أين يسير وهو كله يجمع على شيء واحد وهو ضرورة أن نضمد جراحنا ونلم شملنا بأسرع وقت ممكن لتكمل المسيرة . . وهذه ميزة الشعب المصري الأصيل الذي يستد إلى حضارة سبعة آلاف سنة . . إنه لا يفقد إحساسه بكيانه مهما كانت الظروف .

وشيء آخر كان له وزنه في مراجعتي لنفسى ، فقد وصل الرئيس بومدين رئيس الجزائر قبل الجنازة واجتمع بي ولما علم أنني سأعمل نائباً لرئيس الجمهورية إلى أن تم إزالة آثار العدوان اعترض بشدة وقال إنه لا يجب أن يكون هناك أي شك أو اهتزاز في صورة مصر في عيون العالم . . وإنه يجب أن ينتخب الشعب رئيس الجمهورية فوراً حفاظاً على مكانة مصر ومثولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية كلها . .

ولكن لعل ما جعلني أحسم الأمر ، مذكرة أرسلتها إلى القوات المسلحة لتسول فيها إن الظروف التي تمر بها مصر صعبة ودقيقة للغاية . . وإن أمام

القوات المسلحة واجباً لا بد من إنجازه ولذلك فهم بحاجة إلى وجود قائد أعلى مشول يمكنون تحت رئاسته من تحقيق هدفهم . .

كانت المناورات قد بدأت بالفعل من جانب بعض مراكز القوى وكان المركز الذي أراد استغلال هذا الموقف أولئك الذين كانوا يستندون إلى الاتحاد السوفيتي ، وكان هناك آخرون . .

ولكن المركز الأول الذي كان يضم عملاء الاتحاد السوفيتي أخذ برتب نفسه ، وتعهدوا فيما بينهم على أن يكونوا الورقة الشرعية لعبد الناصر بدعوى أنهم الأماء على خطه . .

ففي يوم الخميس بعد تشييع الجنازة استدعت المسؤولين وقلت لهم إنني عدلت عن البقاء كنائب لرئيس الجمهورية وإنه لا بد من الإلتخاب ولذلك طلبت انعقاد اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي (المكتب السياسي) فكل شيء يجب أن يسير وفقاً للدستور .

طبعاً كانت هناك صراعات ومناورات أثناء انعقاد اللجنة - فأحدثهم مثلاً وكان العضو الباقي معي من أعضاء مجلس الثورة طلب أن يظل الوضع كما هو وقال لي : « أنا أخشى لو قدمنا اسمك أن تكون محرراً فالبلد ترفضك وإذا حدث هذا فسيكون معناه أن البلد يرفض ثورة ٢٣ يوليو . .

قلت له : أنا عندي من الشجاعة الكافية - إذا عرضتم اسمي ورفضه الشعب - أن أجمعكم مرة أخرى ونختار مرشحاً آخر وإذا رفض الشعب المرشح الآخر فسنعاود الكرة ونختار مرشحاً جديداً . . فلن أسلم البلد إلا لرئيس منتخب من الشعب مهما كلفني هذا من معارك . .

انتهت المناقشات بالموافقة على تعييني رئيساً للجمهورية وذهبتا إلى اللجنة المركزية التي وافقت على اختياري كما وافق مجلس الشعب . . وبعد ذلك أجريت الانتخابات وانتخبني الشعب رئيساً للجمهورية وكان ذلك في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠

بمجرد انتخابي أصدرت قراراتي بتعيين الدكتور محمود فوزي رئيساً للوزراء وعبد الحمن أبو النور أميناً عاماً للاتحاد الاشتراكي فأنا أؤمن أن العمل بفرد واحد خطير جداً لأنه يؤدي في النهاية إلى أن هذا الفرد لا يستطيع أن يلم بكل شيء فبأنهز بعض معاونيه الفرصة ويأخذون الأمور في أيديهم كل يتصرف كما يشاء وبذلك توجد مراكز القوة - تماماً كما حدث بالنسبة لعبد الناصر . .

أرادت مراكز القوة أن تصعد الصراع ، بحجة أننا لا بد أن نسير على خط
عبد الناصر . . فقلت لهم إنني لا أستطيع أن أصرف الأمور كما كان يصرفها
عبد الناصر - فكل منا يختلف عن الآخر . . صحيح نحن لا نختلف في المبادئ
أما الوسائل فتختلف عليها مائة في المائة . .

وقد كانت لي جلسات مع عبد الناصر في بيته وفي بيتي خلال السنة
السابقة لوفاته إذ كنا نتبادل الزيارات فنلتقي يوماً لسيدي ويوماً لدى . .
وكنتم دائم الحديث معه عن ضرورة تغيير منهج الحكم والأساليب التي كانت
الناس تحكم بها إذ كان الشعب بعد الهزيمة وبعد الصمود الذي أبداه في حاجة
ملحة إلى التغيير . .

أذكر أنه في أول يوم تسلمت الحكم أي في يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠
جاءني سامي شرف وكان هو كاتم سر عبد الناصر ووزير شئون رئاسة الجمهورية
ومعه أوراق كثيرة لعرضها علي . . سألته : « ايه دي ؟ » قال لي : « دي مكالمات
تليفونية لأشخاص موضوعين تحت المراقبة » قلت له : « آسف . . أنا
ما تحبش أقرأ الكلام الفارغ ده . . إذا كان فيه شيء خاص بأمن الدولة
أشرفه وأحكم فيه . . أما ناس بتتكلم مع بعضها - أنا دخلي ايه ؟ وأنتم بآي
حق تحطوهم تحت المراقبة ؟ شيل » وأزحت الأوراق من أمامي فجمعها
وخرج ولكن قبل خروجه كنت قد أصدرت أمري إليه بإلغاء جميع
المراقبات التليفونية وأن لا نتم أي مراقبات إلا بأمر القضاء وفعلنا تم
هذا . .

منذ أول يوم توليت فيه استيظفت في إرادة التحدي . . صحيح أنها لم تتم
 يوماً طوال السنوات السابقة فهي إحدى مقومات شخصيتي ولكنها لم تكن بهذه
البساطة والحدة الآن . . بعد أن تسلمت الحكم . . فقد صارت مسئوليتي أن أسلم
الشعب الأمانة سليمة . . رغم كل الظروف المحيطة به من هزيمة عسكرية كاملة
الآبعاد ووضع اقتصادي مهار وعزله سياسية قاتلة ، فعلاقتنا مع الدول
العربية وأمريكا وغرب أوروبا ممزقة تماماً . . بل لم تكن لنا علاقة إلا
مع الاتحاد السوفيتي الذي لم يفكر حتى في أن يعرضنا عن قطع علاقتنا مع جميع

دول العالم . . فإذا أضفنا إلى كل هذا بعض الحقائق التي لمسها بنفسى والتي تقطع
بأن أحداً من المسئولين الذين كانوا يحيطون بعبد الناصر لم يكن يأخذ
في حسابه إلا مصلحته الخاصة وبقاءه في منصبه وسلطته المطلقة بغض النظر
عن مصلحة مصر (فقد أصبحت الحسابات كلها شخصية كما أصبح
الجميع يعيشون بالحقن والبغضاء) . . لأدركنا أن كل هذه الصعاب قد شحنت
إرادة التحدي عندي فدعمتها وأيقظتها بحيث لم تضعف أو تغفل لحظة واحدة
منذ أن توليت حتى الآن . .

قلت لجميع أعضاء مجلس الثورة ومراكز القوة في بداية حكمي إنني لن
أقبل هذا الكابوس والحمل الرهيب ذا الأبعاد غير الواضحة . . وسأعيد
تصحيحه بالحب والقوة الداخلية التي أعز بها دون أن أقف على أشلاء أي
إنسان أو أجرح أي شخص . .

كنت أعرف أنني بهذا أتحدى الكثير من الأوضاع والأخلاقيات القائمة ولكني
كنت أعرف أيضاً أنني قادر على هذا التحدي فأنا في أي وضع ملئ بقوة
ذاتية أكبر بكثير من المنصب الذي أشغله - ولكن ها أنا الآن أملك قوة مادية
أعطائها لي الله وهي منصب رئيس الجمهورية فلا بد أن أستخدمها للخير . . كان
هذا خطي طول عمرى . . فأى عمل أقوم به يصدر عن مبادئ معينة هي
إسماعاد وحب مصر ولكن لم تكن الفرصة مواتية لي في أي وقت مضى مثلما أصبحت
بعد أن اختارني الشعب رئيساً للجمهورية . .

وعندما أراجع خط سيرى في الحكم في تلك المرحلة المتقدمة أجد أنني
في ديسمبر سنة ١٩٧٠ أصدرت قرار تصفية الحراسات . . كانت للشعب
آمال تراوده وكان هذا أحدها ولذلك لم أدهش عندما علمت أن القرار قد استقبل
بحماس شديد ليس فقط من جانب أولئك الذين كانوا قد وضعوا تحت الحراسة
بل أيضاً لدى جماهير الشعب العريضة التي لن يفيدها القرار في شيء مثل
سائقى التاكسي وغيرهم .

بالنسبة للوضع الخارجى فقد تقدمت بعد ٤ شهور من بدء ولايتي بالمبادرة
المصرية التي كان لها وقع شديد خارج مصر وداخلها فكنت أرى أنه ما دامت
المعركة العسكرية مستحيلة فلا بد أن نحل محلها معركة دبلوماسية لأن القاعدة
العريضة من الشعب تتطلب دائماً الحركة المستمرة . .

عندما تسلمت الحكم كانت الفرقة التي تركها لى عبد الناصر مبهمة بالنسبة لى أول الأمر - ولكن أبا كان الوضع الذى كانت مصر فيه فقد قبلت التحدى لأصححه . . كنت أعرف أن القيم قد ضاعت ولكنى استطعت أن أصحح هذا بقيمى ومبادئ . . وليس بضرب الناس . . كانت مراكز القوة تحكم أمام عيني فقلت لهم : أنا أسمع ولكنى لا أسمع بالعيب . .

لم يكونوا يعرفون أنى لا أسمع لنفسى بالحكم على مصائر الناس بتقارير تقدمها مراكز القوى كنت أعلم أنها مزورة وليست إلا شهبوات انتقام أو تخويف . . وكانوا يجهلون أيضاً أنى لا يهمنى أن أبين نفسى فى الخارج . . فالصورة يجب أن تكون فى مصر أساساً . . ولعلمهم كانوا يجهلون أيضاً أن أشع ما واجهته هو جبل الحقد الذى بناه عبد الناصر على كل المستويات حتى على مستوى الأسرة الواحدة حيث كان يمكن للإنسان أن يتجسس على أبيه أو أخيه كما كان يحدث فى الأنظمة الفاشية . . وهذا فى تقديرى أقبح ما يمكن أن نصل إليه .

فعندما قامت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قبل الثورة كانت تركز على أساس خلقى ومثالى . . وعندما أصبحت مجلس قيادة الثورة كان يحكمنا نفس الأساس ولكن بداية حكم الثورة كانت غير موفقة ، فبدلاً من أن تبدأ بالثقة وتعطى الفرصة إلى أن يثبت العكس (كما أؤمن أنا وكما تعودت أن أمارس فى حياتى) بدأت بالشك فى كل إنسان إلى أن يثبت العكس وهو الثقة وهو نادراً ما يثبت لأسباب كثيرة . . من أجل هذا أوغرت النفوس ضد الثورة . . ولذلك فى الأربع سنوات الأولى وهى حكم مجلس قيادة الثورة كانت هناك أخطاء وانهاكات فى حق الإنسان المصرى ولكنها كانت فى دائرة ضيقة اتسعت فيما بعد . . فى سنة ٥٦ كان يجب على عبد الناصر أن يؤصل الانتصار بعد انتصاره فى معركة القناة بأن يعطى للشعب المصرى بعد معركة ١٩٥٦ حريته كاملة ولكنه لم يفعل فكانت النتيجة أن أصبح الإنسان المصرى سلبياً مما جعل انتصارات عبد الناصر كلها انتصارات على السطح بالنسبة للشعب . . لأنه يعرف فى أعماقه

جيداً أنه لم يشارك بل ولم يؤخذ رأيه فى أمر ما . . وعندما كان الشعب يتحمل من هذا كان تملئه يفسر على أنه ثورة مضادة فتقع الحراسات والاعتقالات وكل هذا هو التطبيق الفعلى لآمتهان كرامة الإنسان . .

وقد لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب فى حق الإنسان المصرى كان هو زرع الخوف . . فبدلاً من أن نبين الإنسان أصبح كل همنا أن نخيفه . . والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب فلقد كانت أرزاق الناس كلها ملكاً للحاكم إن شاء منح وإن شاء منع وكان المنع مسحوباً فى أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ثم فصل جميع أهله من وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم . .

وهكذا تحول الناس إلى « مساكين » أو أصبحوا دمي فى أيدي حكامهم يفعلون بهم ما يشاؤون . . فلم يعد مسموحاً للناس بالسفر أو بأن يقولوا كلمة تختلف عما يقوله الحاكم وإلا اعتقلوا أو صودروا فى أرزاقهم . . ومن هنا ازداد الناس سلبية فقد أصبح الأمان لهم أن يسبوا إلى جانب الحائط لا شأن لهم بأخذ ولا بأى شيء مما يدور حولهم وكأنهم أصبحوا لا يبتصرون ولا يسمعون ولا يتفكرون . . من أجل ذلك قلت وما زلت أقول إنه بقدر ما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة فى إنجازاتها فإنها كانت أيضاً عملاقة فى أخطائها . . ولكن مع الزمن انتهت الإنجازات أو ذهبت أو أصبحت أمراً واقعاً مجرداً من الحالة ولم يبق من الثورة غير بقعة سوداء رهيبة تشيع الخقد والخوف بين الناس ولكنهم لا يملكون منها فراراً . .

ولكن رغم هذا كله ، يخطئ من يظن أن شعب مصر يمكن أن يموت فهو عملاق دائماً قد يتحمل أشد أنواع الأذى من الداخل والخارج ولكن هذا الأذى لا ينال منه أبداً . . فبمجرد أن ينكشف عنه الغبار تجده عملاقاً كما هو . . قد تجده مجروحاً ينزف دماً . . ولكنه يعلم أنه سيأتى الوقت الذى يقف فيه الزيف ويضمد جراحه . . هذا هو الشعب المصرى الذى آمنت وما زلت أؤمن به وأدعو الله أن يمكننى من أن أزيل من طريقه جميع المعوقات وأن أجعل الكلمة الأولى والأخيرة له فأنا أعرف أنه عند ذاك سوف يتحقق المعجزات . .

كانت التركة التي ورثها من عبد الناصر في حالة يرثى لها . . فمن الناحية السياسية وجدت أن علاقتنا مقطوعة مع جميع أنحاء العالم ما عدا الاتحاد السوفيتي . . وفي العالم العربي ساد ما نادى به عبد الناصر وسمى بالتقدمية والرجعية وبناء على هذا التقسيم التعمق كان يقيم أو لا يقيم علاقاته بدول الأمة العربية . . وقد أخذ درماً حين رأى أن الذي وقف إلى جانبه بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ كانوا من ظل طول حياته يصفهم بالرجعية مثل السعودية والكويت والملك النورسي ملك ليبيا فهم الذين دعموه بالمال بعد الهزيمة .

كانت السياسة عند عبد الناصر تخضع لانفعالاته ، وقد أدرك هذا أولئك الذين يحيطون به ولذلك كانوا يستطيعون تطويعه كما يريدون إذا أحضروا إليه في الوقت المناسب المعلومات المناسبة التي يفجرها فتحدث في العالم دويًا هائلاً .

أذكر أنه في سنة ١٩٦٤ كان عبد الناصر على وشك أن يلقي خطابه بمناسبة عيد النصر في ٢٣ ديسمبر في بورسعيد كما اعتدنا كل سنة بعد عدوان سنة ١٩٥٦ . . وقبل الخطاب بخمس دقائق قال له علي صبري وكان رئيساً للوزراء ففرد السفير بما أمان مصر وقال للوزير إن الكونغرس لم يوافق بعد - وبعد أن سمع عبد الناصر هذا التقرير ، مباشرة ألقى خطابه فجاء مليئاً بالسباب واللعن في أمريكا . . وعندما سمع السفير الأمريكي الخطاب ذهب مباشرة إلى المسئولين وقال إن شيئاً مما نسب إليه عبد الناصر لم يحدث وأيد السفير وزير التموين في هذه المعلومات وطلب إبلاغ ذلك إلى عبد الناصر . واستقط في يد عبد الناصر فقد أدرك أن أقدار الشعوب لا يمكن أن تكون رهينة الانفعالات وهكذا اضطر إلى أن يطلب مني ومن عبد الحكيم عامر أن نصلح هذا الأمر

فاجتمعنا مع السفير الأمريكي على مائدة عشاء في منزل المستشار الصحفي المذكور وحاولنا بكل المحاولات أن نصلح هذا الخطأ . . ولكن لم يلبث الأمر أن تكرر . . إذ أن ما حدث مع أميركا حدث أيضاً مع إيران فقد أسر أعوان عبد الناصر إليه بكلمات نسبوها إلى شاه إيران خطأ قبل أن يلقي خطاب ٢٦ يوليو في الاسكندرية (وكان هذا تقليداً منذ خروج الملك من الاسكندرية في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلن قطع العلاقات مع إيران في هذا الخطاب ، رغم أنه ثبت فيما بعد أن حديث الشاه كانت قد حرفته وكالات الأنباء . . ومرة أخرى طلب مني عبد الناصر أن أصلح الأمر مع شاه إيران في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في الرباط حيث مثلت عبد الناصر لإصابته في ذلك الوقت بأزمة قلبية وطلب مني أن أوسط الملك حسين في ذلك وقد فعلت ذلك ولكن المصالحة لم تتم . . كانت هذه هي التركة التي ورثها سياسياً . . لا وجود لوزارة الخارجية أو مياسة مدروسة ومخططة . . لم يكن هناك سوى الرئيس نفسه الذي يتفعل فيصدر قراراته بناء على هذا الانفعال وهو راض سعيد ما دام كل ما يقوله يصفق له الشعب . .

أنا اختلف عن عبد الناصر في هذه الناحية اختلافاً تاماً ، فعندما أردت أن ألقى المعاهدة مع السوفييت بعد ما فوتوا على سنة الحزم بعدم الوفاء بالتزاماتهم . . ومناوراتهم التي لم تكن لها نهاية . . اتصلت بطرف ثالث من دول عدم الإنحياز وهي الهند وطلبت منها أن ترسل إلى بعض الأسلحة التي تصنعها بموافقة السوفييت لأنها أسلحة سوفيتية واتصلت الهند بالاتحاد السوفيتي تستأذنه في إرسال الأسلحة ولكن رفض السوفييت لأنهم كانوا يأملون في أن يصبح السلاح الذي عندي خردة يباع لمجمع الحديد والصلب . .

كان هناك طرف ثالث يقوم بدور الشاهد وهي الهند . . ولذلك وجدت الفرصة مناسبة لكي أخلص البلاد من آخر التزام عليها وهو المعاهدة السوفيتية وخاصة بعد مملك الاتحاد السوفيتي وأيضاً كنت لا أريد أن أترك من خلني التزاماً قد يستغل من بعدي وأيضاً لأنني كنت الذي عقدها وقبلها الشعب على مضض لفتته في . .

وفي رأي أن ليس من حق أي إنسان أن يحتكم إلى انفعالاته عندما يتعلق الأمر بمصير الوطن . . بل يقتضي الواجب في نظري أن أبحث عن كل مصدر للخير وسعادة الشعب وأن أفتح كل الأبواب التي أغلقت في وجه مصر مهما كلفني هذا من جهد وعناء . .

واليوم وبعد أن أصلحت كل هذه الأخطاء فإنني أفخر أن علاقات مصر بإيران وبالعالم كله تقوم على الثقة والاحترام المتبادل ولن أنسى أبداً يوم أن كان احتياطي البترول في مصر قد أصبح في مرحلة الخطر بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ لأن حقول بترولنا كانت مغلقة وأرسلت إلى شاه إيران فبادر في الحال بإرسال أكثر من نصف مليون طن وأمر ناقلات البترول في عرض البحر أن تغير طريقها لكي تتوجه إلى مصر لنجسدها وهو يقول : السادات أخ لي - والذي يريد ساستجيب له في الحال .



كانت التركة التي ورثتها اقتصادياً أسوأ بكثير من التركة السياسية فاستقلال أي بلد حر هو في حقيقته الاستقلال الاقتصادي وليس الشعارات السياسية . . فماذا كان حالنا سنة ١٩٧٠ ؟

كنا قد نقلنا بقاء شديد النمط السوفيتي ونحن نسير على الخط الاشتراكي رغم أننا كنا نفتقر إلى الموارد والإمكانات وتراكم رأس المال . في سنة ١٩٥٢ عندما استلمنا البلد كانت ميزانية مصر ٢٠٠ مليون جنيه تركها لي عبد الناصر ٢٠٠٠ مليون ، ولكن لم تكن هذه الزيادة إلا على السطح فقط أما في الأعماق فالمسألة تختلف تماماً . . فعندما تم تصدير البترول الأجنبية في مصر بعد معركة العدوان الثلاثي في أواخر سنة ١٩٥٦ انعكس هذا الحال على الوضع الاقتصادي لمصر . . وكان لنا في هذا الوقت أيضاً أرصدة متداعرها ٤٠٠ مليون جنيه استرليني ودائع في إنجلترا من متخلفات الحرب العالمية الثانية فأفرج عنها بعد أن كان إيدن قد جمدها بعد تأميم قناة السويس .

وهكذا . . في أول يناير سنة ٥٧ بعد الإفراج عن ودائنا في لندن وتأميم جميع البيوت الأجنبية عندنا كنا في أروع أوضاعنا الاقتصادية . . ومن هنا بدأ القطاع العام بالأموال والمؤسسات التي مصرت ولم تكن تقل في مجموعها عن ألف مليون جنيه . . ولكن لو كان البدء سليماً لكنا الآن دولة عظمى . . في سنة ٦١ صدرت قوانين التأمين . . وكان من الممكن أن ينطلق اقتصادنا بالقطاع العام مع تشجيع القطاع الخاص إلى آفاق هائلة لأن المنافسة بين الإثنين في صالح بناء أكبر والدفاع أعظم ، ولكن الذي حدث هو أن التطبيق الاشتراكي بدأ يتجه إلى الماركسية فأصبح أي عمل حر رأسمالية بعيدة وأصبح القطاع الخاص استغلالاً ولصوصية فاخفى تماماً نشاط الأفراد مما استتبع مليحة رهبة من جانب الشعب أعانى منها إلى اليوم وصلت إلى أن أصبحت الدولة مطالبة - إلى جانب التخطيط وإدارة السياسة الخارجية والداخلية - بتوفير البيض والدجاج ومئات من الحاجات التي كان يمكن أن يوفرها الأفراد بالمبادرة والنشاط الفردي .

ولقد كان من نتيجة هذا أن أصبح الشعب حسب النظرية الجديدة يعتمد على الدولة في كل شيء . . الأكل والوظيفة والسكن والتعليم . فما دامت الدولة قد أصبحت اشتراكية فعليها أن توفر للمواطن كل ما يتطلبه دون أي جهد إيجابي من جانبه . . وهذا الانكماش هو زاوية الميول إلى الهاوية . . في سنة ٧٠ قرأت تقريراً صدر في أمريكا بعد تحليل لواقع مصر الاقتصادي يقولون فيه : « أتركوا عبد الناصر يصرخ فسوف يركع على ركبتيه اقتصادياً في القريب العاجل » .

كنا في ذلك الوقت نعتد فقط على أنفسنا فلا معونة أمريكية أو سوفيتية أو عربية أو غربية فكل ما كنا نأخذه من الغرب والشرق والعرب كان الشمانة . . فقد ضاع اقتصادنا في حرب اليمن والانفصال عن سوريا والتطبيق الماركسي للاشتراكية وهزيمة يونيو المنكرة . .

قرأت التقرير مرة ومرات واستلقت نظري ما جاء فيه من أن زيادة السكان بمصر وبالتالي زيادة الاستهلاك سوف يجعل الاقتصاد المصري

في وفاة عبد الناصر أرسلت أمريكا وزراء نيكسون وهو ريتشاردسون
للتعزية وعندما عاد إلى بلاده كتب تقريراً بأن السادات لن يبقى في الحكم لأكثر
من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع . . وفي الداخل بدأ عملاء الاتحاد السوفيتي
في القيادة السيامية الصراع . . وظهر هذا واضحاً بعد أن أصدرت قرار
إلغاء الحراسات بعد شهرين فقط من ظهور نتيجة الانتخابات . .

في هذه الأثناء كنا قد بدأنا نجتمع - مصر وليبيا والسودان وسوريا - من أجل
تحقيق وحدة بين البلاد العربية . . لم يكن السودان على استعداد للدخول في أي
عمل وحدوي في هذه الفترة حتى يتم إقامة مؤسساته الدستورية وكان القذافي
يتظاهر بأنه وحدوي منطرف . . أما حافظ الأسد فقد كان حريصاً على
الوحدة من أول لحظة . . واتفقنا على الصيغة التي تبدأ بها الوحدة وهي صيغة
الجمهورية العربية المتحدة على أن تكون لكل جمهورية شخصيتها
بنظامها ورئيسها حسب أوضاعها وظروفها وبعد ذلك يتكون ما يسمى
مجلس الرئاسة ويجتمع رؤساء جمهوريات الوحدة لكي ينسقوا عملية الوحدة
والخطوات إليها . . وكان هذا الأسلوب هو ما اتفقنا عليه في حياة عبد الناصر
كدرمستفاد من الانفصال الذي وقع للوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٦١
والتي لم تستمر إلا ثلاث سنوات فقط .

وجد مركز القوة الأول الذي يتكون من على صبرى وشعراوي جمعة وسامى
شرف وجميعهم عملاء للاتحاد السوفيتي - وجد هذه فرصة للتصارع وكان معي
ضمن وفد مصر للوحدة على صبرى فصرح بأن ظروف مصر لا تسمح بالدخول
في أي نوع من الوحدة . . وكان هذا أول عك للصرع بيني وبين مراكز
القوة . . في مراحل الوحدة المختلفة كان على صبرى ومعه بقية وفد
مصر من القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر يحاولون تلغيم الطريق إلى
الوحدة مع كل من ليبيا وسوريا . . لم يقل لي القذافي أنهم يتصلون به ليضعوا
العقبات في طريق الوحدة أما الأسد فقال لي : ه أنت في وضع غريب جداً . .
أنت بتكلم كلام والوفد اللي معاك بيتكلم كلام مختلف تماماً من وراك .

يصل إلى مرحلة الصفر في خلال سنتين من سنة ١٩٦٠ على الأكثر ففرغت
ولكن اعتبرته دعاية من الغرب وأنه ضمن الحملة النفسية التي تشن علينا
لكي نسلم لإسرائيل ولكن بعد أن توليت اكتشفت الحقيقة المرة - فقد
استدعت وزير المالية والاقتصاد - د . حسن عباس زكي وسألته عن الموقف
الاقتصادي فقال ببساطة : إن الخزينة فاضية . . وإننا نكاد نكون في حالة إفلاس . .
قلت له : كيف وصل الحال إلى هذا ؟ ألم تخبر جمال ؟ قال : أنا تعدت
أبس طاقة ده لده ولكن دلوقتي خلاص .

أرسلت واقرضت ٢٠ مليون جنيه ولكن حسن عباس زكي قال لي إن
هذا المبلغ لم ينفع كثيراً . . وكنت أذعر فعلاً . . عندما أدركت أننا على وشك
أن يأتى اليوم الذي لا نملك فيه رواتب الجنود المراطين على الجبهة ومرتبات
الموظفين فإذا جاء يوم ولم يتقبضوا رواتبهم وعرفوا أن أهلهم في مصر لا يجدون
ما يأكلونه قوف يتركون الجبهة وتنهار مصر . .

طبعاً كافحت واستغنت بكل مدد يمكن الإستعانة به . . ولم أشعر طوال
سنة ٧١ و سنة ٧٢ بتحقيقة الكارثة ولكن قبل المعركة بخمسة أيام واجهت مجلس
الأمن القومي بخقيقة اقتصادنا وبأنه تحت الصفر وهذا أمر لوصادف غيرى
أو أى إنسان لا بد أن يخيفه ولكنى فكرت وقررت . . ولا اعتقد أن أحداً
مكافى كان سيجد الشجاعة لإصدار أى قرار ولكنى كنت على ثقة أن مفتاح
كل شئ سياسياً واقتصادياً وعسكرياً هو أن نصصح هزيمة سنة ١٩٦٧ لكي
نستعيد ثقتنا في أنفسنا وثقة العالم بنا فلم يكن الوضع الاقتصادى سوى بعد
واحد من أبعاد المشكلة .

لقد كان نحو عار ومهانة هزيمة سنة ١٩٦٧ هو الأساس ، وكان تقديري
أننى حتى لو دفتت مع أربعين ألف من أبنائى في القوات المسلحة ونحن نعبز القناة
فيكون ذلك أشرف لنا ألف مرة من أن نقبل هذا الإذلال وتلك المهانة
وستأتى الأجيال القادمة من بعدنا لنقول إنهم ماتوا بشرف في المعركة ولا بد
أن يكملوها بعدنا .

ووجدت على صبرى يقول لى نفس الكلام . . فقلت أنا أرفض الاستماع إلى هذا اللغو . .

وفى بنغازى جلسنا حول مائدة الاجتماع وكان هناك مجلس قيادة الثورة الليبي كله والرئيس الأسد والوفد السورى وأنا والوفد المصرى . . أخبرت المجلس بما حدث بينى وبين القذافى وأن الوحدة التى تجتمع من أجلها ليست حرجاً لأحد وذكرت قول القذافى أنه أخرج فلم يتكلم القذافى ولم يعلق على صبرى قبدانا المناقشة ولكن بعد يومين فقط كان من الواضح أننا لن نستطيع أن نتفق وقررنا السفر وأرسلنا الحقائق إلى المطار وأعدنا البيان الذى سيعلم عقب الاجتماع وفيه أننا لم نتفق وسبقنا الصحفيون إلى المطار وإذا بسوريا تتصل بالقذافى وتعرض عليه تعديل صيغة معينة كنا متفقين عليها فيوافق ويعرضها على فأوافق فأرسلنا لاستدعاء الصحفيين ووقع اتفاق بنغازى . . فإذا بلى صبرى يأتى إلى ويقول إنه غير موافق . . فقلت له : « أجل معارضتك هذه إلى أن نعود إلى القاهرة » . .

٧

فى القاهرة جمعت اللجنة التنفيذية العليا وكانت مكونة من ثمانية أشخاص عرضت عليهم الاتفاق على الوحدة الذى وقعته عن مصر فى بنغازى وبعد مناقشات طويلة وضع فيها أن الأغلبية وهم مركز القوة الأول من عملاء روسيا كانوا متكتلين لإسقاط الاتفاق وجاهزين فى أول اختبار قوة معى لكى يفرضوا الوصاية على قراراتى ، أخذت الأصوات فكانت النتيجة خمسة من ثمانية هم عملاء الاتحاد السوفيتى فى القيادة للرفض ضد ثلاثة هم أنا والدكتور فوزى رئيس الوزراء وحسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية . . فكان واضحاً أن الصراع فى أوجه فلما أن يجهزوا على وإما (على الأقل) أن يحدوا من سلطتى نهائياً بحيث لا أستطيع أن أتخذ أى قرار إلا بموافقهم . .

وفوجئوا إذ لم يكونوا جاهزين للمفاجأة من جانبى حين طلبت عرض الموضوع ونتيجة التصويت على اللجنة المركزية ، ولم يكونوا جاهزين لهذه المفاجأة كما قلت

وفى اليوم الأخير لاجتماعنا قال نيمرى : « أنا زى ما قلت لكم مش جاهز للوحدة وكل ما تتخذ من خطوات وحدوية بينك وبين سوريا أنا أؤيده ١٠٠٪ لأنه أمر يخص معركتنا القومية » ، وكان فى اليوم التالى سيسافر إلى موسكو . . وهكذا انتهت المحادثات بالفشل فذهبت إلى القذافى قبل أن يعود إلى ليبيا فى الصباح وقلت له : « يا معمر لعلمك أن حافظ الأسد رئيس سوريا لن يقادر مصر هذه المرة إلا وقد أفتت أنا وهو الجمهورية العربية المتحدة . . هذا قدرنا فمعركتنا واحدة » .

قال : « أنا متعد أدخل معاكم . . » . . مع أنه فى الليلة السابقة كان له رأى مخالف تماماً لما يقول فهو يريد إما أن تقوم الوحدة على ما يراوده من آمال وأحلام وإلا فهو يضع فى طريقها العقبات . .

قلت له : « الوضع سيكون شاذ لأن نيمرى سافر النهارده على أساس أن الاجتماع الرباعى فاشل . . فإذا كنت عايز تحش معانا نرجع لاجتماعنا الذى كان مقررأ فى بنغازى الى كنا متفقين عليه قبل الاجتماع الرباعى . . أت نبقنا على بنغازى وأحنا نيجى بعدك بكذا ساعة » .

وكان هذا الاجتماع الرباعى بين مصر والسودان وليبيا وسوريا قد تم عقب اتفاقنا على اجتماع ثلاثى بين مصر وسوريا وليبيا فى بنغازى ولكنه عدل إلى اجتماع رباعى فى القاهرة بإضافة السودان كطلب الرئيس السودانى

قلت وفداً للذهاب معى إلى ليبيا وكونته من حسين الشافعى وعلى صبرى وهما نائباً لرئيس الجمهورية فى ذلك الوقت . . ذهب على صبرى مبكراً إلى المطار ومعهم شعراوى جمعه بصفته وزيراً للداخلية - وهما اللذان كانا يمثلان القيادة بالنسبة لمركز القوة الأول العميل للاتحاد السوفيتى - فعليه أن يكون فى وداع القذافى . . انفرد على صبرى وشعراوى جمعة بالقذافى فى المطار وبدأوا عملية التخريب فاستجاب لهم وقال لهم : « والله الرئيس السادات هو الذى أخرجنى » . . وعندما وصلت المطار قال شعراوى جمعة لى : « القذافى يقول إن ميادتك سقطت عليه وهو مش عاوز الوحدة » .

فحاولوا كسب الوقت بإعادة الدراسة ولكنني أصرت على عرض الأمر كله على اللجنة المركزية التي لم يستطيعوا بكل الجهود الياسة التي بذلوها كسبها إلى جانبهم . . . ووافقت اللجنة المركزية بالإجماع على الاتفاق . . . وهكذا انتهى اعتبار القوة معي إلى انتصاري المطلق وتسليمهم . . . ولكن إلى حين .

في يناير سنة ١٩٧١ كان على أن اتخذ قراراً بالنسبة لمبادرة روجرز فدعوت إلى اجتماع اللجنة المركزية العليا ووزير الخارجية ووزير الخارجية - وكان واضحاً من المناقشة أن الرأي الغالب وهو رأي مراكز القوة وهم الأغلبية في القيادة السياسية التي تركتها لي عبد الناصر بأن نستأنف حرب الاستنزاف مع إسرائيل في الوقت الذي كان فيه نصف الوطن وهو الصعيد معرضاً لإغارات إسرائيل كما حدث خلال عام ١٩٦٨ : ١٩٦٩ ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان يتأخر في إرسال الصواريخ لمواجهة هذه الإغارات وحماية منشأتنا في الصعيد (برغم أننا وقعنا معه اتفاق إرسالها) وكان يسوف في إرسالها بمختلف الحجج . .

وكان واضحاً أيضاً من مناقشتهم أنها مناوره لإجراحي وإحراج البلد فأنهيت من الاجتماع بأن قلت لهم لن أدخل حرب استنزاف أخرى حتى نصلح بطاريات الصواريخ وأؤمن المنشآت في الصعيد نصف مصر كما أتى سأجند مبادرة روجرز بشهر واحد فقط ينتهي في ٧ مارس ١٩٧١ حتى أعطى آخر فرصة للعالم وأمريكا وإسرائيل ليتحملوا مسؤولياتهم . .

وفي ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أعلنت أمام البرلمان للعالم كله ولشعبنا والأمة العربية مبادرة مني أساسها أنه إذا انسحبت إسرائيل من ضفة القناة إلى المضائق فإننا على استعداد لفتح قناة السويس بعد أن تعبر قواتنا إلى شرق القناة وسوف أمد الثلاثة شهور الواردة في مبادرة روجرز إلى ستة شهور بدلاً من ثلاثة وسيكون هناك وقف إطلاق نار رسمي وأيضاً سوف أعيد العلاقات مع أمريكا . .

لم أخبر أحداً من مراكز القوة بمبادرتي هذه فتوجسوا بها يوم أعلنها في خطاب ٤ فبراير في مجلس الشعب فأسيروا بوجوم شديد . . في حين أن العالم الخارجي استقبلها أحسن استقبال . . فلأول مرة ينتبه العالم لنا لأن كلامنا قبل ذلك لم يكن موضوعياً . . مجرد حماس وانفعال . .

أما الشعب المصري فأصائله وحسه المرهف أدرك المبادرة ورحب بها كل الرحب .

في فبراير سنة ١٩٧١ أيضاً فكرت في السفر إلى الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد انتخابي رئيساً للجمهورية لأطلبهم بتنفيذ الجزء الثاني من الإنفاقية التي عقدها مع عبد الناصر وهو إمدادنا بسلاح الردع . . كذلك استعاض الذخيرة التي استهلكناها في حرب الاستنزاف ولتزويدنا ببطاريات الصواريخ من أجل حماية المنشآت في الصعيد . . فأرسل إلى السوفيت أنهم على استعداد لمقابلتي في ٢٠ ، ٢١ مارس وطلبت منهم أن تكون الزيارة سرية : وسافرت وجلسنا على مائدة المفاوضات في الكرملين وشرحت لهم متاعبنا منذ عهد عبد الناصر ومطالبنا الحيوية وبدأت حديثي بتقرير التفتين الأساسيتين اللتين قررتهما في كل اجتماعاتي التالية مع قادة الكرملين . . الأولى هي أنه لن يحارب لنا معركتنا جندى سوفيتي والثانية أننا لا نسعى إلى المواجهة بين الاتحاد السوفيتي وأمريكا . . وكنت في شدة الانفعال والحماس فاشتبك مع كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتي كما اشتبك مع المارشال جريتشكو وزير الدفاع السوفيتي ورددت عليهما بعنف مما جعل بريجنيف يتدخل ويعلن لي أن الحكومة السوفيتية قد وافقت على تزويد مصر بعدة أصناف من الأسلحة . . لم تكن هي المطلوبة فعلاً ولكن قبلناها لحاجتنا الماسة إلى أي سلاح - كان هذا أسلوب السوفيت معنا دائماً ولكنني قلت لهم في هذا الاجتماع : -

- نحن نشكركم ولكن لا بد أن أسجل هنا في عصر الاجتماع أننا مختلفون .

أثناء اشتباكي معهم في هذا الاجتماع قالوا إنهم على استعداد لأن يرسلوا لنا طائرات بالصاروخ ويدربوا عليها المصريين على أن لا تستخدم إلا بموافقة الحكومة السوفيتية . . عندئذ اشتد غضبي وقلت لهم :

« مغش قرار في مصر إلا لي كرئيس لمصر وأنا برفض هذه الطائرات » بعد ذلك أخذني بريجنيف وقال لي بيني وبينه « أنت عارف الطائرة الميج ٢٥ التي عندك منها ٤٤ » قلت : « دي طائرة ممتازة » . . قال لي : « سأرسل لك منها ثلاثين تستخدمها فاذفات » . . قلت له : « عندئذ يبقى أنا تنازلت عن كل خلاف على شرط أن الطيارين يأخذوا أوامرهم مني أنا » .

طبعاً لم يرسل بريجنيف ما وعد به فأصدرت أمري بأن الأربع طائرات
ميج ٢٥ (مثل التي طار بها طيار سوفيتي إلى اليابان) والتي كان يعمل عليها
طيارون سوفيت لا تطير . . فلما أن يعودوا إلى بلادهم . . ولما أن أشرى
هذه الطائرات .

كانت لدى هذه الطائرات الأربعة ميج ٢٥ وقد قبلت وجودها على
الأرض المصرية لأداء الخدمات المطلوبة للاستطلاع للقوات المصرية ولكنها
لم تنم سوى مرتين بهذه المهمات ورفض الطيارون أن ينفذوا ما تأمرهم به .
واتضح أن وجودهم كان للاستطلاع لحساب الاسطول السوفيتي الخامس
في البحر الأبيض ضد الاسطول السادس الأمريكي في هذا البحر . .
وقد سحب الاتحاد السوفيتي هذه الطائرات ورفض أن يبيعها إلى . .

اجتماع اللجنة التنفيذية العليا رويت لهم ما حدث في موسكو وقلت
أنا رفضت قبول هذه الطائرات لأن الشرط كان أن آخذ موافقة موسكو عند
استخدامها وليكن واضحاً لكم جميعاً أنه ليس في مصر قرار إلا لي أنا كرئيس
جيشية وأنا لا أريد سلاح الردع هذا إذا كان بهذه الشروط . .

م يتنص المتآمرون وهم أغلبية القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر
أن يشوهوا بكمسة أمامي ولكنهم خرجوا من الاجتماع ساخطين على فكيف
لا أوافق على أخذ الإذن من الاتحاد السوفيتي وهو دولة عظمى . . ! !

لم يرسل لي السوفييت بطاريات الصواريخ إلا في شهر إبريل سنة ١٩٧١
التيخيرة فقد أرسلوا شيئاً منها ولم يرسلوا بقيتها إلا أثناء حرب أكتوبر
سنة ٧٣ . . أما الطائرات وسلاح الردع الذي وعد به بريجنيف فقد كان مجرد
كلام .

حكماً كان السوفييت معنا دائماً . . يضعوننا في موقف لا نملك فيه أن نتخذ
قراراً . . في ٧ مارس أعلنت في خطابي أننا غير ملتزمين بوقف إطلاق النار
كما أعلنت انتهاء مبادرة روجرز وكان المفروض أن أبدأ بعد هذا مباشرة
حرب الاستنزاف ولكن عدم وفاء السوفييت بوعودهم جعلني غير قادر
على الحركة في ذلك الوقت . .

٨

كانت مبادرتي التي أعلنتها في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ نقطة بدء لمعركة سياسية
لأنه لم يكن في مقدوري في ذلك الوقت أن أفتح معركة عسكرية وكتيجة
لمبادرتي اتصلت بنا أمريكا واقترحت أن يزورنا روجرز فرجت . .

وكانت صدمة للاتحاد السوفيتي وعمالته وخاصة من كان منهم في مراكز القوى .
كان قد أصبح واضحاً لمراكز القوة هذه والمتآمريين أنني بدأت أكسب
أرضاً في مصر وخارج مصر ولكن صراعهم كان تحت السطح مما جعلهم
يعجلون بعملية التآمر للخلاص مني . .

طلبوا مني في أول الأمر أن أعين وزير الداخلية وهو أحد كبار
المتآمريين وعمالء السوفييت رئيساً للوزراء ولكنني رفضت . . وكنت قبل ذلك
قد قررت تصفية على صبري عميد العمالء السوفيت في مصر .

وفي لقاء بيني وبين السفير السوفيتي قلت له : « أنا حريص على العلاقات
معكم ولكنني أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنني قررت تصفية على صبري
من القيادة السياسية وقد أخبرتك بهذا الأمر مع أنه من صميم شؤنا الداخلية
التي لا أقبل فيها تدخلا من أحد ولكنني أخشى عندما أصفيه أن تتحدث صحف
الغرب عن تصفيه رجل موسكو الأول في مصر وأن يسبب هذا لكم شيئاً من
الحساسية ، وأرجو أن تعلموا أنه لا يوجد لموسكو رجل في مصر فأنتم تتعاملون
مع الحكومة لا مع أفراد . . وأنا أصنى على صبري لأنني أقبل الخلاف في الرأي
ولكن لا أقبل الصراع على الإطلاق . . »

بدأت مراكز القوى أو على التحديد مركز القوة رقم واحد الاجتماعات
والتحريض وبدأ الناس يرسلون لي شكاوى ضدهم موقعة وبخبروني
بالتعليقات التي صدرت إليهم من الاتحاد الاشتراكي الذي كان تحت سيطرتهم
فكنت أحيل هذه الخطابات إلى المتآمريين أنفسهم وكنت أرقب حتى إذا اعتدى
أحدهم على واحد من أصحاب الشكاوى طالبته بالمبرر وفتحت المعركة . .
وفي أواخر إبريل أصابهم الحمى فأكثروا من الاجتماعات والتحريض

وأطلقوا المزيد من الإشارات وكان عندهم جهاز إشارات يفخرون بكفائته
إذ كانوا يتساورون إنه باستطاعتهم أن يطلقوا الإشارة من القاهرة فتشيع
في جميع أنحاء البلاد ثم تعود إليهم في زمن قياسي . . وهو تكتيك معروف
في روميا بما يسمى مراکز التبيح . .

كنت قد رقت معركة معهم على أن تكون في عيد العمال وهو أول مايو
سنة ١٩٧١ . . وقد حاولوا إثقال هذا الاجتماع بكل الوسائل . . ولكنهم
فوجئوا بأن خطابي استولى على اهتمام الناس فكان اجتماعاً من أتيح الاجتماعات .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٩٧١ ، أقلت على صبرى من جميع مناصبه في سطر
واحد صدر في الصحف . . ففرح الشعب بذلك فرحاً عظيماً وفي نفس الوقت
زادت عند المتأمرين حمى التآمر والتخريض والاجتماعات والمناقشات
وهم يفتنون أنى لا أعرف شيئاً مما يدور . . أردت أن أكمل المعركة التي فتحها
بعقدت عدة اجتماعات في القنصوات المسلحة وقلت في آخر خطبة لى : « لن
أسمح بمراكز القنوة ولا بالصراع وأنى واحد جيعمل حاجة ضد مصر
أنا حاقومه . . » وكان يجلس بجانبى محمد فوزى وزير الحرية وقتذاك وهو
واقع تحت تأثيرهم . .

كان المفروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى
مديرية التحرير ولكنى علمت أنهم قد دبروا كيناً هناك لاغتيالى فأجلت
نرحلة معتزلاً بأنى مجهد . . وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بيئة . .
منذ تاريخ توليتى في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ،
كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنفضى البيئة . . إلى أن
أتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لى به سابق
معرفة . . وهو يعمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من
مراكز القوة يتضح فيها تأمرهم على وعلى الدولة وكيف كانت الإذاعة معاصرة
يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة . . حتى إذا لجأت
إلى الإذاعة لأخاطب الشعب أحاصر هناك ويقتالونى . .

عندما وصلتني هذا الدليل قلت يجب أن أصفيهم على الفور فلم يعد هناك
شك في تأمرهم على مصر - بدأت بإقالة وزير الداخلية زعيم التآمر . .
وفي الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١

جاءنى أشرف مروان (وهو زوج كريمة عبد الناصر) وكان يعمل مديراً
لمكتب سامى شرف ، وهو يعمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحرية
ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة المركزية
وأعضاء من اللجنة المركزية العليا . . وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث
انهيار دستورى في البلد . . قبلها جميعاً وأعلنها على الشعب في الحال
وحددت إقامتهم في بيوتهم . . وفي نفس الليلة أجريت تعديلاً وزارياً
وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يطمحون به بل
على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم لا يعرفون ماذا
يفعلون فقد كانت الفرحة أكبر من أن تحتويها صدورهم . .

وهكذا تمخضت مصر من كابوس مركز القوة الأساسى الذى شل حركتها
سنوات طويلة . .

ولكن كان من الضروري أن نتخلص من آثار هذه المراكز التي ثلثت جائئة
فوق الصدور سنة بعد سنة تعبت بأقدار الناس تزرع الخوف في الإنسان المصرى
وتعطل العدالة وتشيع الحقد وتذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب ما لا حافة
لهم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهى الحرية . . فأمرت بحرق
جميع شرائط التسجيل الموجودة في وزارة الداخلية . . وكان هذا رمزاً لإغاثة
الحرية إلى الناس . . فقد أمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات وتخريم
الإعتقال وأعلنت أن لكل مواطن الحق في أن يفعل أو يقول أى شيء
في ظل سيادة القانون .

كان ما حدث في ١٥ مايو سنة ١٩٧١ والأيام التي تلت تصحيحاً لمسار ثورة
٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ولكنه كان في نفس الوقت بمثابة البيئة الأولى في بناء
المجتمع الاشتراكى الذى نعيشه اليوم والذي يتم بالعدل الاجتماعى
الحقيقى لا بالشعارات ، وبالعامل الإيجابى والأهداف الساطعة في وضع النهار
لا التفسيرات المنسوية أو الفلسفات الدخيلة علينا البعيدة عن قيمنا العربية ،
وعن إيمان هذا الشعب بالرسالات السماوية وتمسكه بتراث وتقاليد العائلة
المصرية الأصيلة . .

جاء بودجورنى لزيارتي في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ، وكانت صحف الغرب كما تثبت فيما مضى قد نشرت أن رجل موسكو الأول في مصر بل رجال موسكو كلهم قد وضعوا في السجن . .

وفعلا نشرت بعض صحف الغرب صورة بودجورنى في زيارته لمصر وهو يتعرض عملاء موسكو في ملابس السجن . .

اجتمعت به وطلب منى أن تعقد مصر معاهدة مع الاتحاد السوفيتى . .

لم أعارض ولو أنني قلت إن التوقيت ليس سليماً فمراكز القسوة رجالكم في مصر ما زالوا في السجن ولم يحاكموا بعد فأنتم بعقد المعاهدة تسيئون إليهم أمام الشعب لأنكم بهذا تؤكدون للشعب أنهم هم الذين كانوا يحكمون مصالحكم ولكنه كان متلفاً على عقد المعاهدة وقال إن المكتب السباسبى قد اجتمع في موسكو وأصر على المعاهدة . . قبلت وكان هدفي أن أطمئنهم فقد كنت أعرف أن من طبعهم أن يتركوا أنفسهم فريسة للشكوك في كل علاقاتهم مع الغير . وانك في نفسية الرومى طبيعة ثانية معروفة سواء وقت القيصرية أو الشيوعية .

وفي اليوم التالى عقدنا المعاهدة وذهبت مع بودجورنى لأودعه في المطار وطلبت منه وهو بهم يركوب الطائرة أن ينقل للقادة السوفيت رسالة منى وهى . . الثقة . . الثقة . . فقد شعرت أنهم مهتززون وكنت أخشى من هذا على معركتنا . .

أثناء اجتماعى مع بودجورنى قلت له إننا غير سعداء بهذه المعاملة التى تعاملونا بها ومع ذلك فنحن نعقد معكم هذه المعاهدة لنثبت لكم حسن نوايانا فقال لى : « بعد أربعة أيام من وصولى إلى موسكو سترسل إليك كل ما طلبته من سلاح فوراً بما في ذلك سلاح الردع » .

كان هذا في أواخر مايو سنة ١٩٧١ ولكن فات يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ولم يحدث شيء مما وعد به بودجورنى . . أسوأ ما كان

يضايقنى من الاتحاد السوفيتى أنهم كانوا في أغلب الأحيان يصمتون كالقبر . . كنت استدعى السفير السوفيتى مرات ومرات وأبعث إلى السوفيت بالرسالة بعد الأخرى . . ولكن لا إجابة وكأنك تتصل بأشخاص لا وجود لهم إلا في خيالك .

في يوليو سنة ١٩٧١ حدثت ثورة السودان الشيوعية فاتخذت موقفاً حاسماً من هذه الثورة وقلت نحن نشجب هذا الذى حدث ولا أقبل أن يقوم حكم شيوعى على حدودى وما هى إلا أيام قليلة فعلا حتى سقطت هذه الثورة وعاد نميرى رئيساً للجمهورية بعد أن تخلص من أعدائه .

اتمعت الفجوة بينى وبين السوفيت بعد موقفى من ثورة السودان فانقضى يوليو وأغسطس وسبتمبر دون أى رد من السوفيت سوى أن القادة السوفيت في مصيفهم بالقرم . .

وأخيراً في أواخر سبتمبر سنة ١٩٧١ جاءتنى رسالة منهم بأنهم على استعداد لاستقبالى في ١١ أكتوبر سنة ١٩٧١ - وكنت قد وصلت في هذه المرحلة إلى درجة التشبع وكان لابد لى إنسان في موضوعى أن يفقد أعصابه نتيجة لهذا الإهمال المتعمد من جانب السوفيت سنة كاملة تقريباً - ومع ذلك كفظمت غيظى وسافرت إلى موسكو وبدأنا المباحثات . . أعدت نفس الكلام الذى قلته لهم في ١ ، ٢ مارس سنة ١٩٧١ . . يا جماعة أنا أقبل أن تضعونا خلف إسرائيل بخطوة ولكن أن تكون المسافة بينى وبين إسرائيل عشرين خطوة فهذا أمر لا يحتمل . كانوا كعادتهم يتركوننى أتكلم كما أشاء وأحياناً يشبك بعضهم معى فيما عدا بريجنيف الذى يقف دائماً موقف المتفهم ولا يدخل في أى اشتباك .

وعدوني هذه المرة أن يرسلوا لى الطائرات بالصواريخ ومعها المتربون الذين سيدربون طيارينا المصريين عليها . . ولكنهم تنازلوا هذه المرة عن الشرط الذى ينص على أن لا تطير هذه الطائرات بالذات إلا بإذن من موسكو . . وفي نهاية اجتماعنا قلت لهم : « نحن الآن في ١٢ أكتوبر . . كل ما أرجوه أن ترسلوا هذه الأسلحة بأسرع ما يمكن حتى نستطيع قبل نهاية السنة أن نكون في وضع يمكننا من تحريك الموقف » .

وكنت قد أعلنت أن عام ١٩٧١ هو عام الحسم فإما حل سلمى وإما معركة .

واقفوا وعدت إلى مصر وأنا على ثقة أن الأسلحة التي وعدوا بها سوف تكون قريباً في طريقها إليها . . .

انقضى أكتوبر ونوفمبر ولكن كل شيء كما هو . . . استدعيت السفير السوفيتي وأرسلت إلى الكرملين عدة رسائل ولكن لا إجابة . . . وإذا في أفاجا في ٨ ديسمبر سنة ١٩٧١ بالمعركة بين الهند وباكستان وبأن الاتحاد السوفيتي طرف فيها . . . استدعيت السفير السوفيتي يوم ١٢ ديسمبر وقلت له إنه لم تصلني قطعة سلاح واحدة إلى الآن ولذلك أرجو أن تبلغ القادة السوفيت أنني أطلب مقابلتهم في موسكو حتى نبحث عن وسيلة نغطي بها الموقف الذي كشفوني فيه عن سنة الحسم . . . وقبل أن ينتهي ديسمبر بأربعة أو خمسة أيام جاءني السفير ليبلغني أن القادة السوفيت مواعيدهم مشحونة ولكنهم على استعداد لاستقبال في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ . . .

كنت أسرف في سارحة حجة مسعرة لأنني سبق أن أعلنت أن سنة ١٩٧١ هي سنة الحسم . وفعلنا حدث هذا .

في أول يناير ١٩٧٢ حاول روجرز وزير خارجية أمريكا أن يكفر أمام الرأي العام اليهودي عن موقفه إلى جانبي ذات يوم بعد أن أنبته جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علناً أمام الكنيست في خطاب مشهور فأعلن أنه قد انقضت سنة ١٩٧١ ولكن بلا حسم أو خلافه وأن أمريكا ستعطي إسرائيل المزيد من العتاد والسلاح وكل شيء .

بل وأعلن أيضاً أن الولايات المتحدة قد دخلت منذ نوفمبر ١٩٧١ في تصنيع الأسلحة مع إسرائيل . . . وأن أمريكا ستحتفظ لإسرائيل بالتفوق على العرب عندئذ وليس على مصر وحدها . . .

كانت حرباً نفسية شرسة كما توقعت ، ولكن الشعب المصري بحسه الصادق أدرك أن المشول عن هذا هو الاتحاد السوفيتي . . .

في يناير سنة ١٩٧٢ كان الشعب هنا في أوج غضبه على الاتحاد السوفيتي رغم أنني لم أطلع الناس على الحقائق بل على العكس كنت أدافع عن الاتحاد السوفيتي في جميع أحاديثي وخطبي . . .

ذهبت إلى موسكو في ١ ، ٢ فبراير سنة ١٩٧٢ وسألته عن المشول عن تأخير الأسلحة التي وعدوني بها - فرد بريجنيف وقال إنه المشول نظراً للإجراءات المكتبية والروتينية . . . إلخ . . . فقلت : أنا لست مقتنعاً بهذا الكلام وإذا تكررت ما حدث مرة أخرى فسوف أتخذ قراراً ما . . . ثم أعدت على مسامعهم وأنا في قمة الغضب نفس الكلام الذي سبق أن قلته في زيارتي السابقة وخاصة النقطتين الأساسيتين وهما أننا لا نريد جندياً سوفيتياً ليحارب معركتنا وأنا لا نسمي إلى مواجهة بينهم وبين أمريكا . . . فأنهوا المناقشة بقراءة قائمة بالأسلحة التي وعدوا بإرسالها فوراً . . . ولم تكن أيضاً الأسلحة الأساسية . . . ولكنها كانت على أي حال أحسن من لا شيء . . .

فعدت إلى مصر ولكن صبري كان قد نفذ . . .

في ذلك الوقت تحدد أول لقاء قمة بين بريجنيف ونيكسون من أجل الوفاق في ٢٠ مايو سنة ١٩٧٢ . وبدأ السوفيت يرسلون لنا الأسلحة التي يريدونهم إرسالها ، أما التي نريدها نحن فيحجبونها عنا . . . وفي ١٥ مايو سنة ١٩٧١ جاءني المارشال جريتشكو ومعه قائد الطيران السوفيتي وأحضروا معهم طائرة جديدة اسمها سوخوي ١٧ وأقاموا عرضاً للطائرة . . .

كان جريتشكو يحمل معه بياناً مكتوباً كالعادة في اللجنة المركزية وطلبوا أن نصدره وفيه أننا قد تسلمنا قاذفات بعيدة المدى (وهو غير صحيح) . . . فأصدرناه بل ومنحتهم نياشين وسافروا . . .

كنت أعلم أن الهدف من زيارة جريتشكو لنا قبل خمسة أيام فقط من وصول نيكسون إلى موسكو هو أن يقوم السوفيت باستعراض نفوذهم في الشرق الأوسط ومع ذلك لم أمانع بل منحت جريتشكو ومن معه نياشين . . .

نسيت أن أقول إن السفير السوفيتي فاجأني برسالة عاجلة من القادة السوفيت في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وقبل زيارة نيكسون المحدد لها ٢٠ مايو ١٩٧٢ يطلبون فيها أن أزورهم في أواخر إبريل . . .

طبعاً كان هدفهم من كل هذا أن يثبتوا للولايات المتحدة أن أقدامهم ثابتة في منطقة الشرق الأوسط وبرغم «فرق» سافرت وانفقتنا في هذا اللقاء - القادة السوفيت وأنا - أنه بعد أن تنهى زيارة نيكسون في ٢٠ مايو ، عليهم أن يرسلوا إلى تحليلاً للموقف ثم يبدأوا فوراً في توريد الأسلحة المتأخرة التي تعاقدا عليها . . وذلك في خلال خمسة شهور أى من يونيو سنة ١٩٧٢ إلى أكتوبر سنة ١٩٧٢ ميعاد الانتخابات في أمريكا . .

وكانت الفكرة أن نكون مستعدين في نوفمبر سنة ١٩٧٢ بعد انتخاب الرئيس الأمريكى فإذا لم يكن هناك طريق إلى الحل السلمى استطعنا أن نتحرك عسكرياً . . وافقوا على هذا وعدت إلى مصر .

تمت زيارة نيكسون للاتحاد السوفيتى في مايو سنة ١٩٧٢ ، ثم صدر أول بيان وفائى بين موسكو وواشنطن يقول بالاسترخاء العسكرى في الشرق الأوسط . .

وكان صدمة عتيفة لنا لأننا كنا كما سبق أن قلت خلف إسرائيل عسكرياً بغير خبطورة ومعنى الاسترخاء العسكرى في هذا الوضع هو التسليم من جانبنا لإسرائيل . .

ثم جاءنى التحليل السوفيتى بعد اللقاء مع نيكسون ولكن متأخراً أكثر من شهر . . في ٦ يوليو سنة ١٩٧٢ . . وكان التحليل السوفيتى يوضح أنه لم يحدث أى تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا . . تماماً كما تنبأت لهم في زيارتى موسكو في أواخر إبريل سنة ١٩٧٢ وخاصة لأنها سنة الانتخابات في أمريكا . .

والغريب من هذا أن التحليل السوفيتى الذى حملته لى السفير السوفيتى متأخراً شهراً عما افترض عليه في لقاء آخر إبريل سنة ١٩٧٢ لم يذكر شيئاً على الإطلاق عن إرسال الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا . .

بل إن هذا التحليل الذى كان يقع في أكثر من صفحتين ونصف لم يتعرض لموضوع الأسلحة المطلوبة كما اتفقنا في إبريل إلا في خمسة سطور أخيرة . . ولم يمسح أبداً ما استطع أن نبدأ معركة وإن لم خيرة في هذا الموضوع . . وكيفية هم بنوا مجهوداً خارقاً في إقناع نيكسون بتفيل قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن .

قلت للسفير السوفيتى : هل هذه هى الرسالة . : قال نعم . . قلت لقد كنت معنا في موسكو في أبريل الماضى وسمعت اتفاقنا بارسال الأسلحة قبل موعد الانتخابات الأمريكية . . قال نعم . . قلت إن هذه الرسالة لم ترد على ذلك . . قال إن هذه هى الرسالة التي تلقيتها . .

قلت إننى لا أقبلها . . بل وأرفض أسلوب القادة السوفيت في التعامل معنا . . أرجو أن تبلغ القادة السوفيت كل ما سأقوله لك كرسالة رسمية .

١ - إننى أرفض هذه الرسالة التى أبلغتها لى من القادة السوفيت شكلاً وموضوعاً ولا أقبلها وأرفض هذا الأسلوب في التعامل . .

٢ - إننى أقرر الاستثناء عن جميع الخبراء العسكريين السوفيت (وهم حوالى ١٥,٠٠٠) وأن يعودوا إلى الاتحاد السوفيتى في فترة أسبوع من اليوم وسأعلن وزير الحرية غداً بهذا الأمر . .

٣ - هناك معدات سوفيتية وهى أربع طائرات ميج ٢٥ وهناك محطة للحرب الإلكترونية ويعمل عليها طاقم سوفيتى فلما أن تبينوا لنا أو تسحبوها إلى الاتحاد السوفيتى .

٤ - كل هذا لابد أن يتم في بحر أسبوع .

ولم يصدق السفير السوفيتى واعتقد أنها عملية ابتزاز BLACKMAIL في اليوم التالى استدعيت وزير الحرية وأبلغته بقراراتى لينفذها ، وفي يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ كانت جميع قراراتى قد نفذت ورفضوا أن يبيعوا لنا الطائرات وأجهزة التشويش فسحبوها معهم .

من أسباب هذه القرارات موقف الاتحاد السوفيتى منا طبعاً ولكن كان هناك سبب آخر مهم وهو أنى قد بنيت استراتيجيتى على أساس أن لا أبداً المعركة وعلى أرض مصر بخبراء سوفيت .

حلل السوفيت والغرب وإسرائيل طرد الخبراء السوفيت ووصلوا في النهاية إلى قرار خاطئ أفادنى كما توقعت في استراتيجيتى . وهو أنى قد استقر رأى على أن لا أدخل المعركة . . وقد أسعدنى هذا التحليل لأن هذا ما كنت أود

أدبهم وحده. ومن المثير للاهتمام أن طرد الخبراء السوفيت، أن السوفيت
كانوا قد بدأوا يشعرون أن طرد خبراءهم في مصر لدرجة أن السفير السوفيتي
بدأ بإرسالهم في رحلاتهم إلى مصر. وطردوا بوضع المنادوب السابق البريطاني أيام
الحرب العالمية الثانية.

ردا على طرد الخبراء العسكريين، وتنازل الجيش في ذلك الوقت عن
القيادة في الأمور الخارجية والعلاقات الخارجية. يعمل عليها خبراء سوفيت
في اليوم التالي، وهو يوم الاثنين، أمر إلا بعد أن تأذن لهم موسكو.

بعد من أهم الأمور التي تفرز إلى هذه التي أرادت أن تضع السوفيت في حجمهم
في مصر. لقد ساءلوا في مرحلة من المراحل أن مصر أصبحت في
مصر. وطردوا طرد الخبراء السوفيت. هو ولي أمرنا فأردت أن أقول
في مصر. وقد ساءلوا في مصر. وأنها وأنا أقول للعالم إن أمرنا بيدنا
في مصر. وقد ساءلوا في مصر. وقد ساءلوا في مصر. وقد ساءلوا في مصر.

في مصر.

الفصل التاسع

حرب أكتوبر

١

لم أذهب إلى الإسكندرية كما كانت عادت في كل صيف منذ هزيمة يونيو ٦٧
إلى سنة ٧٢، ولكنني بعد أن اتخذت قرار إخراج الخبراء السوفيت أحست
بشيء من الراحة فقلت أذهب إلى الإسكندرية للاستجمام وأصلدت أمراً
إلى مكنتي بأنه إذا حاول السوفيت الاتصال بي أن يقولوا لهم إنني في المصيف
بالإسكندرية كما اعتاد السوفيت أن يقولوا لنا إن قادتهم في القرم ولذلك فلا
وسيلة للاتصال.

وبمجرد وصولي إلى الإسكندرية بدأت الإعدادات للمعركة رغم أن العالم كله
بما فيه مصر فسروا طردى الخبراء السوفيت بأنه قرار بعدم الحرب فاستدعيت
حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي وقلت له إن أمريكا بعد هذه القرارات التي
اتخذتها لابد أن تتصل بنا وعليه أن يعد نفسه للبدائل المختلفة لمناقشتهم، كما استدعيت
وزير الحربية وأبلغته أن يجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اليوم التالي
ويختاره بأن قد قررت أن تكون القوات المسلحة جاهزة للقتال ابتداء من يوم
١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٢، استدعيت بعد ذلك سيد مرعي وكان وقتها أمين
الإتحاد الاشتراكي وطلبت منه أن يجتمع بأمناء الإتحاد الاشتراكي ويبلغهم أن
معنى هذه القرارات هو أننا سوف ندخل الحرب لا العكس، وطلبت من
ممدوح سالم وكان وقتها نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ومسئولاً عن الدفاع
المدني أن يعد الجبهة الداخلية ويسد جميع الثغرات فيها.

قبل أن ينقضي أسبوع على وجودي بالإسكندرية اتصل كسينجر وطلب
تدبير لقاء على أي مستوى فاتفقنا على أن يلتقي بحافظ إسماعيل في سبتمبر أو أكتوبر
من نفس السنة ولكن اللقاء تأجل عدة مرات فلم يتم إلا في فبراير سنة ١٩٧٣.

وفي أوائل أغسطس سنة ٧٢ خرج القذافي فجأة على العالم بما يسمى الوحدة الإندماجية وكنت قد وعدته بزيارة ليبيا في ذلك التاريخ فذهبت إلى ليبيا لأرى ماذا يريد ووجدته مصمماً على هذه الوحدة بل وقطع شوطاً كبيراً في تعبئة الجماهير عن طريق الراديو والتلفزيون دون أن يتصل بي على الإطلاق . . وفوجئت بعد وصولي إلى بنى غازى بأنه قد أعد مشروع الوحدة الإندماجية ولم أكن متحمساً للسرعة التي أراد بها القذافي أن يتم هذا الموضوع ولكنني في النهاية آثرت أن أعطى مرقف القذافي كطلب بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة الليبي ووافقت على اجتماع وفدين لمناقشة هذا الموضوع . . كان المشروع قد أعدّه القذافي وتعجبت عندما وجدت أن هذا المشروع يقضى بأن أتولى رئاسة الدولة الجديدة التي ستكون من مصر وليبيا وأن القذافي سيتولى منصب نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة للدولة . . وقد أوضحت للقذافي وزملائه أنني لا أوافق على هذا المشروع وبالذات على تعيين القذافي لقيادة القوات المسلحة فقد كانت لنا تجربة في هذا انتهت بالفشل عندما يتولى من يعمل بالسياسة القيادة الفعلية للقوات المسلحة في تجارب مريرة لنا في معركة ١٩٥٦ ثم في حرب اليمن وأخيراً في معركة ١٩٦٧ وأن القوات المسلحة يجب أن تكون محترفة وأن لا تتدخل في السياسة . . ولم يعترض القذافي . . والسبب الثاني لإعتراضى كان أن إتمام وحدة كاملة في هذا الوقت سوف يسبب متاعب اقتصادية للشعب الليبي لا داعى لأن يتحملها وستكون مسئولين عن هذا وأخذ المجتمعون باقتراحى وهو أن تدير هذه الوحدة بالتدريج . . وعدت إلى مصر .

وفي يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٢ كتبت رسالة للإتحاد السوفيتى ، وأنا أعتبر أن هذه الرسالة من العلامات الأساسية في تاريخنا فقد كانت تحمل توصيفاً كاملاً لكل ما بيننا وبين الإتحاد السوفيتى . . في هذه الرسالة أعلنهم أنى أمنحهم فرصة إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٢ بعد أن شرحت الموقف كاملاً بيننا وبين السوفييت فإذا لم تحدث أية استجابة لمطالبنا سأكون حراً في اتخاذ ما أرى من قرارات ولكنني كنت في واد والسوفييت في واد آخر : فقد كانوا يعدون لافتتاح الجامعات المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٢ (إذ جاء في المخطط الصادر من الأحزاب الشيوعية العربية - وهو صادر طبعاً عن موسكو - عن كيفية تحريك العملاء داخل الجامعة .)

كان المفروض أن يقدم لى وزير الحربية تقريراً عن الخطة والهيكل العام لها فقد كلفته كما أسلفت بجمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة لهذا الغرض . . بل إنه عاد لى بعد يومين وقال إنه جمع المجلس الأعلى وأبلغهم رسالتى وإن القوات المسلحة المصرية ستكون جاهزة ليس في ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ كما طلبت وإنما ستكون جاهزة في أول نوفمبر ١٩٧٢ . .

وهنا أريد أن أفسر لماذا اخترت ١٥ نوفمبر ١٩٧٢ لتكون القوات جاهزة فقد كانت الانتخابات لرياسة الجمهورية الأمريكية - تتم في الأيام الأولى من نوفمبر سنة ١٩٧٢ وأردت أن أعطى الرئيس المنتخب فرصة محاولة حل المشكلة سلمياً فإذا لم يتم ذلك كان لا بد أن نكون جاهزين للتحرك عسكرياً . . من أجل ذلك فإني دعوت المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع في ٢٨ أكتوبر ١٩٧٢ لاستئني من استعداد القوات المسلحة وطلبت أن يدلى القادة لى بتقاريرهم عن استعداد القوات وخاصة أننا كنا نقرب من نوفمبر ١٩٧٢ الذى حددته مع وزير الحربية . . وحينما ذكرت القادة برسالتى التى كلفت وزير الحربية بنقلها إليهم في الصيف . . فوجئت بالجنرال نوال المسئول عن الشؤون الإدارية للقوات المسلحة يرفع يده ويسأل : أنا لم أسمع أى رسالة من قبل وأريد أن أسأل ما هى هذه الرسالة الى سيادتكم بعثتها لنا ؟ أنا ما عندى فكرة عن أى رسالة جت من سيادتكم . . نظرت إلى وزير الحربية وقلت له أمام المجلس الأعلى للقوات المسلحة « إزاي ده يحصل ؟ احنا مش اتفقنا في الصيف إنك تجمع المجلس وتبلغهم يكونوا مستعدين للمعركة في ١٥ نوفمبر ؟ ألم تعد إلى بعد يومين لتقول إنك جمعت المجلس وإنهم سيكونون مستعدين اعتباراً من أول نوفمبر : . أى قبل الميعاد الذى حددته ؟ فهمس في أذنى : أنا ما رضيتشى يا أفندم أقول للكل . . أنا قلت بس لقادة الجيوش عشان السرية . .

سرية ؟ سرية على الناس الذين سيحاربون ؟ وضع غريب . . قلت في نفسى . . إزاي يقدر قادة الجيوش يحاربوا من غير المجلس الأعلى للقوات المسلحة ؟ ثم إن الجنرال الذى سأل هذا السؤال كان هو المسئول عن الشؤون الإدارية التى عليها أن ترعى الجيوش بإمدادها بالطعام والماء والمخيرة والبنزين . . الخ . . وبدونها لن تتمكن أى وحدة من القوات المسلحة من تنفيذ مهامها القتالية . .

عندئذ تأكدت عندى الشكوك التى كنت أحسها لإزاء وزير الحربية فهو لا يريد أن يحارب لأنه يخشى المعركة فبدأت أسأل قادة الجيوش . . سألت قائد الجيش الثالث عبد المنعم واصل : - أنت حالك إيه ؟ قال لى : - « يا أفندم احنا مكشوفين . . وأى حشد حتمله حيكشفوه اليهود ويضربوه قبل ما يعدى . . ليه ؟ لأن اليهود مقيمين ماطر ترابى ارتفاعه ١٧ متر على جانب القناة وإحنا تحت هذا المستوى . . حوالى ٣ أمتار فقط . . وهذا جعل العساكر تنشأ عندهم فكرة أن اليهود عاملين وراء هذا الساتر الكثرونات وأشياء لا قبل لهم بها » .

ما معنى هذا الذى أسمعته ؟ إن الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى استلمتها من عبد الناصر قد أنهارت . . فقبل أن يموت عبد الناصر بشهر واحد دعانى وذهبنا سوياً إلى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة فى مدينة نصر وهناك جمع القادة المصريين والخبراء السوفيت ومحمد فوزى وزير الحربية فى ذلك الوقت ووقف الخبراء السوفيت والقادة المصريون لمدة ٧ ساعات أمام عبد الناصر وأماى يشرحون الخطة الدفاعية ٢٠٠ التى أقرها الجميع . كان هذا هو الوضع العسكرى الذى تسلمته من عبد الناصر . . خطة دفاعية سليمة ١٠٠٪ ولكن لا وجود لخطة هجومية .

كان محمد فوزى وهو وزير للحربية دائم المحافظة على الخطة الدفاعية ٢٠٠ فإذا ارتفع اليهود متراً ارتفعنا نحن متراً ونصنف فلما جاء من بعده وزير الحربية الجديد واسمه صادق ألفى ما كان يفعل سلفه فوزى فلم يرتفع متراً واحداً . . وهكذا وصل اليهود إلى ١٧ متر وظللنا نحن ٣ أمتار فقط .

سألت الجنرال سعد مأمون قائد الجيش الثانى (وهو الآن عافظ القاهرة) فقال نفس كلام قائد الجيش الثالث قلت لهم : « آسف - أنا جاي النهارده وفاكر أنكم جاهزين لتنفيذ أى خطة نضعها . . أقوم ألاقى الخطة الدفاعية منارة ؟ لإزاي نهجم واحنا مش جاهزين حتى دفاعياً . . عاوزينا نكرر هزيمة ١٩٦٧ » .

أنهت الاجتماع وخرجت وقد استقر رأى على تغيير وزير الحربية المتخاذل الذى كذب على ، واستدعيت الجنرال أحمد إسماعيل الذى كان مديراً للمخابرات فى ذلك الوقت وهو الذى أنشأ أول خط دفاعى فى سنة ١٩٦٧ من بور سعيد

للسويس ، وطلبت منه أن يعمل قائداً عاماً للقوات المسلحة على أن يأتى فى اليوم التالى لحلف الجيشين كوزير للحربية ، وفى نفس الوقت أرسلت سكرتيرى الخاص إلى وزير الحربية المتخاذل ليلفقه أى قبلت استقالته . . وأعطيت أوامرى لرئيس أركان حرب القوات المسلحة بأن يتولى القيادة إلى أن يخلف الجنرال أحمد إسماعيل الجيشين فلم يكن فى إمكانى أن أترك أى فراغ فى القوات المسلحة مهما كان بسيطاً ولو للحظات .

طلبت من الجنرال أحمد إسماعيل بعد أن تسلم عمله تصحيح الخطة الدفاعية ٢٠٠ وإعادةتها إلى ما كانت عليه فإذا كان الساتر الترابى لليهود ١٧ متراً فلا بد أن نكون نحن ٢٠ متراً واعتمدنا لهذا ٢٠ مليون جنيه .

ولكن رغم هذا لم أستطع أن أنام ليلة واحدة بعد اجتماعى بالجلس الأعلى للقوات المسلحة فى أكتوبر سنة ١٩٧٢ . . كيف تتكرر مأساة سنة ١٩٦٧ ؟ ثم إن القوات المسلحة هى أمل البلد فكيف يحدث فيها هذا التقصير ؟ وإذا حدث أى تحرك من جانب إسرائيل فكيف ترد عليه ؟ واستمر حالى هكذا . . هواجس وقلق إلى أن جاءنى الجنرال أحمد إسماعيل فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧٢ وكان قد تم تعيينه فى ٣٠ أكتوبر ليلفنى أن الخطة الدفاعية أصبحت كاملة . . وأنه بصدد إعداد تجهيزات الهجوم .

فى أوائل يناير سنة ١٩٧٣ كان الجنرال أحمد إسماعيل قد وضع الهيكل الأساسى للخطة وقد قام بشيء لم يحدث فى العسكرية من قبل إذ طلب من كل ضابط على امتداد القناة أن يتسلى الساتر الترابى الذى أصبح ٢٠ متراً - وينظر أمامه على امتداد ١٠ كيلو داخل سيناء وأن يحدد على الأرض خطته التى يستطيع أن ينفذها بعد العبور . . مما أعطى للضباط ثقة فى أنفسهم وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة ليس فقط فى العمل بل وفى التخطيط أيضاً .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول إن خطة حرب أكتوبر ١٩٧٣ قد وضعها القوات المسلحة بأجمعها على كل المستويات .

نعود للإتحاد السوفيتي مرة أخرى . . في أكتوبر سنة ١٩٧٢ كان الرئيس حافظ الأسد في موسكو وعاد منها إلى القاهرة ليلغى أن السوفيت قد حددوا ١٦ أكتوبر ١٩٧٢ للقاء يتم بينهم في موسكو وبين وفد مصرى يرأسه رئيس الوزراء وكان هذا طبعاً تنفيذاً لما قلته في خطابي للقادة السوفيت في ٢٩ أغسطس سنة ٧٢ وسافر وفد من عتدى برئاسة رئيس الوزراء عزيز صدقي . . وقد علمت أن الجلسة من جانبهم كانت كلها انفعالات رهبة إثر القرارات التي أصدرتها وكيف أن هذه القرارات وتنفيذها قد وضعهم في وضع صعب أمام العالم . . وعاد عزيز صدقي رئيس الوزراء المصرى بلا شيء . . مجرد وعود ولم تنفذ .

كان بيننا وبين الإتحاد السوفيتي اتفاقية لتسهيلات البحرية في البحر الأبيض كان عبد الناصر قد وافق عليها سنة ١٩٦٨ لمدة خمس سنوات وكان الباقي منها إلى ذلك الوقت ثلاثة شهور فقط فطلبت من الجنرال أحمد إسماعيل في ديسمبر سنة ١٩٧٢ أن يستدعى السفير الروسي في القاهرة ويبلغه أن قرار مصر هو تجديد الاتفاقية لمدة ٥ سنوات أخرى تنتهي في سنة ١٩٧٨ وكان هدفي من هذا أن أثبت لهم أنه برغم قرار خروج الخبراء السوفيت فلأني لا أرغب في مقاطعتهم . .

أذكر بعد ذلك زيارتين قام بهما حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي والجنرال أحمد إسماعيل وزير الخارجية في نفس الوقت : الأولى هي لقاء مستشار الأمن القومي المصري بكينجسجر في باريس والثانية هي ذهاب الجنرال أحمد إسماعيل في أواخر فبراير إلى موسكو . . وكان قد مضى أكثر من ثمانية شهور على صدور وتنفيذ قرار إخراج الخبراء السوفيت . . وكان قد ثبت للسوفيت أنني لم أتصل بأمرىكا قبل هذا القرار كما قررت مراراً وثبت أيضاً أنني كما قلت وكررت ألزم بالجانب الخلقى في معاملتي مع الأعداء والأصدقاء . . ولقد عقد السوفيت مع أحمد إسماعيل أكبر اتفاقية عقدت بينهم وبين عبد الناصر أو بينهم وبينى . . ولأول مرة في تاريخهم بدأ توريد بعض أجزاء هذه الصفقة في زمن قيامى على غير عادتهم وقد توقف السوفيت بعد ذلك عن إتمام الجزء الباقي منها باستثناء بعض

المواد التي أرسلوها عام ١٩٧٥ وقد أعلننا عن ذلك . . وأريد أن أقرر هنا أنه حتى بدون هذه الصفقة كنا سندخل المعركة لأننا كنا قد قررنا ذلك وكان تخطيطنا كله مبنياً على ما كان لدينا من أسلحة قبل تلك الصفقة . وبهذه المناسبة عندما زار وزير خارجية مصر الإتحاد السوفيتي في ١٩٧٦ قرر السوفيت إلغاء جميع الصفقات المتفق عليها معنا كما رفضوا إعادة جدولة الديون المصرية .

أما من ناحية أمريكا فقد التى حافظ إسماعيل بكينجسجر في باريس في فبراير ٧٣ ولكن لا شيء جديد . . وكما كنت أقول دائماً لم يكن من الممكن لأمريكا أو لغيرها من القوى أن تتحرك ما لم تتحرك نحن عسكرياً وكان ملخص ما قاله كينجسجر لحافظ إسماعيل أنهم للأسف لا يستطيعون مساعدتنا لأننا مهزومون وإسرائيل متفوقة .

كان لابد أن أعد للمعركة على المستوى العربى وهنا يجب أن أقرر أن هناك قوة خارجية أقوى من البشر تدبر أمورهم وتسيرها حسبما ترى وفي ظروف معينة لا سلطان لنا عليها . . ولذلك فن العث أن نقول في أحيان كثيرة أننا صنعنا هذا أو ذاك لأننا في الواقع لم نصنع شيئاً . . وهذا ما ينطبق على إعدادى للمعركة على المستوى العربى . . فقد كانت الأمور كلها معدة قبل أن أبدأ أنا في الإعداد أو في التفكير فيه .

في الكويت يعتبرنى آل الصباح أحد أفراد عائلتهم فقد كانت لى صلة بعبد الله مبارك الصباح يحكمها الوفاء ، وكان هو في ذلك الوقت من عام ١٩٥٥ وزير داخلية ووزير الدفاع وولى عهد الكويت ولظرف تاريخى أراد الله ، عندما مات جمال عبد الناصر كنت أنا وجابر الأحمد ولى عهد الكويت ورئيس وزرائها صديقين حميمين تتبادل الرسائل .

وفي السعودية كان الملك فيصل صديقاً شخصياً لى منذ واحد وعشرين عاماً وبالذات منذ المؤتمر الإسلامى في سنة ١٩٥٥ وكان وقتها ولى العهد وبرغم حرب اليمن فللنا أصدقاء لأن معنى الصداقة عنده وعندى واحد .

وفي لبنان كان شقيق سليمان فرنجية . . حميد فرنجية . . صديقاً شخصياً لى . وفي المغرب ترجع صلاتى بالملك الحسن الثانى إلى عام ١٩٦٩ حين ذهبت بدلا من عبد الناصر لأحضر أول مؤتمر إسلامى يعقد من أجل حرق المسجد الأقصى

وهناك توطدت علاقات أخوة ومصادقة بيني وبين الحسن وبلغني أن الملك فيصل قال للحاك الحسن : « إذا أراد الله لمصر خيراً يحكمها أنور السادات » . وقد عرفني أثناء المؤتمر أن واضح وصريح ولا انحاز إلا للحق . بالنسبة للجزائر كان يومين يحمل في نفسه حساسية من عبد الناصر لأنه صديق بين يدي .

وفي تونس نفس الشيء فالجيب بورقية طالما اختلف مع عبد الناصر لأنه صوري بورقية على أنه حائل يبيع نفسه لمن يدفع . هكذا أراد الله أن أكون على علاقة شخصية مع زعماء العالم العربي ولذلك عندما تولى رجوا في جميعاً وأبدوا استعدادهم لمعاونتي . فأعلنت سياستي الراححة وحي أنه بالنسبة للعرب فمصر لا تفرق بين دولة عربية وأخرى على أساس ما يسمونه بالرجعية والتقدمية أو الملكية والجمهورية . الأمر الوحيد الذي يجب أن ألزم به جميعاً هو أننا عرب فحسب .

كان علي بعد ذلك أن أكتبه للوضع الإفريقي ، فذهبت في مايو سنة ١٩٧٣ إلى مؤتمر الوحدة الإفريقية الذي يعقد كل سنة في أديس أبابا ولأول مرة اتخذ المؤتمر قراراً واضحاً بإدانة إسرائيل وقطعت ٨٠٪ من الدول الإفريقية علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل قبل أن تقوم الحركة .

حدث في تلك الفترة أن احتلت إسرائيل ثلاثة من الزعماء الفلسطينيين في قلب بيروت وأرسلت للرئيس فرجة أقول إن غايه أن يطالب بدعوة مجلس الأمن وإلا تمت أنا هذا . فدعا فرجة إلى اجتماع مجلس الأمن وماندت أنا دعوته بدعوة أخرى من صدي . واجتمع مجلس الأمن وبدأ أعماله بقضية اغتيال الزعماء الفلسطينيين وإذا بالعالم ومجلس الأمن نفسه يتفاجأ بمصر تطرح قضية الشرق الأوسط . استمرت المناقشات لمدة شهرين ثم اتخذ أول قرار في صفنا بأغلبية ١٤ صوتاً من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا الذي يعني الفيتو .

لقد كان هذا تنفيذاً للامتراجية التي رسمتها بتجهيز الموقف عربياً كما شرحت وإفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في أديس أبابا عام ١٩٧٣ ودولياً بقرار مجلس الأمن الذي أشرت إليه سابقاً ثم في عالم عدم الانحياز الذي اجتمع مؤتمره الذي يعقد مرة كل ثلاثة سنوات في ديسمبر ١٩٧٣ في الجزائر . وكانت كل هذه التواريخ في ١٩٧٣ عام المعركة كأنها متعة من السماء .

وقلت في خطبتي إنه لا مفر من المعركة فإسرائيل هي التي تريد لها هذا . وضعت أوراق على المنضدة وأخبرتهم بالسلم الذي تطالبوا به إسرائيل ، وبذلك هيأت دول عدم الانحياز للمعركة وكانت الأغلبية في صفي بهذا الشكل كان معي أكثر من مائة دولة قبل المعركة بثلاثة أسابيع . وفي خلال الفترة ما بين يناير إلى سبتمبر سنة ٧٣ كنت قد جهزت الساحة العالمية كلها للمعركة .

- دولياً في مجلس الأمن بقرار بأغلبية ١٤ من ١٥ أي باستثناء صوت واحد هو صوت أمريكا .
- عربياً على مستوى كل الدول العربية مهما اختلفت سياساتها
- إفريقيا في مؤتمر الوحدة الإفريقية في مايو ١٩٧٣
- على مستوى العالم الثالث وعدم الانحياز في مؤتمر الجزائر في سبتمبر ١٩٧٣

٣

في داخل مصر لم يكن اهتمامنا منصباً على الناحية المصرية فحسب . فقد أنفقا أكثر من ١٢٧ مليون جنيه على إعداد الدولة للحرب ، إذ كان تخليطلي يقوم على أن مصر كلها من الإسكندرية إلى أسوان أرض معركة . كل مصنع . كل محطة كهرباء وضعت لها خطة دفاع بحيث إذا ضرب جزء من المرفق يعمل الجزء الباقى .

في إبريل سنة ١٩٧٣ جاء الرئيس حافظ الأسد إلى مصر في زيارة سرية . كان الفريق الجسمي وقها مدير العمليات بالقوات المسلحة . فاحضر لنا المذكرة التي دون فيها المواعيد المناسبة للعمليات الحربية على مدار السنة من وجهة نظر العارم العسكرية وقد كانت مكتوبة بخط يد الجسمي لأنها سرية . وهي ثلاثة مجموعات من الأوامر . المجموعة الأولى في شهر مايو سنة ١٩٧٣ والثانية في أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٧٣ والثالثة في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

كانت أنسب هذه المجموعات مجموعة أكتوبر وخاصة أن الجبهة السورية ابتداء من نوفمبر وحتى الربيع غير جاهزة للعمليات نظراً للظروف الطبيعية هناك .

في هذا الاجتماع كنت أنا وحافظ الأسد وحدنا في برج العرب وهي عاصمة الصحراء الغربية فقلت له : « لقد قررت أن أدخل المعركة هذا العام وأعطيت تعليماتي بذلك للجنرال أحمد اسماعيل فما رأيك ؟ » . . قال لي : « أنا معاك وداخل وبتجهز نفسك » .

يمكن أنوى أن أدخل المعركة في مايو سنة ١٩٧٣ ولكن كجزء من الخداع الاستراتيجي قمت بحملة في الصحف عندى وفي الدفاع الشعبي فما كان من الإسرائيليين إلا أن صدقوا وفي الأيام المناسبة للحرب حشدوا جيوشهم بينما كنت أنا في حالة استرخاء تام . . في أغسطس من نفس السنة فعلت نفس الشيء وكان رد الفعل في إسرائيل هو نفس ما صنعوه في مايو فاعلنوا التعبئة العامة . . ولذلك عندما مثل موسى ديان بعد حرب أكتوبر لماذا لم يعلن التعبئة في أكتوبر قال إن السادات قد دفعني إلى هذا مرتين مما كلفني في كل مرة عشرة ملايين دولار دون جدوى فلما جاءت المرة الثالثة ظننت أنه غير جاد مثلما حدث في المرتين السابقتين ولكنه خيب ظني .

اتفقت مع حافظ الأسد ألا نبداً المعركة إلا بعد تكوين مجلس أعلى مشترك للقوات المسلحة المصرية السورية ، فكونا هذا المجلس المشترك واجتمع فعلاً في أغسطس ١٩٧٣ في الإسكندرية ليضع اللامسات الأخيرة للمعركة .

في أواخر أغسطس ١٩٧٣ خرجت في زيارة للسعودية ثم قطر ثم سوريا حيث اجتمعت مع الرئيس الأسد يومى ٢٨ ، ٢٩ أغسطس واتفقنا على أن يكون يوم ٦ أكتوبر هو بدء المعركة . . أى يوم (ى) في التعبير العسكري .

في تلك الفترة كنت أزور جميع وحدات القوات المسلحة لأشرح لهم الموقف الساسي وأقول لهم إن المعركة أصبحت قريبة وأستطيع أن أقول إنه في يونيو ١٩٧٣ أى قبل المعركة بخمسة إلى ثلاثة شهور كنت قد أعطيت الأوامر النهائية والإحساس النهائي بالمعركة ولكنني طبعاً لم أفصح عن تاريخها وكان جميع من بالقوات المسلحة في قمة الإنفعال . . ففي ٥ يونيو ١٩٧٣ زرت مطار القنطرة وهو من مطارات الجبهة واجتمعت بالطيارين وفي أثناء اجتماعي بهم دق جرس التليفون . . فقام الجنرال أحمد اسماعيل يرد على التليفون بينما واصلت أنا حديثي

مع الطيارين إلى أن انتهيت منه فذهبت لأخذ طائرتي وأمر على الجيشين الثاني والثالث فإذا بالجنرال أحمد اسماعيل يسر إلى أن السفير السوفيتي يطلب موعداً عاجلاً وأنه طلب منه أن يتلغنى برسالة عاجلة وهي أن القيادة السوفيتية رأت بعد فترة الجمود الطويلة هذه أن ترسل بودجورنى رئيس هيئة السوفيت الأعلى ليزورنى يوم ١١ يونيو ١٩٧٣ . . قلت للجنرال اسماعيل : « آسف : أنا لا أستقبله » ، يعلم السوفيت جيداً أنى لا أحب بودجورنى والسبب أنه كان أثناء زيارة له لتركيا قد سب العرب والعسكري العربى وقال إنهم لن يعطوا العرب أبداً أى أسلحة متقدمة لأنهم يتركون الإسرائيليين يتولون عليها . . أرسلت في وقتها أطلب تفسيراً لهذا الحديث من جانب رئيس الدولة السوفيتية ولكن لم يصدر أى تكذيب . . ثم إن بودجورنى هذا من أكثر الناس كرهاً لمصر . . حتى في اجتماعاتنا في القيادة السوفيتية على مائدة الكرملين كانت تعليقاته دائماً تسيء إلى مصر . . فكيف أستقبله على أرض مصر ؟ .

بعد ذلك ذهبت لزيارة الجيش الثاني والثالث ثم توجهت إلى أماكن العبور على خط الدفاع الذى كان يتكون من عدة أهرامات على مسافات متقاربة بين السويس وبور سعيد يرتفع كل منها عشرة أمتار فوق تحصينات إسرائيل . . ولذلك استطعت أن أرى من فوقها سيناء كما أرى كفى يدى . . وقفت أمام القنطرة شرق وجاءنى القائد المكلف باسترجاع القنطرة وكان فؤاد عزيز وشرح لى العملية . كنت أعتبر أن القنطرة شرق من أهم النقاط التى يجب أن نستولى عليها في الساعات الأولى للحرب لأنها تمثل شيئاً هاماً جداً بالنسبة لإسرائيل فهى تانى مدن سيناء بعد العريش العاصمة وكان ديان في غمرة نشوته بنصر سنة ١٩٦٧ قد خطب في طلبه الجامعات في إسرائيل وقال : « لقد تسلمنا الأمانة من الجيل السابق لجيلنا فوصلنا حدود إسرائيل من القنطرة في مصر إلى القنيطرة في سوريا وعليكم أنتم الجيل الصاعد أن تحموا هذه الحدود وتوسعوها » .

فكان هذا من الأسباب الأولى التى جعلتني أهتم بالقنطرة . . لأن الأمل كان دائماً يراودنى في أن أرد على ديان وأقول له : « انتهى حلمك إلى الأبد » .

وقبل أن يموت عبد الناصر ذهبت إلى الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وقلت له : « لما

توضعوا خطة الهجوم اعمل حسابك أنا داخل مع القوات الى حتروح تسترجع القنطرة شرق . .

كل هذه الصور مرت في وأنا أقف على إحدى مواقع الهجوم وأنطلع إلى القنطرة شرق وهي بين يدي إسرائيل صامتاً لا أنفوه بكلمة . . كنت فقط أتأمل وأفكر . . لم أكن قد رأيت القنطرة منذ سبع سنوات وكنت قد خدمت بها حيناً عدت إلى الجيش سنة ١٩٥٠ . . مر بي هذا الخاطر . . فزاد صمتي ولكن مشاعري كانت تجيش في صدري تدهمه وتعذبه وفي نفس الوقت تضيئه بنور الأمل . . قال لي أحمد إسماعيل القائد العام تعليقاً على موقعي أمام القنطرة أثناء عودتنا إلى القاهرة : « يا أقدم أنا لما شفتك ساكت من الرهبة جالى إحساس أنك حثيتني أمر بيده الهجوم فوراً » .

حيناً بدأت أفكر في وضع التخطيط الإستراتيجي للمعركة كان أمامي عدة أشياء أولاً الأساس الإستراتيجي الذي أنبى عليه الخطة . . وفي حياة عبد الناصر كنت أقول له على سبيل المبالغة إننا لو أخذنا حتى عشرة سنتيمترات في سيناء ووقفنا فيها لم ننسحب فسوف يتغير الموقف شرقاً وغرباً وكل شيء . . وخاصة المهانة التي كنا نعيشها نتيجة هزيمة سنة ١٩٦٧ فهذا العبور إلى سيناء والصمود بها سيعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا . . هذا إلى جانب أننا ستكون قد انتهينا من أكبر عائق مائى في تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضاً الساتر الترابي الذي يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً .

وبناء على هذا وضعت توجيهي الإستراتيجي فقلت للقوات المسلحة في أواخر فبراير سنة ١٩٧٣ إن الذي يكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى سوف يكسب الحرب كلها . . ولذلك فلا بد من أن يعتمد الأداء والخطة على عمل من شأنه أن نكسب الأربعة وعشرين ساعة الأولى .

من ضمن الخداع الإستراتيجي الذي قمت به أنه كان في زيارتي وزير خارجية دولة أجنبية فقلت له وكنا في سبتمبر ١٩٧٣ : « بلغ رئيس جمهوريتك بينك وبينه ما يطلعش السر ده بره إني ذاهب إلى الأمم المتحدة في أكتوبر القادم . . بس مش عاجز أعلن هذا » . . كنت أعلم أن هذا الخبر بعد ثوان سوف يصل لإسرائيل . . وقد حدث وبناء عليه فهمت إسرائيل أني غير مقدم على الحرب .

في يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وهو يوافق ذكرى وفاة عبد الناصر أردت أن أضع اللمة الأخيرة للشعب . . وكنت قبل ذلك بشهور طويلة قد عزلت عدداً من الصحفيين أو على الأصح نقلتهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات لأنهم كانوا يساعدون على إيجاد حالة تمزق وبلبل في البلدواشترك البعض منهم في أحداث الطلبة التي وقعت في أواخر ١٩٧٢ وأوائل سنة ١٩٧٣ بإيعاز من الشيوعيين . . كان لهؤلاء الصحفيين مقالات وتصرفات تهدف كلها إلى إشعال النار بين الطلبة . . ففي خطابي يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٣ أعلنت أني قد عقوت عفواً تاماً عن الطلبة والصحفيين . . حتى القضايا التي كان الطلبة متهمين فيها - وكلهم من اليساريين - أسقطتها جميعاً وكأنها لم تكن . . تلقف اليساريون هذا وفسروه على أنه مصالحة وطنية من أجل تدعيم الجبهة الداخلية ولم يخطر لهم على بال أن هذا كان جزءاً من تخطيطي للمعركة . .

قبل ذلك كانت قد حدثت فتنة طائفية ولكنني صفيتها . .

وفي يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ جمعت مجلس الأمن القومي وطلبت من الأعضاء إبداء رأيهم في الوضع الذي كنا فيه وتناقشنا طويلاً . . طالب البعض بالمعركة وتردد البعض الآخر . . قال وزير التموين إن التموين الموجود لا يكفي معركة طويلة . . وبعد أن تحدث الجميع عن المعركة وظروف البلد والتحرك . . قلت لهم : « كل واحد منكم قال كلمته . . طيب أنا عايز أقول لكم إن اقتصادنا الناهدة في مرحلة الصفر وعلينا التزامات إلى آخر السنة لن نستطيع الوفاء بها للبنوك . . وعندما تأتي سنة ١٩٧٤ بعد شهرين لن يكون عندنا رغيف الخبز للمواطنين . . ولا أستطيع أن أطلب من أي عربي دولاراً واحداً لأن العرب يقولوا لنا أحنا بندفع الدعم بتاع قناة السويس وخلاص ولا فيه حرب ولا فيه حاجة » .

هكذا أعلمت المسؤولين عندى بالموقف ثم أنهيت الاجتماع . .

وفي اليوم التالي أى أول أكتوبر سنة ١٩٧٣ جمعت المجلس الأعلى للقوات المسلحة ووقف جميع القادة أمام الخريطة وشرح كل واحد خطته بالتفصيل ودوره في هذه الخطة . . وقبل أن ينتهى الاجتماع قلت لهم : كل واحد يكون جاهز في أى لحظة لصدور الأمر . . .

ويوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقعت للقائد العام الجنرال أحمد اسماعيل أمر القتال وكنت قبل ذلك في سبتمبر سنة ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجي للقائد العام ووضعت فيه تصوري للهدف الاستراتيجي وقد كان هذا الأمر الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديث . .

بدأ العد التنازلي قبل المعركة بعشرة أيام كما خرجت القطع البحرية لتتخذ أماكنها في الحرب قبل ساعة الصفر بعشرة أيام وكانت مع كل قطعة بحرية ظروف مقللة تحمل تعليمات العمليات ولا تفتحها إلا بعد أن تتلقى كلمة شفرة محددة وعندئذ ستجد التعليمات المفصلة لخطة عملها .

كان تدريب القوات يستلزم هذه الأيام العشرة أيضاً فالجرب لم تعد خطة توضع وأوامر تصدر للقوات لتنفيذها فحسب . . بل يجب التدريب على كل شيء بالتفصيل وكلما كثرت التدريبات وأتقنت زادت فرص النجاح . . كان العد التنازلي للتدريب قد انتهى في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٧٣ . . وكان تدريب آخر لواء من اللوحدات المشتركة في العمليات على الواجب الذي سيقوم به قد تم يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٣ .

وفي يوم الأربعاء ٧ رمضان الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ - حسب اتفاق مع الرئيس حافظ الأسد في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٣ - استدعيت السفير الروسي وقلت له : « أريد أن أبلغك رسمياً أنني أنا وسوريا قد قررنا بدء العمليات العسكرية ضد إسرائيل وعندى سؤال أريد الإجابة عليه من القادة السوفيت بصفة عاجلة وهو ما موقف الاتحاد السوفيتي منا ؟ » سألتني عن الموعد فقلت له : « إننا لم ننطق عليه بعد . . »

كنت قد اتفقت مع الأسد على أن استدعى السفير السوفيتي عنده في اليوم التالي وهو الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ويعلنه بالموعد لأن علاقائي بالسوفيت كانت سيئة .

في اليوم التالي ٨ رمضان أى الخميس ٤ أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب السفير السوفيتي موعداً عاجلاً معي فتصورت أنه جاءني بالرد على سؤال . . استقبلته فكان أول ما قاله هو : « معي رسالة عاجلة من القيادة السوفيتية - إنهم في موسكو يطلبون موافقتك على وصول أربع طائرات ضخمة لحمل العائلات السوفيتية من مصر . . »

وهذه العائلات السوفيتية هي عائلات المدنيين السوفيت الذين يعملون في المصانع والقطاع المدني لأن العسكريين السوفيت وعائلاتهم كانوا قد رحلوا قبل ذلك بعام عند صدور قرارى بترحيل المستشارين العسكريين السوفيت من البلاد . . ومضى السفير قائلاً إن القادة السوفيت يريدون للعائلات أن ترحل من مطار عسكري حتى لا يراها الناس في المطار الدولي وأن هذه الطائرات ستصل غداً صباحاً أى الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . .

ما هذا القائل السيء ؟ قلت في نفسي : هذا معناه أنهم يقولون لي مقدماً إن معركتك فاشلة ونحن نخاف على أرواح رعايانا . . وماذا عن المصريين أهل البلد ؟ ألا يعلمون أنني أخاف عليهم . . ؟

قلت للسفير السوفيتي وما زالت الدهشة من تصرف السوفيت تعقد لساني : « أنا ما عنديش مانع وبلغ موسكو بموافقتي . . ولكن أين الإجابة على سؤالى ؟ » قال لي : « هذه هي الرسالة الوحيدة التي كلفتني موسكو بإبلاغها لكم » وفعلاً في اليوم التالي وكان يوم الجمعة ٩ رمضان الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وصلت أربع طائرات نقل ضخمة سوفيتية وحملت الرعايا السوفيت من عائلات الخبراء المدنيين في المصانع من السوفيت عائدة بهم إلى بلادهم . .

ولقد رصد الإسرائيليون هذه الطائرات الضخمة بواسطة رادارهم واعتقدوا أنها تحمل إمدادات من روسيا إلى مصر وكذلك إلى سوريا لأن نفس الأمر تكرر مع سوريا في نفس التوقيت . .

لقد كنا نحن وإسرائيل بما لدينا من أساليب الحرب الإلكترونية نرصد ما يحدث عند الآخر . .

كان تصرف السوفيت يدل على عدم الثقة فيما وفي قدراتنا . . . وأسوأ من هذا أن سفينة سوفيتية كانت في طريقها إلينا تحمل بعض الإمدادات - وكان عندنا إخطار من السوفيت بموعد قيامها وأنها ستدخل الاسكندرية يوم ٩ رمضان - ولكن صدرت إليها الأوامر السوفيتية وهي في عرض البحر بأن تتجول في البحر الأبيض وقملاً تجولت في البحر حوالي ستة أيام إلى أن ناكدوا من انتصارنا فرست في الاسكندرية . . . ولما سألناهم عن أسباب التأخير قالوا إن السفينة قد تاهت في البحر . . .

انتقلت يوم الخميس ٨ رمضان إلى قصر الطاهرة بعد أن جهز كركر قيادة لإدارة الحرب ، وفي يوم الجمعة ذهبت لأصلي في الجامع الذي تعلمت فيه الصلاة منذ خمسين سنة وهو زاوية صغيرة . . . وهناك في رحاب الله وهدوء الجامع شرد ذهني في أيام الطفولة والنقاء . . .

بعد الظهر جلست في الشرفة وكان القمر ما زال صغيراً وطلعت جميلة وأنا أعشق الطبيعة المجردة ولا أحب المدينة ولا الزخرف والأضواء . . . كنت في أقصى درجات السلام الروحي فرغم اللحظة التي كنت مقبلاً عليها كنت أرنو إلى الغد موعد المعركة على أنه مجرد يوم قدر لي الله أن أعيشه ولذلك دخلت المعركة دون أدنى انفعال أو عصبية . . .

لم يكن يشغلني سوى بعض التفاصيل التي لم تكن إلا مجرد رتوش حول المعركة . . . وقد يعجب الناس إذا عرفوا أن ليلة المعركة كانت من أحسن الليالي التي نمتها في حياتي . . . ولذلك عندما استيقظت في الصباح قمت بالتدريبات الرياضية اللازمة وسار برنامجي اليومي كالعادة وكان عقلي في منتهى النشاط والراحة مستعداً لمشويات اليوم الجديد . . .

٥

في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت ٦ أكتوبر ، حضر المشير أحمد اسماعيل إلى "حسب ما اتفقنا عليه وركبنا العربات الخاصة بالجيش وكنت أرتدى الزي العسكري وتوجهنا إلى غرفة العمليات حيث جلست في مكاني والقائد

العام عن يميني وكانت التعليمات أن الجميع يجب أن لا يلتزموا بالصيام . . . وقد أصدرنا هذه الأوامر بفتوى من المشايخ وكنت أتصور أن القادة قد نفذوها ولكنني لم أكن واثقاً من أن هذا قد حدث بالفعل فسألهم : « أنتم ما بتدخنوش ليه ؟ ليه ما بتشريوش مسجابر ؟ العملية دي عايزة تركيز وانتباه » لاحظت عليهم حرجاً شديداً فطلبت الشاي لنفسي وأشعلت غليونى وورحت أدخن . . . على الفور فعلوا كلهم مثلى . . . وفي الساعة الثانية تماماً وهي إشارة عبور الطيران وصل الخبر بأن طائرتنا قد عبرت قناة السويس وكانت ٢٢٢ طائرة نفاثة سرعتها فوق سرعة الصوت انتهت من ضربتها الأولى في ثلث ساعة بالقبض فقدنا فيها خمس طائرات فقط . . . كما فقدت في تلك المحطات الأولى من الحرب أخي الطيار الشهيد عاطف الذي هو في منزلة ابني لأنني أنا الذي ربيته ولكنهم أخفوا على حينذاك نبأ استشهاد أخي .

ونجحت ضربة الطيران نجاحاً كاملاً ومذهلاً حسب التخطيط الذي وضعناه لما . . . مذهبنا لنا في المقام الأول فقد حققت الضربة نتائج فاقت التسعين في المائة بخسائر لم تزد عن إثنتين في المائة ومذهلاً لإسرائيل وللعالم كله شرقه وغربه . . . فقد كان تقدير الاتحاد السوفيتي الرسمي بواسطة خبرائه قبل أن يخرجوا من مصر أنه في أية حرب مقبلة فإن ضربة الطيران الأولى سوف تكلف سلاح الطيران المصري على أحسن الفروض ٤٠٪ من قوته ولن تحقق نتائج أكثر من ثلاثين في المائة . . . وبالقسط كان هذا التقدير من جانب السوفيت يهدف إلى تعجزنا وتخويفنا من المعركة فلم يكن لهم ثقة فيما على الإطلاق تماماً كما فقدنا الثقة فيهم .

في ثلث ساعة فقط أي بعد عشرين دقيقة من ساعة الصفر كانت طائرتنا قد ضربت مراكز القيادة ومراكز إدارة الطيران ومراكز إدارة الدفاع الجوي . . . وحين تحققت من هذه النتيجة وأنا في غرفة العمليات هنأت قائد الطيران حسنى مبارك الذي خطط ونفذ هذه الضربة وهنأت جميع القادة في غرفة العمليات إذ أن هذه الضربة قد حددت بالفعل مصير المعركة بعد ذلك . . . فقد فقدت إسرائيل توازنها بالكامل ليس للأربعة وعشرين ساعة الأولى الحاسمة بل لأكثر من أربعة أيام كاملة فقدت فيها السيطرة على قواتها في سيناء وانقطع الاتصال كاملاً

بهذه القوات . . . لقد استعاد سلاح الطيران المصرى بهذه الضربة الأولى كل ما فقدناه فى حربى ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ومهد الطريق أمام قواتنا المسلحة بعد ذلك لتحقيق ذلك النصر الذى أعاد لقواتنا المسلحة ولشعبنا ولأمتنا العربية الثقة الكاملة فى نفسها وثقة العالم بنا . . . وأننى إلى الأبد خرافة إسرائيل التى لا تهزم . . . لقد كان قائد سلاح الطيران المصرى فى هذه المعركة الجنرال حسنى مبارك الذى طلبت إليه بعد ذلك أن ينزع ملابسه العسكرية ليرتدى الملابس المدنية لى يعاوننى فى عملى ككاتب لرئيس الجمهورية .

عقب ضربة الطيران بدأت المدفعية المصرية ترمجر بأكبر تركيز شهده العالم بعد معركة العلمين فى الحرب الثانية إذ انطلقت قذائف أكثر من ألفى مدفع لتتصف بدقة رائعة أهدافها . . . وهكذا بدأت ملحمة ٦ أكتوبر والأداء الرائع للجندى المصرى العربى إذ لم ينتظر جنودنا على القناة أمر العبور وإنما كان مرور ٢٢٢ طائرة مصرية على ارتفاع منخفض يكاد يلمس رؤوسهم فى وقت واحد كافياً لإلهاب حماسهم ومشاعرهم المكبوتة منذ وقت طويل فأخذوا يسحبون زوارقهم إلى مياه القناة من خلف الساتر وفى حالة هستيرية اندفعوا يعبرون القناة وهم يصرخون « الله أكبر » .

وهكذا بدأت مراحل الخطة تنفذ ولأول مرة يغير التخطيط العسكرى المصرى تلك المفاهيم التى كانت ثابتة إلى معركة أكتوبر ١٩٧٣ . . . كانت القاعدة ألا يتصدى للمدركات إلا المدرعات . . . وقد تعلمنا كما تعلم العسكرىون فى العالم كله أن قوات المشاة مهما كان تدريبها أو نوعيتها فلا يجب أن تلحق فى أية معارك مع المدرعات لأنها كما يقول التعبير العسكرى (SOFT) ولكن فى حرب أكتوبر عبرت القوات الخاصة والمشاة المدربة فى الأفواج الأولى وهم يحملون الصواريخ فى أيديهم وواجهوا الدبابات الإسرائيلية فى معركة مريرة وضربوا أعداداً ضخمة منها قبل أن تعبر دباباتنا وتصل إليهم وتدخل معركة الدبابات .

كان فى الخطة أن ضربة الطيران تليها ضربة المدفعية كما ذكرت وتحت ستار ضرب المدفعية يتم العبور ولكن الذى حدث أن العبور تم أثناء عملية الطيران وقبل أن تبدأ المدفعية . . . وبعد العبور دخل جنودنا على الحاجز الترابى الذى كان فى

بعض مواقعه يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً واستخدموا فى تسلقه عمليات بدائية أذهلت العالم - فهى عبارة عن سلم من الحبال يحملها الجندى ثم يتسلق الحاجز الترابى وعندما يبلغ القمة يطرح السلم لإخوانه فيتسلقونه وهم يحملون الأسلحة المضادة للدبابات من صواريخ ومدفعية ثقيلة وبسرعة يستولون على المواقع التى أعدها الإسرائيليون خلف الساتر الترابى على الضفة الشرقية ليربصوا فيها بالعدو ويستروا زملاءهم الذين يعبرون .

كان مهرجاناً رائعاً وأنا أرى هذا المشهد من غرفة القيادة هادى البال حتى خيل إلى أنه لو دخل أى إنسان نفسى لوجد بها طمأنينة كاملة . . . لم يكن فى خاطرى أى هم فكل الحموم قد انقشعت وانتهت تماماً .

أول لواء من لواءاتنا المصرية رفعت العلم المصرى على الضفة الشرقية كان اللواء السابع وتوالت الأنباء بعد ذلك وبدأ سقوط النقاط الحصينة فى خط بارليف الواحدة بعد الأخرى وفى نهاية ست ساعات فقط كان قد انتزع تماماً أن اليهود قد فقدوا توازنهم وفقدوا السيطرة وفقدان السيطرة هذا تعبير عسكرى معناه أن القيادات قد فقدت الاتصال بينها وبين القوات وهذا أهم شئ فى العسكرى من أجل تحقيق المفاجأة .

بعد عبور الموجات الأولى من القوات حاملة الصواريخ والمدفعية المضادة للدبابات واحتلالها للمواقع التى أعدها الإسرائيليون لإعاقة عبورنا بدأ المهندسون فى تطبيق نظرية شق الحاجز الترابى بخراطيم المياه المكثفة وهذه فكرة مصرية ١٠٠٪ فسلح المهندسين هو الذى قام بها وأذكر أننا حين طلبنا من الألمان صنع هذه المضخات ذات الضغط العالى سخروا منا وكانوا يتساءلون : « هل هناك حريق فى العالم كله يحتاج إلى كل هذه القوة ؟ » . . . من قوة دفع الماء قطع الساتر الرملى كما لو كان بالسكين وفتحت الثغرات فى هذا الساتر الذى يبلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً حيث ركبت فيها الكبارى . وعبرت الدبابات .

فى المساء كان كل شئ قد تم قبل موعده حسب الخطة . . . أما بالنسبة للموقف على الجبهة صباح ٦ أكتوبر فإن القادة المخلصين قاموا بخدعة لطيفة وهى أنهم جعلوا الجنود يجلسون على ضفة القناة وهم يمتصون عيدان قصب السكر فى تراخ وكأنهم فى إجازة . . . أما الخداع التكتيكى الأسامى الذى أجبر إسرائيل على احترام الجندى المصرى إلى الأبد فهو النزول بخمس فرق كاملة على خط المواجهة الذى كان طوله ١٨٠ كيلو متراً .

في الساعة الثامنة إلا نلت أي بعد ست ساعات إلا نلت قضيتها في غرفة القيادة أبلغوني أن السفير السوفيتي يريد مقابلتي فقلت للجيرال أحد اسماعيل لاني ذاهب إلى قصر الظاهرة وهو المكان الذي أعدته بأحدث وسائل التكنولوجيا للإتصال بكل أنحاء مصر حتى لو ضربت المدن والمنشآت وأوصيته بأن يبلغني بتطورات الموقف أولاً بأول بعد أن هنأت الجميع في غرفة العمليات على الأداء الرائع لقواتنا وأرسلت لقواتنا أشكرهم على الجبهة فكما قلت كان مصير المعركة قد تحدد نهائياً .

التقت بالسفير السوفيتي كنت أظن أنه جاء ليحمل إلى رد القيادة السوفيتية على سؤالى الذى سبق أن سأله وهو ما موقف السوفيت منا ؟ ولكن خاب ظنى فقد جاء ليقل لي إن الرئيس حافظ الأسد استدعى السفير السوفيتي . م ٤ أكتوبر وأبلغه أن الحرب ستبدأ يوم ٦ أكتوبر فقلت له نعم أنا أعرف ذلك وقد كان ذلك باتفاق سابق بيننا ثم استطرد السفير السوفيتي قائلاً إن حافظ الأسد طلب في هذه المواجهة منا أى من الاتحاد السوفيتي العمل على وقف إطلاق النار بعد ٨ ساعة على الأكثر من بدء العمليات يوم ٦ أكتوبر . وبناء على ذلك فقد جاء ليبلغني ذلك رسماً من القيادة السوفيت ويطلب مني الموافقة على ذلك أنت في الرئيس الأسد قد طلب هذا قبل المعركة . . . ومع ذلك فهل أنت تبليغي هذه الرسالة كمعلومات أو كرسالة رسمية ؟ قال لي : أنا أبلغك هذا كرسالة رسمية من قادة الاتحاد السوفيتي وإذا كان لديك أي شك فيمكنك أن تتصل بالرئيس الأسد للشاكر معه . . . قلت له : سوف أرسل للرئيس الأسد أسأل في هذا الموضوع ولكن أرجو أن تبلغ القيادة السوفيتية أنه حتى إذا كان هذا طلب سوريا فعلاً فإني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد الإنتهاء من الأهداف الأساسية المحددة لمعركتي . . . بعد ذلك سألته عن الرد على سؤالى الذى أبلغته له يوم ٨ رمضان عن موقف الاتحاد السوفيتي من دخول المعركة فأجاب بأنه مازال موضع دراسة . . . وبمجرد مغادرة السفير السوفيتي للمقر كتبت برقية شغرية إلى الرئيس الأسد وأبلغته بنص ما أبلغه السفير السوفيتي وكان ذلك حول الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت القاهرة أى بعد ست ساعات ونصف فقط من بدء حرب أكتوبر . . . وأبلغت الرئيس الأسد أيضاً ردى على السفير السوفيتي وهو أنني لن أقبل وقف إطلاق النار إلا بعد تحقيق أهداف المعركة ورغم خطورة

الموضوع جاء في الرد من الرئيس الأسد عصر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ أى بعد أربع وعشرين ساعة . . . بأن هذا الذى يدعيه الاتحاد السوفيتي لم يحدث . في اليوم التالي لم أذهب إلى القيادة فالعمليات تسير في خطها السليم ثم إن القادة جميعاً محترفون وصنعهم الحرب . . هذا إلى جانب اعتبار آخر وهو أن وجودي بينهم قد يسبب لهم شيئاً من التوتر العصبي . . ولكنني طبعاً طلبت من المشير أحمد اسماعيل أن يطلعني على الموقف أولاً بأول .

فوجئت يوم ٧ أكتوبر بالسفير السوفيتي يطلب مقابلة عاجلة في المساء . قابلته وقلت له : من نصف ساعة فقط تلقيت الرد من الرئيس الأسد وهو أن ما أبلغته لي رسمياً أمس كرسالة رسمية من القيادة السوفيت لم يحدث . . ابض وجه السفير فأصبح بلون الثلج وقال : « أنا جاي لك برسالة ثانية من الحكومة السوفيتية بناء على طلب سوريا للمرة الثانية بوقف إطلاق النار » قلت له : « اسمع . . أرجو أن تقفل هذا الموضوع وتعتبره انتهى عند هذا الحد فأنتم تعلمون منذ أمس أنني لن أوقف إطلاق النار إلا بعد أن تتحقق أهداف المعركة وأريدك أن ترسل للقيادة في موسكو بأن يرسلوا إلى دبابات فوراً فهذه المعركة سوف تكون أكبر معركة دبابات في التاريخ » (وكان القتال يومى ٦ ، ٧ أكتوبر شرساً كل الشراسة ومعركة الدبابات قد بدأت) . . وهنا أبلغني السفير السوفيتي بالكوبرى الجوى الذى قرر الاتحاد السوفيتي إقامته لكي يرسل إلى ذخائر ومعدات متأخرة كان لابد من تسليمها خلال سنة ١٩٧٣ وفقاً للاتفاقية التى عقدها معهم المشير أحمد اسماعيل في أوائل عام ١٩٧٣ . . رجبت على أى حال بهذا النبأ وقلت له : « هكذا يجب أن يكون شكل العلاقة بيننا » .

بعد ذلك كان السفير السوفيتي يزورنى يومياً في قصر الظاهرة لتبادل المعلومات ولكنه لم يكف عن الإلحاح على وقف إطلاق النار وأنا أنهره وأقول له : « ليس قبل أن أحقق هدفى وهو ضرب نظرية الأمن الإسرائيلي » .

٧

ظل الموقف العالمى مبهلاً . . يأخذ بوجهة نظر إسرائيل لأنه يستنى معلوماته من البلاغات الإسرائيلية التى كانت تقول إنهم سوف يطحنون عظامنا وقد استخدمت إسرائيل لكي تغطي هزيمتها أفلام حرب ١٩٦٧ في إسرائيل وفي العالم وظنوا أن حرب الدعاية يمكن أن تلغى الحقائق . . ولم يكن العالم في بادئ الأمر

بصدق بلاغات رستم أن اشير إسماعيل كان متحفظاً فيها إلى أبعد الحدود . .
 نرحل من عند الساعات التي خسرتها إسرائيل كان في بعض بلاغاتها أقل من
 الواقع وأن اشير كتب بطب الخط من أكثر من جهة فإذا لم يتوفر له هذا كان
 يكتفي بالرقم الذي في الحقيقة أنه لو جمعنا عدد الدبابات التي خسرتها إسرائيل وفقاً
 لبلاغتنا متجده أقل من الواقع بحوالي ١٥٠ دبابة . . وكنت قد قلت لأحمد إسماعيل
 والدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام وقتها : « في هذه
 المعركة نريد الحقيقة كما هي للناس بخبرها وشهرها . . حتى نعود شعبنا على أن يسمع
 الحقيقة كاملة مهما كانت » .

في هذه الأثناء اتصل بريجنيف بالرئيس تيتو وطلب منه أن يتوسط عندي
 حتى أن أقبل وقف إطلاق النار لأن سوريا كانت قد أرسلت للاتحاد السوفيتي
 (كما أبلغ بريجنيف تيتو) ثلاث مرات تطلب وقف إطلاق النار وقال له إن مصر
 رفضها وأن الرئيس السادات بإصراره هذا سوف يكون السبب في كارثة تودي
 بالعالم العربي والنظم التقدمية والعالم بأجمعه . . كان تيتو حريصاً فرد على بريجنيف
 يبلغه أنه لا يسمح لنفسه بالتدخل فيما يفعل السادات رغم الصداقة به فالرئيس
 السادات أمامه الصورة كاملة للأمر وهو يتصرف على أساسها . . في هذا الوقت
 كان تيتو قد أتم تجهيز ١٤٠ دبابة كنت قد طلبتها على وجه السرعة لخبرتي بأسلوب
 السوق معي أرسلها إلى وهي عملة بالنخيرة والبزير لكي تدخل إلى ميدان
 المعركة مباشرة فتيقوله خبرة من الحرب العالمية الثانية وهو مناضل أصيل . .
 موقف لن أنساه أبداً للرئيس تيتو وليوغوسلافيا .

بعد اليوم الثالث تأكد انتصارنا فبدأ العالم يأخذ ببياننا ويبدى إعجابه بقدرتنا
 القتالية وفرحته لانتصارنا - في هذه الأيام الثلاثة فقدت إسرائيل أكثر من
 ثلث سلاح طيرانها على الجبهتين المصرية والسورية وخيرة الطيارين المدربين
 وليس في المعركة التي دارت بعد ذلك كانت طائراتنا الميج ١٧ وسرعها أقل
 من سرعة الصوت تهزم الفانتوم التي كانت أحدث طائرة في ذلك الوقت عند
 إسرائيل وهي التي سلمتها لنا أمريكا .

وبذلك انتهت خرافة سلاح الطيران الإسرائيلي واليد الطولى وخرافة
 المدرعات الإسرائيلية والجندى الإسرائيلي بوجه عام ، وعلى سبيل المثال قتل
 على الجبهة المصرية قائد عام مدرعات إسرائيل الجنرال ابراهيم مندler وكانت له

شهرة عالمية . . ولعل البرقيات المتبادلة بينه وبين القيادة الإسرائيلية توضح
 حقيقة هزيمة إسرائيل . كل هذا الانهيار الذي تم في الأيام الثلاثة الأولى للحرب
 جعل كينسجر يقول لمسز مائير في اليوم الرابع : « لقد خسرت الحرب ويجب
 أن تعدى نفسك لهذا » . . ثم بدأ كينسجر مساعيه لإيقاف إطلاق النار حتى يلتقط
 الإسرائيليون أنفاسهم . . فقد كانت المعارك تير بالنسبة لنا من نصر إلى نصر .

فمثلاً اللواء ١٩٠ المدرع الإسرائيلي وكان من أهم لواءاتهم المدرعة إذ
 يعتبرونه رأس الحربة كانت خطته أن يخترق ويندفع إلى أن يصل إلى الضفة
 القناة ويقطع قواتنا بعضها عن البعض فإذا بتأله عساف ياجسوري يقاب بالنيار
 عصبي وهو يسلم نفسه للقوات المصرية لأنه بعد ثلث ساعة فقط من بدء
 المعركة . . تلفت حوله فلم يجد سوى دبابته أما بقية اللواء وقدرها أكثر من
 مائة وخمسة عشرة دبابة فكان قد قضى عليها بالكامل . . والذي قام بهذا العمل
 الرائع قائد من البراعم المصرية الجديدة اسمه أبو سعدة .

لقد سجلنا رقماً قياسياً عسكرياً مصرياً بالقضاء على أى لواء مدرع معادى
 في عشرين دقيقة .

كما سجلنا من قبل أن أكبر قطعة بحرية إسرائيلية هي إيلات بقوة نيرانها
 وصواريخها وطاقتها الذي يبلغ أكثر من ٣٠٠ (ثلاثمائة) بحار يمكن أن يقضى
 عليها زورق صواريخ لا يزيد طاقمه عن ١٧ فرداً وكان هذا إيذاناً بتغير
 استراتيجي في حرب البحار أخذت به كل دول العالم بعد حرب أكتوبر
 وسجل التاريخ أن أول صاروخ بحري سطح سطح والذي غير الاستراتيجية
 البحرية العالمية . . كان صاروخاً مصرياً أطلق من زورق مصرى وبأيدى
 ضباط وجنود مصريين في وقت ظن العالم فيه أن مصر والعرب لا يستطيعون
 استيعاب التكنولوجيا الحديثة . .

وقع ذلك في أحلك لحظات الهزيمة عام ١٩٦٧ . .

ثم كان ما سجله المقاتل المصرى من تغير جذري في حرب المدرعات والمشاة
 في تاريخ العالم العسكرى بعد ست سنوات في أكتوبر سنة ١٩٧٣ والذي ذكرته
 سابقاً . .

إن العسكرية المصرية في أكتوبر سنة ١٩٧٣ وبعد هزيمة سنة ١٩٦٧ قد
 سجلت في تاريخ العسكرية العالمية علامات محددة هي :

١ - الأسس الجديدة لاستراتيجية حرب البحار التي أخذ بها العالم بعد أن ثبت أن زورقاً صغيراً يمكن أن يصيب أكبر القطع البحرية وأن قوة النيران لم تعد تتطلب بوارج أو مدمرات ثقيلة فقد كانت قوة نيران زورق صغير أفضل من قوة نيران مدمرة ثقيلة بالمادفع والصواريخ هي إبلات . .

٢ - أن أول حرب البكرونية وصاروخية وقعت في معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ وثبت أن المصريين والعرب يفخرون بأنهم خاضوا هذه الحرب وانتصروا فيها ولولا تدخل الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل لتغير الوضع . مع أن ما كان لدى إسرائيل في هذه الحرب من تكنولوجيا حديثة حصلت عليها من الولايات المتحدة الأمريكية كان سابقاً لما لدى العرب من روسيا بأشواط طويلة .

٣ - أن معارك الدبابات أصبحت في عصر الصواريخ والحرب الإلكترونية معارك رهية تعتمد على أعداد رهية من الدبابات لم يشهد لها العالم مثيلاً ففي خلال الحرب الثانية كانت معركة كورسك في روسيا للدبابات هي أكبر معركة شهدتها العالم . . وفي معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استمرت ١٧ يوماً فقط فقد الحاربون ثلاثة آلاف دبابة أي أن القوات التي دخلت المعركة في حرب أكتوبر كانت أكثر من خمسة آلاف دبابة في الوقت الذي اعتبرت فيه معركة كورسك لروية التي اشترك فيها ٥٠٠ دبابة أكبر معركة دبابات خلال خمس سنوات من الحرب وليس سبعة عشر يوماً كما حدث في حرب أكتوبر . .



في يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أي بعد سبعة أيام من ابتداء الحرب أيقظوني من النوم في النجوع وقالوا لي إن السفير البريطاني يطلب مقابلة عاجلة لتسليم رسالة عاجلة من رئيس وزراء بريطانيا « هيث » . . استقبلته في الصالون المجاور لحجرة نومي فأعطاني رسالة من كيسنجر عن طريق رئيس وزراء بريطانيا فقد كانت علاقتنا لا تزال مقطوعة بأمريكا - وكان كيسنجر في رسالته يطلب من « هيث » أن يتأكد أنني موافق على وقف إطلاق النار فقد أخبره السوفيت بهذا . . وكان كيسنجر قد أفاق منذ اليوم الرابع للحرب ونداء SAVE ISRAEL الذي وصله في اليوم

الرابع بعد أن كانت دعاية إسرائيل تحكى لمدة الثلاثة أيام الأولى أنهم يطلقون عظام المصريين وسائرهم إذاعات العالم - أقول أفاق كيسنجر الذي لم يكن لديه أدنى شك في طعن عظامنا على نداء SAVE ISRAEL وطلب إسرائيل لأربعمائة دبابة بصفة عاجلة وهي مجموع ما خسرت على الجبهة المصرية إلى ذلك التاريخ أي اليوم الرابع وتقرير من البتاجون يقول إن المعركة على الجبهة المصرية تسير في غير صالح إسرائيل ولا بد أنه وصله أيضا بكاء ديان على الجبهة المصرية أمام جميع مراسلي الصحف العالمية وأخباره وقوله إن الإسرائيليين لن يستطيعوا أن يزحزحوا المصريين بوحدة واحدة وأن الطريق مفتوح إلى تل أبيب . . كان كيسنجر منذ اليوم الرابع بعد أن عرف كل هذا يعمل على وقف إطلاق النار مع السوفيت فبدأ أولاً بالنداء لوقف إطلاق النار مع عودة الأطراف المتحاربة إلى الخطوط التي بدأ منها القتال على أساس أن الإسرائيليين كانوا يطلقون عظامنا . . ثم بدأ يعدل موقفه لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور وتقرير البتاجون إلى وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة بالفعل يوم ١٣ أكتوبر ورفضنا العرضين .

ولكن حينما أخبره السوفيت أن مصر وافقت على وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية للقتال يوم ١٣ أكتوبر سعد جداً واتصل بوفد أمريكا في الأمم المتحدة للإعداد في مجلس الأمن وأراد أن يستوثق مني فأرسل هذه الرسالة عبر هيث رئيس وزراء إنجلترا لأنه كان قد عرف قبل ذلك من مستشار الأمن القومي المصري الذي قابله في باريس أوائل سنة ١٩٧٢ حقيقة أبلغتها رسمياً للولايات المتحدة وهي أن الاتحاد السوفيتي لا يملك أن يتحدث باسم مصر . . لذلك صدم كيسنجر حينما أبلغه هيث ردى على الرسالة وكان « بلغ كيسنجر أن هذا لم يحدث فأننا لم أوافق على وقف إطلاق النار لا للسوفيت ولا لغيرهم وقد سبق أن أخبرته بأن يتصل بالقاهرة إذا كان ثمة ما يخص مصر وليس بموسكو . . ثم إنني لن أوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضمنها الخطوة . . سألتني السفير الإنجليزي : - « هل صحيح أنكم تصرون على قفل البحر الأحمر ؟ » .

قلت له : فعلاً

قال : طيب . . ما هي الشروط ؟

قلت له : أنا مستعد لوقف إطلاق النار في حالة موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية .

وخرج السفير من عندي ليبلغ كيسنجر بالموقف . . بعدها مباشرة وصلني من الاتحاد السوفيتي بأن رئيس الوزراء كوميجين سيحضر لزيارتي - قلت أهلاً وسهلاً .

« جاء كوميجين والتفتنا . كان مطلبه الأساسي وقف إطلاق النار على خطوطه الحالية . قلت له : - « أنا مش مستعد أكرر هدنة سنة ١٩٤٨ التي خلت البت في حمارتنا للحرب » .

قلت : « إحنا حناحل ضامين » .

قلت : « إسرائيل لا ضمان لما إطلاقاً - ثم أنا طالب دبابات من ثاني يوم للمعركة . « إسرائيل الآن والكوبون التي انتم شاملينه بييجيبلى معدات تأخرتم في تسليمها وكان يوم ثورة في سنة ١٩٧٣ قبل المعركة » وطبعاً كان من ضمنها الذخيرة التي وقودها أن تستعملوها لعبد الناصر في حرب الاستنزاف لأنه رفض أن ينفذ الهدنة . « بدأ أسلوبه المجوى ، وكوميجين هجم وبيروقراطي . . وهم يضربون . « الحال في الاتحاد السوفيتي بأنه خدام مع ستالين في الحكومة لمدة ثلاثة عشرة عاماً . « مع ذلك لم يصبى بواسطة بيريا ووزير داخلية ستالين أو يرسل إلى سيبيريا بعكس كل ما حدث لأن عمالوا مع ستالين ولم ينج منهم أحد كما حدثنا خروشوف . « يارته لما عام ١٩٦٤ .

قلت له : « تعالى بنى نشترض الكلام الى أنت بتقوله - الكباري الى إنت . « سألني والى أنا ركبنا على قناة السويس . . الكوبري الواحد منها يحتاج لخمس ساعات تركيب وهي كباري الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي عندك كوبري H.M.P. يترك في نصف ساعة . . كل المعدات التي أعطيها لي متأخرة . . « وحفظني وراء إسرائيل ١٥ خطوات ومع ذلك قبلت وبدأت معركتي وأنا منتصر - أدنى علافتكم معنا . « وأظن أن الأوان قد آن لكي تنسى الماضي وتبدأ صفحة جديدة » .

قال لي : - « يا سيادة الرئيس أنا لم أكن أنتصور أنك بهذا الانفعال » . « وإنني اللقاء الأول - ولكن في فترة الأربعة أيام التي قضتها بمصر كان يقضي اليوم كله في السفارة السوفيتية ويقابلني في المساء .

« وأثناء وجوده في مصر حدثت الثورة فجاءني وعلى وجهه علامات الشق وقال : « لقد حدثت الثورة وموقفكم خلاص إنحدد . . القاهرة أصبحت مهددة » .

قلت له : - « آسف . . القاهرة لن تهدد أبداً . . ولكن أين الدبابات التي طلبتها منكم . . أين ؟ » .

قال لي : - « إحنا ركزنا على سوريا لأنها إنكسرت وفقدت ١٢٠٠ دبابة في يوم واحد » .

قلت له : - « لا اعتراض لي على هذا ولازم تنجدوا سوريا بكل الطرق . . ولكن هذا لا يمنع من إرسال الدبابات التي طلبتها . . أرسلوا الدبابات وأنا كفيل بالتعامل مع الثورة . . وسافر بعد ٤ أيام وقلت له وأنا أودعه : - « لن أوقف إطلاق النار إلا بعد إنتمام المرحلة النهائية من الحلقة . . أرجو أن يكون ذلك واضحاً لكم » .

٩

اتضح لي بعد ذلك أن القمر الصناعي الأمريكي الذي كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة بعد نداء SAVE ISRAEL أخطروهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة المصرية من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط على سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد وأن البتاجون قد نصح الإسرائيليون بمحاولة عمل الثورة لإنقاذ الموقف الإسرائيلي المنهار على جبهة سيناء . . وقد كتب بعد ذلك رئيس الأركان الإسرائيلي أثناء حرب أكتوبر ليدافع عن نفسه في مذكرات نشرها ليبري نفسه بعد أن أدانته تقرير لجنة أبحاث أن جولدا مائير قالت لم بعد وصول معلومات القمر الصناعي الأمريكي افعلوا أي شيء فنحن على الجبهة المصرية قد وصلنا إلى الحضيض BOTTOM بنص الكلمة . . كان القمر الصناعي الأمريكي يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة وأقرر هنا للتاريخ أن روسيا التي تدعى وقوفها مع الحق العربي لم تبلغنا بشيء بواسطة أقمارها الصناعية التي كانت تنص الممرات من الحلقة بدنها إلى لحظة وقف إطلاق النار لأننا أخطرناها بواسطة سوريا عن ساعة الصفر كما قلت سابقاً . . وهذا التسجيل للمعركة عرض في اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتي وطلبت صورة منه فلم أتلق رداً إلى اليوم ولن أتلقى هذا الرد . . ولكن القمر الصناعي الأمريكي والبتاجون كانوا يوافون إسرائيل بالموقف ساعة

بعد ساعة دون أن تطلب ذلك . . وخاصة بعد أن سجل القمر الأمريكي كما قلت أن المعركة على الجبهة المصرية تسير لغير صالح إسرائيل وأقر ديان أن الطريق من سيناء مفتوح إلى تل أبيب . . ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات .

لقد استخدم الكوبرى الجوى الأمريكى لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التى تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة SOPHISTICATED والعريش مدينة مصرية وهى عاصمة سيناء . . تقع خلف الجبهة مباشرة . . وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر . . فى معارك الدبابات التى اعترف الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين فى إدارتها (وخاصة بعد أن أفنينا الدبابات التى كان يقودها مندلو قائد الدبابات الإسرائيلى الذى كان فخر إسرائيل وبعد إعلان استغاثته وموته) كنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات أرى مزيداً من الدبابات .

أمريكا . . لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد النداء المشهور فى اليوم الرابع . . وهى تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصرى الذى يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكى تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار . . وتذكرت فى تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية . . ثم على الجبهة اليابانية . . لقد كانت أمريكا تغير على الأهداف الألمانية ومدن ألمانيا بألف طائرة فى الغارة الواحدة لكى تلقن الألمان درساً لا يمكن أن ينسوه . . وأغاروا على نجازاكى وهيروشىما على الجبهة اليابانية لكى تلقنهم أيضاً درساً لن ينسوه . .

وتطور خطير ثالث . . فقد أطلقت الطائرات الإسرائيلية من طراز فانثوم الأمريكى عشرة صواريخ على بطاريات الصواريخ المصرية فلم يصب إلا حوائى لبطارية واحدة أصلح بعد ربع ساعة فقط ولم تعطل بطاريات الصواريخ المصرية التى استعنت ثلث السلاح الجوى الإسرائيلى فى الأيام الأولى للمعركة مما دعا القيادة الإسرائيلية أن تصدر أمراً إلى الطائرات الإسرائيلية فى اليوم الثالث لحرب أكتوبر بعدم الإقتراب من جبهة القتال فى سيناء . . أما التطور الثالث الخطير فهو أن أطلق صاروخان على بطارتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطارتين تعطيلًا كاملاً وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكى جديد يسمى القنبلة التليفزيونية تم تطويره فى اليابان لحساب أمريكا وأنه كان لا يزال تحت الاختبار فى أمريكا فأرسلته أمريكا لنجدة إسرائيل .

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل SAVE ISRAEL حتى بالأسلحة التى تحت الاختبار . . وقنبلة المافريك . . وأسلحة أخرى . . وأنا أعرف إمكاناتى وأعرف حدودى . . لن أحارب أمريكا . .

ولذلك بعد عودتى من غرفة القيادة فى الساعة الواحدة والنصف من صباح ١٩ / ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ كتبت للرئيس الأسد شريكى فى القرار برقية أخطره فيها أننى قررت الموافقة على وقف إطلاق النار وسجلت فى هذه البرقية موقفى وهو أننى لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكننى أرفض مواجهة أمريكا . . وأننى لن أسمح أن تدمر القوات المصرية مرة أخرى . . وأننى مستعد أن احاسب أمام شعبى فى مصر وأمام الأمة العربية عن هذا القرار .

وأعود إلى القصة . . فى يوم ١٦ أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلى للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها فى ذلك اليوم . . فقد كان السباق فيها للزمن . . ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفى التوقيت الذى حددته له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم فى مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان فى إمكانه أن ينتهى من العملية كلها بعد وصوله بساعات ولكنه أضاع الليلة بأكملها فى جمع المعلومات وإنشاء قيادة له يتنافس بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلاً إلى نقطة النزول واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة . . ولكن الشاذلى أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود فى الثغرة .

فى يوم ١٩ أكتوبر عاد الشاذلى منهاراً وقال لابد أن نسحب قواتنا فى شرق القناة لأن الغرب مهدد . . وكان هذا - لو تم - هو ما يريده الإسرائيليون . . فطلب منى أحمد إسماعيل فى منتصف ليلة ١٩ / ٢٠ أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قراراً مهما بوصفى القائد الأعلى للقوات المسلحة . . ذهبت إلى القيادة . واستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة فى شرق القناة وعندنا ١٢٠٠ دبابة فى الشرق أيضاً أما فى الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفى القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهورى الخاص بى الذى أدخلته الحرب وقاتل قتالا مجيداً وعاد كاملاً بكل دباباته .

بعدما اتضح الموقف لي جمعت القادة كلهم وكان معي الفريق أحمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق الجسمي مدير العمليات والفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ ، وكانوا جميعاً من رأيي وهو أنه لم يحدث شيء يستدعي القلق . فأعطيت الأمر الذي اعتبره أهم من قرار ٦ أكتوبر - بأن لا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أى شيء على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجودة ثم بدأت أتصل بتنسى مع الفرقة المدرعة في الغرب وكان يقودها ضابط اسمه قايل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقتل له : - ثبث الإسرائيليون ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات .

في هذه الليلة أعطيت تعليمات لأحمد اسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين . . وفي نفس الليلة استدعيت الجسمي وعينته رئيساً للأركان .

١٠

وفي هذه الليلة اتخذت القرار بوقف إطلاق النار فقد كان في عشرايام أحارب فيها أمريكا وحدي بأسلحتها الحديثة التي لم يستخدم أغلبها من قبل .

وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله . . فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الكوبري الجوي لنجدتنا . . ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع . . فأمريكا وإسرائيل في مواجهة والاتحاد السوفيتي في يده الخنجر ويتبع وراء ظهري ليطعنني في أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحى كما حدث في سنة ١٩٦٧ وقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضى على دفاعى الجوى بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سماء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث في عام ١٩٦٧ . .

وقد كان حسني مبارك قائد الطيران يستخدم كل الطائرات الموجودة . . حتى طائرات التدريب التي في مدرسة الطيران ركب بها صواريخ وقنابل . . وطائرات الميج ١٧ وسرعها أقل من سرعة الصوت استخدمها طيارونا بمهارة شديدة ضد الفانتوم والميراج . .

وكان هذا في مجموعه بشكل ملحمة رائعة لسلاح الطيران المصرى على عكس ما كان الاتحاد السوفيتي يتوقع . . إذ كان يريد أن يثبت أنني لست كفتاً للحرب بعد أن طردت الخبراء السوفيت وأن مصر يجب أن تعود مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتي . . وقد صرح بهذا بريجنيف للرئيس بومدين عندما زار الاتحاد السوفيتي زيارة سرية لم يخطر بها أحداً ونحن في أوج انتصارنا ليشترى لنا السلاح . . ففى أثناء المناقشة احتد بريجنيف وقال له إن أنور السادات ضيع مصر وسوف يضيع العرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وإله أحمق . . فرد عليه بومدين وقال : « أنا زبون جاي أشتري منك سلاح . . اتفضل آدى مائة مليون دولار لمصر ومثلها لسوريا . . أرسل لهم الأسلحة التي يطلبونها . . ولما عاد بومدين إلى الجزائر جمع مجلس الثورة وحكى لهم ما حدث وقال : « إذا كان الأمريكان وإسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالالاتحاد السوفيتي عايز يهزمه ٢٤ قيراط » . هل يذكر بومدين هذا وقد قاله لى شخصياً أم نساه بعد أن أصبح عضواً في جبهة رفض مبادرتي الأخيرة للسلام ؟ .

في يوم ١٩ أكتوبر بعد اجتماعي بالقواد عدت إلى قصر الطاهرة وبدأت في الحال تنفيذ قرارى - طلبت منهم أن يستدعوا لى السفير السوفيتي وإلى أن حضر كسبت برقية إلى الرئيس الأسد قلت فيها إننى قد قبلت وقلبي ينزف دماً وقف إطلاق النار . . لأنى مستعد أن أحارب إسرائيل مهما طال الوقت لكننى غير مستعد على الإطلاق لمحاربة أمريكا - كما أتى لا أسمع بأن تدمر قواتى المسلحة مرة أخرى أو أن يدمر شعبنا ومنشأته وفى آخر البرقية قلت له إننى مسئول عن هذا القرار يحاسبني عليه الشعب في مصر وتحاسبني عليه أمنا العربية . .

وجاء السفير السوفيتي فقلت له : « لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية » . . في هذا الوقت كان كيسنجر في طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار فاستأنفت حديثي مع السفير وقتل له :

« الدولتان العظيمتان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفوري لقرار ٢٤٢ . . »

وفعلا اتفقت الدولتان واجتمع مجلس الأمن وقرر أن يكون وقف إطلاق النار في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر وبحسب أن قرارى هذا لم يخطئ ولا يخطئ

أن قواتنا قاتلت من ١٩ إلى ٢٢ أكتوبر قتالا رائعا جيدا وأنا اتحدى إسرائيل أن تعلن عن خسائرها الحقيقية في الثغرة أو في سبيل لأنهم بالفعل منبيرا بخسائر فادحة على أيدي قواتنا الخاصة وقواتنا الجوية . . وخاصة في الثغرة في الضفة الغربية ولم يفسحوا عن ذلك إلا منذ ستة حينما وصفوا الثغرة على الضفة الغربية بأنها كانت « وادي الموت » وهو وصف إسرائيلي . . وأكرر مرة أخرى إنني اتحدى أن تعلن إسرائيل حقيقة الثغرة ودور شارون . .

يوم ٢٢ أكتوبر قبل وقف إطلاق النار ذهبت إلى غرفة العمليات وأعطيت الأمر بضرب صاروخين أرض أرض . . اثنين فقط . . على الدفرسوار، فقد أردت أن تفهم إسرائيل أن هذا السلاح موجود عندنا ويمكن أن نستعمله في المرحلة القادمة وكانت إسرائيل قد أدركت منذ بدأنا الحرب أننا نغني ما نقول وننفذه . . أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر وهذا الخط كما اعترف اليهود بعد ذلك كان مقتلنا لهم لأنه شريط مستطيل بجانب بحيرة الدفرسوار مفتوح من جميع الجهات فأنزروا فرصة وقف إطلاق النار (كعادتهم منذ حرب ١٩٤٨) وبعدها بساعتين وجهوا هجوماً نحو الجنوب تجاه السويس وهجوماً آخر تجاه الإسماعيلية . في هذه الأثناء قامت قواتنا الخاصة بأعمال عظيمة في الثغرة فيمجرد حلول الليل يخل معه الرعب في قلوب الإسرائيليين ومن أجل هذا تحدثت أن يعلنوا عن خسائريهم الحقيقية في الثغرة ، ففي الثلاثة أيام الأولى من الحرب ضربناهم ٤٠٠ دبابة . . تلك التي طلبوها من أمريكا رسمياً تعويضاً لهم ، ولكنني بعد هذا وجدت أمامي مئات الدبابات - كما ذكرت - أمدتهم بها أمريكا بسرعة ولذا أوقفنا القتال على خط ٢٢ أكتوبر . .

قامت إسرائيل بالهجوم الذي أشرت إليه بعد وقف إطلاق النار بساعتين وكان الهدف منه أن يوسعوا الثغرة فتمتد قواتهم خلف الجيشين الأول والثاني وبذلك يتغلصون خط إمداد الجيشين ويتراجع خط دفاعنا الجوي إلى الخلف فتحرم الجيوش التي في المقدمة من الحماية وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الإسماعيلية والسويس ويتسلدون سمعهم أمام العالم . .

ولكن الذي حدث كان عكس هذا - فقد أمرت قادة الجيشين الثاني والثالث وخاصة الجيش الثالث بأن لا يسمحوا لقوات إسرائيل بتحقيق أي تقدم من ناحية الجنوب ولكن قائد الجيش الثالث أهمل وبذلك تمكنت قوات إسرائيل من أن تفتح المنطقة فتصل إلى مشارف مدينة السويس ولكنهم لم يتمكنوا من دخول السويس على الإطلاق . . كل الذي استطاعوا تحقيقه هو أنهم فتحوا ثغرة بين الجيشين في الشرق حجمها ٦,٥ كيلو مترات وذلك بين خمس فرق مصرية كاملة بدباباتها وأسلحتها بالكامل فقد أعطيت الأمر بأن لا تنسحب أية بندقية أو فرد من هذه الفرق من الشرق تحت أي ظروف . . أما في الغرب فعندما حاول الإسرائيليون الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية لم يستطيعوا الوصول حتى إلى مشارفها . . وكنت قد كتبت بمسرح . . وكان في ذلك الوقت مسئولاً عن المجلس الأعلى للدفاع الشعبي . . فأرسل ١٠٠٠ فرد من قوات الأمن المركزي وهم مدربون على مستوى عال . . فأتوا بأسلحتهم وعتادهم وكانوا على أتم استعداد ومعهم الجيش والأهالي لإستقبال الإسرائيليين . . بعد أن خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار بتذلة وقشلت في دخول الإسماعيلية والسويس اتصلت بالقوتين الأعظم روسيا وأمريكا وقلت لهما : « انفضخوا . . أنا مستعد أقبل نزول قواتكم عندي - أي قوات أمريكا وروسيا - عشان ترجعوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو تتركوني أسترد هذا الخط بشرط أن لا تعتبروا هذا خرقاً لوقف إطلاق النار » . . وكان حرصى في هذا هو أن لا تتدخل أمريكا إلى جانب إسرائيل كما حدث . .

استجاب السوفييت فقاموا بمشدد قوات للإنزال في البحر الأبيض . . أما الأمريكان فأعلنوا حالة التعبئة النورية وقد سببت لهم هذه متاعب كثيرة لأنهم لم يستشيروا حلفاءهم في حلف الأطلسي . . وقد كان الرأي العام الأوروبي في سنة ١٩٧٣ معنا وضد إسرائيل على عكس ما كان الحال عليه في ١٩٦٧ . انتهت المسألة بأن الإسرائيليين حينما ينسوا من السويس والإسماعيلية اكثفوا بالوقوف في الثغرة . . وبدأت قواتنا في الغرب تضغط عليهم باستمرار . . ولن أنسى هنا موقف الضابط قايل لأنه وقف بناور بفرقة مدرعة واحدة في مسافة بين السويس والإسماعيلية تحتاج لثلاث فرق من الشمال إلى الجنوب

حتى يثبت الإسرائيليون في الجيب .. وكان يمكن أن يتغير الموقف لو أننا كنا ننوى خرق اطلاق النار بدلا من الإسرائيليون بحيث ينضم الجيشان اللذان كانا في الشرق ويضغطان على الثغرة التي تسلل منها الإسرائيليون إلى الغرب وهي ٦,٥ كيلومتر فتنتهى في الحال .. ولكننا كنا ولا نزال نلتزم بالقواعد الأخلاقية في الحرب والسلام على السواء .

ولكن إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨ أى منذ قيامها لا تلتزم بأى قانون أخلاق أو دول وحاولت أن تضغط علينا نفسياً فشحت قوات كبيرة جداً من أجل تخويفنا وبقصد المساومة .. أرسلوا ٤٠٠ دبابة داخل الثغرة في رقعة أرض لا تتحمل أكثر من ٢٠٠ دبابة - وقواتي تحيط بهم من كل جانب فهناك خمس فرق في الشرق وأربع فرق في الغرب هذا بخلاف حائط صواريخ كاملة ودبابات التي تحاصرهم حصاراً تاماً - فقد وصلنى أول إمداد بالدبابات من يومين وكان عددها ١٥٠ دبابة ثم وصلنى إمداد آخر ١٤٠ دبابة أرسلها الرئيس تيتو بالذخيرة والبنزين بحيث تنزل من السفينة على أرض المعركة مباشرة .. أما الاتحاد السوفييتى فلم يكن بعد قد أرسل الدبابات التي طلبها ثاني يوم للمعركة ..

وقد جاءنى السفير السوفييتى ذات يوم وقال إن اللجنة المركزية قد قررت إهداء مصر ٢٥٠ دبابة فشكرته وطابت منه سرعة إرسالها ولكن السوفييت لم يستجيبوا لمطالبي إلى أن ثبت الوضع بالنسبة للثغرة .. مع أن الثغرة لم تكن في الحيف إلا مجرد محاولة لإنقاذ سمعة إسرائيل ..

وقد جاء لزيارتي بعد ذلك الجنرال بوفر وهو رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسى وقال لى : إن هذه الثغرة لا قيمة لها لأنها ليست إلا معركة تلفزيونية .

١١

طلب كيسنجر أن يزورنى وجاء إلى مصر في أول زيارة له في نوفمبر سنة ١٩٧٣ وقال لى : - أنت أزميت الموقف دولياً وأنا جأى لك عشان كده فما هي طلباتك ؟ .

قلت له : « أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر .. أنا الآن عندى ٨٠٠ دبابة وإسرائيل لما في الثغرة ٤٠٠ دبابة وأنا عندى صاروخ ونصف لكل دبابة والإسرائيليون محصورون ومدخلهم ٦,٥ كيلو متراً في شرق القناة وإذا أغلقناه .. فهم مقضى عليهم .. مش عاوزه جدال » .

استمرت الجلسة ٣ ساعات اتفقتنا فيها على ست نقاط كان من ضمنها أن تبدأ المحادثات على الكيلو ١٠١ على طريق مصر السويس بين المصريين والإسرائيليين من أجل فصل القوات والعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر .

قامت المفاوضات على الكيلو ١٠١ بين المصريين والإسرائيليين تحت علم الأمم المتحدة .. وطالت المفاوضات وانعقد خلالها مؤتمر القمة العربى في الجزائر وذهبت إلى هناك وعندما وجدت أن المفاوضات لم تصل إلى أية نتيجة طلبت من الجسمى إيقافها وقلت لهم : « أنا غير مستعد للدخول في مساومات ومهاترات » .

في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة فقد بدأت قواتنا حرب الاستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضاً جديدة كل يوم، تارة بالأمطار وتارة بالكيلومترات ولكننا كنا نكسب دائماً .. أنا فعلاً كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة وخاصة أنه ليست أمامى قناة لعبورها .. ولا خط بارليف للقتال معى ولكن الخطر الذى كان أمامى كان تدخل أمريكا .. فى ١١ ديسمبر جاء كيسنجر وقلت له « أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به ده وأنا حاصنى الثغرة » .

قال لى : « أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز .. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطونى تقريراً كاملاً .. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة .. مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلاً أن تصنى الثغرة ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيفضرك البنتاجون » .

قلت له : - « هذا هو السؤال .. ما هو موقف أمريكا ؟ » .

قال لى : - « سيفضرك البنتاجون .. سيفضرك البنتاجون لسبب واحد .. وهو أن السلاح الروسى قد انتصر على السلاح الأمريكى مرة ولن يسمح له في الاستراتيجية العالمية بتاعتنا أن يتنصر للمرة الثانية » .

وامتأنت كيسنجر حديثه قائلاً : « هل تعرف أنه عندما أزمّت أنت الموقف عالياً وقتت ستونين تعالوا هاتوا الى خط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده على شرط ألا يتف البنّاجون صدك . . تعرف الخطة الى وضعها البنّاجون في ذلك الوقت كان شكلها إيه ؟ كنا حنزل في بلدك سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا عندك في الغرب لأننا كنا عاوزين نوريك إن الروس لا يعتمد عليهم فنضربك ضربه نضرب بها الروس . . نفس الوضع دلوقت . . لو أنت حاولت تصني الثغرة سيدخل البنّاجون ويضربك لأن دي سياسة أمريكا المقررة - ثم إن البنّاجون عاوز ينبتهم لمزينة أسلحته الى حصلت في أكتوبر . »

قلت له : طيب وما العمل ؟

قال لي : « ادبني فرصة لغاية يناير ١٩٧٤ وأنا بأوعدك أني أعمل لك فض

شبه

في هذا اليوم قال لي كيسنجر : « إن جنيف مفروض أن تجتمع في ديسمبر سنة ١٩٧٣ فهل ستذهب ؟ »

قلت له : « أنا رايح جنيف . »

غادر كيسنجر مصر يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣ وكان الألم قد استولى على وصار يخن في نفسي ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم لا أستطيع منه فكاً فكاً فالأوضاع من حولي كلها خاطئة . . وأنا غير قادر على أن أصلحها لأنه ليس بيدي إصلاحها فاصبت بتريف لمدة ٤ أيام واستدعيت الأطباء لينحسروا البول الذي كان قد صار كتلا من الدم . . قال لي الأطباء إن هذا تريف بسبب التوتر النفسي ولكن لا خطورة منه وأعطوني بعض الأدوية استمر بعدها يومين ثم انتهى والحمد لله .

في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ دعوت قادة الأسلحة وقادة الجيوش وعينت لنصفية الثغرة قائداً هو الجنرال سعد مأمون وهو محافظ القاهرة الآن ثم ناقشنا الخطة على مدى سبع ساعات وصدقت عليها .

في يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ وهو يوم عيد ميلادي ذهبت كمادني كل عام لأتفبه في قريتي ميت أبو الكوم . . وفي يوم ٢٦ سافرت إلى أسوان ثم جاء

كيسنجر في يناير ١٩٧٤ ووقعنا اتفاق فض الاشتباك الأول - الذي كانت أمريكا تقوم فيه بدور الوسيط بيننا وبين إسرائيل . .

كان همي في اتفاق أسوان شيء واحد أساسي .

لم أكن أريد أكثر من حجم انتصاري على الأرض لأنني أعلم أن الإسرائيليين مسجونين عندي في الثغرة وبقاؤهم في الغرب مقبرة لهم وعلى هذا الأساس بالفعل وهو تحديد حجم انتصاري على الأرض ثم الإتفاق بيننا .

كنت في حالة نفسية مرهقة . . لماذا ؟ لأن جميع القوى تريد أن تجهض انتصاري . . أمريكا تريد أن تجهضه . . والاتحاد السوفيتي يريد أن يجهضه لأن سوريا خرجت مكسورة رغم وجود الخبراء السوفيت ، وأنا خرجت متصراً مع أني طردت الخبراء السوفيت . . وطبعاً إسرائيل تريد إجهاض انتصاري .

لم تكن محاولات الإجهاض هذه في حد ذاتها بالشيء الذي يقلقني . . فتنة كنت أنظر إلى انتصاري على أنه الطريق إلى السلام العادل الذي كنت أسمى إليه دائماً . .

الفصل العاشر

الطريق إلى السلام

من أسعد لحظات حياتي في الفترة الأخيرة تلك الساعات التي أقضيها في كشك صغير عادي على حافة قناة السويس ، أقرب المشروعات والإنشاءات الجديدة . . .

و في كل مرة أزور فيها مدن القناة يمثل أمام عيني يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، عندما وصلت إلى بورسعيد ومن مكان الطائرة المليكوبتر أخذت السيارة وتوجهت إلى مدن القناة . . . كانت تلك مغلفة لثمان سنوات كاملة ، كانت القرحه التي تشع من عيون كل رجل وامرأة وتطفل شيئاً جميلاً حقاً . . . لقد عادوا إلى وطنهم أخيراً بعد سنوات بأكلها من التشريد والنفي والضياع . . .

لا يستطيع أحد أن يقلل هذه الفرحه وأثرها على النفس مثل من اقتلعت جنوره فعاني من إبعاده بالقهر ورغم إرادته عن وطنه . . . أو عن مدينته أو عن شوارع الذي يقطنه والصحبة التي يجالسها كل يوم . . . أو عن أرضه التي يعرفها جيداً ويحبها فهو نبت منها وبدونها لا يكون . . .

ونحن في مصر شعب عمره سبعة آلاف سنة قدم للعالم أول حضارة أهم . . . ولكن السوال نظل بلا إجابة ولو حتى على الألق البعيد . . . فإذا أخذنا في الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه - لهم حياتهم الخاصة التي متى العوده ؟ !

ولكن السوال نظل بلا إجابة ولو حتى على الألق البعيد . . . فإذا أخذنا في الاعتبار أن أهل القناة دون شعب مصر بأجمعه - لهم حياتهم الخاصة التي

تمثل في البحر والقناة ، لأدركنا مدى فرحتهم بالعودة . . . التي لم تكن مجرد عودة إلى الوطن . . . بل إلى الذات نفسها . . . فكما أن الأرض تمثل لنا نحن أهل الوادي قمة القدمية والأصالة ، كذلك القناة والبحر بالنسبة لهم . . . فالقناة هي التي شكلت نمط حياتهم وبالتالي شكلت وجدانهم جيلاً بعد جيل حتى أصبحت هذا الوجدان نفسه . . .

في ذلك اليوم ٥ يونيو ١٩٧٥ الذي ما زال قريباً من قلبي كل القرب لن أنسى أبداً هذا المنظر الذي مر كيانى هزاً . . .

السيارة متجهة إلى مبنى هيئة القناة ، وفجأة يتعرض الطريق أحد الرجال ويشير إليها بالتوقف . . . كان شيخاً طويل القامة شعره الأبيض يتدلى على كتفيه مهيب المنظر حاد النظرات رغم شيخوخته . . . حاول الحراس إبعاده فقلت لهم اتركوه . . . وأمرت السائق بالتوقف . . . نظر إلى الرجل نظيرة طويلة ثم ركب على الأرض أمام السيارة ساجداً لله يشكره . . . ثم قام وأشار إلى الموكب باستكمال المسيرة ، وفي ومضة عين اختفى بين الجماهير المختشدة . . .

لم يستغرق كل هذا أكثر من لحظة زمن . . . ولكن وراء هذه اللحظة كانت تكمن أيام وأعوام من اليأس والعذاب . . . ورغم قصر هذه اللحظة نفسها فقد كانت كل شيء بالنسبة لهذا الشيخ . . . فقد امتد به العمر ليرى بينيه وملكه وقد عاد إليه . . . ربما لن يعيش به طويلاً لكنه سيدفن في ترابه . . . من هنا كان الإحساس بالطمأنينة والأمان والسلام . . . مما جعله يسجد لله امتناناً لأنه عز وجل قد بدد الظلمات بنور لم يكن في الحسبان . . .

٢

تركت الشيخ المهيب الوقور خلقي وذهبت لحضور مراسم لإفتتاح القناة بصورته ما زالت ماثلة أمام عيني تهز وجداني هزاً . . . وبمجرد وصولي تقدمت إلى القوات المسلحة بوثيقة تسليم القناة من القوات المسلحة إلى الإدارة المدنية لهيئة القناة - وقعتها ثم ركبت المدمرة ٦ أكتوبر وفتحت القناة :
كان العالم كله يقف إلى جانبي في ذلك اليوم - نفس العالم الذي كان يردد

قبل ذلك بشهور قليلة أن القناة قد فقدت قيمتها بينما كانت إسرائيل لا تكف

عن القول بأن إعادة فتح القناة أمر مرهون بإرادتها وحدها . .

ولكن لا شيء مثل الواقع فهو الذي يلحظ كل اقتراء وهو الذي يعمل

الذي تحول من حال إلى حال . . في ٥ يونيو ١٩٧٥ كان العالم مثلاً في الوفود

التي تدفقت على القناة ليتفصل معي وكأنه يعلن أن يوم ٥ يونيو لم يعد يوم

أحزان بالنسبة لمصر وللمغرب بل يوم أفراح لنا وللعالم بأجمعه - فهو يوم

الافتتاح الثاني لقناة السويس بعد أكثر من مائة سنة . .

نقل الافتتاح بشهرين كانت إسرائيل قد رفضت جهود أمريكا

بوزير خارجيتها كيسنجر وهو يتفاوض من أجل فك الاشتباك

الثاني . . ورغم أن أمريكا هي شريان الحياة بالنسبة لإسرائيل فقد كان

وضع الرئيس مورو في نظرهم ضيقاً لأنه لم يكن رئيساً منتخباً ثم إن أمريكا

مشغولة بفضيحة ووترجيت . . فلم لا تستغل إسرائيل الفرصة كعادتها ؟

وكان ردى على كل هذا هو الفعل لا رد الفعل ففتحت القناة رغم أنها

كانت تقف في مدى المدافع الأمريكية الضخمة التي زودت بها إسرائيل

وأعلنت المهجرين إلى المدن الثلاثة - بور سعيد والإسماعيلية والسويس -

كسر حاجز ٧٠٠ ألف إنسان كانوا أن يفقدوا أديتهم أثناء الهجرة ليس

نظراً لصعوبة التكيف الذي كانوا يعيشون فيه بسبب الزحام الوادي بل

بسبب أنهم من هذا بكثير فقد كانوا يعيشون بلا أمل . . والأمل أهم مقومات

الحياة وبدونه لا يمكن للإنسان أن يكون . .

كنت أظن بأن أفتح القناة أن مدافع الإسرائيليين تقع في مداها هي

والمدن الثلاثة - ولذلك أعلنت للعالم أن المدن الثلاثة والقناة قد أصبحت في عمق

الجمهورية وأن العدوان عليها من جانب إسرائيل يعتبر عدواناً على العمق

ولا بد لي في تلك الحالة من الرد في عمق إسرائيل . .

كانت هذه عملية مقاومة من دون شك . . فقد كان في الإمكان

ألا ننساع إسرائيل بعد ذلك بشهور ونقبل فسخ الاشتباك الثاني الذي خرجت

به من مدي القناة ومداها . . ولكني خاطرت من أجل السلام وكل شيء جائز . .

لنعم قد انصاع بل لا أعظم التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان في سبيل السلام . .

بعد سنتين من حرب أكتوبر كان للإسرائيليين ٣٩ جثة من أبنائهم عندي . .

على طريقة اليهود كل شيء له ثمن ، فأخذوا يتفاوضون مع رجال على الثمن

الذي يستردون به موتاهم . . قلت لهم : « إن هذا عمل إنساني لا يتقاضى

عليه ثمناً تعالوا أخذوا قتلاكم . . وبكل تكريم عسكري سلمتهم الجثث التسعة

والثلاثين بلا مقابل . . وأقيمت لبعضهم جنازات رسمية لأنهم كانوا من كبار

الضباط . .

وفي عام ١٩٧٧ ونحن نعمق مجرى القناة ظهرت ١٩ جثة أخرى

للمقاتلين الإسرائيليين سلمتها على الفور لإسرائيل بكل حفاوة وتكريم . .

لماذا فعلت هذا ؟ من أجل السلام . . فلنأمن أنه في سبيل السلام يمكن

بل يجب أن يفعل الإنسان أي شيء لأنه لا شيء في الدنيا يساوي السلام . .

٣

كان لأمريكا دور فعال في إعادة فتح القناة - فقد كانت تقف معي

بوجهها الصحيح وليس بوجه رجل البوليس الذي يفرض نفسه فرضاً . .

ذلك الوجه الذي شوهته حرب فيتنام . . في عام ١٩٧٤ عندما قلت إنني

مأفئد القناة وبدأنا العمليات بالفعل كانت المعدات الوحيدة التي تصلح

لمثل هذا الأمر لا توجد إلا في البحرية الأمريكية وليس حتى في الشركات

الأمريكية ذات الميزانيات والإمكانات الفنية العملاقة . . قلت هذا لكيسنجر

وكان في زيارة لمصر عقب فض الاشتباك الأول - كان رده بسيطاً . . قال :

- هل أفهم من هذا أنك تطلب مساعدتنا ؟

قلت : نعم .

قال لي : أعطني ساعة زمن . .

في هذه الساعة كما علمت اتصل كيسنجر بالبيت الأبيض والبتاجون ثم عاد

وقال :

- هل تقبل أن تدخل بور سعيد حاملة الطائرات المليكوبتر « أوجيا » - وهي

من قطع الأسطول السادس وعليها المليكوبترات ومعدات التطهير لكي تبدأ

في مساعدتك ؟

إلى هذا التاريخ كان المفروض أننا كنا وعلى مدى ثمانية عشر سنة في مواجهة مع أمريكا . . ولكنى قلت له : - نعم .
اتصل كينستجر مرة أخرى بالبيت الأبيض والبتاجون وعاد ليقول لى : -
« بعد غد ستدخل (أبوجيا) ميناء بورسعيد لتعاون معكم وتطهر القناة تحت قيادة البحرية المصرية » .

بعض ضباط حامله الطائرات وبعض الدبلوماسيين في سفارة أمريكا بالقاهرة استنفوا من دخول (أبوجيا) فقد خشوا أن تطلق المدفعية المصرية على سواحل نيرانها على الحاملة ، ولكنى طمأنتهم وقلت إن شيئاً من هذا لن يحدث فقد أصدرت أوامرى إلى بحرى .
في الميعاد المحدد دخلت (أبوجيا) على استحياء ميناء بورسعيد وهى تتلمس خطاها في كل مرحلة ، ولكن فوجئ رجالها بالمقابلة الدافئة من جانب بحريتنا وبدأوا العمل في الحال .

قد يذهل الشعب الأمريكى عندما يعلم أنى لم أبادل مع الحكومة الأمريكية أى مستند بشأن اشتراكها في تطهير القناة - ليس في ذلك الوقت ، بل وإلى اليوم . . ومن هنا أتوجه بالشكر إلى الشعب الأمريكى ، فهذه هى روح الفروسية الأمريكية وهذا هو الوجه الحقيقى لأمريكا . . فالقناة ليست لمصر فقط . . بل من أجل رخاء العالم كله . . وأمريكا بإمكاناتها العملاقة المفروض بل والمتوقع منها أن تنف إلى جانب كل من يحتاج إلى معونة من أجل حياة أفضل له وللعالم كله .
هكذا كانت صورة أمريكا ومازالت عندي وعند شعبنا المصرى العريق . .
الذى دأب عبر تاريخ البشرية على احترام القيم الإنسانية والحفاظ عليها .
وقد أثبتت القناة بعد افتتاحها أنها Lucky Strike .



لكنناحي من أجل السلام قصة طويلة تعود إلى تاريخ انتخاب رئيساً لجمهورية مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، وبده ولائى الأولى في ١٦ أكتوبر . . فيوم أن توفى عبد الناصر كانت علاقتنا الدبلوماسية مع أمريكا مقطوعة جاء للعزاء فيه السفير ريتشاردسون على رأس وفد أمريكى وللأسف التقيت به في ظروف

مؤلمة . . ذلك أنه في يوم الجنازة ونتيجة للإرهاق الشديد وقعت مغشياً على فأخذوني إلى أقرب مكان في مجلس قيادة الثورة حيث أعطاني الأطباء خمس حقن أفقت بعدها بساعات ، وكان أول من وقّع عليه نظرى ريتشاردسون الذى قدموه لى على أنه وزير من الحكومة الأمريكية جاء ليقدم العزاء فشكرته وأنا في الفراش ثم ضربت له موعداً بعد ذلك فجاء ومعه اثنان من خبراء الشرق الأوسط وأجرينا حديثاً طويلاً .

كانت مبادرة روجرز قائمة في تلك الأيام فقلت لهم : - « اعدوا رعاكم الله وانتقلوا ما أقول إلى الرئيس الأمريكى . . لقد كنت ضد مبادرة روجرز وبالفعل رفضتها ولكنى وافقت عليها بعد أن عاد عبد الناصر من الاتحاد السوفيتى وشرح لى الظروف هناك فكل ما أريده هو السلام - دعونا إذن نعمل من أجل السلام معاً . . أنا اليوم ملتزم بمبادرة روجرز ولكنى لا أرضى لأمريكا أن تنقاد لإسرائيل في دعواها أن مصر قد نقضت المبادرة بتحريك الصواريخ في الضفة الغربية للقناة . . ومع ذلك فالضفة الغربية والضفة الشرقية للقناة هى أرضى . . مرة أخرى أدعوكم للعمل من أجل السلام . . وأنا مستعد للذهاب إلى أقصى مدى في سبيل ذلك » .

عاد ريتشاردسون إلى بلاده وقدم تقريراً إلى وزارة الخارجية الأمريكية يقول إن السادات لن يبقى في الحكم أكثر من أربعة أو ستة أسابيع وبعد ذلك لا يعلم مستقبل مصر إلا الله . . وأكدت المخابرات البريطانية نفس الشيء . . وبناء على هذا اتخذوا قراراً فيما بينهم أن ينتظروا حتى يروا مصيرى . . لم أعلم بهذا الموضوع إلا متأخراً وكثيراً ما أتندر به اليوم مع المسئولين في أمريكا .

وفي نوفمبر ١٩٧٠ انتهت التسعون يوماً التى تنص عليها مبادرة روجرز فجمعت مجلس الأمن القوى وقلت لهم إننا بحاجة إلى تسعين يوماً أخرى ولكنها سوف تكون الأخيرة . . فالمبادرة كانت تنص على وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوماً ، يعمل في خلالها يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة بيننا وبين إسرائيل لتنفيذ البند الثانى من المبادرة وهو انسحاب إسرائيل . . بحيث يتم في خلال التسعين يوماً الإتفاق على الانسحاب - وهذا ما لم تكن إسرائيل تريد .

تقدم وزير خارجيتنا إلى مجلس الأمن باقتراحنا وفعلاً تجددت مبادرة روجرز ولكن انقضى نوفمبر وديسمبر وينابر ولم يحدث شيء ، فإسرائيل تدعى أن مصر قد خرقت المبادرة وتسايروها في دعواها أمريكا ، تحركها العناصر الصهيونية القوية فيها . . وكل ذلك بهدف نفس المبادرة من أساسها بل ونسف روجرز نفسه كما حدث بعد ذلك .

وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٠ أى بعد انتخابي رئيساً بشهرين فوجئت بالدكتور محمود فوزى وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزراء ، يحيل إلى خطاباً من الرئيس نيكسون يشكر مصر لأنها أوفدت الدكتور فوزى ليمثلنا في جنازة أيزنهاور . . مباشرة استدعيت القائم على رعاية المصالح الأمريكية عندنا وأطلعت على خطاب نيكسون وقلت له : - لقد استدعيتك لأحملك الرد إلى الرئيس الأمريكى وهذا هو نص الرسالة :-

أولاً : لقد أرسلت لكم مع ريتشاردسون الذى جاء للغزاء في عبد الناصر ولكنكم لم تردوا علينا . . مبادرة روجرز انقسم فيها وراء دعوى إسرائيل أن مصر قد نقضت المبادرة وأنتم تعلمون جيداً أن الأرض شرق القناة وغربها مصرية.

ثانياً : بمجرد أنكم أرسلتم خطاباً لرئيس وزرائنا . . تعبرون فيه عن شكركم وتطلبون فيه إبلاغى بهذا الشكر . . ها أنا أكتب إليكم لأؤكد رسالتى التى بعثت بها مع ريتشاردسون ولأقول لكم إذا كنتم تعتقدون أننا في منطقة النفوذ السوفيتى فأنتم مخطئون . . نحن لسنا في منطقة نفوذ سوفيتية ولن نكون في منطقة نفوذ أحد أبداً . . وأرجو أيضاً أن تعلموا أنه ليس لمصر ولى أمر - فإذا شتم أن تتحدثوا عن أى شيء خاص بمصر فالمكان هنا في القاهرة ومعنى . . لا مع أية جهة أخرى (وبهذه الجهة الأخرى كنت أعنى بصراحة كما أفهمت المشرف على رعاية المصالح الأمريكية السوفيت الذين أرادوا أن يتولوا أمرنا وكان عبد الناصر قد أعطاهم هذا الحق في مرحلة من المراحل) وأرجو أيضاً أن تعلموا أن قرارنا بيدنا وحدنا فتحن أحرار ومستقلون فإذا اقربتم منا خطوة سنقرب منكم عشرة خطوات وإذا ابتعدتم خطوة سنبتعد عشرة . . وكما أن في القوانين الطبيعية لكل فعل رد فعل كذلك شأننا معكم فكل فعل طيب من جانبكم سوف تكون له عشرة ردود أفعال طيبة من جانبنا والعكس صحيح .

كان هذا أول اتصال لى بأمرىكا بعد أن توليت وبعد الرسالة التى حملتها لريتشاردسون ولم يكن لها أى صدى عندهم . . وجاء رد نيكسون على الفور وتعجبت للسرعة فقد كنت إذا كتبت للسوفيت عن أى شيء لا يصلنى الرد إلا بعد أربعة شهور على الأقل وبعد أن استدعى السفير السوفيتى عشرات المرات وأطلب منه استعجال الأمور .

في ٤٨ ساعة جاءنى الرد موقفاً عليه من نيكسون وكانت رسالة رقيقة يشكرنى فيها الرئيس الأمريكى ويقول إنه لا يطلب صداقتنا على حساب أحد (وكنت قد حذرته في رسالتى من هذا) فهم يعلمون في أمريكا أننى رجل مستقل الإرادة وأن لمصر وحدها الحق في أن تتكلم عن نفسها .

كان هذا في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٠ وانقضى ديسمبر وبعده يناير سنة ١٩٧١ وكانت التسعون يوماً الثانية لمبادرة روجرز تنتهى في ٤ فبراير سنة ١٩٧١ فقررت أن أفعل شيئاً قبل هذا التاريخ . . كان من الواضح أن أمريكا مازالت تسير في خط إسرائيل متفاداة للدعاية الصهيونية وأن أمريكا لظروف خاصة بها كانت تعطى إسرائيل أولوية حتى على مصالحها هى منذ حكومة جونسون . . ورغم رسالة نيكسون لى فقد كنت أدرك أنه ليس من السهل بعد ١٨ سنة مواجهة مع أمريكا والصورة التى صورها لنا السوفيت في نظر الأمريكان أن تمد أمريكا يدها لنا أو أن تقوم بأى إجراء يعيد السلام إلى المنطقة وخاصة بعد أن استمر في أذهان المسئولين هناك ما جاء في تقرير المخابرات من أننى لن أبقى في رئاسة الجمهورية أكثر من أربعة أو ستة أسابيع . . صحيح أنه كان قد مضى على ولائى أكثر من أربعة شهور في فبراير سنة ١٩٧١ ولكن الشك كان مازال يخالهم . . هل أبقى أو لا أبقى ؟ هل أنا قادر على أن أفعل شيئاً أو غير قادر ؟

إزاء كل هذا كان لا بد من إنهاء مبادرة روجرز ولكن في نفس الوقت كان لا بد لى من أن أفعل شيئاً بناءً يثبت لأمريكا ونيكسون والعالم كله حسن مقاصدى فأنا أريد السلام ومستعد له وفي يدي أن أتخذ قراراً في هذا الشأن . . هكذا فكرت ولم أطلع أحداً على تفكيري إلا الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء في ذلك الوقت فاستدعيت وقلت له لقد قررت أن أتقدم بمبادرة سلام كالتالى :-

أمور كثيرة لا يفهمها أغلب من يعملون معي يلتقطها الشعب من الدقيقة الأولى ويدركها إدراكاً كاملاً .

في خطاب إعلاني لمبادرة السلام يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ أمام البرلمان قلت إن التسعين يوماً تنتهي اليوم وبهذا تستقط مبادرة روجرز ولكن ها هي مبادرتي أعلنها وأضعها أمام أنظار العالم كله . . . فيا عالم تحمل مسئولياتك وأنت أيضاً يا مجلس الأمن . . . ويا أمريكا ويا سوفيت تحملوا مسئوليتكم جميعاً - إنني أعطيكم مهلة إلى مارس سنة ١٩٧١ . . . ولكن بعد هذا التاريخ لن أكون مقيداً بمبادرة ولا أي شيء .

رحب روجرز بالمبادرة وذهل العالم كله ووجدت إسرائيل نفسها في مأزق يصعب الخروج منه فيها هو أول رئيس عربي يعلن أنه على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل . . . شيء لم يكن في الإمكان توقعه أو التنبؤ به أو حتى الحلم به . وفي مصر لم تقم مظاهرات ولم يرتفع صوت بالاحتجاج أو الرفض أو التبرم - على العكس سعادة تامة تسود الناس في كل مكان وفهم وإدراك واع وحصيف من الشعب كله .

لو أن هذه المبادرة وجدت العناية الكافية من أمريكا لما قامت حرب أكتوبر ولبدأنا السلام في فبراير ومارس ١٩٧١ .

٥

وضح لأمريكا أنني أتكلم من مركز قوة وأن شعبي كله ورائي وأنتي قادر على ما لم يبرؤ أي زعيم في العالم العربي أن يقوله أو يفعل طوال اثنين وعشرين عاماً . . . ولكن رغم هذا كله لم تفعل أمريكا شيئاً ولم تغير موقفها واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن جاء مايو فأنصل بي روجرز وجاء لزيارتي في ٤ مايو . . . كان سعيداً جداً بمبادرة السلام التي قت بها . . . قال لي .

- أتعرف أنك أوجدت لنا حلاً للمشكلة ؟

سألته : كيف ؟

أولاً : تنسحب إسرائيل من شاطئ القناة الشرقى إلى المضائق في فترة ستة شهور يأتي خلالها يارنج لكي يتفق معنا ومع إسرائيل على مراحل الانسحاب . . . وبمجرد انسحاب إسرائيل إلى المضائق تعبر القوات المصرية إلى الضفة الشرقية .

ثانياً : بعد أن يتم الانسحاب إلى المضائق تعيد مصر علاقتها مع أمريكا فوراً فباعتبارها طرفاً أساسياً في المشكلة لابد أن تحضر معنا كل مراحل التسوية .

ثالثاً : إن مصر مستعدة لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل تنتهي بموجبه حالة الحرب القائمة بين العرب وإسرائيل إلى هذا اليوم ومنذ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ مع إعطاء إسرائيل كافة الضمانات التي ترغب فيها وتنتهي بذلك أخطر مشكلة يعيشها العالم لاحتكاك مصالح الدولتين الأعظم بها .

سعد الدكتور فوزي جداً بهذه المبادرة وقال إنها ستحرك الموقف أمام العالم كله وتثبت أن مصر ترغب فعلاً في السلام .

وفي يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ ذهبت إلى مجلس الشعب وألقيت خطابي وأعلنت المبادرة وكما توقعت كان استعدادي لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل مفاجأة مذهلة للعالم كله . . . فهذا ما لم يجرؤ قائد أو زعيم عربي أن يقوله منذ أن قامت إسرائيل عام ١٩٤٨ . . . ولكنني كنت أعني ما أقول لأنني فعلاً راغب في السلام . . . دخلت بعد إعلان المبادرة إلى صالون رئيس الجمهورية بمجلس الشعب فوجدت تجمهاً غريباً على وجوه المسؤولين من الوزراء وغيرهم من أصحاب مراكز القوى في ذلك الوقت وهم الذين كانوا يشكلون القيادة السياسية التي تركها لي عبد الناصر . . . كانت المبادرة تتعارض طبعاً مع أهدافهم التي رسمها لهم السوفيت كما انضح لي بعد ذلك . على أي حال لم يرق لي تجمهم هذا فقلت في نفسي هؤلاء لا فائدة منهم ولن ألقي بهم في اجتماع آخر .

أما الشعب فقد كان استقباله للمبادرة على طرف نقيض تماماً من استقبال القيادة السياسية المصرية في ذلك الوقت مضافاً إليهم بعض الوزراء . . . ففي أقل من ٢٤ ساعة كان الشعب المصري يهلل لهذه المبادرة من جانبي ويرحب بها كل الترحيب . . . وهنا يجب أن أحبل أن حس الشعب أوعى بكثير وسابق عن كل مسئول عمل معي حتى هذه اللحظة وهو ما أعتر به .

فروى لى أن جولدا مائير طلبت السفير الأمريكى فى تل أبيب وقالت له : « اكتب لروجرز وليكسون وقل لهما لاني أنا جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أتحدى أى زعيم عربى أن يقول إنه على استعداد لإبرام اتفاق سلام مع إسرائيل فإذا حدث هذا - قل لهما - فسوف أكون على استعداد لكى أضع كل أوراقى على المنضدة » ثم استطرد روجرز يقول لى : لقد وصلتنا هذه الرسالة منذ فترة طويلة ، فإذا بنا نتاجاً بك فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ - ودون أن تعرف ما قالت جولدا مائير - تعلن على العالم أنك على استعداد لإبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أعجبنا بذلك كل الإعجاب ولذلك طلبت زيارتك .. والشئ العجيب أيضاً - استمر روجرز فى حديثه - أنه حسب التقارير التى عندنا كنت أتوقع أنى عندما أصل إلى مصر سوف يقتدى الناس بالطوب .. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على العكس نزلت الشارع بدون حراسة وعرفنى بعض الناس فحيونى وسلموا على . قلت له : أنت هنا مع شعب عمره ٧٥٠٠ سنة وقد آن الأوان لكى تعرفوا الشعب المصرى .. على أى حال ماذا تريد منى أن أفعل ؟

قال : أبداً .. لقد قلت كل شئ فى مبادرتك ونحن معك .. سأتوجه من هنا إلى إسرائيل وسأقول لجولدا مائير إن السادات قد قبل التحدى .. حتى دون أن يعلم به .. ولذلك أرجو أن تكونى عند وعدك وتضعى كل أوراقك على المنضدة حتى يتسنى لأمرىكا أن تدخل وتحل المشكلة ..

غادر روجرز مصر إلى إسرائيل .. وبعد ذلك بأيام قليلة تخلصت من مراكز القوى الذين كانوا أغلبية فى القيادة السياسية المصرية وكانوا يستندون على الاتحاد السوفيتى وينفذون تعليماته فجاءنى (بودجورنى) يلهث فرعاً وطلب أن تعقد مصر معاهدة مع السوفيت .. وزاد الطين بلة أن كاريكاتيرات الصحف الغربية تعليقاً على زيارة بودجورنى وعقد المعاهدة المصرية السوفيتية أظهرت بودجورنى يستعرض طابوراً يلبس ملابس السجن المخططة وعلقت أن بودجورنى القائد يستعرض طابور الأصدقاء فى السجن ..

وبرغم كل ذلك وبرغم أن بودجورنى قرر أن رسالتى لهم بشأن تصفية الصراع قد وصلتهم فإنى وافقت على إبرام المعاهدة المصرية السوفيتية

فى مايو سنة ١٩٧١ وسافر بودجورنى سعيداً .. ولم تستمر هذه المعاهدة إلا خمس سنوات فقط بدلا من خمس عشرة سنة هى مدة المعاهدة وقد أنهاها البرلمان المصرى .

ولهذه المعاهدة قصة ..

بعد هزيمتنا فى يونيو ١٩٦٧ ووضوح دور جونسون رئيس أمريكا فى ذلك الوقت فى خداعنا لحساب إسرائيل عندما اتفق مع عبد الناصر بعد إغلاق خليج العقبة فى مايو ١٩٦٧ فى وجه الملاححة الإسرائيلية على أن يرسل نائبه همفسرى إلى القاهرة أو يرسل عبد الناصر أحد نوابه إلى واشنطن فيأمر عبد الناصر بإخطار جونسون أنه سيرسل له أحد نوابه إلى واشنطن لحل مشكلة مضايق العقبة وكانت المشكلة قد شدت انتباه العالم كله وكل يوم تتطور إلى الأسوأ واتفق رسمياً بين عبد الناصر وجونسون أن يتوجه أحد نواب الرئيس المصرين لمقابلة جونسون يوم الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧ فى واشنطن وفى نفس الوقت كان جونسون يستحث الإسرائيليين على المبادرة بالمهجوم على سيناء بعد أن قدم لهم صور القمر الصناعى الأمريكى عن أوضاع القوات المصرية فى سيناء ساعة بساعة بل وطلب من الإسرائيليين سرعة بدء الهجوم قبل وصول نائب رئيس الجمهورية المصرى إلى واشنطن فى ٧ يونيو ١٩٦٧ وخاصة عندما عرض الإسرائيليون خططهم عليه فى مكتبه بالبيت الأبيض بحضور رئيس الـ C.I.A. وأحد القادة الكبار من البنتاجون ..

وقد نفذت إسرائيل فعلاً كلام جونسون وهجمت يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ أى قبل وصول نائب الرئيس المصرى بيومين وطبعاً لم تتم هذه الزيارة .. لم يكتف جونسون بهذه الخديعة لحساب إسرائيل بل إنه استخدم أيضاً الخط الساخن مع القادة السوفيت وأكد لهم أن إسرائيل لن تبدأ بالهجوم وأن عليهم أن يخطروا عبد الناصر بذلك وقد استجاب السوفيت لهذه الخديعة أو اشتركوا فيها لا استطيع أن أجزم ولكن ما حدث هو أن بادر السوفيت عقب اتصال جونسون بهم إلى الاتصال بعبد الناصر وأيقظوه فى الفجر ليبلغوه على لسان سفيرهم فى القاهرة رسالة جونسون وتأكيدهم وتأيدهم لها ..

أعود إلى القصة فإنه بعد وضوح دور جونسون لنا بعد هزيمتنا في ١٩٦٧ لم يكن أمامنا إلا أن نلجأ إلى الاتحاد السوفيتي لبيع أسلحة لنا نستعوض بها ما فقدناه وكان ما فقدناه أكثر من ٨٥٪ من أسلحتنا ..

وكان طبيعياً أيضاً أن نحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي بأى ثمن .
ومذاك حنيئة معروفة عن الروسي سواء كان في عهد القيصرية أو بعد ذلك تحت الحكم الماركسي ذلك أن الشك طبيعة ثانية فيه SECOND NATURE وقد زاد هذا الشك تحت الحكم الماركسي بفعل طبيعة النظام وحصار العالم لروسيا بعد قيام ثورة ١٩١٧ البلشفية ووقوع الحرب الأهلية والإجراءات الصارمة والشك المسبق في كل إنسان إلى أن يثبت العكس .. لذلك حرصنا للبقاء على صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي ونحو شكوكه الرهيبة بعدة أمور .. كان أولها أن طلبنا إلى السوفيت أن يتولوا عن مصر مع الولايات المتحدة كل ما يخص قضية الصراع العربي الإسرائيلي بعد أن لمسنا شكوكهم من أى اتصال أمريكي بنا .. بل ووصلت الأمور إلى الحد الذي طلبنا إليهم تعيين قائد سوفيتي للدفاع الجوي المصري وقائد ل سلاح الطيران المصري أيضاً أمام عريضة إسرائيل الجوية في أجوانا ولكنهم رفضوا المطالبين لحسن حفظنا ..

وكان قمة ما أردنا أن نطمئنهم به هو أن نطلب إليهم عقد معاهدة معنا تريخهم وتزيل شكوكهم (التي كنا نعجب لها) وتضمن لنا إمدادات الأسلحة التي نحن في أشد الحاجة إليها برغم أنها كانت باستمرار متخلفة عما تأخذه إسرائيل من أمريكا ..

عرض عبد الناصر عليهم عقد المعاهدة مرتين ، وسافرت أنا بتكليف من عبد الناصر إلى موسكو وطلبت أيضاً مرتين عقد هذه المعاهدة وكان الرد من جانب السوفيت لعبد الناصر ولى هو الرفض .. لعلمهم كانوا ولا يزالون لا يثقون فينا وكانوا يخافون أن نورطهم بمثل هذه المعاهدة إلى ما لا يريدون .
وذهب عبد الناصر إلى آخر الشوط قبل أن يموت بشهرين وهو في موسكو حين طلب إليهم أن يعقدوا معنا حلفاً PACT إذا كانوا يشعرون أن في ذلك مدعاة لراحة شكوكهم .. ورفضوا .. فما كان من عبد الناصر إلا أن أعلنهم في هذه الجلسة وعلى مائدة الكرملين بقبوله مبادرة روجرز برغم انفعال

وغضب بريجنيف الذي قال لعبد الناصر في انفعال إنك بهذا تقبل حلاً أمريكياً فرد عليه عبد الناصر إنني أقبل أى شيء مادام هذا هو أسلوبكم معي . لقد كان تعليق عبد الناصر لي يوم وصوله إلى القاهرة من هذه الرحلة الأخيرة في حياته إلى موسكو كلمتين قالهما لي بالإنجليزية . لقد قال لي وأنا أسأله في طريقنا إلى منزله من المطار عما تم في موسكو فلم يزد عن « السوفيت Hopeless Case أي حالة ميئوس منها .

لذلك استغربت أن يأتيني بودجورني رئيس الاتحاد السوفيتي إلى القاهرة في أواخر مايو ١٩٧١ بعد زيارة روجرز لي في نفس الشهر وبعد أن صنيت عملاءهم في القيادة المصرية ، أقول استغربت أن يأتي بودجورني ملهوفاً على عقد معاهدة فوراً معنا .. وقلت له في الحال أنا لا مانع عندي وقد طلبها منكم عبد الناصر مرتين فرفضتم وعرض عليكم أيضاً حلفاً PACT في زيارته الأخيرة لكم فرفضتم وطلبها أنا منكم كطلب عبد الناصر مرتين فرفضتم .. لا مانع لدينا ولكنني كصديق أنصحكم أن التوقيت الذي اخترتموه لعقد المعاهدة خاطيء جداً ذلك أن الكل سيعرف أنكم تطلبون المعاهدة بلهفة بعد أن كنتم ترفضونها لأن بعض أفراد من القيادة المصرية ينتظرون المحاكمة وكانهم كانوا هم الذين تعتمدون عليهم في علاقاتكم مع مصر وهذا خطأ جسيم سبق أن نبهتكم إليه .. ولهذا التنبيه أيضاً قصة ..

فإنني حينما قررت تصفية عملاء الاتحاد السوفيتي في القيادة المصرية وقبل أن تم هذه التصفية بشهر كامل استدعيت السفير السوفيتي في القاهرة وطلبت منه أن يبلغ القادة السوفيت رسالة عاجلة مني ولو أنها أمر من أمور مصر الداخلية إلا أنني حرصاً على صداقتنا مع السوفيت أريدكم أن يكونوا على علم بها .. هذا الأمر هو أنني قررت تصفية على صبرى وكان عميلهم في القيادة المصرية لأنني أسمع بالاختلاف في وجهات النظر في القيادة السياسية ولكنني أرفض الصراع ولذلك فلأنني أريد أن يعرف الأصدقاء السوفيت بذلك قبل أن يتسع حتى لا تستيقظ شكوكهم التي أعاني منها وحتى لا تهيج صحف الغرب أعصابهم ..

ولقد حدث هذا فعلاً بعد أن أقلت على صبرى فقد خرجت صحف الغرب
بالمناشيات عن تصفية رجل موسكو . .

بدأت صورتي في نظر أمريكا حتى بعد عقد المعاهدة مع السوفييت تتخذ
ألواناً وأبعاداً لم تكن مألوفة لديهم من قبل ساعدتهم على المزيد من التعرف
على وفهمي على حقيقتي وهو الأمر الذي لم يحدث بالنسبة لأصدقائنا السوفييت
الذين بيننا وبينهم معاهدة .. فهم منذ بدء علاقتنا معهم ومهما اختلفت الظروف
يتصرفون معنا بنفس الأسلوب الفج والفظ والذي يبعد كل البعد عن إدراك
الحقيقة كما هي . . أو حتى مجرد محاولة الإدراك . .

ولم يخض شهران حتى وقع تطور آخر سبب لي الصداق والصراع مع السوفييت
في يوليو ١٩٧١ قامت الثورة الشيوعية في السودان وعندما جاءني السفير السوفيتي
في القاهرة يطلب مني الاعتراف بالحكم الجديد رفضت وقلت له :

« أنا لا أسمح بقيام حكم شيوعي على حدودي - هذه نقطة
أما النقطة الأخرى التي أرجو أن تنبهوا لها فهي أنه لن يقوم في هذه المنطقة
حكم شيوعي لأن الدين يجري في دماننا ، فالأفضل لكم أن توقفوا كل نشاط
لكم في هذا المجال حتى تريحوا وتسترجموا » .

انصرف السفير السوفيتي في حالة غضب وأكد موقفي هذا شكوكهم في
طبعاً .

نعود إلى موقف أمريكا - غادر روجرز مصر في أوائل مايو ١٩٧١
إلى إسرائيل ليواجه جولدا مائير ثم انقضى يونيو ١٩٧١ وجاء يوليو ١٩٧١ وأنا
خلال تلك الفترة دائم الاستدعاء للقائم على شئون أمريكا أطلب منه أن يكتب
إلى روجرز ليخبرني بما حدث مع إسرائيل . . ولكن دون جدوى تماماً كما
يفعل السوفييت معي . . إسرائيل متمرة في غرورها وأمريكا متحفظة
لا تتكلم ولا تتخذ أي موقف . . إلى أن جاء ٦ يوليو ١٩٧١ فإذا بأحد رجال
وزارة الخارجية الأمريكية يأتي من واشنطن يطلب موعداً عاجلاً
للأهمية - قابلته في مساء نفس اليوم فقال لي إنه يحمل رسالة من نيكسون
وروجرز ولكن عنده بعض الأسئلة يريد مني الإجابة عليها أولاً . .

كان السؤال الأول : هل غيرت المعاهدة السوفيتية التي عقدت في أواخر
مايو ١٩٧١ موقفك أو فرضت عليك التزامات تحد من حريتك في التعامل معنا
لإعادة السلام إلى المنطقة ؟

وأجبت : أبداً . . لقد أعلنت أن المعاهدة السوفيتية ليست لها بنود أو ملاحق
سرية ولا بد أن تعودوا أنتم وغيركم على أن ما أقوله في العلن هو نفس ما أقوله
في السر وأن أي التزام التزم به من حق شعبي على أن يعرفه قبل غيره من الناس
لأنني غير مستعد لأن أضحك على شعبي في يوم من الأيام ومهما كانت
الظروف ومع ذلك فإن المعاهدة قد أعلنت بنودها رسمياً في البرلمان عند
إقرارها وليس على مصر أي قيود من أي نوع فنحن مصريون على حريتنا
واستقلالنا . .

وكان السؤال الثاني : هل ما زلت توافق على مبادرتك التي أعلنتها في
فبراير ١٩٧١ وأخطرت بها روجرز عندما كان في مصر ؟

قلت له : طبعاً . . ولو حدث أن غيرت أي شيء فلا بد أن أعلنه على الناس
فوراً . . وأحب أن أنبهكم - وهذه ليست أول مرة - إلى أن كل ما يخص مصر
يجب أن تتكلموا معي أنا في شأنه . . فإذا تكلمتم مع أي شخص آخر ثقوا
أننا لن نستمع إليكم . .

قال لي : حسناً . . حسب ما لدى من معلومات أحب أن أقول لك إنه بعدما
تلقيت منك هذه الردود فابتداء من منتصف الليلة ٦ - ٧ يوليو ١٩٧١ ،
فإن الرئيس الأمريكي سيتدخل بنفسه لبدء الحل السلمي . .

قلت له : على خيرة الله . . ما الذي فعله روجرز في إسرائيل ؟
أجاب : تحدث إليهم ولكن عندهم بعض الشكوك . . على أي حال أنا ليست
عندي تعليمات بأن أقول شيئاً في هذا الشأن .

وانصرف وانظرت . . مضى نصف الليلة وأنصاف ليل كثيرة وكثيرة
جداً بعد ذلك ولكن لا حراك . . العكس حدث . . فقد وقفت جولدا
مائير في الكنيسة الإسرائيلية تلقن روجرز درساً عنيماً . . ومبلغ دراستنا
لشخصية مسز مائير أنها مولعة في حياتها العادية ومع مجلس الوزراء

الإسرائيلي بمعاملة الوزراء كما كانت تعلم الطلبة في فصل المدرسة وهي تدرس للاضطلاع في ميونيخ . . . ويظهر أن كل ذلك روجرز هو أنه طالباً بأن تضع أوراقها على المنصة كما سبق وأن أخطرتة رسمياً عن استعدادها لذلك إذا أعلن أحد زعماء العرب عن قبوله توقيع اتفاقية سلام بينا كان يعلم تمام العلم أنها لم تكن مستعدة لذلك .

وكان لزاماً عليه أيضاً أن يدرك أنها عندما أرسلت التحدى عن طريق السفير الأمريكي في تل أبيب كانت على ثقة من أنه لا يوجد زعيم عربي يمكن أن يدعو إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل . . . فقيم كثرة الكلام إذن ؟ وإلى أين سوف تؤدي سذاجة روجرز وجهله بحقائق الأمور بأمريكا وإسرائيل على السواء ؟ كان هذا الدرس بمثابة إشارة إلى الدوائر الصهيونية في الولايات المتحدة لكي تنقضي على روجرز .

وبالفعل عندما خرج من منصبه بعد ذلك ظل معزولاً عزلاً تاماً . . .

وما هو جدير بالذكر هنا أن الرسالة التي وصلتني يوم ٦ يوليو ١٩٧١ على لسان الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته روجرز مع دبلوماسي أمريكي كان هو رئيس قسم مصر في وزارة الخارجية لم يكن لدى الرئيس الأمريكي أي شيء مما عرفت بعد ذلك . . . شيء غريب حقاً . . . أليس كذلك ؟

المهم أنه بعد خطاب جولدا مائير في الكنيست عادت الأحوال بيني وبين أمريكا إلى أسوأ مما كانت عليه . . . فقد كان للخطاب أثره في الرأي العام الأمريكي كما أنه أزهب روجرز فراجع عن كل شيء . . .

وليت روجرز اقتصر على التراجع بل إننا نجده في أول يناير سنة ١٩٧٢ يصرح بأن أمريكا قد أعطت إسرائيل معونات جديدة ودخلت معها في عمليات تصنيع ولن تكف عن بذل المعونة طالما حتى تظل متفوقة عسكرياً على العرب مجتمعين . . . ممكن . . . كان يريد أن يشترى رضا إسرائيل مرة أخرى بعد الدرس الذي أعطته له جولدا مائير ولكن بلا جدوى .

بعد تصريح روجرز وبعد عزم استطاعتي تحقيق وعدي بأن سنة ١٩٧١ لابد أن تكون سنة الحسم إما سلماً أو حرباً بدأت أعاني الشمانة في العالم الخارجي وفي الداخل من عملاء السوفييت وبعض من ضللتهم الدعاية السوفيتية ومسلح أمريكا معي . . . فيها هي سنة ١٩٧١ تنقضي دون أي حسم ما . . . لقد

تعهد الاتحاد السوفيتي أن يخذلني بعدم إرسال العناد الذي طلبته وكانهم في موسكو يريدون أن يقولوا لي أنت لا تستطيع أن تقرر شيئاً بدون إذن السوفييت وقد اعترف بريجنيف بعد ذلك بستين للمارشال أحمد إسماعيل عندما زار موسكو في مارس سنة ١٩٧٣ للمصالحة بأنه تعمد عدم إرسال الأسلحة .

وتستمر مخزية عملاء الاتحاد السوفيتي وعملاء مراكز القوى عندى في مصر من سنة الحسم واضطر إلى أن أكتب آلامى وأخفى جروحي وأذهب إلى مجلس الشعب في فبراير سنة ١٩٧٢ أدافع عن السوفييت رغم أنى مطلعون في ظهري منهم فقد زرت موسكو في سنة واحدة أربع مرات أطلب العناد وألح في الطلب ولكن عبثاً . . . وفي نفس الخطاب أمام مجلس الشعب عمدت إلى مهاجمة أمريكا وروجرز بأعنف ما يمكن للهجوم أن يكون . . . وهكذا بدأ فصل جديد من العلاقات السيئة بيني وبين أمريكا . . . مواجهة عاتية كاملة . . .

طبعاً أصيب الأمريكيان بذهول يوم ١٦ يوليو سنة ١٩٧٢ عندما اتخذت قرار الإمتنعاء عن الخبراء السوفييت ولكنهم حاولوا جهده طاقهم أن لا يأخذ القرار مكانه في إعلامهم . . . فالوفاق بدأ . . . وكان سيكون قد زار موسكو في مايو سنة ١٩٧٢ أى قبل شهرين فقط من قرارى بالإمتنعاء عن الخبراء السوفييت . . . فكانما كانت مؤامرة صمت . . .

ولكن يخطيء من يظن أنى اتخذت قرار طرد الخبراء السوفييت لإرضاء أمريكا أو أية جهة أخرى . . . لقد كان قراراً وطنياً سعد به شعب مصر كل السعادة فهو قرارى وقرار شعبي وحده ، وكان هجومى على روجرز وأمريكا لما لقيته من سلوك من جانبهم لا يقل عنفاً عما وجهته للسوفييت وأنا أطرده خبراءهم .

٦

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أطيح بروجرز وجاء كيسنجر وزيراً للخارجية - فطلب أن يلتقى بأى رسول أرسله له ولكن سنة ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات والحكومة الأمريكية في مثل هذه السنة لا تقدم ولا تؤخر ثم إن الوفاق بين أمريكا وروسيا كان قد أعلن فلم يتحقق لهذا اللقاء الذى طلبه كيسنجر أن يتم إلا في فبراير سنة ٧٣ .

أرسلت له حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومي عندنا فالتقى به في باريس مرة في فبراير سنة ١٩٧٣ وأخرى في أبريل سنة ١٩٧٣ .

كانت حصيلة كلام كيسنجر أن الذي فعله روجرز كان بغير مساندة الرئيس الأمريكي ولذلك لم يتم شيء . ولكن الرئيس الأمريكي الآن مستعد للتعاون من أجل السلام . قال له حافظ إسماعيل إن مبادرتنا ما زالت قائمة رغم تحدى روجرز وزير الخارجية الأمريكية لنا في يناير سنة ١٩٧٢ فرد كيسنجر قائلاً : -

- قل للرئيس السادات رغم أنني لا أعرفه شخصياً إن تقديرنا له الذي بنى على تقرير مندوب أمريكا في جنازة عبد الناصر كان خاطئاً . . بل إن الحقائق كلها تشير إلى عكس ما جاء في هذا التقرير . . فقد رأينا بتقديم مبادرة سلام ثم رأينا وهو يتخذ قرار طرد الخبراء السوفيت . . وهذه مسائل لافتة للنظر . .

ولكن نصيحتي للسادات أن يكون واقعياً . . فنحن نعيش في عالم الواقع ولا نستطيع أن نبني شيئاً على الأمان والتخيلات . . والواقع أنكم مهزومون فلا تطلبوا ما يطلبه المنتصر . . لا بد أن تكون هناك بعض التنازلات من جانبكم حتى تستطيع أمريكا أن تساعدكم . .

فكيف يتبنى وأنتم في موقف المهزوم أن تملوا شروطكم على الطرف الآخر . . إما أن تغيروا الواقع الذي تعيشونه فيغير بالتبعية تناولنا للحل وإما أنكم لا تستطيعون ، وفي هذه الحالة لا بد من إيجاد حلول تتناسب مع موقفكم غير الحلول التي تعرضونها وأرجو أن يكون معنى ما أقول واضحاً فليست أدعو السادات إطلاقاً إلى تغيير الوضع العسكري فلو أنه حاول هذا فسوف تنتصر إسرائيل مرة أخرى بأشد ما انتصرت في سنة ١٩٦٧ وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نفعل أي شيء . . وسوف تكون هذه خسارة كبيرة لمصر وللسادات شخصياً وهو رجل أحب أن أتعامل معه في يوم ما . . فأنا شديد الإعجاب به لمواقفه وشجاعته الواضحة ولأنه إنسان لأول مرة في هذه المنطقة يضع كل شيء في مكانه بأسلوب علمي سليم ويتخذ خطأ جديداً لم يتخذه أي زعيم عربي من قبله . .

كان هذا كلام كيسنجر في فبراير وأبريل سنة ١٩٧٣ فقلت في نفسي لا فائدة ترجى من الأمريكان فقد استولت عليهم إسرائيل وما زالت السياسة التي وضعها جونسون لأمريكا تفضل مصالح إسرائيل على مصالح أمريكا نفسها . وكما يقول رجل الشارع عندنا في مصر . . إسرائيل هي الحارس الوحيد على مصالح أمريكا في الشرق الأوسط . . هذا ما جعلت من نفسها . . أو هكذا جعلتها أمريكا . . والنتيجة في كلا الحالين واحدة وهي أنه لا أمل في تحقيق السلام عن طريق أمريكا ما دامت إسرائيل لا تريد السلام .

٧

فوجئت أمريكا بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وفوجيء كيسنجر وحزن حزناً شديداً على مصبري كما قال لي فيما بعد - إذ كان الإسرائيليون في الأيام الثلاثة الأولى للحرب يؤكدون للعالم كله بأنهم يطحنون عظام المصريين والسوريين وأن المسألة كما أعلنت إسرائيل ليست إلا ساعات أو يوم أو يومين ويقضي على المصريين ويدفنون في القناة . .

واستخدموا أفلام هزيمتنا في سنة ١٩٦٧ في كل الإذاعات عندهم وأرسلوها إلى الخارج . . وكان « البروباجاندا » السوداء ستجعلهم ينتصرون . . وفي اليوم الرابع للحرب وصلت الخارجية الأمريكية إشارة : « أنقذوا إسرائيل » . . وأن إسرائيل خسرت على الجبهة المصرية ٤٠٠ دبابة مطلوب إرسالها فوراً من أمريكا لإسرائيل . .

ولابد أن كيسنجر أصيب بالذهول حتما حينما أكد البنتاجون بأفكاره الصناعية ما أبلغته إسرائيل للخارجية الأمريكية . .

وعلى الفوز بدأ كيسنجر - بعد أن أفاق من ذهوله - في العمل على وقف إطلاق النار على أن تعود القوات إلى المواقع التي بدأت منها القتال يوم ٦ أكتوبر . . طبعاً رفضت . . لقد عبرنا وحققنا المرحلة الأولى بالإستيلاء الكامل على خط بارليف ولم يعد أمامنا إلا المرحلة الثانية وهي الوصول إلى المضائق . .

وماء حال إسرائيل أكثر . . فتقدم كيسنجر بعرض آخر وهو وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية ولكن سوريا كانت في ذلك الوقت قد رجعت عن خط البدء فرفضت هذا أيضاً . . وخاصة عندما قفز إلى ذهني الموقف في سنة ١٩٤٨ عندما طلب الإسرائيليون هدنة واستجاب العرب فاسترد اليهود أنفاسهم ثم أجهزوا على كل شيء . . كانت هذه حيلة مماثلة ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . .

أرسل الاتحاد السوفيتي لى ثلاث طلبات بوقف إطلاق النار ورفضتها جميعاً . . ثم حضر رئيس وزراءهم كوسيجين إلى مصر وبقي عندنا أربعة أيام . . وفي يوم ١٢ أكتوبر أرسل الاتحاد السوفيتي إلى أمريكا يقول إن السادات قد وافق على وقف إطلاق النار . . وأراد كيسنجر أن يستوثق فاتصل برئيس الوزارة البريطانية ستر حيث لكي يتصل بي عن طريق السفير البريطاني في القاهرة ليسأل عن مدى صحة الرسالة . . وفوجئت بالسفير البريطاني يوقظني من النوم فجر ١٣ أكتوبر ليبلغني الرسالة . . قلت له لم يحدث وأرجو أن تبلغ كيسنجر أن لا أحد يتحدث عن مصر إلا أنا فقط . .

طبعاً كانت أمريكا تاند إسرائيل منذ بداية الحرب وقبلها . .

ولكن بعد أن تأزم الموقف تحولت هذه المساندة إلى تدخل واضح وصريح ومباشر . . فكانت الدبابات تنزل إلى أرض سيناء في العريش المصرية عاصمة ميناء وهي التي تقس وراء الجبهة مباشرة وهي محملة بالبنزين والذخيرة فتدخل المعركة مباشرة . . كما كانت ثمة أسلحة أخرى لم تستخدم من قبل سبق أن رويت قصتها .

ووجدتني فجأة أواجه أمريكا . .

وهذا ما جعلني أعلن على العالم يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ أني لا أحارب أمريكا . . وبناء عليه فأنا أقبل وقف إطلاق النار وهو ما رفضته أربع مرات على مدى ١٧ يوماً عندما كان خصمي في المعركة إسرائيل وحدها - لا أمريكا . . وهنا أحب أن أسجل للتاريخ أن الثغرة هي مسئولية أمريكا بل ومسئولية البنتاجون ذاته والمساعدات التي قدمها لإسرائيل والصواريخ الجوية والعتاد

والأسلحة الحديدية التي استخدمت لأول مرة ولم تكن متاحة لأي إنسان خارج أمريكا إلى ذلك التاريخ . .

لم تكن الثغرة في ذاتها هي التي جعلتني أقبل وقف إطلاق النار . . الذي دفعني إلى هذا - كما سبق أن قلت - أنني أصبحت في حالة مواجهة عسكرية كاملة مع أمريكا وهو ما لا قبل لي أو لأية دولة غير عظمى به .

أما الثغرة نفسها فقد كانت من الناحية العسكرية مجرد عملية تليفزيونية كما أسماها بحق الجنرال بوفر رئيس معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسية ومن الناحية السياسية كان واضحاً أن الهدف منها هو إعطاء إسرائيل نقطة انطلاق تحفظ ما تبقى لها من كرامة في المفاوضات بينها وبين مصر بعد أن وصلوا على الجبهة المصرية إلى الحضيض BOTTOM كما قالت مسرمانير وقتذاك . . لقد حشدوا قوات كبيرة في الثغرة في منطقة صغيرة لا تحتل هذه القوات وكانوا يأملون أن يخيفني هذا فأعتقد أن القاهرة مهددة . . طبعاً خاب ظنهم فالجرب النفسية قد تصلح مع غيري ولكنها لا تصلح أبداً معي لأنني أعرف ما أفعل وأعد لكل خطوة أخطوها عندها . .

كنت واثقاً كل الثقة من أن عملية الثغرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق . . فلو أني صفيت الثغرة حسب الخطة الموضوعة والتي وقعها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكري ما بين قتل وجريح ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد . . في هذه المعركة لم يكن أمامي قناة أعبرها أو خط بارليف أقتحمه . . العدو أمامي وعلى مساحة ضيقة من الأرض ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمس فرق كاملة لي ومدخل الثغرة من الضفة الشرقية فتحة هي ستة كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثاني والثالث . . كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبة التاريخ . .

ولكنها لم تتم . . لماذا ؟ لأنها كانت ستغني المزيد من الدم والكراهية والأحقاد . . وأنا أكره كل هذا . .

بل إنني لأذهب إلى آخر العالم - كما يعرف شعبي وقواني المسلحة - إذا كان ذلك من شأنه أن أنقادي جرح - ولا أقول قتل - فرد واحد .

كان أول لقاء لي مع كيسنجر بعد وقف إطلاق النار الذي تم في الساعة السابعة مساء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . . وخسرق إسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ذلك بساعتين فقط . . . فقد كانت أمريكا بالتضامن مع روسيا مسئولة عن وقف إطلاق النار فأرسلت إلى القوتين نداءً أحملهما فيه مسؤولية ما فعلت إسرائيل وأعلن أنني رغم التزامي بوقف إطلاق النار إلا أنني أعتبر نفسي في حل من التزامي فلما أن بعيدا اليهود إلى خط ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وهو الخط الذي كان قائماً وقت وقف إطلاق النار وتعرفه أمريكا وروسيا بأقمارهما الصناعية ونعرفه نحن وإسرائيل على الأرض . . . وإما أن أعيدهم أنا بيدي - كيسنجر أرسل يطلب الحضور إلى مصر فقلت على الرحب . . . وأنى . . .

كان ذلك في أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٣ واستغرقت الجلسة الأولى ثلاث ساعات . . . بعد الساعة الأولى شعرت أني أمام عقلية جديدة وأسلوب جديد في السياسة وأنى أرى لأول مرة وجه أمريكا الحقيقي الذي كنت فيما مضى أتمنى أن أراه - لا الوجه الذي صنعه دالاس ودين راسك وروجرز . . . واعتقد أنه لو رأنا أحد بعد الساعة الأولى من اجتماعنا بقصر الظاهرة لاعتقد أننا أصدقاء منذ سنوات وسنوات .

لم تكن هناك أية صعوبة في التفاهم فاتفقنا على النقاط الستة ومن ضمنها إقرار أمريكا بخط ٢٢ أكتوبر في إطار فض الاشتباك .
كان الاتفاق على النقاط الستة بداية قيام علاقة فهم مشترك بيننا وبين أمريكا تبلورت فيما نسميه بعملية السلام (PEACE PROCESS) التي سارت فيها أمريكا معي وما زالت حتى اليوم .

نفس هذه البداية اعتبرها السوفييت نهاية للعلاقة بينهم وبيننا - أو هكذا يبدو - على أى الأحوال كان الاتفاق على النقاط الستة بيني وبين كيسنجر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير - كما نقول في العربية - بالنسبة للسوفييت ، لقد تحملوا كارهين قرار طرد الخبراء السوفييت وتصنيتي لمراكز القوى ثم موافق

من ثورة السودان الشيوعية المجهضة ثم قرار الحرب وانتصاري فيها رغم تحذيرهم لسوريا بأنى سأغرق في القناة بعد ساعة وأترك السوريين ليواجهوا إسرائيل وحدهم . . . فإذا بالأمور تسير بالعكس فأعبر القناة أخطر مانع مائى في التاريخ وأسيطر على خط بارليف في ساعات وأدخل سيناء . . . ولكن حتى في هذه المرحلة المتقدمة لم يكف السوفييت عن طلب وقف إطلاق النار ثلاث مرات والرابعة حين حضر إلى مصر رئيس وزراءهم كوسيجين - كما سبق أن رويت - ليتقنى بوقف إطلاق النار وحدثت بيننا مشادة في منتهى العنف . . . وأخيراً كان اتفاق مع كيسنجر على النقاط الستة وبداية عملية السلام . . . منذ تلك اللحظة إلى هذا اليوم في سنة ١٩٧٧ وكل شيء عند السوفييت موقوف على . . . لا بيع أسلحة أستعوض بها كما استعوضت سوريا ما فقدت ولا قطع غيار ولا أى شيء على الإطلاق . . . بل موقف متشدد يكاد أن يصل في بعض الأحيان إلى العداء . . .

في ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ جاءني كيسنجر حسب الاتفاق لتنفيذ النقاط الستة فقلت له : « يا هنرى أنا لا أطلب بعودة اليهود إلى الضفة الشرقية ولكنى أريد عودتهم إلى خط ٢٢ أكتوبر - كان هذا اتفاقنا وقت وقف إطلاق النار فلما أن يعودوا إليه وإما أن آخذه بالقوة » . . .

قال : - ما الداعي إلى المعركة ؟

قلت : - لأن ثمة عريضة إسرائيلية - وهم يتصورون أنهم يخيفوننا بهذه الثغرة - وأنا لست على استعداد لأن أجهض نتائج حرب أكتوبر بل لن أسمح بهذا . . . هل تعرف مدى قوتي ومدى قوتهم في الثغرة ؟

قال : نعم أعرف . . .

وأخرج من جيبه صورة بالقمر الصناعي رسمها البتاجون . كما سبق أن رويت . وقال : قبل أن أحضر إليك طلبت من البتاجون أن يعطوني الموقف فأعطوني هذه الصورة وفيها الـ ٤٠٠ دبابة إسرائيلية ومن حولها ٨٠٠ دبابة مصرية ولديك صاروخ ونصف تقريباً لكل دبابة بخلاف حائط الصواريخ القائم . . . أنت فعلاً تستطيع أن تصني الثغرة بهذه القوات . . .

قلت : هذه سوف تكون معركة التاريخ بالنسبة إلى . . فما هو موقف أمريكا . . لأنكم أنتم الذين أخرجتموني من الحرب ولكنكم أنتم المسؤولون عن الثغرة . . ما هو موقف أمريكا إذا صفت الثغرة بمعركة . . ؟
قال : سيضربك البتاجسون بكل قوته . . هذا هو موقف أمريكا . . ولكن لي سؤال : هل أنت مصر على تصفية الثغرة بمعركة عسكرية . . ؟
قلت : أبداً . . أنتم تعلمون أنني رجل سلام . . ولو كنتم قبلتم مبادرتي سنة ١٩٧١ لما كانت هناك حرب - فأنا ضنين بحياة الجندي قبل الضابط ولكنكم لم تأخذوا كلامي مأخذ الجد وهذه هي النتيجة . .
قال : كما بدأنا عملية السلام ، نعمل فض اشتباك تنتهي هذه الثغرة بانتفاضة سلمياً .
قلت له : أنا معك ١٠٠٪ . ولكن متى ؟

في ذلك الوقت كنا قد حددنا لمؤتمر جنيف يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧٧ وأجل إلى ٢١ من الشهر نفسه ، وفعلنا ذهب مصر والأردن وإسرائيل وامتنعت سوريا - وعقدنا في جنيف جلستين أو ثلاثة ثم أجلنا الجلسة واتفقنا أنا وكيسنجر على فض الاشتباك في يناير سنة ٧٤ - وذلك بالنسبة للجبهتين المصرية والسورية .
قبل ذلك بفترة - وعلى وجه التحديد في يوم ١٦ أكتوبر بعد بدء المعركة بعشرة أيام وبينما كان انتصارنا واقعاً أذهل العالم كله - خطبت في مجلس الشعب هنا في مصر وقلت إنني مستعد أن أذهب إلى جنيف شريطة أن تنسحب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة في عام ١٩٦٧ ويجمع في جنيف لنضع اتفاقية سلام . . كان في إمكاني في ذلك الوقت أن أضرب في عمق إسرائيل . . وهي تعلم ذلك وتعلم أن لدى السلاح الذي يقوم بذلك . .

أي رجل مكاني كان يفعل هذا ولو من باب الانتقام من إسرائيل لثلاث حروب مضت - ولكني لم أفعل لأنني أفضل السلام - . . ومن نفس المنطلق آثرت أن أصني الثغرة سلمياً فجاء كيسنجر حسب الاتفاق في يناير سنة ١٩٧٤ وأخذ يقتل بين أسوان وتل أبيب فترة من الزمن إلى أن جاء إلى في يوم وقال : -

- للأسف يبدو أننا قد وصلنا إلى طريق مغلق فهم في تل أبيب غير راغبين في التفاهم .
قلت له : لقد جاء دوركم أنتم الأمريكان . . فحلوا الموقف أنتم بأنفسكم . .

قال : هل تقبل عرضاً أمريكياً ؟
قلت : بكل سرور . . مستعد ألتقاه وأدرسه وأرد عليك . .
تلقيت الاقتراح الأمريكي وتلقته إسرائيل في نفس الوقت . . وبالاتفاق على فض الاشتباك الأول على الجبهة المصرية بدأنا مرحلة جديدة . . المرحلة الثانية في عملية السلام . .

وهنا لا بد لي أن أقول إنه لا يستطيع أحد غير أمريكا أن يقوم بهذا الدور وهو التدخل بين الطرفين اللذين تأكلهما أحقاد رهبة ودماء وكرهية وعنف ومذابح قامت بها الصهيونية في القرى الفلسطينية . .
لم تفرض أمريكا فض الاشتباك الأول بل تدخلت بيننا لتفتح الطريق المسدود . . وفض الاشتباك الأول مكتوب على رأسه كلمة « عرض أمريكي AMERICAN PROPOSAL » . . لهذا قلت وأقول إن بيد أمريكا ٩٩٪ من أوراق اللعبة . . مهما أغضب ذلك الآخرين . .

٩

كان من المفروض أن تدخل المرحلة الثالثة من عملية السلام في سبتمبر ١٩٧٤ وهي فض الاشتباك الثاني - ولكن حدثت زيارة نيكسون إلى مصر ثم عاد إلى أمريكا حيث كانت مسألة وتوجيه قد نضجت تماماً وتفجرت فاستقال نيكسون ودخلت أمريكا في دوامة رهبة استمرت خلال سنوات ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ سنة الانتخابات بعد أن استقال نيكسون وحل فورده محلّه ، وبدأت دبلوماسية (المكوك) بين أسوان وتل أبيب لإتمام عملية فض الاشتباك الثاني .
في تقديري أن فض الاشتباك الأول استغرقت مفاوضاته من أسبوع إلى عشرة أيام . . أما هذه المرة فقد كان الأمر يختلف .

استغرقت رحلات كيسنجر أكثر من أسبوعين ولا شيء يلوح في الأفق . .
وقبل أن تنتهي هذه الرحلات بعشرة أيام قلت له وهو عندي
في أسوان :

- يا هنري لن يتم فض الاشتباك هذه المرة - ولن يستجيب اليهود لكم
ولا للسلام . . لأنهم يعلمون أن الحكومة الأمريكية في حالة ضعف -
فوترجيت ما زالت متفجرة - والرئيس الموجود معين وليس متخباً . .
قال : بالعكس أنا أرى أن العملية تسير سيراً حسناً - صحيح أنها قد تستغرق
وقتنا أطول من فض الاشتباك الأول ، ولكن هذا لا يعني الكثير .

قلت له : تقدر تقدم مقترحاً أمريكياً يا هنري ؟

قال : لا . .

قلت : أرايت ؟ أنت لا تقدر لأنكم في وضع داخلي صعب . . ولذلك
لن توافق إسرائيل .

بعد عشرين يوماً جاء إلى وقال :

- أنت على حق . . إنها حالة ميثوس منها . .

قلت له : لا تعلن هذا من عندي - سافر إليهم وأعلنها من عندهم .

وفعلاً أعلن فشل مفاوضات فض الاشتباك الثاني في مرحلته الأولى من تل
أبيب ، وفي نفس الوقت أعلن وزير خارجية مصر فشل مساعي كيسنجر في
مؤتمر صحفي عقده بأسوان ، وفي صباح اليوم التالي سافر كيسنجر من
عندهم رأساً إلى أمريكا .

الذي أريد أن أقوله للشعب الأمريكي هنا هو أنه برغم أن شريان الحياة يمتد
من أمريكا إلى إسرائيل بكل ألوان الحياة من رغيف العيش إلى الفانتوم
إلى سد العجز في الميزانية ، إلا أن إسرائيل رفضت أن تستجيب للسلام لأنه
كان في تقديرها في ذلك الوقت أن الحكومة الأمريكية في موقف ضعف . .
بهر إذن ليست موضع ثقة إسرائيل - أنا أيضاً كنت أعرف أن الحكومة
الأمريكية في موقف ضعف . . ولكن رغم هذا ورغم أنني كنت قبل ذلك
في مواجهة صريحة كاملة مع أمريكا لمدة ١٨ عاماً . . إلا أنني كنت أثق
فيها من أجل تحقيق الخير والسلام . .

وهنا تتضح حقيقة لا أظن أنها نفوت على الكثيرين . . وهي أن ما هو معروف
من أن إسرائيل هي راعية مصالح أمريكا في المنطقة هو في الحقيقة مجرد ادعاء . .
فأين حماية هذه المصالح والبرول الذي حظره العرب كان يهدد كيان
أمريكا الاقتصادية بل ويهدد المدينة الغربية كلها بالإنبهار ؟ إن إسرائيل
لا تنظر إلا إلى مصالحها الذاتية . . والمسألة بعد هذا أعرق وأدق فهي مسألة
أخلاق . . ومسألة حب للسلام أو العكس بصرف النظر عن سيدفع ثمن
فشل محاولات السلام . . وهذا ما دعاني رغم كل علاقاتي السابقة مع أمريكا
أن أقول لوزير خارجيتها إنه مهما كان موقف إسرائيل فدعنا نعمل سوياً
من أجل السلام . .

هل يحتاج الأمر إلى عقد المزيد من المقارنات بين موقف إسرائيل وموقف
مصر في تلك المرحلة التاريخية . . وما قد تفصح عنه هذه المقارنات من الحرص
على السلام أو العكس ؟ لا أعتقد .

١٠

أنا لا أريد أبداً أن أثبت أني رجل سلام بالكلام فقط ولذلك فبمجرد
خذلان إسرائيل لمساعي كيسنجر من أجل السلام ذهبت إلى البرلمان وأعلنت
للشعب كل ما حدث ثم تقدمت بقرارات لا تتسم بالعصبية أو رد الفعل ،
ولمّا كانت قرارات صادرة عن الثقة بالنفس وبالحق فأعلنت فتح قناة السويس
في ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ بعد أن كان لأمريكا هذا الدور الرائع في تطهيرها
مع فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي الذي طهر خليج السويس لوصوله
متأخراً . . وسمعتي شعبي وأمتي العربية والعالم أجمع .

كما سمعتي الجميع أعلن أيضاً أن المهجرين سيعودون إلى مدن القناة ،
وأني سأسلم إسرائيل ٣٩ جثة من قتلاها كانت إسرائيل مستعدة لدفع أي
ثمن لاسترجاعها بواسطة كيسنجر ولكنني أعطيتها لهم بدون مقابل . .

كل هذا من أجل السلام . . مع ذلك فقد حذرت إسرائيل من أنها لو
ضربت أي مدينة من مدن القناة أو القناة ذاتها بعد فتحها بمدافعها الأمريكية
طويلة المدى فسوف أرد بالضرب في عمق إسرائيل . .

كنت طبعاً قد قابلت فورد في سالزبورج (يومى ١ ، ٢ يونيو ١٩٧٥) بعد فشل محادثات مارس وانفقنا على عملية جديدة يتولاها فورد شخصياً . .

في أغسطس جاءنى كينسجر وبدأ (المكوك) بينى هنا وتل أبيب . . كان الرجل مكسور القلب . . فالوضع السيئ الذى كانت عليه الإدارة الأمريكية في مارس أصبح أسوأ بكثير في أغسطس . . فالفضائح تتفجر كل يوم والإضطراب وعدم الاستقرار مستمر . . واليهود ينتهزون كل فرصة ليضربوا مصالح أمريكا عندما تتعارض مع مصالحهم . .

قلت له : كنت قد قلت لك في مارس إن العملية لن تتم ولكننى أقول لك هذه المرة إنها سوف تتم . . فقد كشفت إسرائيل أمام العالم بفتح القناة وعودة المهجرين . . إلى آخر ما فعلت من أجل إعادة السلام إلى المنطقة . . ولذلك فلو حاولت إسرائيل أية محاولة لإفشال السلام فستضح الحقيقة للعالم كله وهى أنها وحدها المسؤولة عن هذا . .

وفعلنا لم نستطع لإسرائيل إلا أن توافق ، فوقعنا في أول سبتمبر سنة ١٩٧٥ إتفاقية فض الاشتباك الثانى وبذلك تمت المرحلة الثالثة من عملية السلام .

بعد ذلك لم يعد هناك مجال لحل الخطوة خطوة فتحن الآن بصدد تسوية شاملة أى اتفاق السلام الهائى وإنهاء حالة الحرب التى لا تزال قائمة إلى اليوم منذ ثلاثين سنة . . وعلينا أن نسعى إلى السلام الدائم العادل . . بعد ما ثبت من أن مصر التى كانت فى مواجهة مع أمريكا لمدة ١٨ سنة تستجيب للسلام بينا إسرائيل وهى ربيبة أمريكا مستعدة لأن تطيح بمصالح أمريكا إذا شعرت بأن هذا قد يحقق شيئاً من أطماعها .

١١

ذهبت لزيارة كارتر بعد أن نجح فى الانتخابات وأصبح رئيساً للولايات المتحدة . . واستعرضت معه كل المراحل التى تمت ، كما وضعت أمامه استراتيجية سلام محددة لا اعتقد أن إسرائيل قادرة أو راغبة فى أن تصنع مثلها أو شبيهة بها .

ما هى استراتيجية السلام التى وضعتها أمام كارتر وأضعها أمام العالم كله اليوم ؟ قبل أن أدخل فى التفاصيل أحب أن أدعو كل من يتعرض لقضية الشرق الأوسط أن يدرك أن المشكلة الأساسية فيها هى المشكلة الفلسطينية . . دعونا إذن نبدأ بحل المشكلة الفلسطينية فليست سيناء أو الجولان إلا أعراض لمرض أساسى هو هذه المشكلة بالذات . . ولعل مما يلفت النظر فى هذه المسألة أن بعض الأصوات ترتفع هذه الأيام تطلب من الفلسطينيين الاعتراف بإسرائيل . . تناقض غريب . . فهم يطلبون من أناس فقدوا الأرض والدولة بل وحقوق الإنسان نفسها - يطلبون من هؤلاء وهم المشردون الفلسطينيون أن يعترفوا بدولة هى إسرائيل تتمتع باعتراف ١٤٠ دولة فى الأمم المتحدة ولديها الأرض واعتراف ومساندة الولايات المتحدة وتأييد الاتحاد السوفيتى الذى لم يحاول قط إخفاء مساندته لإسرائيل وحققها فى أن لا تمس . .

حتى أنه فى زيارة حديثة قام بها ياسر عرفات للسوفيت خلال عام ١٩٧٧ طلب بريجنيف منه أن تعترف منظمة التحرير بإسرائيل كأساس مبدئى لحل المشكلة . .

فى استراتيجية السلام الأولى التى أعرضها على العالم اليوم لا أنكر على إسرائيل حقها فى أن تعترف بها دول المنطقة . . ولكن بشرط أن يأخذ كل شيء وضعه الطبيعى . . فاتفاقية السلام يجب أن تتضمن إقامة دولة فلسطين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، على أن تنسحب إسرائيل من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ .

وبذلك عندما نجتمع فى جنيف نعلن رسمياً إنهاء حالة الحرب التى استمرت منذ قيام إسرائيل حتى هذه اللحظة . .

وقد قلت للرئيس كارتر إن إسرائيل يجب أن تعطى جميع الضمانات التى تطلبها حتى إذا رأت أن تسليح كل مواطن فيها بدبابة وطائرة وأعطيها أمريكا هذا فإن تمناع . . بشرط أن تستعملها إسرائيل داخل حدودها وليس فى أرض الغير . . لن تمنع إطلاقاً فى أى شيء تطلبه إسرائيل سواء من أمريكا أو الاتحاد السوفيتى أو مجلس الأمن ، وبأية صورة تطلبه . . قوة مشكلة من الأمم المتحدة . . قوات على الحدود . . مناطق مزووعة السلاح على الجانبين . . ميثاق

دفاع مشترك مع أمريكا . . أقول إنني في استراتيجية السلام مستعد لكل هذا ولا مانع عندي إطلاقاً . . ولكنني أرى أنه من الحق والعدل أن كل ضامن نأخذ إسرائيل يجب أن نحصل عليه نحن العرب أيضاً . . فيما عدا عن واحد . . وهو أنه إذا اختارت إسرائيل أن تعقد مع أمريكا ميثاق دفاع مشترك فإن أطالب بالمثل لا مع أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو أية دولة أخرى . . فنحن دولة عدم انحياز وسنظل كذلك . . إرادتنا ملك لنا ولنا فقط . .

كل هذا وضعته أمام كارتر بوضوح وأكدت له أننا اليوم في سنة ١٩٧٧ مستعدون للسلام كما كنا عندما قمت بمبادرتي في ١٩٧١ بل وأكثر . . كما أكدت أنني على استعداد لتنفيذ جميع الالتزامات التي يفرضها على قرار ٢٤٢ لمجلس الأمن ولكن على إسرائيل أيضاً أن تفعل نفس الشيء . . فلا مساومة على حقوق شعب فلسطين أو على شبر واحد من الأرض العربية المنتصبة في سنة ١٩٦٧ . بهذا يتحقق السلام الدائم والعدل . .

١٣

ما هو رد الفعل عند إسرائيل إزاء كل هذا ؟

كلنا يعرف نظرية الأمن التي نادى بها بن جوريون ونشأت عليها إسرائيل والتي تقول صراحة إنه لا بد من فرض الصلح على العرب بالقوة . . قلت لكارتر وأنا في زيارتي للبيت الأبيض إن السلم لا يفرض لأنه إذا فرض لا يصبح سلباً لأن هذا معناه أن هناك طرفاً يملئ شروطه على الطرف الآخر وإسرائيل لم تستطع أن تملئ شروطها علينا برغم هزيمة سنة ١٩٦٧ المنكرة ونحن برغم انتصار سنة ١٩٤٨ لم نستطع أن نملئ شروطنا على إسرائيل . . يجب إذن استبعاد فكرة إملاء السلم والحدود الآمنة . .

لقد كانت أسطورة منقطت بحرب أكتوبر وسقطت معها أسطورة العسكري الإسرائيلي الذي لا يقهر . . وهذا ما يدركونه جيداً في إسرائيل اليوم ، ولذلك نجدهم يكفون عن الكلام عن نظرية الأمن الإسرائيلي ويطلبون محالها . .

ماذا يقصدون بطبيعة السلام ؟ فتح الحدود وإقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية بين إسرائيل والدول العربية ؟

إنهم يعلمون تمام العلم أن هذه كلها معوقات جديدة توضع في طريق السلام . . لأنه لا يوجد لإنسان في العالم العربي بعد ثلاثين سنة من المواجهة مع إسرائيل وأربعة حروب ومدابح ودم وكراهية وتعملة في كل ناحية مهياً لفتح الحدود فجأة وبين ليلة وأخرى . .

ثم هل السلام لا يتحقق إلا بفتح الحدود ؟

ماذا عن دول كثيرة كانت الحدود مفتوحة بينها ومع ذلك قامت بحروب ضد بعضها البعض ؟ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن العلاقات الدبلوماسية فهي أيضاً لا تمنع قيام الحرب . . خذ مثلاً اليابان في (بيرل هاربر) لقد كان السفير الياباني في زيارة (لكرودل هل) وزير خارجية أمريكا في نفس الوقت الذي كانت اليابان تقصف فيه (بيرل هاربر) بالقنابل . .

إن الحدود المفتوحة والتمثيل الدبلوماسي مسألة سيادة ولكل دولة الحق في أن تفتح حدودها أو تقيم علاقات دبلوماسية مع من تشاء من الدول . . أن يكون لهذا أي دخل في قيام الحرب أو السلم . . وقد دعوت الرئيس كارتر إلى أن يتأمل موقف أمريكا مع السوفييت بعد ثورة سنة ١٩١٧ فقد انقضت تسعة عشر عاماً قبل أن يعترفوا بالاتحاد السوفيتي ولم يكن هذا يعني أو يدعو إلى الحرب بين الدولتين . . ونفس الشيء بالنسبة للصين الشعبية فستوى التمثيل الدبلوماسي بينها وبين أمريكا لم يزد إلى الآن عن قنصلية أو شيء من هذا القبيل مع أنه قد انقضى على ثورة الصين الشعبية ما يقرب من ثلاثين سنة . .

فلماذا نطلب من العرب إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل كشرط من شروط السلام وكأن السلام قد أصبح مرهوناً بمثل هذه العلاقات وهو الأمر الذي لم يكن في يوم من الأيام بين أية دولة وأخرى كما يقول لنا التاريخ ؟

إن طبيعة السلام التي تتطلب إسرائيل معرفتها اليوم ليست في الواقع إلا محاولة جديدة من جانب إسرائيل لإعاقة السلام تهدف من ورائها إلى كسب

الوقت لكي تتمكن من فرض سياسة الأمر الواقع ببناء المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العربية المحتلة . . كما تحاول الآن . . ثم على المدى البعيد لكي تنهى أزمة الطاقة فلا يعود هناك تعارض بين مصالح إسرائيل ومصالح أمريكا كما هو حادث الآن . .

وفي هذه الناحية أدعو القارئ أن يعتقد معي مقارنة بسيطة بين موقف العرب وموقف إسرائيل إزاء المصالح الأمريكية . .

إن ٩٩٪ من مصالح أمريكا في المنطقة معنا نحن العرب ونحن أصدقاء ونود أن نظل أصدقاء مع أمريكا . . ومصالحها عندنا مصانة وكل ما نطلبه منها أن لا تقف وراء روح التوسع والعدوان الإسرائيلي . . ونحن لا ننادى بأن ترمي إسرائيل في البحر أو أن تقطع أمريكا علاقتها الخاصة معها . . فلنعطها كما تشاء ولكن داخل حدودها . . ولن يؤثر هذا على علاقتنا بأمريكا بأي شكل من الأشكال فنحن كأصدقاء لها نهنأ مصالحها وأقرب دليل على هذا قرار رفع حظر البترول الذي اتخذناه عندما وجدنا أن الحظر قد بدأ يضر بمصالح الشعب الأمريكي . .

وهذا عكس ما تفعله وما فعلته إسرائيل في كل مرحلة من المراحل . فعلاقتها بأمريكا برغم أنها وطيدة وحيوية ويطلق عليها كلمة خاصة لم تمنعها في أي وقت من الأوقات من التضحية بمصالح أمريكا في سبيل تحقيق ما يعود عليها وعلى أطماعها التوسعية بالثمن . .

هذه حقيقة أدركها العالم كله أخيراً وأرجو أن تكون أمريكا قد أدركتها بالنسبة الكافي فأنا أحمل أمريكا مسؤولية كبيرة ليس فقط نحو إقرار السلام في المنطقة كدولة عظمى ، بل ونحو نفسها ومصالحها في هذا الجزء الهام من العالم وكل ما نطلبه من أمريكا وهي ترسم سياستها في هذا الصدد شيء واحد وهو أن تفكر تفكيراً أمريكياً خالصاً يتفق مع مصالح شعبها - وأرجو أن لا يغضب مني القارئ الأمريكي لتولي هذا فقد سلمت أمريكا في أوقات متعددة نفسها وسياساتها إلى إسرائيل وخاصة في أيام جونسون - عندما قيل لنا وقتها نحن لا نستطيع أن نفعل أي شيء - فتفاهموا أنتم مع إسرائيل إذا شئتم . . وبمعرفتنا بخط إسرائيل وعجزها كان هذا بمثابة تنازل أمريكا عن كيانها كدولة عظمى مسئولة عن السلام . .

أرجو أن لا يتكرر هذا فأنا متفائل جداً بعد مقابلي مع كارتر وواثق أنه سينهض بمسؤوليته كرئيس لأعظم دولة في العالم . . وأعتقد أنه سيستمر في عملية السلام التي بدأها سويماً والتي أرجو أن تتم إن شاء الله في جينيف برغم الحملات الإسرائيلية التي سيتعرض لها الرأي العام الأمريكي والكونغرس لمحاولة فرض شروط لإسرائيل على العرب وهو ما لن تقبله . . فقد رفضناه ونحن مهزومون فكيف تقبله بعد انتصار أكتوبر وإثبات ذاتنا ؟

بقي شيء واحد أريد أن أقوله للشعب الأمريكي الصديق : نحن مستعدون للسلام نريده ونرحب به وقد مدت يدي في مبادراتي منذ سنة ١٩٧١ إلى الآن . . كم أتمنى أن تفعل إسرائيل نفس الشيء .

قد أصبح أمراً واضحاً كل الوضوح للعالم بأجمعه بزيارتي التاريخية للقدس في نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

١٣

كيف تمت هذه الزيارة ؟

قبل المبادرة بشهرين تقريباً فوجئت برسالة من السفارة المصرية في واشنطن تقول إنها تسلمت خطاباً خاصاً للرئيس السادات من الرئيس كارتر وأنه مكتوب بخط اليد ويختم بالشمع الأحمر . فقلت لهم أرسلوه . ولكن السفارة لم ترسله في الحقيقة الدبلوماسية بل أصرت على إرساله مع مندوب خاص (كان بالصدفة ابن المرحوم المشير أحمد إسماعيل على الذي يعمل بالسفارة هناك) . قرأت هذا الخطاب الذي لا يعلم أحد عنه شيئاً ، ويخيل لي أن أحداً لن يعلم عنه شيئاً في المستقبل أيضاً - ثم كتبت الرد عليه بنفس الطريقة . أي بخط اليد ووضعت عليه الشمع الأحمر وسلمته لنفس المبعوث الذي سافر به وسلمه للرئيس كارتر شخصياً .

ربما تبادر إلى ذهن البعض أن هذا الخطاب تضمن طلباً من الرئيس كارتر لي بالقيام بهذه المبادرة . ولكن هذا غير صحيح . إذ أنني منذ أن زرته في إبريل ١٩٧٧ وأنا أتبادل معه الرسائل عن طريق سفارتنا وأتبادل معه تقييم الموقف من

وقت لآخر والإتفاق على الخطوات المقبلة . وأعتقد أنه يفعل ذلك أيضاً مع بقية الأطراف وخاصة مع إسرائيل (وقد علمت أثناء وجودي في القدس أن نمة « خطأ أحمر » بين الرئيس الأمريكي ورئيس إسرائيل) .

ولكن - رغم أن هذا الخطاب كان خطاباً شخصياً لا يمكنني أن أفصح عن محتوياته فقد كان يتضمن آخر تقييم للموقف ويمثل في الحقيقة بدء التفكير في المبادرة التي حدثت بعد ذلك بشهرين .

كما قلت لم يطلب كارتر مني هذه المبادرة فهو لا يستطيع ذلك لأنه يعلم أن بيننا وبين إسرائيل حاجزاً نفسياً رهيباً . ولا بد أنه قد تبين ذلك بنفسه عندما قابلته في واشنطن أثناء زيارتي للولايات المتحدة في إبريل ١٩٧٧ وأعتقد أنه عرف أن ذلك الحاجز يمنعه من طلب هذه المبادرة .

وللتاريخ والحق فإن كارتر رجل صادق مع نفسه وصادق مع الآخرين دون شك .. وهذا ما يجعلني لا أجد صعوبة في التعامل معه . فأنا أتعامل مع إنسان يفهم ما أريده .. مع رجل لديه إيمان ولديه قيم - وإلى جانب هذا فهو فلاح مثلي . كانت رسالته تشتمل - كما قلت - على استعراض للموقف وكان ردى عليها بنفس الروح التي تسود تعاملنا . ومع ذلك فقد فتحت رسالته لي طريقاً جديداً كل الجدة . لماذا ؟

بعد أن أرسلت ردى أخذت أتأمل الموقف فبين لي أننا داخلون على حلقة مفرغة رهيبة - تماماً كالتي عشناها طوال الثلاثين عاماً الماضية . إذ أنه بسبب الجدار أو الحاجز النفسي الرهيب الذي أشرت إليه - أخذت إسرائيل في هذه المرحلة التمهيدية لعملية السلام تتعرض على شكليات وإجراءات - من أبسط الأشياء كفاصلة أو نقطة في النص إلى كلمة مضافة أو كلمة محذوفة وكان يهمها جداً أن يقال إن ورقة العمل التي ستكون أساساً لإجتماع جنيف ورقة أمريكية إسرائيلية . .

وأخذنا نحن العرب أيضاً بسبب ذلك الحاجز الرهيب نتعرض بصورة تلقائية على هذه الشكليات فنقول إننا لا يمكن أن نقبل ورقة عمل أمريكية إسرائيلية بل إنني إذا قبلت من ناحيتي ورقة عمل عربية أمريكية فإن إخواني

العرب سوف يرفضون كلمة أمريكية (مع علمهم أنه لا يمكن تحقيق حل بدون أمريكا) وبذلك دخلنا الحلقة المفرغة للإجراءات الشكلية وابتعدنا عن جوهر القضية .

والحاجز النفسي الذي أعنيه هنا هو ذلك الجدار الضخم من الشك والخوف والكرهية بل وسوء الفهم إذ أن كلا من الطرفين غير مستعد لتصديق الآخر وغير مهياً نفسياً لتقبل ما يصله منه عن طريق أمريكا (بل ويشك فيه عشرات المرات لو وصله عن طريق آخر) .

ولذلك أشبه هذا الجدار الرهيب بالحاجز المرجاني الضخم عند أستراليا والذي يمكن أن يشطر أى سفينة تقترب منه شطرين .

وإذا كان عمق ذلك الحاجز ثلاثين عاماً - أى منذ قيام إسرائيل - فإن له جذوراً أعمق من هذا التاريخ - أى أنه إذا كان يبيجين يدعى أن للمساءلة بعداً دينياً بالنسبة لهم فإن لها بعداً دينياً أيضاً بالنسبة لنا . . وهكذا . بدأت أتأمل الموقف من زاوية جديدة وعكفت على دراسته دراسة ذات عمق جديد .

وهنا وجدت ما تعلمته في الزنزارة ٥٤ في سجن مصر بمدنى بقوة جديدة وطاقة جبارة على التغيير . إنني أواجه واقعاً بالغ التعقيد يحتاج إلى طاقات نفسية أولاً وفكرية ثانياً لتغييره ولقد تعلمت أثناء تأملي للإنسان والحياة في ذلك المكان المنعزل أن من لا يستطيع أن يغير أفكاره أولاً لن يستطيع أن يحدث أى تغيير في عالم الواقع ومن ثم لن يستطيع تحقيق أى تقدم . التقدم مستحيل دون التغيير . وليست هذه مجرد فكرة انتدبت إليها بل أسلوب عمل وديدن حياة منذ أن اكتشفت ذاتي في الزنزارة ٥٤ .

ماذا يمكنني إذن أن أغیره ؟ لقد درجنا على اعتبار إسرائيل موضوعاً مشحوناً بحساسية وخطورة إلى الدرجة التي تحرم الاقتراب منه . بل لقد استمر هذا الموقف سنين طويلة حتى بلغت التراكمات حداً يصعب معه التغيير إن لم يكن يستعصى فعلاً - تماماً مثلما حدث بالنسبة للنظرة الإسرائيلية للعرب . وهنا وجدت أن السبيل الوحيد إلى التغيير لابد أن يتناول صلب هذه النظرة وجوهرها . فإذا كان لنا أن نناقش جوهر القضية وأساسها بغية تحقيق السلام

الدائم فلا بد لنا من أسلوب جديد تماماً - أسلوب يتخطى مرحلة الشكليات والإجراءات ويكسر حاجز عدم الثقة المتبادلة حتى لا نعود للدائرة المغلقة والطريق المسدود .

هذا من ناحية . نظرت من ناحية أخرى إلى موقف أمريكا . ماذا تستطيع الولايات المتحدة أن تفعل ؟ كان لابد من بحث هذا الموضوع على أساس حقائق الحياة وأولها أن قدرة الرئيس كارتر على الحركة مرهونة بالوضع العالمي الراهن . وثانيها أن قدرة أمريكا على المساعدة لا يمكن أن تتخطى طبيعة علاقاتها الخاصة بإسرائيل . إذ أنه من غير المعقول أن أكلف الرئيس كارتر بما لا يستطيع أو أطلب منه إيقاف هذه العلاقة الخاصة أو أن يقف إلى جوارى ضد إسرائيل . أعلم أن هذا غير ممكن وتأكدت منه أثناء مباحثاتي في واشنطن في إبريل ١٩٧٧ .

إزاء هاتين الحقيقتين ومن منطلق النظرة العلمية الواقعية وجدت أن كل ما أستطيع أن أطلب به الرئيس كارتر هو انتهاج خط سياسي أمريكي أى موقف يتسق أولاً مع مصالح أمريكا ويتسق ثانياً مع مسؤولية الولايات المتحدة كقوة عظمى مسؤولة عن السلام في العالم . ومعنى هذا وضع حد لسياسة « الكارت بلاش » التي أعطتها إدارة جونسون لإسرائيل - أى أن تعطىها التأييد الكامل غير المشروط مهما فعلت .

وربما كان أهم من هذا كله تلك الحقائق الجديدة التي أتت بها حرب أكتوبر إلى العالم وأولها أن العرب ليسوا جنة هامة بل قوة قادرة على القتال وهزيمة إسرائيل فعلاً (ولعل النداء - نداء «أنقذوا إسرائيل» الذي صدر في اليوم الرابع للقتال أكبر برهان على هذا) وثانيها أن العرب قد استخدموا سلاح البترول - عصبة المدنية في الغرب - لأول مرة وبكفاءة عالية .

(وهنا لابد أن أذكر الشعب الأمريكي أنه بمجرد أن شعرنا أن خطر البترول قد بدأ يضر بالمواطن الأمريكي رفعناه فوراً لأن الهدف لم يكن عقاب المواطن الأمريكي أو العربي بل التنبيه بأن الاختيار الأعظم لإسرائيل له ثمن . . فللغرب مصالح مثلما لنا مصالح ولنا قضية وينبغي أن يعود الغرب إلى رشده ويتبين أين مصالحه ومصلحتنا) .

وهكذا - بالنسبة للمبادرة - كانت هذه الحقائق مجتمعة تشكل البؤرة التي تجمعت عندها خيوط تفكيرى بعد أن تلقيت رسالة كارتر .

وفي نفس الوقت استقبلت مبعوثاً من الرئيس حافظ الأسد فوجده ما يزال يردد نفس العبارات التي سادت العالم العربى سنين طويلة والتي تفتتح عن العقيد التي تحكم موقف الجانبيين . قال إن إسرائيل لا تريد التوصل إلى حل وإنما تلعب على الوقت (وهذا صحيح) وقال إن الولايات المتحدة لا تريد حل المشكلة وحتى لو أرادت فإنها لن تستطيع . وهنا أبدت اختلافى مع هذا الرأى وقلت للمندوب السورى إن الرئيس كارتر يريد الحل ويستطيع تحقيقه واستشهدت على ذلك بواقعة فض الاشتباك الثانى عندما كان رئيس الولايات المتحدة معيماً وغير منتخب وكانت أمريكا ما تزال تعاني من فضيحة ووترجيت . وقد بدأت أيضاً تدخل دوامة الانتخابات القادمة - أى أن الإدارة الأمريكية كانت في أضعف حالاتها ومع ذلك استطاعت أن تحقق فض الاشتباك الثانى لأن الرئيس فورد كان لديه العزم والتصميم . فإذا كان هذا هو الموقف بالنسبة للرئيس فورد فما بالك بالرئيس كارتر ؟

استمر تفكيرى في الموقف وبدأت الأفكار تأخذ صورة أكثر تجسداً ووضوحاً . فإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور في أعماق ذاتى داخل الرزازة ٥٤ وإيماني بأنه لا يمكن إحداث التغيير في عالم الواقع إلا إذا استطاع الإنسان إحداث تغيير في عالم أفكاره وجدت أن مسئوليتى تجاه شعبى - تلك المسؤولية أو الأمانة التي أحملها بالنسبة لجيلنا وبالنسبة للأجيال المقبلة تفرض على أن أقوم بما ينبغي أن أقوم به دون اعتبار لكرسى الحكم .

لابد أن أودى واجبي كما ينبغي وإذا كان في إمكانى أن أجنب أجيالنا المقبلة الصورة التي ورثناها - إذا كنت أستطيع ذلك ثم تقاعست عنه فساكون قد أخطأت أمام نفسى وأمام الله الذى سوف يحاسبنى على كل ما أفعل . .

انتهت هذه المرحلة من تفكيرى قبل أن أقوم بالمبادرة بشهرين - بعد أن تلست رسالة كارتر وقبل أن أقوم بزيارتي إلى كل من رومانيا وإيران والسعودية .

وعندما وصلت إلى رومانيا تحدثت مع شاويسكو طويلاً فأخبرني عن اجتماع كان قد عقده مع مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل واستمر ثماني ساعات (ساعتين ضمن الوفود الرسمية وست ساعات بينهما على انفراد) . سألت شاويسكو عن انطباعاته فقال لي : -
- إن بيجين يريد التوصل إلى حل .

قلت له :

- كل ما يشغلني في هذا الموضوع هو هل إسرائيل تريد السلام حقاً أم لا ؟ .. أنا عن نفسي أريد السلام وقد أثبت هذا بما لا يدع مجالاً للشك عند أحد . لكن هل إسرائيل اليوم - وخاصة بيجين زعيم كتلة ليكود المتعصبة - تريد السلام ؟ هل بيجين الذي يسلك هذا النهج المتطرف رجل يريد السلام ؟
فقال لي :

- دعني أقرر لك إنه بالقطع يريد السلام ..

كان شاويسكو بالغ الثقة وأنا أثق في حكمه . وإلى جانب هذا فهو على صلة طيبة بالإسرائيليين لم تنقطع يوماً ما . ولذلك فحينما أكد لي أن بيجين يريد السلام وأنه « رجل قوى » كان ذلك بمثابة التأكيد على ما شعرت به أولاً من الحاجة الملحة إلى التغيير . . . والتغيير من الجانبين . ولذلك عندما ركبت الطائرة في طريقى إلى إيران - وبالذات عندما مرت الطائرة فوق تركيا - وجدت ملامح المبادرة تبرز بوضوح أمامي . . . كان معي في الطائرة وزير الخارجية فقط الذى لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال . . . مسكين . . . قلت له : إننى أتصور دعوة الخمسة الكبار كارتر وبريخنيف وديستان وكالاهان وهواكوفينج إلى اجتماع في القدس . . . في الكنيسة . . . لماذا ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا ينبغي أن نضغط مرحلتين في مرحلة واحدة وبأنه إذا كان لمؤتمر جنيف أن ينجح فلا بد من التحضير له تحضيراً كاملاً . . . وقد

حاولنا التحضير له من قبل عن طريق لجنة العمل التى اقترحتها والتي تقدم بها فانس وزير الخارجية الأمريكية ولم تلق أى استجابة نتيجة لنفس الموقف الذى صاد بين العرب والإسرائيليين - نفس الشكوك ونفس الحذر . . . ونفس الدائرة المفرغة . . . لا بد إذن من تحضير يتخذ صورة أخرى . وقد تصورت أنه من الأفضل أن أدعو الخمسة الكبار - أصحاب الفتوى في مجلس الأمن - إلى اجتماع في القدس وأن أدعو معهم الأطراف المعنية في العالم العربى . أى دول المواجهة - سوريا والأردن ولبنان والفلسطينيين ومصر - بحيث يعلم بيجين أننا قد عقدنا العزم على التحضير بصورة جادة لمؤتمر جنيف وأننا بصدد إعداد ورقة عمل تتحدد فيها الموضوعات الرئيسية (Headlines) حتى نبدأ مؤتمر جنيف بنجاح تام .

أما بالنسبة للتوقيت فقد فكرت أن تكون الزيارة مناسبة لي كى أصلى العيد مثلاً (أو الجمعة) في المسجد الأقصى ثم أزور كنيسة القيامة وهما يمثلان لنا مسلمين ومسيحيين قيمة هامة بل وأساسية . . . فنقوم معاً بزيارة لهذه الأماكن المقدسة - أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وكذلك هواكوفينج الذى قال ماوتسى تونج عنه لحسن مبارك إنه رجل ممتاز وقال له وهو على فراش موته : الراجل ده كويس جداً وأنا بازكيه لكم وللدنيا كلها . (وكانت هذه آخر وصية له) - أما بريخنيف فلم أكن واثقاً أنه سيقبل رغم أننى أقول وأسجل هنا أنه الوحيد الذى يتمتع بعقلية سياسية في القيادة السوفيتية ولذلك لم أختلف معه مطلقاً . وإنما كان الخلاف دائماً مع زملائه الآخرين والموظفين .

كانت هذه هي الصورة الأولى لمبادرتي - كنت واثقاً من ترحيب أصدقائى كارتر وديستان وكالاهان وهواكوفينج وكان تصورى أن بريخنيف لن يجد مفرأ من القبول إزاء ترحيب هؤلاء . ومن ثم يمكننا أن نعقد اجتماعاً نحن الأطراف المعنية في الشرق الأوسط للتحضير لمؤتمر جنيف حتى نجعل إسرائيل تعلم - في القدس نفسها - أنه لا فكاك لها من العتصرين الأساسيين في التسوية وهما الانسحاب من الأرض العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وقيام دولة فلسطين كحل للمشكلة الفلسطينية التى هي لب القضية .

أكملت صورة هذه المبادرة في ذهني ومضيت في رحلتي فزرت إيران والعمودية ولكنني لم أخبر أحداً بها . وذلك حتى لا أؤرط أحداً من أصدقائي فيها . لقد أردت أن أتحمّل مسئوليتها بالكامل . وعندما عدت إلى القاهرة بدأت أحس أن صلاة العيد أفضل في النفس من صلاة الجمعة وربما كان العيد مناسبة رائعة للقاء أهلنا في الأرض المحتلة . .

كانت المشكلة أن الوقت ضيق إذ كان بيننا وبين العيد أيام معدودة ولم يكن من الممكن ترتيب زيارة الخمسة الكبار ومعرفة مدى ملاءمة مواعيدهم في نطاق هذا الوقت الضيق .

وهكذا تغيرت صورة المبادرة في ذهني وبدأت تأخذ شكل الزيارة التي أقوم بها شخصياً لأصلي العيد في المسجد الأقصى تحفيظاً لما قلته من أنني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم لتحقيق السلام . لقد قلت إنني مستعد أن أذهب إلى آخر العالم في سبيل السلام فكيف أستثنى إسرائيل ؟ أنا أعني ما أقول دائماً وأتحمّل مسؤولية الكنتيسة . . ومن ثم فقد قررت أن أذهب إلى الكنيست مثل الشعب هناك لأضع أمامهم حقائق الموقف كاملة وأضع على عاتقهم مسؤولية الاختيار والعمل إذا كانوا يريدون حقاً العيش في سلام في هذه المنطقة .

قلت هذه الصورة المعدلة للمبادرة وتبلورت تماماً في ذهني وقررت أن أعلنها في خطبة افتتاح الدورة الجديدة لمجلس الشعب . وفعلت أعلنت أنني مستعد للذهاب إلى آخر العالم بما في ذلك إسرائيل إذا كان من شأن ذلك أن يجتنبنا جرح (ناهيك عن قتل) جندي أو ضابط واحد . .

أعلنت أنني أعني ما أقوله تماماً وأني على استعداد للذهاب إلى الكنيست إذا كان هذا سيحقق أهدافنا أمام الجميع وكان جميع الوزراء حاضرين ومعهم باس عرفت . كان رد الفعل المباشر مضحكاً إذ تصور البعض أنها زلة لسان ولم يعلموا أن وراءها تفكيراً طويلاً عميقاً . . فما زال البعض يتصور كما هي العادة أن يقول السامعي كلاماً لا يعنيه . . وهذا لا يمكن أن أفعله .

وقد حدث قبل أن أגיע إلى مجلس الشعب لإلقاء خطابي أن اتصل بي الرئيس حافظ الأسد ليذكرني بالوعيد الذي كنت قد أعطيته إياه بأن أزوره في الصيف ونجتمتع في اللاذقية . وهنا قلت له إنني سأاتي على النور . . وفعلت . . سافرت إلى سوريا واجتمعت مع الرئيس الأسد الذي سألتني : -

- هل تعني ما قلته في خطابك بالنسبة لزيارة القدس ؟ فأجبت :

- نعم . . أنا لا أقول شيئاً لا أعنيه . . فتساءل :

- ولكن كيف يتم ذلك ؟

واستمرت مناقشتنا أربع ساعات كاملة قلت له بعدها :

- اسمع يا حافظ . . لو ثبت أن هذه آخر مهمة أقوم بها كرئيس جمهورية فسوف أقوم بها وأعود لأقدم استقالي إلى مجلس الشعب في مصر كما ينص الدستور . أما أنا فمقتنع مائة في المائة بإتمام هذه المبادرة .

انفصلنا بعد هذه المناقشة الطويلة التي لم يقنعني فيها ولم أقنعه كما أعلنت ذلك في مؤتمر صحفي لم يحضره الرئيس الأسد ثم عدت مباشرة إلى الإسكندرية حيث جاهدني السفير الأمريكي حاملاً الدعوة الرسمية لي من بيجين . كان ذلك يوم الخميس فقبلتها على الفور وحددت يوم السبت موعداً لسفري وقمت بإعداد الخطاب الذي سألقيه .

وهنا أحب أن يعرف الناس أن وزير خارجيتي خاف من شعبه . . . فعندما كنا نستعد للسفر إلى سوريا اعتلر كتابياً عن مصاحبتني بسبب المرض فقلت لا بأس . . يمكنه أن يصاحبتني إلى إسرائيل .

ولكن نائب رئيس الجمهورية شرح لي الأمر بعد ذلك وهو أن الوزير معترض على المبادرة كلها من أساسها . وإزاء هذا قلت له إنني لا أكلف أحداً بأن يفعل شيئاً غير مقتنع به . ثم قلت استقالته .

١٥

وصلت إسرائيل في أقل من أربعين دقيقة استغرقها رحلتي الطائرة من مطار أبو صوير في القناة إلى مطار اللد . لا أحد يصدق والذهول يسود . بمجرد أن خطوت خارج الطائرة وجدته وجهاً لوجه أمام جولدا مائير التي كانت في أمريكا ثم قطعت رحلتي وعادت . بادلها السلام . ثم رأيت ديان .

ديان أنا أعرفه لأنه كان خصي في معركة ١٩٧٣ . ثم قابلت أبا إيبان وبعده
لاريك شارون الجنرال الذي كان لدينا في الثغرة - قلت له إذا أتيت مرة أخرى
إلى الضفة الغربية للقناة فيكون السجن في انتظارك ! فقال : أبداً . .
أنا حالياً وزير الزراعة . . .

ثم رأيت بعد ذلك مورديحاي جور رئيس الأركان الحالي الذي كان قد
حضرهم قبل زيارتي بأنني أقوم بخدعة وأن الهدف من الزيارة هو تغطية هجوم
وشيك . ولذلك حينما رأيته قلت له إنني لا أمارس الخداع الأخلاقي مطلقاً . .
الخداع الاستراتيجي والخداع التكتيكي مقبول ولكنني لا يمكن أن أقبل الخداع
الأخلاقي . .

بعد ذلك ركب السيارة مع رئيس إسرائيل كاتزير وهو أستاذ جامعي
تمتاز . وصلت إلى القدس الإسرائيلية ونزلت في فندق الملك داود .
في الصباح خرجت لصلاة العيد . دخلت القدس العربية لثاني مرة بعد ٢٢ سنة
كاملة (كانت المرة الأولى عندما كنت وزير دولة وسكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامي) .
ونبين لي على الفور أن المسجد الأقصى قد ساءت حاله إذ ما تزال آثار الحريق
الذي اجتاحه عام ١٩٦٩ قائمة . . وجدت أن منبر صلاح الدين قد احترق تماماً
وأن عملية إصلاحه تسير بصورة بالغة البطء ولهذا أمرت أن يتم بناء المنبر من
جديد على أيدي المصريين الذين بنوا منبر صلاح الدين وبعدها عدت إلى الفندق .

بعد الظهر التقيت إلي الكنيست وألقيت خطابي ثم قام بييجين بإلقاء
خطاب مضاد وتلاه زعيم المعارضة بيريز وانتهت جلسة الكنيست . رغم التعب
والإرهاق الذي كابده ذلك اليوم فقد أحسست بهادة غامرة لأن ابنتي كما علمت
كانت قد ورفت بمولود (بنت) في الثامنة صباحاً وأنا أصلي في المسجد الأقصى .
لم يكن سبب الإرهاق هو المشاغل الكثيرة أو المقابلات ولو أن هذا أمر مسلم
به . ولكن كان السبب الحقيقي هو التركيز الذهني العميق إلى أبعد الحدود والذي
يجتهد الإنسان بنفسه بالتعب . كان ذهني بالغ التركيز لسبب بسيط وهو أنني
كنت أسمع صوتاً مبهماً مبهمة حقاً ومصدقاً . ورغم أنني من تاييد شعبي
في ذلك الوقت مستمعاً إلى أي رقص من جانب أن أتوجه إلى مجلس الشعب
في القدس وأقدم استقالي .

ولكن ثقتي لم تغيب . فقد خرج خمسة ملايين مواطن من بين الملايين
الثمانية الذين يعيشون في القاهرة لاستقبال عند العودة . كانت مظاهرة تأييد
لم يسبق لها مثيل . كان الجميع في قلق على وكانوا يرون أنها مجازفة مني أكثر
منها شجاعة . ولهذا كان الجميع يلهمون بالحمد والشكر لله وهم لا يكادون
يصدقون ولا يعرفون كيف يعبرون عن فرحتهم القاهرة . كان إحساسي
بهذا هو قمة السعادة وبأنني قد كلفت تكليفاً لا فكاك منه بأن أكمل هذا العمل
الذي بدأته . . كان تكليفاً بأن أخدم شعبي وأهلي حتى نحقق سوياً الهدف من
المبادرة .

ولابد أن أسجل هنا قبل أن أنتقل إلى النتيجة أن الرئيس جعفر نمري
زارني فور عودتي وأبدى تأييده الكامل تماماً مثلما زارني في أعقاب ثورة
التصحيح يوم الجمعة ١٤ مايو ١٩٧١ . . إنه موقف لا يسعني إلا أن أذكره له
ولشعب السودان الشقيق .

١٦

ماذا كانت النتيجة ؟ ماذا كانت حساباتي ؟ وهل تحققت ؟

كنت قد قدرت أن تؤدي رحلتي إلى كسر الدائرة المفرغة - الحلقة
التي ظللنا ندور فيها سنين وسنين . . وأنا أضع دائماً لكل شيء حساباته الدقيقة
(تماماً مثلما فعلت في حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقد صدق ما حبت له . إذ أنه
مثلما استقبلني شعبي هذا الاستقبال الرائع المذهل كانت استجابة الشعب
والناس في إسرائيل - النساء والأطفال والشيوخ - استجابة مذهلة . حتى
القوات الخاصة وقوات المظلات الإسرائيلية التي كلفت بحراستي كانت ترقص
فرحاً ونحية لي رغم أنني حاربهم في ١٩٧٣ وألحقت بهم خسائر لم يروا لها مثيلاً
طوال ٣٠ عاماً . . لماذا ؟

لأنهم يحترمون المقاتل ولأنهم يحترمون أكثر ذلك الإنسان الذي يستطيع بعد
النصر أن يقول لهم فلتكن حرب أكتوبر آخر الحروب ولنجلس معاً مثل
كل المتحضرين حول المنضدة لتناقش ما تريدونه وهو الأمن بدلاً من اللجوء
إلى القوة .

أما إذا كان الأمر أمر فرض إرادة طرف على طرف آخر فلا بد أن أقول إنني مثلما أعلنت عن استعدادي للذهاب إلى آخر العالم في سبيل السلام فأنا أعرب عن عزمي على أن أحارب إلى آخر العالم في سبيل هذا الهدف .

لقد فقدت أختي الأصغر الذي كان بمثابة ابن لي بعد خمس دقائق من بدء معركة أكتوبر ١٩٧٣ ولقد رأيت المصايين في تلك الحرب - شباناً في عمر الزهور كتب عليهم أن يقضوا بقية عمرهم مقيدون إلى كراسي ذات عجلات . ولقد رأيت حالات مماثلة في إسرائيل وتأملت لها ألمي لكل من نالت منه ويلات الحروب . . أيا كان . . ولعل هذه الروح هي التي ساعدتنا على تأكيد المدفين اللذين تحددا في زيارتي وهما أولاً ألا تقمع حروب بعد حرب أكتوبر وثانياً أن نحقق الأمن للطرفين . .

ولابد في النهاية أن أسجل أن الشعب المصري قد استعاد كرامته وثقته بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ مثلما استعادت قواتنا المسلحة كرامتها وثقتها . . لذلك لم تعد تحر كنا أي عقد - سواء عقد النقص والإنزامية أو عقد التشكك والأحقاد . . وهذا هو الذي جعلنا نلتقي - بعد أن انجلى غبار المعركة - سواء في فض الاشتباك الأول أو الثاني أو عندما قابلت جولدا مائير لدى وصولي إلى إسرائيل .

لم يكن بيننا - بعد أن انتهى القتال - إلا الاحترام - وهذا هو ما يفهمه شعبنا المتحضر . . وهذا هو ما جعل خمسة ملايين مواطن يخرجون لتحيي وجعل القوات المسلحة تحييي كما لم تحيي إنساناً من قبل .

إن جذورنا الحضارية قائمة . . عمرها أكثر من سبعة آلاف عام وما تزال حية وناضجة . . لم تهن أو تضعف أبداً . . وإذا اندهش البعض فذلك لأنهم لا يستطيعون فهم هذه الحقيقة وإدراك طبيعة المصري الأصيل الذي يبني للحضارة اليوم مثلما بناها على ضفاف النيل منذ آلاف السنين في ظل الحرية والسلام . .

عدت من إسرائيل بعد أن اتفقت هناك على شيتين أساسيين :

أولاً : أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب . .
وثانياً : أن تتناقش حول منفصلة المفاوضات في موضوع الأمن لهم ولنا . .

وهكذا اتجهت إلى مجلس الشعب ورويت له ما حدث وقد وافق بالإجماع تقريباً (إذ لم يعترض إلا عضوان أو ثلاثة من بين الـ ٣٦٠ عضواً) . . مما زادني سعادة ومن ثم فكرت في أن أعود إلى القناة كى أنال قطاً من الراحة . ولكنني ما لبثت أن عدلت عن هذا وقررت الدعوة إلى مؤتمر القاهرة حتى لا تضع قوة الدفع .
وفعلاً أرسلت الدعوات إلى جميع الأطراف بغية تمهيد الطريق إلى جنيف . لم تلتق إجابات إلا من أمريكا وسكرتير عام الأمم المتحدة وإسرائيل . ولم يرسل باقي الأطراف إجاباتهم ولكنني مصمم على المضي في مبادرة السلام إلى النهاية .

ماذا سيحدث عندما يصدر هذا الكتاب بعد شهر ؟ لا أدري . ولكن لذي أدريه هو أنني أولاً سأظل متمسكاً بمبادرة السلام التي قمت بها . .
وثانياً : هو أنني لن أضيع فرصة على الإطلاق لكي نحل مشكلة السلام في الشرق الأوسط حلاً جذرياً وحضارياً . وهنا أريد أن أردد ما قلته أمام الكنيست الإسرائيلي من أنني لا أبغى اتفاقاً ثانياً من أجل سيناء (فهذا لا يحل المشكلة) ولكن سلاماً قائماً على العدل وسوف أعمل في الفترة المقبلة - إلى أن يصدر هذا الكتاب وبعده - على إقامة سلام عادل في المنطقة بإعادة الأرض العربية المحتلة عام ١٩٦٧ وحل المشكلة الفلسطينية بإقامة دولة أو - كما قال كارتر ممي - وطن قومي فلسطيني .

بطبيعة الحال لابد من ترك التفاصيل الخاصة بكل دولة عربية أو جانب عربي لهم (سيناء مع مصر والجولان مع سوريا والضفة الغربية مع الفلسطينيين) ولكنني سأستمر في المناقشة إلى النهاية - حتى ولو عارضني العالم كله .

هذهي الأساسي إذن هو إنهاء المشكلة بحل المشكلة الفلسطينية والجلاء عن الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ - وسيكون رائدي دائماً أنني أريد السلام القائم على العدل وأنا مستعد لأن أبذل في سبيل ذلك كل شيء مهما طال الزمن .

فأبقت هذه قصة الصراع العربي الإسرائيلي أو قصة تحرير مصر من الاحتلال
البريطاني أو قصة منجزات وأخطاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . . ربما كانت ذلك
كافة وأكثر . . ولكنها في المقام الأول قصة البحث عن الذات - ذاتي وذات
مصر - ذلك الكيان الواحد الذي أشرف في نفسه منذ الطفولة عندما توحدت
ذاتي مع ذاتي بملأى أرضاً وشعباً .

هل أصبح البحث لا هل استطعت تحقيق صورة تلك الذات التي وضعتها لنفسها
حتى منذ طفولتي المستمرة ؟ أنزلت للقارئ الحكم على ذلك - فكل ما أستطيع
أن أقوله - وحسب مبلغ علمي - هو هذا :

لم يستوف يومياً مربي المنع التربوية ولم أحاول فقط أن أبنى سماتي على
حبات شهاب الآسرين . فلما أصدرت في كل فسرار ألفه وكل عمل أقوم به عن
الرباط الراسخ بحق الإنسان في الكرامة والحرية والسلام والمساواة .

أما وحديث ذاتي في المرافقة . . وفي الحب . . وفي العمل الذي يرق بحياة
من حولي . . وفي انتمسار الحق على الباطل . . بالتمسار في كل ما من شأنه تحقيق
مروره كمال الذي هو كمال بلاغي .

فأصبح يوماً وراء النطقة إذ اكتشفت في فجر حياتي أن فوق نعيم من
داخل . . من إلهي الخلق والتغير والخلق والجمال .

وأحمد الله أنني لا أختلف اليوم عما كنت منذ سنوات بعيدة : عندما كنت
أشعر مع شروفي الشمس وأخرج إلى الحقول لأكمل مع الآسرين حتى تعود إلى
أرمني الحية . . وأحمل الأشجار الجديدة الثمار مرة أخرى . . .

لأنه البحث بعد . . وأعتقد أنه لن ينشئ يوماً ما . . إذ أنا في كل عمل تتجلى
نعمتي هو أني أبحث في راحة الله وأرسله من وحيي وحلي حادثة .

أما في عالمي وأبعد شأني مربي طولي لأجد أن نقطة حتى أصبح حياة يسودها
الحس والسلام والرحمة والالتفات .

وهذا الله وحده حسنا وشيئ الجميع في كل مكان .

وثائق

الرسالة التي وجهها السيد الرئيس
لبريجينيف في ٣٠ أغسطس ١٩٧٢

الصديق العزيز الرئيس ليونيد بريجنيف
المكرّم الأول للحزب الشيوعي السوفييتي

أكتب اليك شخصياً لنفسي في مخاضك الصديقة التي لمستها
بنفسي خلال لقاءاتنا المتعددة لعلنا نخرج من الدائـرة
المفرقة التي تجتازها العلاقات بين بلدينا والتي أصبحت
تضم بموء الفهم الذي أحس أنه سيتفاهم إذا لم تضع الأمور.

لذلك سيكون رائدي في هذا الخطاب العراقة الثابتة
كانت حتى نكون على علم بوجهة نظرنا كاملة بعيداً عن أي
تحليلات مشبوهة أو مؤثرات متعجلة .

١ - ان تجربتكم في الحرب العالمية الثانية ما زالت
مائلة في أذهاننا ، فلقد رفضت الشعوب السوفيتية
الاحتلال النازي ولم تستطع صبرا على استمراره ، وحاربت
بشجاعة وقدمت كل التضحيات من أجل تحرير الأرض ولم
تبخل بشيء من أجل الحفاظ على كرامتها ، ومن ثم
فليس غريباً أن يكون الشعب العربي في مصر هو
الأخر حريصاً على تحرير أرضه مستعداً لتقديم كل

التضحيات في هذا السبيل مهما بلغت .

ومن هنا في تقديري يجب أن تكون نقطة البدء

الصحيحة .

٢ - من أجل ذلك فأننى أجد أن واجب الحرس على صداقتنا يقتضى أن أبدأ هذه الرسالة من حيث انقطع الحوار بيننا بعد آخر مقابلة في إبريل سنة ١٩٧٢ لكي أدخل إلى طلب الموضوع الذى أدى إلى هذه الوثيقة بيننا لعلنا نستطيع أن نكمل هذا الحوار ونصل إلى جوهر المشكلة ، فإذا استطعنا التفهم لوجهة نظر كل منا نكون بحاجة كل الفواهر الأخرى .

٣ - لعلك توافقتنى "أيها الصديق العزيز على أننى كنت حريصاً أشد الحرس على استمرار صداقتنا ودعمها في جميع المجالات ، ومن ثم كانت زيارتى الأريبع في موسكو في مارس وأكتوبر ١٩٧١ ثم في فبراير وإبريل من العام الحالى ، ولقد كان الموضوع الأساسى في جميع هذه اللقاءات هو بحث مشكلة العدوان الاسرائيلى والخطرات التى يلزم أن نقيمها لتحرير الأرض .

وهنا "أرجو أن تسمح لى أن أذكرك أننى كنت حريصاً في جميع اللقاءات التى تمت مع القيادة المولمبية

برئاستكم على تأكيد مبادئ رئيسيين :

أولهما ... أننا لا نريد أن يحارب معركتنا أحد غير جنسودنا .

ثانيهما ... أننا لا نريد ولا نسمي إلى أن تكون معركتنا

سبباً في مواجهة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لما يحته ذلك من كارت للعالم كله ، وأننى كنت أقول بالحرف الواحد أن من يسمي إلى ذلك مجنون بلا شك .

ولقد كان الرأى الذى اتفقتنا عليه في لقاءاتنا وخاصة في اللقاء الأخير في إبريل سنة ١٩٧٢ هو أن اسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة لن يتحركا لتحقيق حل للمشكلة سواء كان سلمياً أو غير سلمى إلا إذا أحست اسرائيل بأن قوتنا العسكرية أصبحت قادرة على أن تتحدى التفوق الحسكرى الاسرائيلى وعلد ذلك فقط نتجد اسرائيل وابتنا الولايات المتحدة أن مطلبها الوصول إلى حل للمشكلة .

وفي مناقشاتنا المتكررة كنت أذكر أن يكون لدينا سلاح الردع ، يجعل العدو يشرد في ضرب عمق اراضينا كما فعل في الماضي عندما يعلم أننا سنكون قادرين

على الوصول الى عمق اراضيه .

وكان واضحا ولايزال اننا بدون توفر سلاح
الردع فلن نكون قادرين على التحرك عسكريا وبالتالي
فلا حاجة تدعو اسرائيل الى ان تغير من موقفها
المتخذ بالنسبة للوصول الى أية تسوية للمشكلة .

• من هنا كانت رسالتى لك مع المارشال جريتشكو الذى
زارنا فى مايو سنة ١٩٧٢ قبل اجتماع موسكو بأيام ،
وقد علمت من جانبى على أن تنجح زيارته على
أروع صورة ، ووافقت على اصدار البيان الذى أتى به
من موسكو ، وكان هذا البيان ينص على ان الطيارين
المصريين قد استخدموا الطائرات الأسرع من الصوت
ثلاث مرات (مبع ٢٣) وانقاذات مقاتلة جديدة قد
استخدمت فى مصر .

وكان هذا كله غير صحيح . .

ولكننى وافقت على اصدار مصادر لكى تنجح
الزيارة كما قلت ، ولأننى كنت أعرف أهداف الزيارة
السياسية خاصة قبل اجتماع موسكو بأيام ، وأردت كعدينى
أن يكون حديثكم فى موسكو من موقع القوة .

ولكننى فى نفس الوقت حملت المارشال جريتشكو
رسالة محددة لك عما يجب ان يكون عليه تصرفنا بعد
اجتماع موسكو ، لان التكهين بنتائج اجتماع موسكو
بالنسبة لمشكلتنا لم يكن لغزا ولا معضلة ، وحددت
٣١ أكتوبر ١٩٧٢ نهاية لما يجب ان ننجزه فى هذه
الفترة ، وهى فترة تكفى بالكاد لكى تكمل استعدادنا
لجولة مابعد الانتخابات الامريكية ، وكما أبلغت
المارشال جريتشكو فأننا فى حاجة الى كل ساعة وكل
دقيقة الى ذلك التاريخ حتى ننجز ما هو ضرورى لدخول
الجولة الجديدة من أرض صلبة .

حين أبلغنى سفيركم برسالتكم عن نتيجة اجتماع موسكو
يوم ٦ يونيو ، أى بعد الاجتماع بحوالى العشرة أيام ،
لم يكن هذا جديدا ولا مستغربا لنا ، وأرسلت لك
فى نفس اليوم رسالة محددة فى نقاط سبع أكدت فيها
رسالتى لك مع المارشال جريتشكو وبمقتضاها
أن لا نضيع الوقت الى ٣١ أكتوبر فكل دقيقة لها ثمن .

وفى هذه الرسالة تجدون أننى طلبت رسميا حل
مشكلة القيادة والسيطرة فورا ، فلا يحتمل ان تكون
هناك وحدات سوفيتية فى مصر ولا تخضع للقيادة المصرية .

٧ - بعد شهر كامل وبعد الحاج منا مرة عن طريق رئيس الوزراء ومرة عن طريق وزير الخارجية ، جاءت رسالتك لى التى تسلمتها لى ٨ يوليو ، علما بأننى كما أخطرتك من قبل كنت أحسب اليوم والساعة والدقيقة . وكانت رسالة مخيبة للامال لانها تجاهلت بالكامل كل ما سبق أن ارسلته لك سواء مع المارشال جريتشكو لوفى ٦ يونيو ، ولكنها أكدت لى حقيقة هي أن هذا الاطوب فى التعامل والتجاهل لوضعنا وممركتنا يتبع من عتلية عانينا منها طوال السنوات الخمس بعد العدوان ، وحاولت أنا مرارا طوال سنة ونصف أن أنبه اليها ولكن بدون فائدة .

ومن أجل هذا رفضت هذه الرسالة ورفضت أيضا الاطوبيا ، وكان لابد لنا من وقف كآداءنا نحدد فيها مبادئنا بصرامة .

وأود أيتها السديت ان أخشى لك ان يهاجنى نفسى تلك الفترة . لأن من هناك كديتى ان تحرق مبادئنا قراراتنا قراراتى .

الازمة متجددة ولا توجد طرق ممانعة للشحرك .

الادعاء الأمريكى يتعاقد حتى بعد اجتماع موسكو بقدرة الولايات المتحدة وحدها ووحدها فقط على الحل... إسرائيل تزداد عريضة فى المنطقة العربية بلا رادع ..

البيان الصادر عن مؤتمر موسكو يقول بالاشترخاء المسمى فى المنطقة بعد حل المشكلة ..

رسالتكم فى ٨ يوليو تتجاهل بالكامل ما اتفقنا عليه وما يتحتم علينا ان نتخذه من اجراءات تؤمن أنها ضرورية لتمكثنا من التحرك عسكريا اذا لزم الامر بعد الانتخابات الأمريكية ..

امريكا تعطى اسرائيل بلا حساب ، وتجدد لهم سلاح الطيران بالكامل بخلاف الاسلحة المتطورة الأخرى.

موقفكم بعد الرسالة يوضح ان الحظر الجزئى الذى فرضتموه علينا بالنسبة لاسلحة الردع منذ خمس سنوات امتد فى هذه الفترة الحرجة الى ضرورات اساسية كتبت لك عنها فى رسالتى بالتحديد وتجاهلتموها بالكامل .

من كل هذه الاعتبارات كان قرارى بانها مهمة

المستشارين كوقفة تنهى بها مرحلة لابد ان تنتهى لكي
تبدأ مرحلة جديدة بفهم جديد وتقدير جديد وتحديد
لمواقفنا .

دعنى أجبها المديق ان أضرب لك امثلة مما يدور داخل
قواتنا المسلحة وبالتالي بين الشعب ، فليست
القوات المسلحة الا أبناءه ، وكان يجب على
المستشارين ان يبلغوكم بها قبل ان يتفاجئ الامر .

١ - فى البحرية مثلاً :

ظل قائد البحرية طوال أربع سنوات يطالب بجهاز
جديد لكشف الغوامض لأن الجهاز السوفيتى الذى
لدينا مداه نصف كيلو متر فقط ، وكان الرد
والإزال الى يومنا هذا انه لا يوجد غير هذا
فى الاتحاد السوفيتى فى الوقت الذى يمر
فيه كل ضباط البحرية عندنا ان منكم موزونة
جهاز يكشف الغوامض الى الآن (Horizon ..)
وهو مالى الغرب أيضا ، وليس هذا مرا فنعن
لنا دولة متخلفة ، وانما نحن نقرأ ما عند
الشرق والغرب ، ونتابع العالم كله ، والادى من
ذلك ان ملن اسطولكم تعيش بيننا .

فى اسواق الغرب معروض جهاز الكشف الى الآن ،
وليس سرا ، ومعروض لها . أجهزة لمسافات على الأقل
عشرين مرة اكثر مما عندنا وليس سرا ايها .

فما ذا يكون تعليق ضباط البحرية ؟ ..

ب - فى الطيران مثلاً :

كل ضباط الطيران - وهم خريجو كلياتكم - يعلمون
ان لديكم طائرات بنفوخة مثل (M 500) التى
كانت عندنا ، ولكن كل شيء عندكم سر ولا يقترب
منه أحد .

طائرات الموارخ عندنا سرعتها ١٠٠٠ كم فى الساعة
نصف سرعة طائرة الركاب التى فى الخارج .
والبوينج ، والماروخ ينطلق منها بسرعة أقل
من سرعة الصوت ويظل معززا أكثر من ٦ دقائق
للاملحة المضادة ، فى الوقت الذى تحمل فيه
الفانتوم ذات المرتين وربع سرعة الصوت
الماروخ الأمريكى شرايك وينطلق بأسرع من الصوت
طبعا ، وقد نيهتكم فى حينه عن طريق مقبركم وقبل
ان يطلق علينا عشرة موارخ منه ..

لماذا يكون تعليق ضباط الطيران ؟ ..

ج - في الجيش :

أرسلتم لنا مدفع ١٨٠ مم نظير المدفع ١٧٠ مم الذي زودت أمريكا إسرائيل به ، ولكن المقارنة رهيبة .

المدفع الأمريكي محمل على دبابة وسريع الحركة ومعه ادوات ادارة النيران لكي يضرب الى أقصى مدى ... ومدفعكم ثابت يحتاج الى عشرين فرد لتحريكه وليس معه ادوات ادارة النيران لكي يصل الى أقصى مدى فلا يكون هجوميا وهو ما يدخل في الحائر .

أمريكا أرسلت اعداد غير محددة من هذا المدفع الهجومى لاسرائيل ، كما أعلن .

وانتم ارسلتم لنا أربعة مدافع فقط على جبهة طولها ١٦٠ كم .

ضباطنا يعرفون ان لديكم ما هو أقوى من المدفع الأمريكي ومحمل ايضا ، ولكنه كالعادة سـرر ، ومشتاروكم يقولون ليس لدينا شيء .

فماذا يكون تعليق ضباط المدفعية ؟ .

وفى المشاء يعرف كل ضابط وجندى ان اسلحة تفتح الشخرات تماوى حياته عند بدء العمليات ، ومع ذلك فما لدينا منها هو اسلحة الحـرب الثانية وكل ضباطنا وهم متعلمون في فـرونتـر يعرفون ان لديكم ولدى الغرب - وليس سـرر - موارد تفتح الشخرات ، والحقا سنتين في طلبها الى اليوم ، والرد كما هو ، لا يوجد في الاتحاد السوفييتى .

هذه عينات بسيطة من مئات الامثلة ، أستطيع أن اسوقها لك ، يعرفها كل ضابط وجندى في فـرونتـر القوات المسلحة وانتقلت الى الشعب .

لهل هذا هو اسلوب تعاون الصديق ؟ .

ان جهازنا الدفاعى ينقصه الكثير من التفاسـيل ورغم أننا نقول للناس وللعالم يمكن ذلك ، وهذا هو ما أريد ان نقف عنده لكي نشاقش العقلية التى وراء كل هذا .

انكم تعاملوننا وكأننا دولة مختلفة لانعرف شيئا في الوقت الذى تلقى فيه ضباطنا العلم في مدارسكم كضباطكم تماما ، علاوة على أننا نشايع

العالم شرقه وغربه في كل شيء وهو ليس سرا لان التمليح
مكتوب في كتب مندولة في العالم كله ، وعندنا
يسأل المستشارون السوفييت كانوا يجيبون اما بالصمت
او بأنه ليس لدى الاتحاد السوفييتي .

ونحن نعلم ونعرفنا يعلم ان لدى الاتحاد السوفييتي
كل شيء ...

١ - وأما حرك ايها الصديق اننى استشعر الان خطورة
شديدة على مستقبل فلاننا .. لخطر ما فيها انها
مترك لدى شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتي .

فلنكم الحق كل الحق بعد مدور قراراتى بـ
تتخذوا الموقف الذى ترونه مناسباً لمصالحكم .
ولكننى لا أعتقد ابدا ان من مصلحتكم ان تتركوا لدى
شعبنا مرارة من الاتحاد السوفييتي بعد هذا الشوط
الطويل من العداقة والبناء الذى أتمناه سوا ..

ان قرار سحب الطائرات (٥٥٠) بمعد ان
مدر بيان سوفييتى مصرى أثناء زيارة المارشال جريتشكو،
بان الخيارين المحربين استخدموها في نظرى هو من
اسوأ القرارات التى تحبب شعبنا وتواننا المسلحة .
بالمعاصرة .

وقرار سحب اجهزة التخوين التى كان يعمل عليها
افراد سوفييت بحجة انها سرا او أننا لانتطيل
تشغيلها او أى حجة اخرى هو ايضا في نظرى من
اسوأ القرارات التى تحبب العداقة السوفيتية
المصرية في الصميم .

ان معنى هذه القرارات هو فرض الشروط من
جانب الاتحاد السوفييتي ...

ولقد كسرنا احتكار السلاح في العالم سوا
منذ سنة ١٩٥٥ ...
وأمر آخر أخطر ..

اننا في معركة نواجه عدوا مزودا بكل شيء ...
فماذا يكون استنتاج المواطن العادى ..

اننى اترك لك تقدير كل ذلك ، ولكننى أكون
منصرا في حق صداقتنا اذا لم نذكر لك كل هذا
يمثل هذه الصراحة .

١٠ - امرا اخيرا أريد ان يكون واضحا امامك ..
لقد سبق لى ان حددت بتاريخ ٢١ اكتوبر في رسالتى
لك مع المارشال جريتشكو وفي رسالتى لك مع سفيركم
في ٦ يونيو ، واخطركم ايضا به رئيس الوزراء نصر
زيارته الاخيرة لكم .

لقد كان هدفنا من زيارة رئيس الوزراء لكم هو
اصدار بيان مشترك يوفر علينا كل هذا الدس والتشفي،
ولكنكم رافتم ..

وبعني أن اتول لك بكل صدق وصراحة اننى متمسك
بهذا الموعد ٣١ اكتوبر كتاريخ فاصل بيننا ..

وأرجوكم مخلصا وبأخوة ان تدرك اننى لأوجه
انذارا كما يحلو للبعض ان يفسر فنحن لأنوجه لاحد
انذارات ، لاننا لانتقبل ان توجه الينا من احدهم
انذارات .

ولكن هذا التاريخ مبنى على عاملين احدهما
سياسي والاخر عسكري ..

اما العامل السياسي فهو اننا حسب اتفاقتنا
فى آخر لقاء وفى رسائل لكم منجد انفسنا بعد
النتائج الرئاسية الأمريكية فى وضع ستواجه فيه
تحركا امريكيا واسرائيليا يهدف الى فرض حل لصالح
اسرائيل ومالم نكن على أرض فلسطين عسكريا كما
اتفقتا فانتا سندخل الى الحلقة المثيرة مرة أخرى ...
مهمة باربع .. والقرار مجلس الأمن .. واسرائيل لاتحرك
لتقوتها .

اما العامل الثانى وهو العسكري ، فنستطيع
ان تسأل العسكريين عندك ماذا سيكون عليه التفوق
الاسرائيلى فى نوفمبر وديسمبر القادمين .

ان اسرائيل ستكون قد استوعبت بالكامل كل
التجديد فى طيرانها بالاعداد الكبيرة من الفانتوم
والسكاى هوك ، وستتح الفجوة بيننا بأثرهما
الان ..

وهكذا يتضح لك ايها الصديق ان لهذا التاريخ
مدلولات سياسية وعسكرية سبق ان اتفقتا عليه .

وبعد ...

اننا فى مصر ننظر حارفين بالجميل لمساعدتكم ،
وليس ادل على ذلك من اننى عندما ما اعلنت قرارات
انهاء مهمة المستشارين السوفيت خرجت فى احاديثى
الى الشعب العربى فى مصر وفى المنطقة كلها على
تأكيد دور الاتحاد السوفيتى فى ممانتنا .

ولكن واجب الامانة يدعونى ان اذكر أن اولوية
أولى فى هذا التعاون الذى نرغبه هى فى تمكيننا
من تحرير اراضينا .

اننا نرغب فى دعم التعاون بيننا الى أقصى مدى ..

وهذا المدى سيحدد المدى الذى يذهب اليه
اصداقنا فى الاتحاد السوفييتى فى مدنا بما يساعدنا
على حل مشكلتنا الاولى والاخيرة وهى تحرير الارض .

لقد كتبت اليك لى اطلب تدخلك شخصيا لثقتي
الكاملة فى مشاركتك ونهيك لقضيتنا وحمايك من اجل
حلها .

ان مشكلة تحرير الارض هى كل شئ فى حياتنا
وسلوكتنا وعلاقاتنا وتمرقاتنا وان الخوف ما أخافه
ان لايقدر البعض هذا الامر حق قدره ، فتحل المزاورة
بدلا من الصداقة .

وبعد ذلك فاذا كنتم ترون فيما أوفحت ما يساعد
على تفهم اكثر لظروفنا ، فان الدكتور عزيز صدقى
رئيس الوزراء على استعداد للسفر فى زيارة خاصة
للإتحاد السوفييتى فى الوقت الذى ترونه مناسباً
للتعميد لتبادلنا مواءماتنا بحث مستفيض لكل
الامر حتى نتمكن علاقاتنا فى المستقبل على قاعدة
طيبة من الثقة والتعاون القائم على المراسمة
المتبادلة لتأمين مصالحنا المشتركة .

أرجو ان تتقبلوا خالص مودتى وتقديرى ،
مع أطيب تمنياتى لكم شخصيا ولزملائكم القادة
السوفييت والشعب السوفييتى المديق .

القاهرة فى ١٩٧٢/٨/٣٠

الرئيس

بسم الله

توجيه صادر الى القائد العام للقوات المسلحة
وزير التربية والتعليم اول احمد اسماعيل على

اولا - عن الوضع العام

١ - لقد مضت حتى الان اكثر من ست سنوات على
احتلال العدو الاسرائيلى لاجزاء من التراب العربى .

٢ - ان اسرائيل مزودة بدعم أمريكى خصوصا فى مجال
امدادات السلاح . . حاولت وحاولت فرض ارادتها
عنها واضاءة أزمة الشرق الاوسط على نحو يهدق
لها سيطرة شبه مطلقة فى المنطقة العربية وليس
امنها ونى سائرهما .

٣ - ان مصر حاولت بكل الوسائل ، ومخذ صدر قرار وفد
الاطلاق الحار من مجلس الامن فى ٨ يونيو ١٩٦٧ أن تجد

(يتبع)

الرئيس

- ٢ -

حالا للآزمة . . وفى هذا السبيل فقد خضعت وسائلها
من قبول قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بحارس
٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الى قبول جهود الطير جوتار بارشيج ،
ثم جهود الدول الاربعة الكبرى ، ثم جهود قامت
بها القوتان الاعظم ، ثم مبادرة تقدم بها وزير
الخارجية الامريكى وليام بوجرد ، حتى تقدمت مباشرة
بمبادرة لدل يكون فيه فتح قناة السويس سادسة
لمراحل انصحاب شامل تطبيقا لقرار مجلس الامن .

ولكن كل هذه الجهود لم تصل الى نتيجة ، ليس
اما فشلت او توقفت . . او حاول اعداؤنا الخروج
بها عن مقاصدها .

٤ - ان مصر قامت بعمليات عسكرية ذات طابع محدود
فى سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٦ و ١٩٧٠ ، كذلك قدمت دعما
كثيرا لثورات المقاومة الفلسطينية لمباشرة عمليات
(يتبع)

قدائية على الخطوط أو داخل الأرض المحتلة .. ولكن هذه العمليات كلها وإن أدت إلى نتائج لها أثرها ناهيا لأسباب متعددة لم تصل إلى منطلها على العدو إلى الحد اللازم .

٥ - أن مصر كانت تدرك طول الوقت أنه سوف يجرى وقت يتعين عليها فيه أن تتحمل مسئولياتها .. وكان أهم ما يجب أن نتمسك به هو أن نؤثر لهذا اليوم كل ما نستطيع .. ولدى حدود طاقتنا .. ومع التزامنا بواجب الدفاع عن التراب والشرف .

٦ - أن الشعب في مصر يحمل بأكثر مما كان يتحدر أحد خصومه وأعدائهم على السواء .. ولقد كانت الأعباء التي تحملها الشعب ، مادية ومعنوية ، أعباء شديدة لا يتحملها إلا شعب يروى من بالنسبة ويخشى من صهيولها .

(ينتج)

٧ - أن حصصات مهمة طرأت على الموقف السياسي المصري ممولا وزادت من احتمالات حقيقته .. ومع جرابه أهمية أزمة الطاقة وأزمة الخبز في العالم لأن الخط العربي في أحوال ملائمة يستطیع أن يكون عاملا له قيمته .

٨ - أن حاشيات الموقف العربي العام سجلت بشكل واضح في أوضاع طليعتها .. فالى جانب ما حصلنا عليه من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية ، وهو كثير ، فقد احييت لنا من مصادر أخرى أنواع من السلاح لم تكن متوفرة لنا .

٩ - أن العدو في شبه جزيرة عالمية يهدد اليهود المصرية الحاجة في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ومؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية الأخير في أديس ابابا ، ومؤتمر الدول غير المنتحزة الذي لقيه في الجزائر .

(ينتج)

الرئيس

- ٥ -

١٠ - ان الموقف الدولي يتغير .. وما زالت هركتنا مستمرة .. وقد نجد انفسنا امام حواجز طويلة الاجل حوافر على حرية هركتنا وعلى حقنا في الاختيار لجميع البدائل .

ثانيا - من استراتيجية العدو ..

ان العدو الاسرائيلي كما نرى انتهج لنه سياسة تقوم على التخويف ، والادعاء بتلوق لا يستطيع العرب حديده .. وهذا هو اساس نظرية الامن الاسرائيلي التي تقوم على الردع الحلف والحيفاس والعكرى .

ان نقطة الاساس في نظرية الامن الاسرائيلي هي الوصول الى اقتناع مصر والامة العربية انه لا شدة من تهديد اسرائيل ، وبالتالي ليس هناك مبرر من الرضوخ لشروطها حتى وان خففت هذه الشروط تنازلات من الضيافة الوطنية . (يتبع)

الرئيس

- ٦ -

ثالثا - عن استراتيجية مصر في هذه المرحلة

ان الهدف الاستراتيجي الذي يتحمل المسئولية الحيفاسية في اعطائه للقوات المسلحة المصرية .. وبذلك اساس كل ما صنعت ونمذت من اوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلي :

تهدي نظرية الامن الاسرائيلي وذلك عن طريق عمل حرب الطائمان القوان المكي عسكري (يكون هدفه الحاق اكبر قدر من الدمار بالعدو واقتناعه انه مواصلة احتلاله لارضينا بفرض عليه شمنا لا يستطيع دفعه .. وبالتالي فان نظريته في الامن - على اساس التخويف النفس والسياس والعكرى - ليس درعا من التلداد يحميه الان او في المستقبل .

واذا استطعنا بتجاه ان تهدي نظرية الامن الاسرائيلي فان ذلك سوف يودي الى نتائج مبدقة في المدى القريب وفي المدى البعيد .

(يتبع)

في المدى القريب : فان تهدي نظرية الامم
الامرائيلي يمكن أن يصل بنا الى نتائج مدهشة تجعل
في الامكان ان نصل الى حل مشرف لازمة الشرق الاوسط .
وفي المدى البعيد : فان تهدي نظرية الامم
الامرائيلي يمكن ان يحدث متغيرات تودي بالتراكم الى
تغيير اساس في فكر العدو وتلميحه ونزعاته العدوانية .

رابعا - عن الخوفا

ان الوقت من الان ، ومن وجهة نظر سياسية
ملائمة كل الملائمة لمثل هذا العمل الذي اشرت اليه
في حالنا من هذا الدوجيه .

ان اوضاع الجبهة الداخلية واطلاع الجبهة العربية
العامه بما في ذلك التضييق الدقيق على الجبهة الشمالية ،
واوضاع المصراع الدولي تعطينا من الان حرية مناسبة
للسدد .

(يتبع)

ومع العزلة الدولية للعدو . . ومع العدو
الذي يسود عنده بنزاعات الانتخابات الدورية
وصراعات الشخصيات - فان احتمالات الدرجة المناسبة
تصبح اخبر امامنا .

رئيس الجمهورية
العماد
الحسين

المحرر
• رمضان ١٤٩٤
اول الغرب ١٩٧٤

برقية

رقم ٢٠ بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٧٣

الى الرئيس حافظ الاسد

توجيه امراءتي من رئيس الجبهة الوطنية

والثوارات السوريات

الى : الرئيس اهل
احمد اسدي

وزير الحربية والنائب العام والقوات المسلحة

١- بناء على التوجيه السياسي الصادر كتم من
في اول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الشروط الميمنة بالوقت
السياسي واليد استراتيجي :

قررت تكليف القوات المسلحة بتفيذ الواجب التراتبي في
٢- انزال الجبهة السورية الى كبر وقت المهره لانه واعتبارا من
يوم ٠٦ أكتوبر ١٩٧٣

يتم تكليف السيد اكرم خضير مكنة في هذه المهره لانه
من المهن على تحرير الارض المحتلة من قبل
القوات المسلحة السورية

٣- اخذ هذه الواجبات من القوات المسلحة السورية
القوات المسلحة السورية

السيد
الاسدي

رئيس الجبهة الوطنية

١٩٧٣/١٠/٢٠
٢٠ أكتوبر ١٩٧٣

١٩٧٣/١٠/٢٠

لقد حاربنا اسرائيل الى اليوم الخامس عشر . وفي الاربعة
الايام الاولى كانت اسرائيل وحدها فتشتنا موقعها في الجبهة
المصرية والسورية ومقتلهم باعترافهم ٨٠٠ جبهة على
البيجين واكثر من مائتي طائرة .
اما في العشرة الايام الاخيرة فاننا في الجبهة المصرية
أحارب امريكا بأحدث ما لديها من طلعة . اننا بمساعدة لا نستطيع
ان احارب امريكا او ان نعمل المشولية الثوارية لتدمير
قواتنا المسلحة مرة اخرى .
لذلك فاننا نخطرت الاتحاد السوفيتي باننا في الجبل ولك اطلاق
النار على الخطوط العالمية بالشروط التالية :
١- ضمان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لانحساب اسرائيل
كما عرض الاتحاد السوفيتي .
٢- بدء مؤتمر سلام في الأمم المتحدة للاتفاق على شروط شاملة
كما عرض الاتحاد السوفيتي .
ان تلقى لقطر دما واما نخطرت بهذا ولكنني احس ان
مستوليتي تعتم على اتخاذ هذا القرار . ولست اواجه تمييزا
وامتنا في الوقت المناسب لكن بخاصتي الشعب .
مع اطيب تمنياتي .

**خطاب الرئيس
السادة في الكنيست
(٢٠-١١-١٩٧٧)**

**السيد الرئيس
أبا السيدات والسادة
السلام عليكم . ورحمة الله
والسلام لنا جميعاً .**

السلام لنا جميعاً . على الأرض العربية وفي إسرائيل . وفي كل مكان من أرض هذا العالم لكم المقدس بصراماته الدائمة ، المضطرب بتألقاته الحادة ، الهدهد بين الجبن والحبس بالحرور المبررة . تلك التي يصنعها الإنسان ليفتح بها على أخيه الإنسان وفي المساء ، بين أقطار ما بين الإنسان وبين الإنسان الصغار من بين الإنسان ، فلا غالب ولا مغلوب ، بل إن المطلوب الحقيقي دائماً هو الإنسان . أرق ما خلقته الله . الإنسان الذي خلقه الله - كما يقول الحاخامات فيس السلام - لكي يسي على قدميه ، بين المياه . وبعد الله .

وقد جئت إليكم اليوم على قمتين إيتين ، لكي أبقى حياة جديدة لكي نقيم السلام وكذا على هذه الأرض ، أرضي الله ، كلها صلوات وسليمان ويسود . نريد الله ولا مشترك به كجاء . ونعالم الله . ووصاياه . هي حب وصدق وطهارة وصلاح .

وإني أقسم القدر لكل من يستقبل قرارى عندما أعلنت هذا كله ، أمام عيني الشعب المصري ، بالشفقة ، بل بالدور بل أن البعض قد صوّرت له الحقيقة المنيعة أن قرارى ليس أكثر من متدولة كلابية للاستيلاء أمام الرأي العام العالمي . بل وصفه بعض كثر بأنه تنكيت سياسي لكي أبقى به لثباتي في شئ حرب جديدة .

ولا أتمنى عليكم أن أحد مساعدتي في مكتب وليس المجهورية العمل في ساحة متحرة من النيل يحد عروق إلى نبي من مجلس الشعب ، ليأني في قلق . ومما جعلني لا سيادة الرئيس لو . وجهت إليك إسرائيل الدعوة فلا فاجت بكل حدود . سألها على الفور .

قد أمنت أنني سأذهب إلى كبر العالم - سادعي إلى إسرائيل لأنني أريد أن أخرج الحقائق كمنصة أمام شعب إسرائيل - إلى أقصى الشرق من أذنه القرار . أو تشكك في سلامة التولية وراه إعلان قرارى لم يكن أحد يصور أن رئيس أكبر دولة عربية ، تتحمل العبء الأكبر والمستولية الأولى في قضية الحرب والسلام . في منطقة الشرق الأوسط يمكن أن يرضى قراره بالاستعداد إلى التعاطي إلى أرض الخصم . ونحن لا نزال في حالة حرب . بل نحن جميعاً لا نزال نحمل من آثار أربع حروب قاسية خلال ثلاثين عاماً ، بل أن أسوأها حرب أكتوبر ٧٣-٧٤ نزال عيش تأسى القرمل وقد أليسا واستشهاد الأبد والأخوات .

كما سبق أن أعلنت من قبل في أتلون في هذا القرار مع أحد من ملاقي وأخوتي رؤساء الدول العربية ، أو دول الوصاية . ولقد افترض من اتصال في منهم بعد إعلان قرار . لأن حالة تلك الكائنة . وقدما تلك الكائنة . بين الدول العربية والغرب الفلسطيني من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى . لا يزال هناك في كل القوم ونحن أن أثيراً طويلاً كان يمكن أن يجل فيها السلام ، قد جاءت منى . في خلافات ومتناقضات لا حائل لها حول إجراءات عقد مؤتمر جنيف ، وكلها غير من الشك الكامل . وقدما تلك الكائنة .

والكنى - أصغر حكمه يقول بكل الصدق أنني شفت هذا القرار بعد حكر طوي . وأنا أعلم أنه خاطرة كبيرة ، لأنه إذا كان الله قد كتب في قدرى أن أجول المستولية من شعب مصر . وأن أشرك في مستولية المصري بالنسبة للشعب العربي والغرب فلسطين . فإن أول وأصعب هذه المستولية أن أشهد كل قسلي ، لكي أضيف شعب المصري الشرق . وكل الشعب العربي . وسيلات حروب أخرى عظيمة . مفرقة . لا يمل مداعماً لا الله .

وقد اقتضت بعد تفكير طويل ، أن أمانة المستولية أمام الله ، وأمام الشعب ، تعرض على أن أذهب إلى كبر مكان في العالم . بل أن أضر إلى بيت القدس ، وأحاط بأشياء الكنيست مثل شعب إسرائيل بكل الحقائق التي تحدث في نفسي ، وأترككم بعد ذلك لكي تفروا لأعصم ولتفعل الله بما يحد ذلك ما يشاء .

أبا السيدات والسادة :
إن في حياة الأمم والشعوب عظمتها تبين فيها على هؤلاء الذين يتصلون بالحكمة والروية الثابتة أن يتفروا إلى ما وراء الماضي بتجديده ورواسب من أجل العلاقة جسورة نحو أفاق جديدة .

وهؤلاء الذين يتحملون طائفة تلك المستولية الملقاة على عاتقهم هم أول من يجب أن تعرف لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات الصعبة التي تطلب مع جلال الموقف . ويجب أن ترتفع جميعاً فوق جميع صور التعصب وطقوس حسد النفس وفوق تعقيدات الصقور الجارية في الملم ألا تنسى أبداً أن المصداقة وحده وإذا قلت أنني أريد أن أذهب كل الشعب العربي ويلات حروب جديدة مفرقة ، فإني أظن أنكم بكل الصدق ، إنني أصغر نفسي للشاعر وأصغر نفس المستولية لكل إنسان في العالم وبأننا كيد نحو الشعب الإسرائيلي .

شعبة الحرب : الإنسان .
إننا نروح التي تروح في الحرب ، هي روح إنسان ، سواء كان عربياً أو إسرائيلياً . إن الروحية التي ترمحل . هي إنسان من شعبنا أن تعيش في أسرة مسيلة سواء كانت عربية أو إسرائيلية .

إن الأطفال الأبرياء الذين يفسدون رعاية الآباء وعظمتهم هم أفعالنا جميعاً . على أرض العرب ، أو في إسرائيل لهم عينا المستولية الكبرى في أن نوفر لهم الحاضر الحلال . ولقد الجليل .

من أجل كل هذا ، ومن أجل أن نحس حياة أبنائنا وأسراننا جميعاً . من أجل أن نتبع جميعاً ، وهي أمة مسيلة . من أجل تصور الإنسان وبعده وإعطائه حقه في الحياة الكريمة ، من أجل مسئوليتنا أمام الأجيال المقبلة . من أجل بسطة كل طفل يولد على أرضنا .

من أجل كل هذا أقلت قرارى أن أضر إليكم - رغم كل المخاطر - لكي أقول كلمتي .

ولقد تحدثت وأصغر مطالبات المستولية التاريخية من أجل ذلك أعلنت من قبل ومنذ أعوام وبالتحديد في ٢ فبراير ١٩٧١ ، أنني مستعد لتوقيع اتفاق سلام مع إسرائيل ، وكان هذا هو أول إعلان يصدر من مسئول عربي منذ أن بدأ الصراع العربي الإسرائيلي وبكل هذه الشوائب التي تفرضا مسئولية القيادة أعلنت في السادس عشر من أكتوبر ١٩٧٣ وأمام مجلس الشعب المصري ، الدعوة إلى مؤتمر دولي يتفرد فيه السلام الدائم الدائم .

ولم أكن في ذلك الوقت في وضع من يستجدي السلام ، أو يطلب وقت التار . وهذه الأوضاع كلها ، التي يلزم بها الواجب التاريخي والقيادي ، وقمنا اتفاق ذلك الانتك الأول . ثم اتفاق ذلك الانتك الثاني في سيناء . ثم معينا تطرق الأكراب المفتوحة والمعلقة لإيجاد طريق مبن نحو سلام دائم عادل وفتحاً قلوبنا لشعوب العالم كله لكي نتفهم دوافعنا ، وأهدافنا ، ولكن نتفهم فعلاً أننا دعاة سلام ، وصانع سلام .

وبهذه الشوائب كلها ، غررت أن أضر إليكم ، بقل مقصوح وقلب مفتوح وذاكرة واعية ، لكي نقيم السلام الدائم القائم على العدل .

وشامت المقامير أن نحس رحمتي إليكم ، رحلة السلام ، في يوم العيدة الإسلامي الكبير عيد الإقصي المبارك عيد الشفاعة والشفاء . حين أسأل ليراهيم عليه السلام ، جد العرب واليهود أول حين أمره الله ، ونوجه إليه بكل جوارحه لا من ضعف بل من قوة روحية هائلة وعن إيمان حر فتصحية بطله كبد بدافع من إيمانه الراسخ الذي لا يترجح بقل علياً نعلي الحياة بقرى حبيداً ولعل هذه المصادقة تحمل معنى جديداً ، في لفراسة جديدة ، لعله يفسح أملاً حقيقياً في تانيم ألس والأمان والسلام .

أبا السيدات والسادة :

دعونا نتصارح ، بالكلية المنظمة ، والفكرة الواضحة التي لا تحمل أي اللو . دعونا نتصارح اليوم والعالم كله بقره وشرق يتابع هذه العظمتات العريقة . التي يمكن أن تكون نقطة تحول جذري في مسار التاريخ في هذه المنطقة من العالم . إن لم يكن في العالم كله .

دعونا نتصارح ونحن نجيب عن السؤال الكبير : كيف يمكن أن نحقق السلام الدائم الدائم .

لقد جئت إليكم أحمل جوابي الواضح الصريح على هذا السؤال الكبير ، لكي يسمه الشعب في إسرائيل ، ولكي يسمه العالم أجمع ، ولكي يسمه أيضاً كل أولئك الذين تعمل أصوات دعوات أصواتهم المعلقة إلى أدنى . أملا في أن تتحقق في النهاية التطلع التي يرجوها الملايين من هذا الاجتماع التاريخي . ونقول أن أعان لكم جوابي ، أرجو أن أؤكد لكم ، أنني أعتقد في هذا الجواب الواضح الصريح ، على عدة حقائق لا يهرب لأحد من الاعتراف بها :
- الحقيقة الأولى : أنه لا مصادمة لأحد على حساب شعب الآخرين .
- الحقيقة الثانية : أنني لم أتعهد ، وإن أجبحت بلعيني ولم أتعلم وإن أتعلم يسلمين ولست أتعلم مع أحد . إلا بلغة واحدة ، وسبغة واحدة ، ووجه واحد .

- الحقيقة الثالثة : إن المواجهة المباشرة وأن الخط المستقيم هما أقرب الطرق وأجملها للوصول إلى الهدف الواضح .
- الحقيقة الرابعة : إن دعوة السلام الدائم الدائم ، التي على احترام قرارات الأمم المتحدة ، أصبحت اليوم دعوة العالم كله ، وأصبحت تعبيراً واضحاً عن إرادة المجتمع الدولي ، سواء في العواصم الرجعية التي تصنع السياسة وتسطط القرار ، أو على مستوى الرأي العام العالي الشعبي . ذلك الرأي العام الذي يتر في صنع السياسة واتخاذ القرار .

- الحقيقة الخامسة : ولعلها أبرز الحقائق وأوضحها أن الأمة العربية لا تتحرك في شعبنا من أجل السلام الدائم الدائم ، من موقع ضعف أو إعتزاز ، بل إنما على التمكن تماماً تفهم من مقومات القوة والاستقرار ما يجعل كلمتها نابعة من لإرادة صادقة نحو السلام . صادرة عن إدراك حضاري بأنه لكي تنجب كبراً عظمتها ونبينا وعظمتكم وعلى العالم كله ، فإنه لا يتبدل من إقرار سلام عادل ، لا تترجمه الأشرار ولا تعيث به الشكوك ، ولا يزدوره المفسدون أو التواء التوايا .

من واقع هذه الحقائق ، التي أريد أن أصغركم في صورتها ، كما لو أنها أرجو أيضاً أن أحرككم بكل الصدق ، أحلمكم من بعض الخواطر التي يمكن أن تطرأ على أذهابكم .
إن واجب المصداقة يقتضي أن أقول لكم ما يلي :

أولاً : إنني لم أجيء إليكم لكي أقعد ألقائاً مقسوداً بين مصر وإسرائيل . ليس هذا ولماذا في سياسة مصر ، فليت المشكلة هي مصر وإسرائيل ، وأي سلام يتفرق بين مصر وإسرائيل أو بين أية دولة من دول المواجهة وإسرائيل فإنه لن يقيم السلام الدائم الدائم في المنطقة كلها ، بل أكثر من ذلك ، فإنه حتى لو تحقق السلام بين دول المواجهة كلها وإسرائيل ، بغير حال المشكلة الفلسطينية فإن ذلك لن يحقق أبداً السلام الدائم الدائم الذي يلح العالم كله اليوم عليه .

ثانياً : إنني لم أجيء إليكم لكي أسي إلى سلام جزئي ، يعني أن نبقى حالة الحرب في هذه المرحلة . ثم نرحب المشكلة رسمياً إلى مرحلة ثانية .

فليس هذا هو الحل الجذري الذي يصل بنا إلى السلام الدائم . ويرتبط بهذا أنني لم أجيء إليكم ، لكي نتفق على نص لإشراك ثالث في سيناء أو في سيناء والجولان والضفة الغربية . فإن هذا يعني أننا نؤجل فقط إشتمال التليل إلى أي وقت مضى .

بل هو يعني : أننا نغفل شجاعة مواجهة السلام ، وإننا أضعف من أن نتحمل أعباء واستمرارية السلام الدائم الدائم .

لقد جئت إليكم ، لكي نبقى معاً ، السلام الدائم الدائم حتى لا نراق نقطة من ماسعة من جسد عربي أو إسرائيل . ومن أجل هذا أعلنت أنني مستعد أن أذهب إلى كبر العالم .

وهذا يعود إلى الإجابة على السؤال الكبير : كيف نحقق سلام دائم بدون ه في رأي . . . وأنها من هذا الغير كلام كله . أن الإجابة ليست مستحبة ولا هي البصيرة على الرغم من مرور أعوام طويلة . من ثار لهم . والأخفاء والكراهية . ونشئة أجيال على القطيعة الكائنة والشفاء المتحكم . الإجابة ليست حيرة ولا هي سلبية . وإذا طرف سيق الخط المستقيم بكل الصدق والإيمان .

أتم تربيون العيش صفا في هذه المنطقة من العالم . وأنا أقول لكم بكل الإخلاص : إننا نرحب بكم . بكل أدمي . الأمان . إن هذا قد فانه بشكل خطه تحول هائلة . من علامات تحول تاريخي حاسم . لقد كنا نرضيكم ، وكانت لنا أساليب ودعوات . مع . لقد كنا نرفض الاجتماع بكم . في أي مكان . مع . لقد كنا نضعكم بإسرائيل المرحومة . مع . لقد كنا نهممنا المؤتمرات أو التفتتات العريقة . وكان عصر . ولا يزال . لا يتبدلون الشجيرة والسلام . مع .

حدث هذا ولا يزال يحدث . لقد كنا نشترط لأي مباحثات وسبغاً على كل طرف على إجراء . مع . هكذا تحت مباحثات فضي الاشتك الأول . وهكذا أيضاً تحت مباحثات

فضي الاشتك الثاني . كما كان نصيباً أنفوا في مؤتمر جنيف الأول ، دون ثالث كنيسة مشفرة . مع .

هذا حدث . ولكني أقول لكم اليوم ، أظن تمام كله . إننا نقتل بالعيش معكم و سلام دائم وعادل ولا نريد أن نعطكم أو نعطكم بالصور مع استمعة تفتيم أو خلفات الأخفاء والكراهية .

ولقد أعلنت أكثر من مرة . إلى إسرائيل أصبحت حقيقة واحدة أعترف بها العالم . وحملت القوتان العظمتان مستولية لنينا وحياة وجودنا . ولا كما يريد السلام فعلاً وحققاً فإنا نرحب بأن تعيشوا بين أي و سلام فعلاً وحققاً .

لقد كان بيننا وبينكم جدار حاسم مفرغ من سواه على مدى أربع قرن من الزمان ، ولكنه تحطم في عام ١٩٧٣ ، كان جداراً من الحروب شديدة المستمرة في ألقابها ولغاتها .

كان جداراً من التخريف بالقوة القاهرة على إكساح الأمة العربية من أعضائها إلى أعضائها .

كان جداراً من الترويح بأنها تحول إلى جنة بلا حراك . بل أن نركم من قال إنه حتى بعد مضي عشرين عاماً حقيقة ، حتى تقوم الحرب فانه من جديد كان جداراً يهدد دائماً بالتفراج العفوية القاهرة على قوسون إلى أي موقع وإلى أذنه . كان جداراً يملأنا من الإيذاء والقضاء إذا نحن حاولنا أن نستندم هذا المفعوم في تحرير أرضنا المحتلة .

وعطينا أن تعرف صفا ، بأن هذا الجدار قد وقع وتحطم في عام ١٩٧٣ . ولكنني جدار أفسر .

هذا الجدار الأكثر ، بشكل جازعاً نصاً معطاً بينا وبينكم . جازعاً من الشكوك جازعاً من الفسور ، جازعاً من حيلة الدفاع جازعاً من الأوهام حول أي تصرف أو فعل أو قرار ، جازعاً من التفسير الخادر الغامض لكل حدث أو حث .

وهذا الجدار القس هو الذي جرث عنه ، في تصريحات رسمية ، بأنه يشكل سبباً في الماتة من الشككة .

وإني أأسألكم اليوم - يبروني لكم - لسبباً لا أعيداً بصدق وإستفا وإعلاص ، لكي نعلم هذا الجازع صفا ؟

للسلطة لا تلتزم إلا بالعدالة ، بصفاة وإيمان وإخلاص ، لكن تولى بها كل شكوك
الفرقة والظلم والظلمة والفساد وإفساد خلق الرب ؟
لماذا لا تصدىق من يشهد بالبرهان والبرهان ، وبصفاة الأطفال الذين يهون
حاجتهم لغيرهم ؟
لماذا لا تصدىق من يشهد بالشهادة والبرهان ، لكن لم يجرى محاكمة واحدة للسلام
يبنى ولا يهدم . . . يتبع لأجناد القادة أمراء الرسالة الإنسانية لم يهدم والظهور
ورغبة الإنسان ؟
قلنا نورت هذه الأجيال تتابع تلك الدماء . . . ولها في الأرواح ، وفيهم
الأطفال وتزمل الأوجعات ، وعلم الأسر ، وأين الضحايا ؟
لماذا لا تدين بصفة الحقائق لوردها في أمثال سليمان الحكيم :
« قتل في قلب الذين يكرهون في الشر ، أما المشيرون فلهم فرح » .
« قتل في يمينه وسفاهة سلام ، غير من يبت على طوله بالتيار مع الخصام » .
لماذا لا يرددها من مزمار داود في :
« واليه يا رب أصرخ . . . أجمع صوت نفسي إذا استنيت بك ، وأرفع
يدى إلى عرابي مستند ، لا تبتني مع الأشرار . ومع فعله الإثم ، المخاطين
أجمعين بالسلام والفرح في قلوبهم . أعطهم حسب قلوبهم ، وحسب شر أعمالهم ،
أعطهم حسب ما عملوا » .
آية السادة :
الحق أقول لكم أن السلام لم يكن أصلاً على حبس ما لم يكن قاتلاً على الصلابة
وليس على اختلاف أرض البشر .
ولا يسوع أن تطعم الأسماك ما تتركوه على غيركم .
ويكن من سمه . وبالروح التي حدثت في ذلك القديس إليكم اليوم على أقوالكم :
إن حكمكم أن تتصرفوا بآيات من أعمال الشر وأن تتسلطوا أيضاً من الاعتقاد بأن
الفرقة هي خير وسيلة لتصلح مع العرب .
إن طيكم أن تتصرفوا جيداً بروح الوصية بيتا ويحكم على بغيركم فتوسع
تبتاً .
ولكن تكلم بوضوح فإن أرضاً لا تفلح بالمسافة ، وليست عريضة للعدل .
إن أقرب الزماني والزماني خير لك من أن تتركوا القديس بطرس الذي تكلم
في الله بربى عليه السلام ، ولا يملك أنما ولا يملك . أن يشارك من غير واحد
منه . أن أن يملك من أجل العدل والمساواة عليه .
ولكن أقول لكم أيضاً : إن أمثال اليوم الفرصة السانعة للسلام وهي فرصة
لا يمكن أن يجرى عليها الزمان إلا كذا جادين حتى الفصل من أجل السلام
وهي فرصة لم أمتصها أو يمتصها صفوف كحل بالخير عليها . كنت
الإنسانية وكنت أفتح .
ما من سلام بالتب إلى إسرائيل ؟ أن تعيش في المنطقة مع جيرانها العرب . . .
في حين وإبستان .
هذا سؤال أقول له نعم .
أن تعيش إسرائيل في جودها . كنت من أن عدوان .
هذا سؤال أقول له نعم .
أن تعيش إسرائيل على كل أنواع الصلابة التي ترميها لها هاتين الحقيقتين
هذا سؤال أقول له نعم .
بل إننا نحن هنا نطلب على الصلابة الدولية التي تصورها ونحن نترجمها
إن .
لكن إننا نطلب على الصلابة التي تصورها من القوانين الطبيعية . أو من إيمانها .
أو من أخلاقها ، أو من ضميرها .
ولقد تأملنا بكن الوضع أننا نأخذ على الصلابة التي تصورها لنا في المقابل .
متأخرون عن الصلابة .
خلاصة القول بأن عدداً من : ما من السلام بالنسبة لإسرائيل ؟
يكون الرد من أن تعيش إسرائيل في جودها مع جيرانها العرب . أو أن أمن
وأننا نرى إيمان كل من تصديق من صيانتها يحصل عليه الطرف الآخر .

ولكن كيف يتحقق هذا ؟
كيف يمكن أن تصل إلى هذه النتيجة لكن تصل بها إلى السلام الدائم الدائم ؟
هناك حقائق لا بد من مواجهتها بكل شجاعة ووضوح .
مثلاً أرض حرية اختياراً . ولا زال تحتها . إسرائيل بالقوة المسلحة ونحن
نصر على تحقيق الإنجاب الكامل فيها بما نألفه للفكر العريضة . القدس التي
سقطت إليها باعتبارها مدينة السلام .
والتي كانت وسوف تظل على الدوام التجسيد الحي لتعايش بين المؤمنين
بالحقائق الثلاث .
وليس من المقبول أن يكرر أحد في الوضع الخاص للدين في إطار
العلم أو التوسع وإنما يجب أن تكون مدينة حرة مفتوحة لجميع المؤمنين .
وأهم من كل هذا فإن تلك المدينة يجب ألا تفصل عن هؤلاء الذين اعتكفوا
منها ومتمتعاً لعدة قرون . . . وبهذا من إيقاف الحروب الصليبية فلنا يجب أن نحى
روح محسن من الحطاب وصلاح الدين . أي روح التسامح وإحترام الحقوق .
إن دور المادة الإسلامية والمسيحية ليست مجرد أمكن لأداء الطرائق والشعائر
بل إنها تقوم شامداً على وجودها الذي لا يقطع في هذا المكان سياسياً وروحياً
وذكراً .
وهذا . . . فانه يجب ألا ينحصر أحد لتدبير الأهمية والإجلال الذين يكتسبهم للدين
نحن معشر المسيحيين والمسلمين .
ودعوني أقول لكم بله ألقى تردد التي لم أسمع إليكم تحت هذه القبة لكن
تقدم رجاء أن تكونوا منكم من الأرض الفتنة . إن الإنجاب الكامل من الأرض
الغربية الفتنة بعد 1947 أمر بعيد لا يتقبل فيه الحد ولا رجاء فيه لأحد أو
من أحد .
ولا ينبغي لأي حديث من السلام الدائم الدائم ولا معنى لأي عسوة لقوانين
حياتها معاً في هذه المنطقة من العالم في أمن وأمان وأتم تحلوا أرضاً حرية
بالقوة المسلحة وليس هناك سلام يستقيم أو يبقى من إحتلال أرض الغير
لهم .
هذه بداية لا تقبل الجدول والثبات إذا خلعت الثوابا وصفت النضال لإقرار
السلام الدائم الدائم ولكن الأجيال من بعدنا .
أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فليس هناك من ينكر أنها جوهر المشكلة كلها
وليس هناك من يخل اليوم في العالم كله شعائر رفعت هنا في إسرائيل تتجاهل
وجود شعب فلسطين بل وتسلط أين هو هذا الشعب ؟
إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم
موضع تمهل أو ينكر من أحد . بل لا يخلل عقل يفكر أن تكون موضع تمهل
أو إنكار . إنها واقع استقبله المجتمع الدولي طرماً وشرفاً . بالتأييد والمساندة
والإعتراف في موافق دولية وبيانات رسمية إن يحد أحد أن يضم أداته عن جوبا
الممنوع ليل يجر أو أن يفضي عليه عن تحقيقها التاريخية وحتى الولايات المتحدة
الأمريكية حليفكم الأول التي تحمل قبة الالتزام لحمايتها وجسود إسرائيل
وأمنها والتي قامت . وتقدم إلى إسرائيل . كل عون مادي ومادي وعسكري .
أقول حتى الولايات المتحدة أختارت أن تترجمه الحقيقة والواقع وأن
تعترف بأن شعب فلسطين حطوا مشروعة وأن المشكلة الفلسطينية من قلب
الصراع وجوهراً وهذا بقت مفتحة دون حل فإن الصراع سوف يتزايد ويتصاعد
لذلك أجدداً جديدة ويمكن الصلح أقول لكم إن السلام لا يمكن أن يتحقق بغير
فلسطين . وأنه لحظاً بسيط لا يلزم مداه أبعد أن نفس الطرف من تلك القضية
أو أن ننسها جانباً .
ولن أستر في سرد أحداث الماضي منذ صغر وعاد بظهور اثنين عاماً خلعت
فأمر على بيت من الحقائق جيداً . وإذا كنت قد وجدتم المبرر القانوني والأخلاقي
لإقامة وطن قومي على أرض من كنتم مكانكم بلولكنكم أنكم أن تصورها إسرائيل
شعب فلسطين على إقامة دولته من جديد في وطنه .
وحيث نطالب بعض القادة والمثقفين أن يتحل الفلسطينيون من هذا الموقف
الاصم . فإن مداه في الواقع وحقيقة الأمر مداه لا يتحل من مؤامير وعن
كل أمل لهم في المستقبل .

إني أحيي أصواتاً لإسرائيل . . . تأملت بالأحزاب ينفق الشعب الفلسطيني
وجولاً إلى السلام وعيناً له .
ولذلك . فإني أقول لكم آية السيدات والسيدات أنه لا مثيل من وراء عدم
الأحزاب بالشعب الفلسطيني . وحقوقه في إقامة دولته وفي العودة
للدور من العرب بهذه الصفة من قبل . . . حكم . . . ومع حقيقة الوجود
الإسرائيلي وانظر بنا الصراع . من حربه إلى حرب . ومن ضحايا إلى مزيد
من الضحايا حتى وصلنا اليوم . نحن وأنتم . إلى حافة هوية وحياة وكانت مروعة
إذا نحن لم نعزم اليوم معاً فرصة السلام الدائم والدائم .
عليكم أن تواجهوا الواقع بشجاعة كما واجهته أنا .
ولا حل لشكنا أبداً بالمحروب منها أو التمل عليها .
ولا يمكن أن يتفرع سلام بمحاربة فرض أو ضاع ومدة . . . أدار لنا العالم كله
ظلمه . . . وأمن لنمناه الاجتماعي يوجب احترام الحق والحقيقة .
لداخلي للتحول في المنطقة العربية مع الحق الفلسطيني . ولا جلوى من
عقل شعبيات . . . إلا أن تأخر صيرة السلام . . . أو أن يظل السلام .
وكما قلت لكم . فلا سعادة لأحد على حساب شعبه الآخرين . . . كما أن الواجبة
المباشرة والمخط المستقيم ما أقرب الطرق وأجمعها للوصول إلى الهدف الواضح
والواجبة المباشرة للشككة الفلسطينية . . . وهذه الفرصة لمواجهتنا مع سلام دائم
مقابل من في أن تقوم دولتهم .
ومع كل الصعوبات الدولية التي تطرحها فلا يجوز أن يكون هناك خوف من
دولة ولية تحتاج إلى صوة من كل دول العالم لتأييدها . . . وضما تلك أجزائها
السلام قلن توجد يد لتلق بطون الحرب وإذا وجدت قلن بسمع لما صوت .
وأنصروا . سي إنقاذ سلام في حثيف تره لل العالم المتعطش إلى السلام . . .
إنقاذ سلام يقوم على :
أولاً : إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية التي احتلت في عام 1967 .
ثانياً : تحقيق الحقوق الأساسية لشعب الفلسطيني وحقه في تقرير المصير
يا في ذلك حقه في إقامة دولته .
ثالثاً : حق كل دول المنطقة في الجيش في سلام داخل حدودها الآتية
والمصونة عن طريق إجراءات يقرر عليها الحق الأمن المناسب لهذه الدولة ،
بالإضافة إلى الصلوات الدولية المتأينة .
رابعاً : تقسيم كل دول المنطقة لإدارة العلاقات فيما بينها حقاً لأهداف ومبادئ
ميثاق الأمم المتحدة ، وبصفة خاصة عدم الانحياز إلى القوة . . . وحل الخلافات
بينهم بالوسائل السلمية .
خامساً : إنهاء حالة الحرب القائمة في المنطقة .
آية السيدات والسادة .
إن السلام ليس توقعاً على مطور محتملة . إنه كتابة جديدة للتاريخ .
إن السلام ليس محاولة في المساواة به الدفاع . من أية شواهد أو لشراة
أطباع . فالسلام في جوهره تضال جبار ضد كل الظلم والشهوت .
ولعل تجارب التاريخ القديم والحديث تعلمنا جميعاً . أن الصواريخ والبوابج
والأسلحة النووية لا يمكن أن تنه الأمن ولكنها على العكس تعظم كل ما يليه
الأمن .
وعيناً :
من أجل شعوبنا .
من أجل حضارة صناعية الإنسان ، أن نحس الإنسان في كل مكان . . . من
سلطان قوة السلاح .
علينا أن نحل سلطان الإنسانية بكل قوة القيم واليادى التي نل من مكانة الإنسان .
وإذا سمح لي أن أوجه بديان من هذا المنبر إلى شعب إسرائيل فإني أتوجه
بالكتابة الصادقة القائمة إلى كل رجل وامرأة ومثقل في إسرائيل . . . التي
أحمل إليكم من شعب مصر التي يشارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام .
أصل إليكم رسالة السلام ورسالة شعب مصر التي لا يعرف التصيب ،
والتي يبتلى بأنهم من مسلمين ومسيحيين ويهود وروح العودة والحب والتسامح .

هذه هي مصر التي حطت شعباً لحياة الرسالة المقدسة . رسالة الأمن
والأمن والسلام .
فإني أرى رجل وامرأة ومثقل في إسرائيل شعوراً فداكم على لشك السلام .
وتسعة اليهود إلى يد صراع شامخ سلام . بخلا من ياء السلاح والحق المحصة
بصواريخ الدمار .
لقدوا شعاراً كله . صورة الإنسان الجديد . في هذه المنطقة من العالم . لكن
يكون دولة لإنسان مصر . . . إنسان سلام في كل موقع ومكان .
بشرنا أبادكم . أن ما مضى . هو لشر الحروب وبنية الآلام وإن ما هو
قادم هو الحياة الجديدة . حياة المجد حياة الحب والخير والحرية والسلام
وبما أنها الأم شكل .
وبما أنها الزوجة المرمزة .
وبما أنها الأم التي قد الأخ والأب .
يا كل شعبا الحروب .
امضوا الصدور والقلب . بآمال السلام . . . أخطوا الاستودة حقيقة تعيش
وتتسر . . . أخطوا الأمل دستور عمل والسلام . . . ولذا الشعب من من يراة
له .
آية السيدات والسادة .
قل أن أصل إلى هذا المكان . ترحبت بكل لغة في قتي . ويمكن حلقة
في صبري . إلى الله سبحانه وتعالى . وأنا أرى صلاة اليدي في السمك الأقصى
وأن أروى كيسة القيامة توجهت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء أن يهبس القوة
وأن يترك بلين إيمان بأن الحق على الزيادة أعدائها التي أرحبها من أصل
حاضر سعيد . ومتسلل أكثر سعادة .
لقد أتممت أن أخرج على كل السواقي ونفاد إلى عرشها شوق التحلية .
ورغم أن إحتلال الأرض العربية لا زال قائماً . . . إلا أن إيمان من إسماعلي
المعصود إلى إسرائيل حياها كدوى عزت كثير من المشاعر . وأدعت كثير من
الظهور . بل شككت في توليدها بعض الآراء . به رغم كل ذلك فإني استطعت
القرار بكل صفاء الإيمان وطهارته وبكلى شعير الصادق من في أمة شمس وعوايه
وانتشرت هذا الطريق الصعب . بل أنه في خطر الكثير أصعب طريق .
أخبرت أن أحضر اليكم . بالقلب الفرح والسر الفرح .
أخبرت أن أصلي هذه الدعوة لكل اليهود العالية المبصرة من أجل السلام .
وانتشرت أن أقدم لكم . ولـي بكم . أختاف المبررة عن الأخراض والأهوار .
لا لكي أأروى .
ولا لكي أفسد بركة . أخطو المولات والدارك في خارج الدمار .
معركة السلام الدائم والدائم .
إنها ليست معركة فقط . ولا هي معركة القيادات فقط . في إسرائيل .
ولكنها معركة كل مواطن على أرضاً جسيماً . من حقه أن يعيش في سلام . . .
لها الزمان القصير والمثيرة في قلوب الملايين .
ولقد تأملنا الكثيرون . عندما طرحت هذه المبادرة من تصوري لما يمكن
إيجازه في هذه الزيادة ونوكلنا منها .
وكما أجيبت السائلين . فإني أتمنى أياكم أني لم أفكر في القيام بهذه المبادرة
من حقل ما يمكن تحيته أنه الزيارة وأنا جئت هنا لكي أبلغ رسالة ألا على
بقت القوم قائم .
اللهم اني أردد مع زكريا قولك : لعبراء الحق والسلام .
واستلم آيات الله العزيز الحكيم حين قال : « قل كذا بك وما أزل عليها
وما أزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويصوب والأبساط وما أزل يوحنا
وعيسى واليونس من دهم . لا عرق بين أحد منهم . ونحن لا نسلموناه .
والصدق الله العظيم » .
والسلام عليكم .

فصول الكتاب

الفصل الأول :

من ميت أبو الكوم إلى سجن الأجانب ٩

الفصل الثاني :

نحو تحرير الأرض ٥٣

الفصل الثالث :

نحو تحرير الذات « الزنانة ٥٤ » ٨٣

الفصل الرابع :

العمل من أجل قيام الثورة ١٠٧

الفصل الخامس :

الثوار يحكمون ١٢٩

الفصل السادس :

عجز القوة « مصر في حكم عبد الناصر من يوليو ٥٦ إلى يونيو ٦٧ » ١٥٥

الفصل السابع :

فترة إنتقالية « الكفاح من أجل البقاء » ١٩٥

الفصل الثامن :

الثورة الثانية ٢١٨

الفصل التاسع :

حرب أكتوبر ٢٤٥

الفصل العاشر :

الطريق إلى السلام ٢٨٢

وثائق ٣٢٩

رقم الإيداع ٧٨ / ٢١٤٥
الترقيم الدولي ٦-٧٠-٧٠٤٩-٧٧٧ ISBN